السَّلامُ المَفقُود

عهدُ الياس سركِيس

١٩٧٦ - ١٩٨٢

كريم بقرادوني

إنتهى الأمر ...

ليل الرابع عشر من ايلول ١٩٨٢ سمعت رجلاً يبكي : انه الرئيس الياس سركيس . لم يشأ ان يتسلم مباشرة مكالمتي الهاتفية ، وكأنه أدرك بحدسه انني سأنقل اليه نبأ وفاة بشير الجميّل ، فأوعز الى جوني عبده بالرد عليّ .

تجمدت شفتاي ، وتعمدت أن لا أتفوه بكلمة « لقد مات » فتمتمت بصوت أبح : « انتهى الأمر » . بادرني جوني ملهوفاً : « هل رأيت الجثة ؟ » أجبت : « نعم » . سمعت الرئيس يلح قائلاً : « اسأله هل شاهده هو بالذات » . فردّدت قولي : « نعم أنا رأيته بعيني . انه الآن في مستشفى اوتيل ديو . لم يعد لنا رئيس منتخب للجمهورية » . وبعد صمت تخيلته دهراً سمعت الرئيس اللبناني يبكي فأقفلت الخط .

للمرة الأولى يُغتال رئيس لبناني ، قبيل أيام معدودة من مراسم التسلم والتسليم . وكانت صدمة الياس سركيس كبيرة بقدر الآمال التي علقها على نجاح خلفه . فقبل دقائق من اتصالي به ، أكد له شاهد عصف بمخيلته الوهم ، انه رأى الرئيس المنتخب يخرج حياً من تحت الأنقاض ، وهو مصاب بجرح طفيف ، وقد تعرف عليه مباشرة . ولكن ما شاهدته شخصياً لا يترك مجالاً للشك . فقد رأيت يد الشهيد مرتفعة من بين الركام تشير الى السماء وهو جثة هامدة . وتعرفت على محبس الزواج السداسي الزوايا الذي كان يضعه في بنصر يده اليسرى .

مساء هذا اليوم عاش لبنان لحظات مأساوية وهو مشدود الى مصير رجل . وكان الشعب لا يريد أن يصدق أن بشير يمكن أن يموت . وحوالي الساعة الخامسة وخمس واربعين دقيقة اجتاحت الجماهير المحتشدة أمام موقع الاغتيال موجة من الفرح العارم وتردّدت في كل مكان صيحات السرور . ولعلعت في الجو طلقات الابتهاج . فقد خيل لبعضهم انه رأى بشير يصعد الى احدى سيارات الاسعاف وهو يبتسم رافعاً يده باشارة النصر .

وقد صدقنا . سولانج الجميل وأنا . هذه التخيلات الجماعية ورحنا نركض من مستشفى الى مستشفى نفتش عن زوجها . وفي أثناء هذا السباق المجنون مع العبث حافظت سولانج على رباطة

جأش قلّ نظيرها . فكانت تتصل بكل المراجع والأشخاص الذين يمكن أن يفيدوها عن مكان وجود بشير ، محاولة اخفاء قلقها ، إلا أنها ، بين فينة وفينة ، كانت تضم يديها الى صدرها مرددة بصوت خافت : «احفظه لي يا رب !» .

ومن مستشفى اوتيل ديو اصطحب أمين الجميل سولانج الى مقر قيادة القوات اللبنانية في حين عدت الى المركز الكتائبي المدمّر كلياً . وكانت عملية رفع الأنقاض مستمرة تحت أضواء المصابيح الكهربائية المسلطة من جهات عدة على مكان الانفجار . ووقفت مع رفاقي انتظر دون أمل . وعند الساعة التاسعة والدقيقة العشرين انتشل العمال جثة بشير المهشمة والمغطاة بالتراب . وتوجهنا الى مستشفى اوتيل ديو ، ايلي كرامه ، وجورج سعاده ، وجوزف ابو خليل ، وجوزف الهاشم ، وأنا ، لنتثبت من أن الجثة هي جثته . وقد وجدنا في جيبه بطاقة تهنئة بانتخابه رئيساً للجمهورية تتمنى له ... طول العمر .

وأدركنا أن القدر ظالم ، وأن المرحلة الملعونة في لبنان لم تنتهِ بعد . فالشؤم ضرب بقوة ، وقضى حلمنا ضحية الاغتيال . وتوجهنا مسرعين الى مقر القوات اللبنانية . وكان اجتماعنا فيه مختصراً ولائقاً في جو من التجهم الشديد . لم يذرف أحد دمعة في العلن ، مع أن الجميع كانوا ممزقي القلوب ، يعانون أشد الآلام . قرر أمين الجميل أن يقام المأتم في اليوم التالي ، ١٥ أيلول ، في بكفيا . واتخذ فادي افرام ، القائد العام الجديد للقوات اللبنانية ، التدابير المستعجلة ، ووضع الوحدات العسكرية في حالة استنفار . وكان عليّ أنا إبلاغ الرئيس الياس سركيس النبأ المفجع .

في اليوم التالي ، قبل المأتم ، التقيت الرئيس اللبناني في منزله الخاص . كان غارقاً في مقعده كأنه مسحوق تحت وقر الألم . فاذا به في مشهد بالغ التأثير ، فقد بدا مستسلماً للحزن والشقاء . ما كاد يراني حتى قال هامساً : «كان بشير مستعجلاً . كان يريد أن يسير مسرعاً . أحرق كل المراحل ، وانتهى باحراق حياته» . ردّد الرئيس هذا القول خمس مرات أو ستاً ، وكأنه من البديهيات التي فرضها الواقع ، ثم تابع قائلاً : «نصحت بشير مرتين بأن يأتي ويقيم في القصر الجمهوري ، ليقلّل من تعرضه للخطر في تنقلاته الدائمة . ولكنه كان فارغ الصبر . يدفع بالناس والزمان دفعاً . قلت له مرات عديدة ان المستقبل له ، وانه أمامه . لا ، لم يستمع اليّ . ظل يركض كأنه يعلم ان الموت يطارده . كان يعرف ، في أعماق نفسه ، الأخطار التي يتعرض لها ، ولكنه كان يثق بحظه وحسن طالعه . ان موته تجربة قاسية ، كبيرة ، وهي أكبر تجربة يتوجب على لبنان أن يتغلب عليها» .

توقف الرئيس برهة عن الكلام وكأنه عاجز عن المضي في حديثه . فقد اختلط فيه هول الكارثة بالهلع على المستقبل . وأخذ لبنان يواجه من جديد شبح المغامرة والأسود المجهول . وأحس

الرئيس اللبناني بغتة ، اسوةً بجميع اللبنانيين ، انه عاد ضعيفاً وشديد العطب . وما عتم ان استجمع قواه وواصل كلامه قائلاً : « شعرنا مع بشير باننا أقوياء . كان يخيف ويُطَمْئِن في الوقت نفسه . معه تولاني احساس مفاجئ بأن كل شيء يتحسن ، وكل شيء يتجدد . والآن ، ها هي الأشياء تشيخ دفعة واحدة » .

ويتذكر الرئيس اجتماع العمل الأول الذي عقده مع بشير . وكان هذا قد قال له : « سنلتقي مراراً ، وسنعقد اجتماعات عمل عديدة . اني في الرابعة والثلاثين من العمر . ولا ريب في اني شاب يغلي الدم في عروقي . وفي نفسي ميل شديد الى متابعة تحقيق أفكاري الى أبعد من اللزوم . لا أكترث كثيراً بالصعوبات والعقبات . لذلك أود أن ألتمس منك خدمة لم التمسها قبلاً إلا من أبي وحده . فاذا رأيتَ اني أذهب بعيداً ، واني أضيع ، خذ التلفون وقل لي : « يا ابني ، انك ترتكب خطأ » . ثم صمت الرئيس قبل أن يتابع : « صحيح ، مع اني غير متزوّج ، في نفسي شعور باني فقدت اليوم ابني » .

* * *

استمعت بتأثر عميق الى هذا الرثاء البسيط ، الخارج من أعماق القلب ، المتهدّج بالأسى واللوعة . ولكن الرئيس سركيس ، كعادته ، بقي على ما فيه من وعي وصفاء الذهن ، بالرغم من حزنه الطاغي . فالرجل ذو الشعر الأشيب والنظرة المتعبة ، يبدو مرهقاً بالعبء الذي أثقل كاهليه طوال ست سنوات ولايته التي شارفت على مشهدها الأخير .

عرفته متأخراً ، عام ١٩٧٥ ، بعد ان شغل بنجاح مناصب حساسة في الدولة . عينه فؤاد شهاب مديراً عاماً للرئاسة وكلفه الاشراف على اعادة تنظيم الادارة اللبنانية من عام ١٩٥٨ لغاية ١٩٦٤ . وقد أظهر خلال هذه الفترة من الحزم ما حمل كمال جنبلاط على أن يصفه بفظاظة « بالديكتاتور الصغير » . كما أثبت من الجدارة ما جعل الجنرال شهاب يقول فيه مادحاً : « انه أكثر المدنيين عسكرة » . وتحول في عهد شارل حلو ما بين ١٩٦٤ و ١٩٧٠ رمزاً لاستمرار النهج الشهابي . وعين ، عام ١٩٦٧ ، حاكماً لمصرف لبنان ، فتمكن ، خلال سنتين ، من تنقية القطاع المصرفي ، وظل يمارس بكفاءة هذه المهمة الدقيقة حتى تاريخ انتخابه رئيساً للجمهورية ، عام ١٩٧٦ .

كان مقدراً لهذا الاداري الكبير أن يتبوأ المنصب الأول في المحنة . ولو قُدِّر له أن يكون في ظل وضع عادي لكان رئيساً غير عادي ، اذ أثبت تفوقه أيام فؤاد شهاب عندما كانت الدولة حاضرة ، والفدائيون الفلسطينيون لا يتعدون الحفنة من المسلحين ، والجيش السوري لم يكن قد انتشر بعد في

لبنان ، واسرائيل لم تكن تتدخل وعلى نحو عنيف ومكثف . ولكن عند انتخابه رئيساً تسلم سلطة مبعثرة ودولة منهارة ووطناً ممزقاً . لقد شاءت الأقدار أن تصب حممها على هذا الرجل المتعقل والمتوازن والمستقيم فتفجر بوجهه كل أنواع الكوارث والزلازل . وها هو الزلزال الأكبر يحدث قبل أن يسدل الستار على حكمه . ففي حين كان الياس سركيس يستعد لتسليم الأمانة الى خلف اصطدم به في البدء ثم تعاون معه فأحبه كابن في نهاية المطاف ، فان سوء الطالع أراد أن يستشهد بشير الجميل فينهار البناء من جديد .

لقد كان لبنان ، طوال ست سنوات ، على صورة هذا الرجل الذي حكمه : مزيج طموحات وخيبات ، وشكوك وصدمات . لقد بدأ عهده بأمل الخروج من حرب دامت سنتين ، وكاد ينهي ولايته بأمل الوصول الى السلام عبر بشير الجميل . لكن الأمل الأول تحول مأساة . فعانى الياس سركيس على التوالي اهتزازات السلام المفقود وأخطار الحرب المتجددة .

* * *

ساعدني الحظ على أن أكون شاهد عيان على هذه الحقبة وأن أرافق الرئيس سركيس عن قرب . ومنذ البداية ، حرصت على أن ادوّن بانتظام واستمرار ، ويومياً على وجه التقريب ، تفاصيل محادثاتي مع الرئيس اللبناني . استطعت أن أتابع عن كثب علاقاته بالزعماء اللبنانيين وكبار المسؤولين في العالم . قطفت انطباعاته ، وآراءه ، وخصوصاً محاضر زياراته ولقاءاته الأساسية . واشتركت ، على الأخص في اجتماعات عديدة عقدت للتفكير والتخطيط في ما يختص بالعلاقات اللبنانية — السورية ، ولاسيما تطور العلاقات بينه وبين الرئيس السوري حافظ الأسد . وفيما بعد ، وبقدر ما كانت العلاقات السورية — اللبنانية تتوتر ، والمقاومة التي تقودها القوات اللبنانية تتّسع ، شاءت الصدف ان أكون شاهداً عاملاً على التقارب الذي تم بين الياس سركيس وبشير الجميل .

هذا الكتاب هو ، اذن ، شهادة قبل كل شيء ، ومشاركة لانارة شطر من تاريخ لبنان . وللمؤرخين والمحللين أن يستعملوا المعلومات والمعطيات التي يوفرها لهم هذا الكتاب كما يريدون . ولكنه ليس كتاب تاريخ ولا مؤلف تحليل . فلم أورد فيه كل الأحداث متسلسلة ولا كل الآراء . اني توقفت فقط عند الأحداث التي عشت فيها والآراء التي سمعتها مباشرة ، وقد أصررت على نقلها بأمانة وبساطة مشدداً على النواحي غير المعروفة منها أو المعروفة معرفة منقوصة . ولم أرد كتابة سيرة الياس سركيس . فعلى الرغم من انه الشخص المركزي الذي تدور حوله الأحداث فقد نظرت اليه من زاوية منصبه ودوره السياسي لا من زاوية حياته وشخصيته . واذا استثنينا خطبه الرسمية الجامدة والجافة فانه طبّق طوال ست سنوات سياسة الصمت فبقيت أفكاره غير متداولة إلا بين نفر قليل ، وهي جديرة بان يطلع عليها الجميع .

ليست الغاية من هذا الكتاب اذن تدوين مذكرات ، ولا كتابة تاريخ ، ولا تحليل وضع ، ولا تسجيل سيرة ، ولا هي ، على الأخص ، تدبيج مرافعة ، انما هي تقديم وثيقة . وغاية هذه الوثيقة نقل صورة حقبة كما عشتها وعاش فيها أصحابها تماماً . وهذا يعني ، ضمناً ، ان هذه الوثيقة ليست شاملة ولا جامعة . فهي لا تطمح الى الاحاطة بكل شيء بل تركز على تصورات رجل ينظر بموضوعية وفهم الى قضايا لبنان والمنطقة والعالم . لهذا السبب يبدو الكتاب وكأنه حديث مستمر أدلى به الياس سركيس على مدى ولايته . وقد تكون ميزة هذا المؤلف الأساسية انه ينطوي على معلومات ومعطيات ترسم امكانات العمل ، وتطرح الخيارات المتوافرة ، وتتيح تقدير التقلّبات والتحوّلات والاتجاهات حق قدرها .

لقد نقلت أحاديث الرئيس سركيس والعاملين الآخرين على مسرح الأحداث بدون أقلّ تعديل أو تنقيح ، فلم اقتضب التناقضات ولم أحجب الترددات . واكتفيت بوضع هذه الأحاديث في سياقها الزمني . وحرصت على ذكر الأماكن ، والتواريخ ، والمشاركين ، لأبعث الحدث حياً بكل دقة وكل واقعية . وللمقاطع العديدة الواقعة بين مزدوجين قيمة خاصة ، لأنها هكذا وردت ، أو هكذا نُقلت إليّ حرفياً .

لقد وثق بي الرئيس سركيس ثقة تامة مرتين . واني أشكره على ذلك . ففي المرة الأولى أطلعني وبشكل مستمر ومميّز على مجريات الأحداث ، وفي المرة الثانية لم يتدخل في أي وقت وبأية طريقة في وضع هذا الكتاب . فالرئيس سركيس ، ومثله الاشخاص الآخرون ، لن يعلموا بمحتويات هذا الكتاب إلا بعد صدوره .

هذا المؤلف لا يعكس رؤياي ، ولا رأيي ، ولا تحليلي . لكنه يحاول أن يعرض حقبة ولاية الياس سركيس كما نظر اليها الياس سركيس بالذات وكما عشتها شخصياً . وهذه الحقبة نفسها يمكن أن تعرض تحت منظار آخر فتتخذ عندئذ ، وعلى الفور ، منحى آخر ومعنى آخر . كل ما أرجوه أن ينير هذا الكتاب ظلمة الحاضر وأن يساعد على ترقب المستقبل كيلا يفوتنا السلام الذي طالما يشتاق اليه اللبنانيون ويحتاج وطني إليه .

الجـزء الأول

الأمــل

كان الياس سركيس ، طوال مدة حملته الرئاسية عام ١٩٧٦ ، واثقاً بالفوز ، على عكس عام ١٩٧٠ عندما خسر أمام سليمان فرنجية بفارق صوت واحد . وكثيراً ما كان يردد : « في العام ١٩٧٠ ، كنت أشعر أني لن أفوز ، على الرغم من كل الأوراق الرابحة التي كانت في يدي ، أما هذه المرة ، فعلى الرغم من كل العقبات ، أشعر بأني سأربح » . وأخيراً ، في أيار ١٩٧٦ ، أنتخب رئيساً للجمهورية اللبنانية ، في الثانية والخمسين من العمر ، بتأييد ستة وستين صوتاً وثلاث ورقات بيضاء وتخلف ثلاثين نائباً قاطعوا جلسة الاقتراع . واذا به رمز الأمل بالسلام في بلد تعصف به الحرب .

جرى الانتخاب الرئاسي تحت طوفان من القنابل . ومنذ اعلان نتيجة الاقتراع ، وجهت القوات المشتركة الفلسطينية والتقدمية نيرانها الى فندق كارلتون ، المقر الموقت للرئيس المنتخب الذي أمضى اليوم الأول بعد انتخابه يتقبل التهاني في ملجأ . وفي المساء ، القى الياس سركيس خطبة وجيزة متلفزة قطعها عطل طارىء على التيار الكهربائي . وكانت لهجته على جانب من الاتزان والرزانة ، خلافاً للخطب الحماسية العنيفة التي كانت تسود المسرح السياسي . وقد بدا رجلاً معتدلاً ، مسالماً وناضجاً . وفي رسالته الأولى الى الأمة ، وضع نفسه فوق المتخاصمين ، ووجه نداء مؤثراً دعا فيه الى وقف القتال حالاً ، والى وفاق وطني ، والى مباشرة تعمير البلاد .

وراح الرئيس المنتخب يحاول الإفادة من مدة الخمسة الأشهر الفاصلة بين انتخابه وموعد تسلمه الصلاحيات الدستورية في ٢٣ أيلول ، فسعى عبثاً الى ايجاد حل للأزمة التي هزت الوطن . وكان يأمل أن تكون فترة الانتظار حافلة بالنشاط والعمل إلا أنه لم يتمكن من تحقيق الانفراج الا في مؤتمر الرياض ، في تشرين الأول ١٩٧٦ ، بعد توليه الرئاسة ، فاستطاع عندئذ أن يضع ركائز حل يقوم عليه السلام . ان الأمل الذي ضاع طويلاً جرت استعادته وان تكن لمدة محدودة .



الفصل الأول

خمسة أشهر انتظار

عهد اليّ الياس سركيس ، بعد انتخابه بأيام قليلة ، بمهمة في دمشق ، بصفة ممثل شخصي . وقد أطلعني على برقيتي التهنئة اللتين تلقاهما من الرئيسين السوري والسوفياتي ، حافظ الأسد ونيقولاي بودغورني ، ثم عرض خطته للسلام التي تتمحور حول عنصرين أساسيين : على الصعيد الوطني المصالحة بين المسلمين والمسيحيين ، وعلى الصعيد الاقليمي المصالحة بين مصر وسوريا . وتلخص وجهة نظر الرئيس بأن المصلحة الوطنية تفترض ، بالدرجة الأولى ، التفاهم بين كمال جنبلاط الزعيم الأبرز في الطائفة الدرزية ومؤسس الحزب التقدمي الاشتراكي ، وبيار الجميل الرئيس الأعلى لحزب الكتائب اللبنانية وقائد الطائفة المارونية . أما المصالحة المصرية السورية ، فيرى انها المقدمة الضرورية لكل اتفاق بين سوريا والمنظمات الفلسطينية .

كان واثقاً بأن الظروف ستتيح له عرض رؤيته للحل على القيادات المعنية . فمدّ يده الى كمال جنبلاط وخلق قاعدة ثقة مع حافظ الأسد وزار القاهرة وفاوض ياسر عرفات . لقد وعى الرئيس في كل محاولاته التوفيقية مدى ثقل سوريا في لبنان .



١ ـ موفد إلى دمشق

أستدعاني الرئيس سركيس في ١٤ أيار ١٩٧٦ الى منزله ليشرح لي مهمتي في سوريا بحضور فؤاد بطرس وزير خارجيته المقبل. فأطلعنا على خطته للسلام التي تتألف من مرحلتين. تقضي المرحلة الأولى بالطلب الى جميع المقاتلين، بمن فيهم المنظمات الفلسطينية، أن يعلنوا رسمياً وجهاراً نهاية القتال، وأن يتعهدوا بحل النزاع المسلح بالحوار السياسي من ضمن احترام الأصول الشرعية والديمقراطية. ويفترض أن تتبنى هذا الاعلان الجبهة اللبنانية (*)، والحركة الوطنية (**) ومنظمة التحرير الفلسطينية (***). وتهدف المرحلة الثانية الى جمع اللبنانيين وحدهم، وبدون مشاركة الفلسطينيين، بغية اجراء الحوار حول الاصلاحات السياسية. ويتعهد المتنازعون مسبقاً بقبول رئيس الجمهورية كحكم مطلق.

وأملى عليّ الرئيس اللبناني، فضلاً عن هذه الخطة للسلام، رسالة شخصية الى الرئيس السوري هذا نصها: «أشكركم على ما أوليتموني من عطف لمناسبة انتخابي. وأحرص على أن أناقش معكم أولاً خطتي للسلام، قبل طرحها على الجهات المعنية. ان امكانات نجاح هذه الخطة ضئيلة، وهذا ما أدركه تماماً. ولكني أعتبر أنه من واجبي أن أقترح حلولاً. إني أتكل عليكم لمساعدتي كي لا أبقى طويلاً مكتوف اليدين، أنظر، متفرجاً، الى اللبنانيين يقتتلون. سأبذل كل ما لدي من وسائل لأوقف المعارك، مهما يكن الثمن». وكأنه أراد أن يصرّ على ما تعنيه مهمتي فأضاف: «يجب أن يفهم الجميع انني لا أستطيع أن أحكم لبنان بنصف اللبنانيين وضد النصف الآخر».

وفي نهاية الاجتماع، لفت الرئيس المنتخب نظري الى أنه لا يستطيع أن يضع في تصرفي لا سيارة ولا طائرة، وأن عليّ أن أتدبر أمري بوسائلي الخاصة للقيام بتلك الزيارة. فوضعت خطة السفر مع محمد الخولي، رئيس استخبارات سلاح الجو السوري، وتقرر أن اسافر متنكراً، أعتمر الكوفية

(*) كانت الجبهة اللبنانية تضم آنذاك سليمان فرنجية، بيار الجميّل، كميل شمعون وشربل قسيس رئيس الرهبانية اللبنانية المارونية.

(**) جمعت الحركة الوطنية حول كمال جنبلاط كل المنظمات والأحزاب اليسارية في لبنان.

(***) تضم منظمة التحرير الفلسطينية مختلف المنظمات الفلسطينية، الا أنها في الواقع تخضع لمنظمة فتح، وهي المنظمة الأقوى التي يتولى قيادتها ياسر عرفات.

الفلسطينية ، من مطار بيروت العسكري ، على طائرة خاصة تأتي لتأخذني ، واتفقنا أن تبقى مهمتي سرية وهكذا بقيت .

بعد يومين ، في ١٦ أيار ، التقيت الرئيس السوري في مقابلة استغرقت ثلاث ساعات . وكعادته بدأ الحديث بالسؤال عن « اخوانه » اللبنانيين ، وهو يذكر منهم دائماً ، أول ما يذكر ، سليمان فرنجية وبيار الجميل . وكان حافظ الأسد منبسط الأسارير ، تبدو عليه امارات الثقة والارتياح . أخبرني أنه تابع دقيقة فدقيقة وقائع انتخاب الرئيس اللبناني ، وكرر مراراً قوله : « هذا شيء حسن . بدون هذا الانتخاب كان لبنان ذاهباً الى المجهول » .

بدأت بنقل رسالة الياس سركيس الشخصية . ثم عرضت على الرئيس السوري خطة الرئيس اللبناني للسلام . فاستمع حافظ الأسد اليّ مبتسماً هادئاً . وبدا لي أنه متأثر بادرة الرئيس اللبناني . وأحسست فوراً أنه حسن الاستعداد للتجاوب مع المقترحات اللبنانية . انه حقاً وضع عجيب : فالرجلان لا يعرف أحدهما الآخر . الأسد دعم سركيس من غير أن يعرفه ، وسركيس نسّق عمله مع الأسد من غير أن يلتقيه .

رد الرئيس السوري حالاً وبلا تردّد على الرسالة التي نقلتها اليه ، كما لو أنه كان يعرف مسبقاً ما ورد فيها ، وقال : « أوافق على خطة الرئيس سركيس ، ولكن الأهم في نظري هو أن يقوّي دعائم سلطته . يجب أن يكون رئيس كل اللبنانيين ، ولكن يجب أن يهابه أيضاً جميع اللبنانيين . قوته هي الضمانة الفضلى لكل الفرقاء المتنازعة . واني لواثق شخصياً بنجاحه ، وفي وسعه الاتكال عليّ بكل شيء » .

ولكن « الأشياء » نفسها تُرى بصور مختلفة في كل من دمشق وبيروت . فمن عاصمة الى أخرى تتخذ هذه الأشياء أحجاماً وتوجهات متغايرة . من هذا المنطلق أبدى الرئيس السوري ملاحظات على خطة سركيس للسلام ، وأوعز بأن لا يقتصر الوفاق الوطني ، من جانب المسلمين ، على الحركة الوطنية . قال : « يجب أن يشترك المسلمون اللبنانيون وخاصة التجمع الاسلامي (*) في الحوار السياسي بين اللبنانيين » . ثم حذر من خطر قبول أي شرط مسبق يضعه كمال جنبلاط لبدء الحوار ، واعتبر ان قبول الشروط المسبقة هو بمثابة قبول الابتزاز الجنبلاطي .

على الرغم من تلك الأجوبة ، لم يكن حديثنا إلا في بدايته . فمن يتصور أن المناقشة مع حافظ الأسد يمكن أن تنتهي عند هذا الحدّ يخطئ في تصوره لشخصية الرئيس السوري وطريقته في

(*) تكتل سياسي يضم مختلف الشخصيات السنّية ، وفي طليعتها صائب سلام .

ادارة الأحاديث . فقد راح يبسط أمامي لوحة شاملة للوضع الراهن برمته . وروى لي محادثاته مع المسؤولين الليبيين والسعوديين .

وكان الرئيس الليبي معمر القذّافي قد أوفد الى دمشق رئيس حكومته عبد السلام جلّود الذي انتقد موقف سوريا من الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية لمصلحة « الانعزاليين المسيحيين » . وشجبت ليبيا ، متذرعة بالايديولوجية التقدمية والقومية العربية ، تصرف سوريا في لبنان .

أخبرني الرئيس الأسد أنه خصّص ساعات عديدة ليشرح لجلود الحقائق اللبنانية ، وانه اكتشف أن القيادة الليبية لا تدرك الحالة السائدة في لبنان ، وتحليلها في هذا الصدد خاطئ ومما قاله لجلود : « يجب أولاً تحديد عبارتي « قومية » و « انعزالية » . فاذا كان الكتائبيون يعتبرون انعزاليين لأنهم يريدون المحافظة على لبنان كاملاً في خارج الوحدة العربية ، فكيف يجب أن نسمي أولئك الذين ينسجون على غرار جنبلاط ، ويريدون عزل نصف اللبنانيين في داخل لبنان ؟ ... » .

وتطرق الرئيس السوري في حديثه مع رئيس الحكومة الليبية الى الاصلاحات « المزعومة وطنية » التي يطالب بها جنبلاط فأكد أن النظام اللبناني مريض ، وأنه أصبح عتيقاً بالياً وقد مر عليه الزمان ، ويحتاج الى اصلاح جذري . وأعرب عن اعتقاده أنه لو اتخذت تدابير اصلاحية في الوقت المناسب لكانت خففت من الاجحاف والغبن وحدّت من الامتيازات المخالفة للمساواة ، وطوقت الأزمة الحالية . ولكن لم تتخذ مبادرات في هذا الاتجاه ، وأضاف الرئيس السوري : « لقد استغل كمال جنبلاط جمود النظام ليقوم بأعمال خطرة تحت شعار الاصلاح . ومن المناسب أن نميّز في هذا الصدد ، بين الاصلاحات الوطنية والمطالب الفئوية الصادرة عن الحركة الوطنية . فكمال جنبلاط يعتبر الاصلاحات انتصارات له يضيفها الى رصيده ، وهزائم لخصومه ، مع ان الاصلاح الصحيح يجب أن لا يعتبر تنازلات منتزعة من البعض ، بل مكاسب ايجابية للجميع . وكما هي الحال في مختلف بلدان العالم ، فان مشكلات لبنان عديدة ، ومعقدة ، ودائمة ، تحتاج الى حلول ملائمة ، ولكننا لا نستطيع القبول بأن تمر هذه الحلول بسفك الدماء والعنف . ان جنبلاط لا يرمي الى الحصول على اصلاحات ، بل الى الاستيلاء على السلطة بالقوة وبمساعدة الفلسطينيين » . وأفاض الرئيس السوري في نقل حديثه مع جلود ، فقال : « ان جنبلاط يغذي الحرب الدينية على المسيحيين ، والاستمرار في هذا المسار هو خطر على العروبة . فالحرب الدينية في لبنان بدأت تهدم المثال الأعلى للمقاومة الفلسطينية التي تناضل من أجل اقامة دولة ديمقراطية وعلمانية في فلسطين على غرار الصيغة اللبنانية . وبالفعل ، كيف يزعم الفلسطيني أنه يستطيع العيش مع اليهودي السوفياتي اذا كان لا يستطيع العيش مع المسيحي العربي ؟ إننا نتهم الصهيونية بحق انها عنصرية ، واذا طالت الحرب على المسيحيين في لبنان ، فان العروبة تمسي بدورها عنصرية أخرى . ومن جهة ثانية نرى أن اسرائيل تشجع هذه الحرب التي يمكن

أن تؤدي الى تقسيم لبنان . وهذا التقسيم يؤدي الى انفجار الدولة اللبنانية ، ويتيح لاسرائيل أن تستولي على أراضٍ عربية جديدة ... » .

واستطرد الرئيس الأسد ناقلاً لي حديثه مع جلود ، فقال : « نحن ، في سوريا ، قوميون عرب ، ومن هذه النقطة بالذات نحكم على الأحداث ، ونقدر مختلف المواقف . فلا نستطيع أن نسخر مبادئنا لتحقيق مطالب الحركة الوطنية اللبنانية ، ولا أن نضحي بالقومية العربية لارضاء نزوات كمال جنبلاط . ونعتبر أن المسيحيين اللبنانيين هم عرب . والذين يعاملون هؤلاء المسيحيين كأنهم غير عرب يبررون النظرية الانعزالية التي تعني في ما تعني ، أن المسيحيين ليسوا عرباً كالآخرين . اني أتصرف في هذا الشأن تصرف رجل قومي عربي حقيقي ، وإلاّ ، فلماذا أرضى بتحمل كل هذه المخاطر في لبنان ؟ لو شئتُ أن أفكّر ، وأن أتصرف كسوري فقط ، لكان في وسعي ، منذ زمن بعيد ، أن أقبل بحل ملائم لسوريا ، ولكن غير ملائم لقضية فلسطين » .

أراد الرئيس السوري بالخوض في هذا الحديث تذكير ضيفه الليبي بلباقة بخلافه مع مصر . وكانت العلاقات بين ليبيا ومصر آنذاك آخذة بالتدهور كما كان التوتر يتصاعد بين السادات والقذافي . ولم يدع الرئيس السوري هذه الفرصة تفوته ، فعمد الى الافادة من هذه المعطيات ، وتوسع في شرح النظرية السورية القائلة بأن الأزمة اللبنانية قد نشبت ليتاح لمصر أن توقع اتفاقية سيناء الثانية في أول أيلول سنة ١٩٧٥ بعد أن رفضت سوريا الموافقة عليها على الرغم من المحاولات العديدة التي بذلها هنري كيسنجر . وكان حافظ الأسد يظن بأن أنور السادات يسعى لتوقيع معاهدة سلام منفردة مع اسرائيل . وكانت الغاية من ايراد هذه البراهين كلها حمل معمر القذافي على تأييد المبادرة السورية في لبنان .

ورأى الرئيس السوري أيضاً أنه من المفيد أن يطلعني على مضمون الحديث الذي أجراه مع المسؤولين السعوديين الذين اجتمعوا به للتوسط بين مصر وسوريا . وكانت السعودية قد دعت الى عقد مؤتمر قمة في الرياض ، لكنها عادت وصرفت النظر عنه في ١٩ أيار بسبب الرفض السوري . ومما قاله لي عن لقاءاته مع السعوديين : « لقد شرحت لهم أن خلافنا مع مصر ناجم عن اتفاقيات سيناء . ولسوريا أربعة مآخذ أساسية على مصر في هذا المجال . أولاً ، أن حرب تشرين معركة مشتركة خضناها معاً ، لذلك لم يكن جائزاً للسادات أن يعمل منفرداً ومن جانب واحد بتوقيع اتفاقية منفردة . ثانياً ، ان القضية الفلسطينية هي مسألة مشتركة بين العرب جميعاً ، ولم يكن من حق السادات أن يتصرف وحده بها . ثالثاً ، اكتفى السادات من حرب تشرين الكبيرة باتفاقية سيناء الصغيرة . رابعاً ، لقد استسلمت مصر بالفعل اذ قبلت من خلال هذه الاتفاقية بفصل الجبهة المصرية عن الجبهة السورية في مواجهة اسرائيل . ان التمسك بهذه المآخذ الوجيهة والصحيحة لا يعني رفض السلام . لقد رددنا مرات

عديدة لكيسنجر أننا نريد السلام ، على أن يكون سلاماً عادلاً ، أعني سلاماً بدون احتلال اراض أو اعتداء على أي شعب . وقد قدم لنا الأميركيون ، عام ١٩٧٥ ، اقتراحات عديدة كلها تخدم مصلحة سوريا وحدها . ولكن هذه المقترحات لم تكن ممكنة التحقيق إلا على حساب القضية العربية والقضية الفلسطينية . فلو أننا قبلنا العروض الأميركية لكانت أزمة الشرق الأوسط قد حلّت وانتهى أمرها . إلا أننا رفضنا مس المصلحة القومية العربية حتى في سبيل خدمة المصلحة السورية . سوريا لا تستطيع إلا أن تكون قومية عربية قبل أن تكون سورية ، وحتى عبد الناصر كان يدرك هذه الحقيقة وكان يفتش عن سوريا لبسط نفوذه على العالم العربي » .

توقف حافظ الأسد قليلاً عن الكلام ، ونظر اليّ بعينيه الصغيرتين اللتين يشع منهما مزيج من الذكاء والحنكة والحزم ، ثم استأنف حديثه مغيراً لهجته منتقلاً من منطق الاقناع الى أسلوب الحسم ، فقال : « أنذرت محدثيّ السعوديين ، ولاسيما الليبيين ، بأن لا أحد يستطيع معاكسة سوريا ، واذا كانت سوريا لا تستطيع إقرار السلام في لبنان ، فلا أحد يستطيع ذلك . فلا مسايرات ولا مجاملات . إننا سنضرب بدون هوادة . فالجيش السوري هو ضمانة لكل الفرقاء . واننا نصر على إنهاء النزاع المسلح . ومن واجب كل عربي أن يساعد الرئيس اللبناني المنتخب وأن يتعاون معه . فالرئيس فرنجية كان مخلصاً ووطنياً ، والرئيس سركيس كذلك ، ولكن الرئيس سركيس يتمتع فضلاً عن ذلك برؤية واسعة ، ومنطق منفتح ، وأسلوب مرن ، ووعي تام لمعاني المساواة والعدالة والاصلاح . كلنا بلا استثناء ، لا سوريا وحدها ، يتوجب علينا دعم الرئيس المنتخب » .

هكذا بدت لي صورة الموقف السوري في غاية الوضوح : دعم لالياس سركيس وللجبهة اللبنانية ، ونزاع مفتوح ضد كمال جنبلاط والفلسطينيين ، وتحذير من كل تدخل عربي يرمي الى الحد من الدور السوري في لبنان ، وقبول خطة سركيس للسلام بشرط أن يعمل على تنفيذها بجرأة وحزم ودون الخضوع لابتزاز الحركة الوطنية .

وأضاف الرئيس السوري في نهاية اللقاء ، وكأنه يريد أن يوضح معنى دعمه للرئيس اللبناني ويلخص موقفه من هذا الشأن : « لا شيء يمنع الرئيس اللبناني من التفاوض مع كمال جنبلاط بدون شروط مسبقة ، انطلاقاً من موقف قوة . إننا لا نحقد على أحد . وبقدر ما يدعم جنبلاط الرئيس سركيس بقدر ما نستطيع تجاوز خلافنا معه . سألتقي قريباً جداً ياسر عرفات ، وسأدعوه الى تقديم الدعم والتأييد للرئيس المنتخب . ليس من المعقول ولا من المقبول أن تتحول المقاومة الفلسطينية الى فصيل من فصائل الحركة الوطنية . فاذا شاءت المقاومة أن تتحد بالحركة الوطنية كأنها منها وفيها وتلتصق بها لحد الانصهار ، فانها تصبح شبيهة بأي حزب من الأحزاب السياسية اللبنانية ، وتفقد طابعها الثوري والفلسطيني . وفي مثل هذه الحال سأعاملها كما أعامل الأحزاب اللبنانية الأخرى » .

أخيراً ، لفت الرئيس السوري نظري الى محاولات تدويل الأزمة اللبنانية . فشجب بشدة السياسة الأميركية ، وأبدى شكّه بجدوى المبادرة الفرنسية . قال مؤكداً : « الأميركيون هم أساس العلّة . يحاولون التهويل عليّ ليحولوا دون تدخلي في لبنان . يبحثون عن طريقة لمنعي من الحركة وتدويخي ولكني سأدوخهم وأعرقل مساعيهم . انهم رعاع ... » . واستطرد قائلاً : « بحسب الرسالة التي وجهها اليّ الرئيس جيسكار ديستان ، يبدو لي أن فرنسا لا تكتفي بعرض ارسال مراقبين يسهرون على وقف النار ، بل توعز بارسال « عناصر مسلحة » لا تختلف عن قوة التدخل . هذا غير مقبول . هذه الأمور كلها لا تحل شيئاً » .

أصبحت اللوحة شفافة أمامي : فالرئيس سركيس يستطيع عمل كل شيء لا يتعارض والمبادرة السورية في لبنان . والرئيس الأسد سيكمل المشوار بتصميم وحزم . هذا ما استخلصته من هذا اللقاء .

على أي حال ، فان وزير الخارجية السوري عبد الحليم خدام الذي تحدثت معه قبل أن أقابل الرئيس السوري ، جعلني أفهم أن سوريا ترحب بزيارة يقوم بها الرئيس اللبناني الى دمشق . وما أن انتهيت من لقائي بالرئيس السوري حتى سارعت للعودة . ولكن بعد مرور دقائق على الاقلاع من مطار المزة العسكري ، عادت الطائرة أدراجها ، لأن مطار بيروت كان يُقصف قصفاً كثيفاً . وهكذا لم أغادر دمشق إلا في اليوم التالي ، ١٧ أيار ١٩٧٦ ، فجراً وسراً .

٢ ـ اليد الممدودة إلى جنبلاط

بدا الرئيس راضياً وهو يستمع الى تقريري ، إذ حصل على ما هو ، في نظره ، الأهمّ : الضوء الأخضر من قبل حافظ الأسد لمباشرة الاتصالات بكمال جنبلاط . وقد أخذ ياسر عرفات ، لدى عودته من سوريا ، يعمل بهذا الاتجاه ، وكان يرمي الى الحؤول دون تصعيد الخلاف بين الأسد وجنبلاط ، لئلا يقع هو في مأزق حادّ لا مخرج له . وهكذا عُقدت ثلاثة اجتماعات متتالية بين سركيس وجنبلاط ، الأول في ١٩ أيار ، بحضور ياسر عرفات وأبو أياد ، والثاني في ٢ حزيران ، والثالث في ٢٦ أيلول .

كان من الممكن والمحتمل أن يكون التقارب كبيراً بين الياس سركيس ، هذا الماروني المستنير والمؤمن بالاصلاح ، وبين كمال جنبلاط ، هذا الزعيم الدرزي المثقف والتقدمي . ومع ذلك ، فكل شيء كان يفرّق بينهما سياسياً . فالزعيم التقدمي اقترع مرتين لمصلحة مرشحين لرئاسة الجمهورية منافسين لسركيس ، لا لشيء إلا ليقطع عليه طريق الحكم . في العام ١٩٧٠ فضّل عليه الماروني « الاقطاعي » سليمان فرنجية ، وبالأمس القريب أيّد ترشيح ريمون اده ، نائب جبيل وزعيم الكتلة الوطنية ، هذا الماروني الآخر « الليبرالي » والغريب الأطوار والمزاج .

اللعبة محشورة بين الرجلين . فالرئيس المنتخب يسعى الى الوفاق ، ولكن بدون شروط ، وجنبلاط يكثر من المطالب ، ولكنه ضعيف . فمنذ الاجتماع الأول ، عرض الياس سركيس خطته للسلام : التعهد العلني بوقف القتال من قبل جميع المتنازعين من لبنانيين وفلسطينيين والدعوة الى طاولة مستديرة بين اللبنانيين وحدهم لوضع أسس الوفاق الوطني . وختم سركيس عرضه موجهاً الكلام الى جنبلاط ، فقال : « لقد تعاونا في عهد فؤاد شهاب . وآمل أن أستطيع الحكم بالتعاون معك ، ومع الكتائب بتشجيع من سوريا والمقاومة الفلسطينية » .

لم يدرك جنبلاط مدى الفرصة المتاحة أمامه ، فربط انتهاء النزاع بسحب الجيش السوري ، كما ربط اقامة الطاولة المستديرة بتبني برنامج الاصلاحات التي تطالب بها الحركة الوطنية . وتمسك جنبلاط على الأخص بضرورة إقرار نقطتين : الغاء الطائفية في النظام اللبناني ، وتطبيق التمثيل النسبي لانتخاب النواب .

جهد الياس سركيس لاقناع الزعيم الاشتراكي ، فقال له : « يمكن درس برنامجك الاصلاحي ومناقشته حول الطاولة المستديرة ، لا قبلها . وأعدك بأن أكون حكماً فاعلاً للتوفيق بين مختلف المواقف . ويبدو أنك تلتقي مع الكتائب في نقاط إصلاحية عديدة . ولكن لا يرضى أحد بشروط مسبقة تفرض عليه قبل بدء الحوار . ومجرد عقد الطاولة المستديرة هو ، في حد ذاته ، صدمة نفسانية ايجابية تخلق دينامية باتجاه التفاهم . والهدف الرئيس يبقى وقف المعارك ، والطريقة الفضلى لبلوغه هي الحوار . فالقوات السورية لن تنسحب بالقوة ، وسحبها اليوم يعني استئناف القتال والعودة الى نقطة الصفر . والجيش السوري سيباشر انسحابه تدريجياً بقدر ما ينتشر الجيش اللبناني » .

هذا الكلام الواقعي والمنطقي لم يُبدّل في شيء موقف كمال جنبلاط الذي تذرع بأن عليه أن يراجع الحركة الوطنية قبل أن يعطي جوابه . فجنبلاط الذي كان يعلل نفسه ، قبل شهرين ، باحراز نصر عسكري على الجبهة اللبنانية ، لم يكن يستطيع الصفح عن حافظ الأسد الذي انتزع منه نصراً كان في متناول اليد والبندقية . وقد شعر جنبلاط بأن الرياح قد تبدلت الآن ، إلا أنه لم يذعن ، إذ كان يتوقع أن ترسل مصر جيشاً يقوي مواقعه المزعزعة . كما كان جنبلاط يراهن على أن اسرائيل لن تقبل مطلقاً بدخول الجيش السوري الى لبنان ، وهذا ما كان يشرحه للمقربين منه قائلاً : « ستمنع اسرائيل تحويل لبنان الى دولة مواجهة . فما أن يحاول الجيش السوري اجتياز الحدود في المصنع حتى يتدخل الجيش الاسرائيلي » . وكان دين براون ، الموفد الخاص للرئيس الأميركي جيرالد فورد ، يؤكد هذه الفرضية بقوله : « لن يكون لبنان تشيكوسلوفاكيا أخرى ، ولا محمية تدور في الفلك السوري ، ولا دولة مواجهة ضد اسرائيل » .

وقد جاء تشدد جنبلاط نتيجة حساب دقيق . فهو يظن أن حلمه باحراز نصر عسكري لم يتلاشَ بعد كلياً ، بينما الحل السياسي الذي يعرضه عليه الياس سركيس يمكن أن يتحقق في كل لحظة . لقد أقلق هذا الرفض الجنبلاطي الرئيس لكنه لم يفقده الأمل .

* * *

في ٣١ أيار وأول حزيران ١٩٧٦ دخل الجيش السوري الى شمال لبنان ووصل الى البقاع ، فأعلنت القوات الفلسطينية والتقدمية التعبئة العامة . وفي هذا الجو من التصعيد الشامل ، لم يكن اللقاء الثاني مع كمال جنبلاط ، في ٢ حزيران ، أكثر أيجابية مما سبق ، فالزعيم الاشتراكي ظل متشدداً لا يلين حيال سوريا إلا أنه أبدى شيئاً من المرونة في موقفه من المسيحيين . فقد قبل مبدئياً بالطاولة المستديرة بلا شروط مسبقة وأجرى لقاء مع بشير الجميل بمسعى من ياسر عرفات الذي حث أبو حسن سلامه ، رئيس دائرة العمليات الخاصة في منظمة التحرير الفلسطينية ، على ترتيب هذا اللقاء لصد

التحرك السوري . لكن الفرص الضائعة لا تتكرر ، فالجرافة السورية كانت تتقدم والأزمة اللبنانية عبرت مرحلة جديدة : لقد انتقلت سوريا من العمل السياسي الى التدخل العسكري المباشر .

عقد اللقاء الثالث في المتحف على خط التماس بين بيروت الشرقية والغربية ، في ٢٦ أيلول ١٩٧٦ ، بحضور حسن صبري الخولي الأمين العام المساعد لجامعة الدول العربية . وفي نهاية هذا اللقاء تعرض كمال جنبلاط لمحاولة اغتيال فاشلة ، فتأثر الياس سركيس تأثراً عميقاً ، وروى لنا مساءً ، فؤاد بطرس وأنا ، كيف جرت المفاوضات ، قال : « في أثناء الاجتماع سمعت طلقات نارية ، فأطلت الحديث عمداً ، مع أنه لم يكن لديّ ما أقوله ، طوال ساعتين ونصف الساعة ، وأرسلت اشعاراً بالامتناع عن المجيء الى ياسر عرفات الذي كان منتظراً أن يأتي ليشترك معنا في البحث ، وكان هاجسي ، قبل الاجتماع وبعده ، الخوف من وقوع اعتداء عليهما أو على أحدهما » .

ثم أطلعنا الرئيس على فحوى محادثاته مع جنبلاط ، فقال انها تطرقت أساساً الى نقطتين : الاصلاح ، والتدخل السوري ، واستطرد : « قلت لجنبلاط أن المسيحيين غير مستعدين للتحاور معك ما دام الفلسطينيون يحتلون المناطق اللبنانية ولاسيما الجرود وقمم الجبال . فالجبهة اللبنانية لن تدخل في أي حوار تحت ضغط الحراب الفلسطينية . واعلم أنه لم يبق للمسيحيين شيء يخسرونه . بالأمس كان الفلسطينيون مشردي الأمة العربية ، اليوم أصبح المسيحيون مشردي الأمة اللبنانية . ان المسيحيين يهزأون بكل الاصلاحات ، وهم مصممون على رفض كل المشاريع الاصلاحية اذا لم يتم ضبط المنظمات الفلسطينية . لقد خسروا كل شيء ، كل ما كان عزيزاً عليهم : ابناؤهم قُتلوا ، ممتلكاتهم نُهبت ، المصارف والفنادق والمتاجر أحرقت وجمال بلادهم دُمر وتشوّه ، وحتى فرح الوجود بالحياة سُلب منهم . خسروا ما يملكون ، فباتوا يدافعون ليس عن موجوداتهم بل عن وجودهم . لم يعودوا متمسكين إلا بحفنة مبادئ . لقد قدموا خمسين ألف ضحية منهم ... » فصحح جنبلاط هذا الرقم قائلاً : « عشرين ألفاً » . فأكمل الرئيس قائلاً : « انهم مستعدون للتضحية بعشرين الفاً أو خمسين ألفاً آخرين . انهم يخوضون حرب حياة أو موت ، ولن يدعوا نفوسهم يختنقون أو يُخنقون . فالمرء الذي يرى السكين على عنقه يطلب النجاة من أي كان ، من الولايات المتحدة الأميركية ، من أوروبا ، وحتى من الشيطان » . وألمح سركيس الى أنه تجنب استعمال كلمة اسرائيل ، ولكن جنبلاط فهم ما يقصد .

كانت لهجة الرئيس المنتخب حازمة ولكن غير خالية من اللطف ، لانه يضمر لجنبلاط إعجاباً مكتوماً . إلا أن الزعيم الاشتراكي الذي أضحى في حكم المغلوب ظل صامداً . وقد طرح سؤالاً دقيقاً وواضحاً ، قال : « هل ترضى الجبهة اللبنانية بالاصلاح ؟ » » .

أجابه الرئيس : « الباب مفتوح على مصراعيه لمختلف الاصلاحات . بالنسبة اليّ ، كل شيء قابل للمناقشة ولا شيء مقدس لا يُمس سوى مبدأين اثنين : السيادة ، ووحدة لبنان . وبهذه المناسبة أريد أن أسألك سؤالاً بدوري : من يقول لك اني لن أذهب أبعد منك في الاصلاح ؟ أما الجبهة اللبنانية فانها لا تعارض مبدأ الاصلاح ، بل ترفض الطريقة المتبعة لتحقيقه . فالاصلاحات يجب أن تتم بالحوار والاقناع ، لا بالقوة والقهر . واني مستعد لدرس مختلف المقترحات الاصلاحية ، ولتبني كل ما هو ملائم للمصلحة الوطنية » .

لم يكتفِ كمال جنبلاط بهذا الجواب العام ، فسأل : « ما هو موقفك من علمنة النظام اللبناني ؟ ما دام لبنان غير معلمن فلن يصبح أبداً وطناً بالمعنى الحقيقي للكلمة » .

هنا تدخل حسن صبري الخولي ليلاحظ أن العلمنة تناقض الاسلام ، وأن الدول العربية تعارضها . فأوضح له جنبلاط بشيء من السخر والصبر أن العلمنة كما يفهمها هو ، كمال جنبلاط ، « لا تعارض التعاليم القرآنية » ، بل ترمي الى وضع حد « للامتيازات المارونية » . وأكد رفضه تكريس دستورية الرئاسات الثلاث الموزعة عرفاً منذ ١٩٤٣ على الطوائف بحيث تعود رئاسة الجمهورية للموارنة ، ورئاسة مجلس النواب للشيعة ، ورئاسة الحكومة للسنة . واقترح أن تكون رئاسة الجمهورية موقتاً لمسيحي ، بدون تحديد طائفته ، على أن تكون الرئاستان الأخريان لمسلمين بدون تحديد طائفتيهما أيضاً . فقاطعه الياس سركيس ضاحكاً وقال : « واذا وُجد ماروني تقدمي ليكون رئيساً للجمهورية ، فماذا تعمل ؟ » فضحك جنبلاط ثم ابتسم ، ثم صمت مفكراً .

من ينظر الى الزعيم الاشتراكي يره دائم التفكير بحلمه المدمَّر الخائب : فقد مرّ بالقرب من النصر الذي به علل الأمل طويلاً . انه يريد تغيير المعادلات الطائفية والنظام السياسي . فهو يتمرد ، بوصفه درزياً ، على ما يسميه « بالامتيازات المارونية » ويثور على « خمول السنة والشيعة » . يطمح الى رئاسة الجمهورية المكرسة عرفاً للموارنة الا أنه قد يرضى برئاسة الحكومة المخصصة للسنة اذا ما فاتته الرئاسة الأولى . لكن النظام اللبناني لا يسمح له بأن يطالب ، بالنسبة الى انتمائه الطائفي ، بأكثر من منصب وزاري يحتقره ويعتبره لا يليق به . فهو يشعر أنه يفوق أي ماروني ، بل يفوق جميع السنيين والشيعيين مجتمعين . فالوضع القائم يصدم طموحاته . انه سجين « التركيبة اللبنانية » التي ما انفك يعارضها ، حتى بالسلاح اذا دعت الحاجة : انه المعارض الدائم . لقد اصطدم بستة رؤساء للجمهورية منذ ١٩٤٣ . ساهم ، عام ١٩٥٢ ، في اسقاط بشاره الخوري أول رئيس لدولة الاستقلال . وقاد ، عام ١٩٥٨ ، عصياناً مسلحاً ضد كميل شمعون ، وخاض حرباً طاحنة بوجه سليمان فرنجية منذ ١٩٧٥ . ولم يتعاون إلا مع العهد الشهابي ما بين ١٩٥٨ و ١٩٦٤ . وقد فاجأ ذات يوم صحفياً سأله اذا كان قرر أن يمشي مع فؤاد شهاب فأجابه ضاحكاً : « ان فؤاد شهاب هو الذي يمشي معي » .

ان كمال جنبلاط يحسد الياس سركيس . فهو يعتبر نفسه أهم منه في الواقع لكنه يرى ذاته أدنى منه على الصعيد القانوني . فالزعيم الدرزي ، محطم الرؤساء والحكومات ، لا يستطيع الطموح الى تأليف حكومة أو الى أن ينتخب رئيساً للجمهورية ولو مرة واحدة . فهل هذا اجحاف نظام أم طموح لا محدود يطغى على نفس رجل ؟ في كل حال فان كمال جنبلاط الذي كان مصدر أزمات متعاقبة على الصعيد اللبناني أصبح سبب حرب على المستوى العربي والدولي . انه يتابع هدفه السياسي بعناد ، ولا يتراجع أمام شيء حتى لو اضطر الى المغامرة والمقامرة والى سفك الدماء واشعال الحرائق .

والواقع أن الاطار الدرزي كان ضيقاً على رجل في مثل حجمه . فهو من فئة الرجال الذين يفوقون طائفتهم حجماً . اقطاعي بالولادة ، أصبح زعيم اليسار اللبناني بالممارسة ، بل أكثر من ذلك ، زعيم يسار عربي . ومع أنه غير ماركسي ، وغير فلسطيني ، فقد تولى رئاسة الحركة الوطنية التي تضم أحزاباً شيوعية ، وقاد الجبهة العربية المشاركة في الثورة الفلسطينية ، ونال عام ١٩٧٢ جائزة لينين .

في شخص كمال جنبلاط تجمعت شخصيات عديدة . وليس هو شخصية سياسية فحسب . انه ، فضلاً عن ذلك ، كاتب ، وشاعر ، وفيلسوف . وضع مؤلفات عديدة في موضوعات السياسة ، ولكنه كتب أيضاً في الفلسفة والطب . وكثيراً ما يحرص على قراءة تيار دي شاردان ويلمح في أحاديثه الى نظرية « النقطة اوميغا » و « الإله الحديدي » . انه مولع بالدين ، يحلو له الغوص في تعاليم المسيح ، ومحمد ، وبوذا ، ولو بشيء من الغموض . مغرم بالحِكَم والتصوّف ، ويقدم نفسه كفقيه في المذهب الدرزي . يكرس قسماً من وقته ، كل عام ، لليوغا ، ويذهب دورياً الى الهند يستشير مرشده الروحي ، ويستمع مرة في الأسبوع الى عرافته تكشف له طالعه . فيه يتنازع الواقع والخيال ، والفكر الغربي بالحدس الشرقي ، فيتداخل العقل البارد بالحلم الجامح ويتحول الى رجل لا يُدرك ومشروع لا يُحد .

تابع الرئيس المنتخب عرض وقائع الاجتماع الثالث بالزعيم الاشتراكي ، فروى أنه أصرّ على خطته لحل الأزمة على مرحلتين : الأولى تسوية النزاع اللبناني — الفلسطيني ، أي تنظيم الوجود الفلسطيني المسلح على أرض لبنان وتطبيق اتفاقية القاهرة (*) ، والثانية معالجة المسألة اللبنانية —

(*) إثر حوادث دامية عام ١٩٦٩ ، قام شارل حلو الذي تولى رئاسة جمهورية لبنان من ١٩٦٤ الى ١٩٧٠ بارسال وفد لبناني الى القاهرة تجنباً لاندلاع حرب أهلية واذعاناً لضغوط الدول العربية . وقد تفاوض هذا الوفد مع منظمة التحرير الفلسطينية باشراف جمال عبد الناصر ووقع رسمياً ، في ٣ أيلول ١٩٦٩ ، اتفاقاً سرياً عرف باتفاقية القاهرة لتحديد كيفية تنظيم الوجود الفلسطيني المسلح في لبنان . وقد أدى عدم احترام هذه الاتفاقية من قبل المنظمات الفلسطينية الى حدوث صدامات عديدة بين اللبنانيين والفلسطينيين .

اللبنانية ، أي تحقيق المصالحة بين المسلمين والمسيحيين . فما كان من كمال جنبلاط الا ان انتفض قائلاً : « اتظن اني لا اشكو ، أنا أيضاً ، من تجاوزات الفلسطينيين ؟ ولكن الفارق كبير بين الشكوى من التجاوز وبين محاربة قضية وشعب . لا شك بأن تجاوزات الفلسطينيين لا تُحتمل ، ولكن لا يجوز أن تحوّلنا عن قضيتهم العادلة . فلنتفق ، وأنا أساعدك على ضبط الفلسطينيين في حدود اتفاقية القاهرة ، فنصير أنت وأنا في وضع أفضل لمفاوضة المقاومة الفلسطينية . وأعتقد أن زعماء فتح مستعدون : فأبو عمار يريد وضع حد للنزاع المسلح ، وأبو أياد يقدرك ويحترمك . والمشكلة الحقيقية تبقى مشكلة جبهة الرفض الفلسطينية ، وعرفات سجينها . يريد انهاء الحرب ، ولكنه لا يستطيع فرض نفسه على المتطرفين . لذلك يُقنّع عجزه متذرعاً بالحركة الوطنية . مشكلتك اذن ليست مع الحركة الوطنية ، بل مع جبهة الرفض . واني اقترح عليك خطة تسوية على ثلاث مراحل : الأولى انسحاب السوريين جزئياً من المناطق الدرزية ، ولاسيما صوفر وجزين . الثانية اتفاق اللبنانيين على الاصلاحات والوجود الفلسطيني . والأخيرة انسحاب الفلسطينيين والسوريين كلياً من كل المناطق اللبنانية » .

استنتج الرئيس من هذا الحديث ان جنبلاط يخشى أن يجتاح الجيش السوري معقله الشوف ، فرد على خطة جنبلاط قائلاً : « ان المحاور الوحيد مع منظمة التحرير الفلسطينية ليس أنت ، ولا بيار الجميل ، ولا كميل شمعون ، بل أنا ، أعني الدولة اللبنانية . واذا دعت الحاجة فاني ألجأ الى مساعدتك . أنا أضمن انسحاب السوريين ، ولكن من يضمن انسحاب الفلسطينيين ؟ الجيش السوري لا يستطيع الانسحاب الا بعد الانسحاب الفلسطيني من المناطق اللبنانية ، وتطبيق اتفاقية القاهرة ، واعادة بناء الجيش اللبناني . وأسمح لنفسي في هذه المناسبة أن ألفت نظرك الى أن التعامل مع دولة يختلف عن التعامل مع الأفراد . يجب أن نعرف التحدث مع الدولة بلغة معينة ، وان نحترم معنوياتها وهيبتها ، وان نساير حساسياتها . ان تصرفك يصدم سوريا ويثير مخاوفها . واني المرجع الوحيد المؤهل للمطالبة بخروج الجيش السوري . وهذا ما سأفعله يوم يصبح لبنان في غنى عن هذا الجيش . ولديّ كل التأكيدات بأنه سيغادر لبنان بطلب مني . أما في الوقت الحاضر فلا مجال للمطالبة بانسحاب الجيش السوري حتى جزئياً . فالجيش السوري لن ينسحب بالقوة . وموقفك الهجومي منه لا يسهل انسحابه . فلا يتصورنّ أحد اني سأطرد السوري بالعصا . لا أنوي فعل ذلك ، وليس لدي العصا اللازمة للقيام بمثل هذا العمل . لذلك ، يجب أولاً حل النزاع اللبناني — الفلسطيني ، ثم المشكلة اللبنانية — اللبنانية ، وأخيراً ننظر في الانسحاب السوري » .

إن دل هذا الحوار على شيء فعلى أن الخلاف عميق بين الرجلين ، وبالاخص حول دور سوريا . فعندما أكد الياس سركيس عزمه على انماء العلاقات المميزة بين سوريا ولبنان رد جنبلاط على الفور : « لقد تعود لبنان أن ينمي مثل هذه العلاقات تقليدياً مع مصر لا مع سوريا » . ثم حاول الزعيم

الاشتراكي أن يلعب ورقة أخيرة ، فأسرّ الى الرئيس قائلاً : « اني على أهبة السفر الى مصر . وسأطلب ، في هذه المناسبة ، الى الرئيس السادات أن يرسل الى لبنان من عشرين الفاً الى خمسة وعشرين ألف جندي مصري يؤلفون قوة ضاربة يضعها في تصرفك ! » .

أجاب الرئيس جازماً : « من الآن حتى نبلغ رقم عشرين ألف جندي عربي بدون موافقة سوريا ، علينا أن ننتظر عشرين عاماً . اني اؤكد لك ، على الفور ، ان مصر لن ترسل عشرين ألف رجل . وبحسب تخميني انها لن ترسل أحداً . وكما تعتبر مصر ان لها علاقات مميزة مع السودان ، هكذا تعتقد سوريا ان لها علاقات مميزة مع لبنان . فلا نستطيع تجاهل الجغرافيا . فلبنان بالنسبة الى سوريا كالسودان بالنسبة الى مصر » .

لم يلتقط جنبلاط اليد الممدودة اليه ، واستمر يحاول أن يكسب بالسياسة ما عجز عن كسبه بقوة السلاح . فتمسك بدعوته الى سحب خصومه السوريين قبل سحب حلفائه الفلسطينيين . في حين كانت الجبهة اللبنانية تطالب بعكس ذلك . والياس سركيس يتجاذبه الطرفان ، فيحاول التوفيق بين مطالبهما المتناقضة . وهو يعرف ان انسحاب الجيش السوري لا يمكن أن يؤدي إلاّ الى انتصار الجانب الفلسطيني — التقدمي ، وهذا يعني ان كمال جنبلاط سيتسلم السلطة . ولا يخفى عن سركيس ، من ناحية أخرى ، ان سحق القوات الفسلطينية والتقدمية يعني انتصار الجبهة اللبنانية ، أي ان السلطة ستقع في قبضة كميل شمعون . وهو يعرف أن حصول احدى هاتين الفرضيتين سيقضي على امكان الحوار ، ويكرس انتصار فريق على فريق ، مما يدمر نهائياً فرصة التفاوض للوصول الى حل سياسي ، وهو ما يدعو له ، ويريد تحقيقه . وفي هذا السبيل ، عمد الى اظهار محدودية كل فريق ، واستحالة تحقيق أي انتصار كامل من جانب واحد . لذلك لم يكن ، في الواقع ، متفقاً كل الاتفاق مع أحد ، ولم يكن أحد متفقاً معه كل الاتفاق . فسرعان ما بدا غير شعبي ، إلاّ أنه لم يكن ثمة بديل عنه .

ومرت حقبة الانتظار قبل تسلمه صلاحياته الرئاسية عقيمة . فلم يستطع الياس سركيس خلالها تنفيذ خطته ، أو قسم منها على الأقل . لكنه لزم الهدوء وظل مصراً على موقفه وهو يردد : « الحرب بحجم الجبل ولكني سأستمر في حفره بدبوس السلام الصغير » .

وهكذا أمضى القسم الأكبر من فترة الانتظار معزولاً في بيته المقابل لمخيم تل الزعتر الفلسطيني حيث كانت المعارك على أشدها . فلم يزره الا قلة بسبب سوء الحالة الأمنية . ولكنه كان يشتغل كثيراً ويلعب البلياردو والبوكر من حين الى آخر للترويح عن النفس . لقد أصبح شبه منسيّ ، لكنه لم يفقد صبره ولا عزمه ، فهو يعلم ان ساعته لم تحن بعد . وبقي أميناً لخياراته ولزم الصمت وانكب على اعداد

ملفات الحوار وكتابتها بيده مؤكداً أن الحل لا يكون إلا حول طاولة المفاوضات . إلا أن هذه الملفات لم تطرح في بيروت كما كان يأمل ، بل ستطرح في الرياض خلال شهر تشرين الأول ١٩٧٦ . فقد أمسى الرئيس مقتنعاً بأنه لم يعد بالامكان حل أزمة لبنان في داخل الاطار اللبناني ولم يعد يخامره ريب بأن السلام في لبنان غير ممكن بدون الاتفاق بين مصر وسوريا . أما في الوقت الحاضر فطريق دمشق وحدها سالكة وحافظ الأسد في انتظاره .

٣ ـ عهد ثقة مع الأسد

يحلو للرئيس المنتخب ترديد قول أحدهم أنه قادر على ارتجال خطاب استعد له طويلاً . وقد استعد استعداداً دقيقاً لزيارته الأولى الى دمشق في ٣١ آب ١٩٧٦ ، واستدعانا ، فؤاد بطرس وأحمد الحاج ، أحد مستشاريه ، وأنا ، الى أربعة اجتماعات عمل ، بين ٢٤ و ٢٨ آب . وكان يدرك تمام الادراك أهمية « الدق » الذي يلعبه . فالحوادث تتزايد وتشتد ، والعنف يتصاعد ويعم . وكانت الجبهة اللبنانية تدعم سوريا ، وسوريا تدك القوات المشتركة الفلسطينية والتقدمية ، وهذه القوات تعمل لاسقاط النظام السوري وتستغيث بالعرب ، وبعض العرب ، وبخاصة السعودية ، يحاول مصالحة دمشق والقاهرة . وفي خضم هذه المعمعة كان الياس سركيس يعي تماماً أهمية خطوته السياسية الأولى . فقد كرر أمامنا قوله : « على هذا العمل يتوقف مستقبل رئاستي طوال أعوامها الستة ، فسوريا هي مفتاح الحلّ ، وحافظ الأسد هو سيد اللعبة » .

وأمضى الياس سركيس ساعات طويلة يطرح فيها الأسئلة ويجيب عنها ، يحلل معطيات الموقف ، ويعدّد الفوائد والمخاطر الناجمة عن كل قرار ، ويبحث عن الطرق والأساليب للوصول الى حلّ . انه في أحسن حالاته الجسدية والفكرية ، وقد قرر أن ينجح .

على أثر الاجتماعات التمهيدية مع فريق عمله ، وضع الرئيس جدول أعمال مباحثات دمشق . وكان يود أن تكون مفاوضاته على أوسع مدى ممكن من الشمول ، ويتمنى أيضاً أن يصل الى نتائج عملية . وللمرة الأولى أعرب بدقة عن مفهومه للعلاقات اللبنانية — السورية فقال : « من الضروري أن تتخذ العلاقات اللبنانية — السورية طابعاً خاصاً . فثمة روابط عديدة وعميقة تشد كلاً من البلدين الى الآخر . وقد ساعد تصرف الرئيس الأسد كما ساعدت سياسته المنفتحة ، مساعدة كبيرة على تقوية هذه العلاقات . واني مصمم ، من جهتي ، على تدعيمها . ويتوجب عليّ أن أحوّل هذه العلاقات المضطربة والعفوية والمتشابكة ، الى علاقات دائمة ، منظمة ومتناسقة . وبكلمة مختصرة يجب تطبيع هذه العلاقات وتمييزها . كما يقتضي اعتبار وجود الجيش السوري في لبنان ، في الحالة الحاضرة ، ضرورة لبنانية ، ومن مصلحة البلدين ان يفكرا بتنظيم وجود هذا الجيش ، وبتحديد دوره وصلاحياته ، وتعيين أماكن وجود وحداته ، وتحديد عدد عناصر هذه الوحدات » .

واستطرد الرئيس سركيس قائلاً : « الواقعية السياسية تفرض علينا أيضاً الاعتراف بأن العلاقات

اللبنانية — الفلسطينية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعلاقات السورية — الفلسطينية . فلا يمكن معالجة الواحدة بمعزل عن الأخرى . فعلى الرغم من الدعم الاستراتيجي الذي تقدمه سوريا تقليدياً للمقاومة الفلسطينية ، نرى اليوم نزاعاً ناشباً بينهما ، قد يكون تكتيكاً ، إلا أنه حقيقي وحقيقته لا ريب فيها ، وهو آخذ بالاتساع بين حافظ الأسد وياسر عرفات . ولا بد للنزاع السوري — الفلسطيني من التأثير حكماً على العلاقات اللبنانية — الفلسطينية . فمن المناسب اذن أن يتناول البحث مع الرئيس الأسد اتفاقية القاهرة وتحديد مدى ملاءَمتها الأوضاع الراهنة ومعرفة مدى أهليتها لتكون اطاراً مقبولاً ومضموناً لتنظيم علاقات الدولة اللبنانية بالفلسطينيين . فهل يجب الغاء هذه الاتفاقية أم تعديلها ، أم هل يجب تنفيذها لا أكثر ولا أقل ؟ وفي مثل هذه الحال من يضمن التنفيذ الصحيح ؟ ان هذه الاتفاقية تشكل ، في رأيي ، والى حدّ بعيد ، العنصر الرئيس لجدول أعمال محادثاتي في دمشق . إلا أن حلّ الأزمة اللبنانية لا يتعلق حصراً بهذه الاتفاقية ، بل يتعلق ، في قسم كبير منه ، بحل أزمة الشرق الأوسط ، ولاسيما المسألة الفلسطينية . وعلى هذا الصعيد أحتاج الى معلومات حول التطورات الديبلوماسية والتحركات الاقليمية والدولية في هذا الصدد . اني أجهل المستجدات ، والدوائر المختصة في الدولة هي أقل اطلاعاً مني » .

انه لعرض واضح وعقلاني . تبقى المشكلات المباشرة الناجمة عن الحرب . وقد تصدّى لها الرئيس سركيس بسهولة فقال : « هدفي الأول والأساسي يبقى وقف النزاع المسلّح . وفي هذا السبيل يجب أن تتحرك دمشق ليكون الثالث والعشرون من أيلول (*) منعطفاً حاسماً . يجب أن يشعر اللبنانيون في هذا اليوم بأن شيئاً ما قد تبدّل ، وإنْ يكن على صعيد المعارك فقط . مهمتي الأولى ، بعدئذ ، هي تأليف حكومة جديدة على أساس سياستي الرامية الى الوفاق الوطني . فهذا الوفاق هو الشرط الذي لا بد منه للسلام ، ولا يمكن فرضه فرضاً ، بل يجب أن يكون نتيجة مفاوضات . هذا خيار أساسي سأدافع عنه في دمشق . وعلى كلّ ، فان هذه المهمة الوفاقية لن تحول دون تكريس وقتي لتجديد بناء الجيش اللبناني ، وهو الأداة الضرورية لكل سياسة . وهكذا يلخص دوري كرئيس في ثلاث نقاط : الوفاق والتعمير والاصلاح . وفاق اللبنانيين وتعمير الوطن واصلاح الدولة » .

على الرغم من انجاز جدول أعمال المباحثات المرتقبة في دمشق ، ظلّت المخاوف تشغل بال الرئيس اللبناني . وأكثر ما كان يقلقه أن تعمد سوريا الى فرض حلّ بقوة السلاح . فهو يريد أن يسبر أغوار النية السورية في هذا الشأن ، وهاجسه أن سوريا قد تلجأ الى حلّ الأزمة عسكرياً ، وربما قبل ٢٣ أيلول . وهنا بالذات يكمن جوهر الخلاف في وجهة النظر الأساسية بينه وبين الرئيس السوري

(*) يوم قسم اليمين الدستورية وتسلم الرئيس المنتخب صلاحياته الرئاسية من سلفه سليمان فرنجية .

الذي يمزج ببراعة بين الضربات العسكرية والتحركات السياسية . وقد اتبعت المبادرة السورية ، منذ البداية ، أسلوب « الخطوة خطوة » : خطوة عسكرية صغيرة ، تتلوها خطوة سياسية صغيرة . فما كان الياس سركيس يرفض ، مهما تكن الظروف والأهداف ، العمليات العسكرية التي لا يبررها شيء في نظره . فهو يرى أن الوسائل السياسية وحدها مقبولة ومشروعة . وقد تضاربت حول هذه النقطة آراء مستشاري الرئيس ، ولكنه كان حاسماً على هذا الصعيد ، فلم يقبل أن يساوم في هذا الموضوع . وقد قال جازماً : « حتى لو بدت كل الحلول السياسية عديمة الجدوى ، لن أدع السوريين يدخلون البسطة ليضربوا المسلمين ، أو صبرا ليضربوا الفلسطينيين ، وإلا غدوتْ سليمان فرنجية جديداً قبل أن أبدأ حكمي ، فتسقط بالتالي فكرة لبنان الذي أريد » .

انه موقف صريح ، لا أحد يدري اذا كان نابعاً من ايمان الياس سركيس بلبنان الميثاق الوطني ، أو من اقتناعه بالحوار وسيلةً لحل الأزمة اللبنانية ، أو من شكوك وتخوفات متعلقة بالسياسة السورية . قد يكون هذا الموقف نتيجة كل هذه العوامل مجتمعة وغيرها أيضاً . في مطلق الأحوال ، لن تكون مهمة الرئيس سركيس سهلة في دمشق ، إذ عليه أن يكتسب ثقة الرئيس الأسد في لقائهما الأول ، وعليه أيضاً أن يحوِّل المبادرة السورية الى الاتجاه السياسي البحت ، وأن يوضح مصير القوات السورية العاملة في لبنان . لذلك بدا ، في اليوم السابق لسفره ، عصبي المزاج ومتأثراً بعض الشيء . وقد أخذ يتذكر لقاء جمال عبد الناصر وفؤاد شهاب ، عام ١٩٥٨ ، تحت خيمة ، على الحدود اللبنانية — السورية فقال : « كانت الأزمة آنذاك أقل تعقيداً مما هي الآن . كان عبد الناصر يريد من لبنان أن يتبنى موقفاً مؤيداً للسياسة الخارجية المصرية ، وكان شهاب يطمح الى أن يقود وحده سياسة لبنان الداخلية . فكان الاتفاق بينهما ممكناً ومتوازناً : دعم شهاب للسياسة الناصرية على الصعيد الخارجي وخاصة العربي ، ودعم عبد الناصر للسياسة الشهابية على الصعيد الداخلي » ، وألمح الرئيس اللبناني الى تخوفه من أن تذهب مطالب حافظ الأسد الى أبعد مما كان يتوخاه عبد الناصر ، إلا أنه لم يكن يبوح بهذا الهاجس فأبقاه مكتوماً .

* * *

ما كاد الرئيس يعود من دمشق في أول أيلول ، حتى بادر الى دعوتنا ، فؤاد بطرس وأنا . واذا به منشرح ، مرتاح ، وشديد الرغبة في أن يروي لنا محادثاته مع الرئيس الأسد ، فقال لنا : « كان الاستقبال الذي خصّني به حاراً وعظيماً . المسؤولون السوريون جميعاً جاؤوا يستقبلونني . وأمس ، شعرت للمرة الأولى بأني رئيس جمهورية . لا أتذكر العبارات الأولى التي تبادلتها مع الرئيس الأسد ، ولكني أذكر أن عبد الحليم خدام أضفى بسرعة فيضاً من الانشراح على جو اللقاء ، اذ خاطب الرئيس السوري قائلاً : « سيادة الرئيس ، ان الرئيس سركيس عازب ، فما قولك في أن يتزوج بامرأة

سورية ؟ أجبته فوراً : في قريتنا ، إذا أرادوا إقناع فتاة بالزواج قالوا لها أن طالب يدها شاب ومستقبله أمامه ، أما أنا ، ويا للأسف ، فأشك بأن هناك فتاة ترضى بي زوجاً لاني لم أعد شاباً ، ومستقبلي أمسى ورائي » .

وقد أضفى تبادل هذه النكات جواً ودياً فاغتنم الياس سركيس الفرصة ليباشر تقرباً عاطفياً بقوله لحافظ الأسد : « انك تحمل حملاً ثقيلاً بسبب المسيحيين ولا سيما الموارنة ، وآمل أن يقابلوا صنيعك بمزيد من الايمان بالعروبة . اني ماروني يؤمن بعروبة لبنان . وأنا ابن الشبانية وهي قرية دستورية ، وتلميذ المدرسة الشهابية التي تدعو الى التعاون مع العرب . ولكني ألاحظ أن الموارنة ، أصحاب الحركة الأولى في العروبة خلال القرن الماضي ، يبتعدون الآن عنها تدريجياً . لقد تحول المسيحيون من مدافعين عن العروبة الى خائفين منها ومرتدين عنها . والسبب هو أن العروبة أصبحت مرادفة أكثر فأكثر للاسلام . بناءً على ذلك يشعر المسيحيون بأنهم غرباء ويساورهم الخوف . ولكن بفضلك أنت ، حتى رجل كبيار الجميل ، اكتشف في نفسه أنه عربي . وهذا يعني أن أكثرية المسيحيين الساحقة أمسوا عرباً هم أيضاً . لقد صالحت بين المسيحيين والعروبة ، وهذه خدمة عظيمة تسديها الى المسيحيين والى العروبة معاً » . فعلق حافظ الأسد قائلاً ، وعلى ثغره بسمة رضى : « بيار الجميل رجل وطني وصريح ، يدافع عن آرائه بشدة ويعترف بأخطائه بشجاعة ، فهو يقول ما هو له وما هو عليه » .

وتابع الياس سركيس حديثه موجهاً كلامه الى حافظ الأسد : « لقد تعاونا معاً قبل أن يعرف أحدنا الآخر . وهذا أفضل . انه يعني أن تعاوننا موضوعي وغير خاضع لعوامل شخصية . وعلى هذه الأسس الموضوعية ، والثابتة والمستمرة أود أن أركّز العلاقات فيما بيننا . وسأحرص ، مهما تكن الظروف ، على تقوية العلاقات الخاصة بين بلدينا ، وعلى أن تقوم سوريا بدور أساسي في لبنان . وكن واثقاً أن جهودك ستثمر ولن تذهب سدى . نحن نعي مدى الصعوبات التي تتحملها من جراء تحالفك مع الجبهة اللبنانية لدرجة أن بعض المشايخ أخذوا يرددون في الجوامع : قبلناك ، يا حافظ ، علوياً في الحكم ولكن لن نقبلك مارونياً ! » فضحك الرئيس السوري قائلاً : « أرى أن الخبر وصل حتى الى لبنان ، بسبب اللبنانيين لم نعد نستطيع أن نكتم سراً في سوريا ! » .

وعلق الياس سركيس بأن هذه « المقدمة العاطفية » نجحت في جعل الرئيس السوري أوفر تقبلاً لتحليلاته وطروحاته في أثناء المفاوضات التي استغرقت أكثر من خمس ساعات . وأكمل لنا رواية لقائه فأخبرنا انه قال للأسد : « انك على رأس السلطة منذ سنوات عديدة . وأصبحت أكبر خبير في شؤون المنطقة وفي العلاقات الدولية . ولست أنا سوى مبتدئ . اني أفهم بالمسائل

الاجتماعية والاقتصادية (*) ولكني لا أملك كل المعلومات السياسية اللازمة . غير أني أود أن أصف لبنان كما يبدو اليوم للعين المجردة . فهو حالياً مقسوم خمسة أقسام : القسم الأول مع سوريا ، والثاني مع المسيحيين ، والثالث بيد المسلمين ، والرابع مع الفلسطينيين ، والخامس يخضع لقوة السلام العربية (**) التي تؤلف نوعاً من الفاتيكان بين كل المتنازعين. وبعد وقف القتال ستكون مهمتي الجمع بين هذه اللبنانات . انها مهمة عصيبة بقدر ما هي صعبة وخطيرة بالنسبة لمستقبل اللبنانيين والعرب » .

ثم راح الرئيس المنتخب يعدد أمام الرئيس السوري الأسباب التي أدت الى انفجار لبنان . وفي هذا الشأن أشار الى أن جذور الأزمة اللبنانية تعود ، في الدرجة الأولى ، الى وجود الفلسطينيين على الأرض اللبنانية . وبناء على ذلك ، لا بد من أن يمر كل حل لهذه الأزمة بضبط الوجود الفلسطيني . ولا يمكن أن يبقى حل الأزمة اللبنانية مرتبطاً بحل القضية الفلسطينية ، وبالتالي يجب أن نجد فوراً علاجاً للأوضاع الحاضرة ، وإلا ضاع لبنان . أما الأسباب الأخرى للأزمة فقد اعتبرها الرئيس سركيس أسهل حلاً نسبياً . فالوثيقة الدستورية التي أعلن عنها سليمان فرنجية في ١٤ شباط ١٩٧٦ والتي وضعت بالاتفاق مع دمشق يمكن أن تكون أساساً للحل المقبل ، وحتى للتسوية النهائية . وقد تضمنت مجموعة مبادئ واصلاحات تتناول كل الصعدان ، بما فيها تعديل الدستور اللبناني . وختم سركيس كلامه بهذا الشأن قائلاً للأسد : « عليك أنت ، بنوع خاص ، أن تضبط الوجود الفلسطيني المسلح ، وعليّ أنا ، في الدرجة الأولى ، أن أجد حلاً لمسائل لبنان الداخلية » .

وانتقل الحديث بعدئذ الى موضوع العلاقات العربية ، فلاحظ الرئيس سركيس أن لبنان أصبح الأرض المختارة للنزاع بين العرب . ودعا الى التقارب بين سوريا ومصر مضيفاً أن مصر لم تراع في الأزمة اللبنانية الجانب السوري . وقال : « يبدو أن السادات مستعجل قليلاً وموعود كثيراً ، وربما كان ينتظر حدثاً ما ، فسياسته الرامية الى اقصاء الاتحاد السوفياتي عن مسرح الشرق الأوسط ، كان من شأنها أن تؤدي حتماً الى توقيع اتفاقي سيناء . في المقابل ، فان المقاومة الفلسطينية ، خاصة فتح ، لا تفكر بامكان فك الترابط مع سوريا . ان المنظمات الفلسطينية كلها تسعى الى كسب رضى دمشق ، وبمقدور سوريا أن تبسط نفوذها عليها جميعاً . وفي ظل التفاهم السوري — الفلسطيني ستكون مرتاحاً أكثر وتصير حرية عملك في العالم العربي أكبر ، كما يكون تدخلك في لبنان أوفر فائدة . ربما كان السادات يفكر بسياسة لا دور فيها لسوريا ، ولكن عرفات لا يستطيع أن يتّبع إلا سياسة منسقة معك . فسوريا هي قلعة العرب ، ويجب أن تبقى كذلك » .

(*) نوه سركيس هنا بخبرته في حاكمية مصرف لبنان من ١٩٦٧ الى ١٩٧٦ .

(**) القوة التي قررت جامعة الدول العربية ارسالها في ٨ — ٩ حزيران ١٩٧٦ ومهمتها الافساح في المجال لانسحاب الجيش السوري تدريجياً . ولكن هذه القوة أخفقت إخفاقاً تاماً .

وركّز الرئيس سركيس ، وهو ينهي عرضه ، على الوضع المتفجر في لبنان ، وعلى خطر التقسيم . وأورد المبادئ الستة الأساسية التي تقوم عليها سياسته وهي : الدفاع عن السيادة والاستقلال ووحدة لبنان في حدوده الحالية ، المحافظة على عروبة لبنان والتعاون مع العالم العربي ، تعزيز العلاقات المميزة مع سوريا ، تحقيق الوفاق الوطني بالحوار ، تطبيق اتفاقية القاهرة ، صيانة الديمقراطية السياسية والحرية الاقتصادية بادخال الاصلاحات اللازمة .

توقف الرئيس سركيس قليلاً في عرضه ليحدثنا عن فؤاد شهاب حديثاً ينم عن الوفاء والحنين . فهو ما شعر مرة بسعادة عميقة ، أو بشقاء حقيقي إلاّ وتحدث عن « الجنرال » . ثم عاد الرئيس اللبناني يفصل لنا أجوبة حافظ الأسد الرئيسة في ما يختص بكل الموضوعات المطروحة بدءاً بعلاقة سوريا بالمسيحيين ، وبنوع خاص الموارنة . فأطلع حافظ الأسد الياس سركيس على أنه استدعى كل علماء سوريا الى اجتماع شرح وتوضيح ، وقال : « اكتشفت أن هؤلاء الرؤساء الروحيين كانوا مضلّلين وتائهين . فأوضحت لهم أن التدخل السوري في لبنان لا يرمي الى تأييد الموارنة ضد السنيين ، بل لافشال المؤامرة المدبرة ضد الاسلام وضد المسيحية معاً ، وضد سوريا ولبنان أيضاً . وبيّنت لهم ان الخطر الذي يهدد الاسلام يأتي من الشيوعيين المسيحيين وحلفائهم الذين يتاجرون بالاسلام كنقولا الشاوي وجورج حاوي وانعام رعد . فاقتنع العلماء وطلبوا اليّ أن أعطي هذا الشرح نفسه للشعب ، وهذا ما فعلت في خطبة ألقيتها في ٢٠ آب ١٩٧٦ على الأمة جمعاء . وقد وافق العلماء والشعب على موقفي هذا حيال الفلسطينيين ، إلا أنهم ما زالوا يبدون بعض الملاحظات على موقفي من المسلمين في لبنان بسبب الطابع الطائفي الحاد الذي اتخذه الاقتتال هناك » .

بعدئذ سأل الياس سركيس حافظ الأسد عن موقفه من كمال جنبلاط ، واذا ما كان قطع الأمل منه نهائياً ؟ فجاء جواب الرئيس السوري حاسماً وقاطعاً كل امكانية تفاهم مع الزعيم الاشتراكي . وقد روى الأسد لسركيس لقاءه الأخير مع جنبلاط فقال : « قلت له اننا هدف لمؤامرة ترمي الى تقسيم لبنان واضعاف المقاومة الفلسطينية . فوافقني على هذا المنطلق . فشرحت له ان الوسيلة الفضلى لنجاح المؤامرة هي استمرار القتال ، وبالتالي يجب وقف النزاع المسلح لافشال المؤامرة . هذه معادلة حسابية . ولكن جنبلاط رفض هذه الحقيقة البديهية وسألني أن أعطيه بعض الوقت فأمهله خمسة عشر يوماً حداً أقصى لينتصر على « الانعزاليين » . فرفضت طلبه باسم الاسلام والخلقية الثورية والتقدمية . وحذرته من الوقوع في التجارب ومن التمادي في طلب الحل العسكري . وبيّنت له أننا نواجه كارثة قومية اذا ما تدخلت اسرائيل لانقاذ بعض العرب ، أي المسيحيين اللبنانيين ، من التهديد الذي يوجهه اليهم عرب آخرون ، أعني الفلسطينيين والتقدميين . ولكن جنبلاط كان يفكر تفكيراً آخر . كان يعتقد اني انتزع منه نصراً في متناول يده ، وكان متعطشاً الى السلطة والدم » .

وبالنسبة الى الخلاف مع المقاومة الفلسطينية ، كان الرئيس السوري في غاية الوضوح . وقد أسر الى سركيس بفحوى محادثاته الأخيرة مع القيادة الفلسطينية ، وفيها خاطب عرفات قائلاً : « يجب أن توقف تدخلك في السياسة اللبنانية الداخلية ، وان تفك ارتباطك بالحركة الوطنية . فلا تظن اني احب الفلسطينيين أكثر مما أحب اللبنانيين أو الأردنيين . نحن السوريين لنا علاقات باللبنانيين والأردنيين لا تقل عن علاقاتنا بالفلسطينيين ، إلا اننا نؤيدكم ، انتم الفلسطينيين ، أكثر مما نؤيد الآخرين ، لأنكم ترمزون الى قضية ، ولأنكم مضطهَدون . فلا تتحولوا الى مضطهِدين في لبنان . اذا شئتم أن تتصرفوا كأنكم حزب لبناني فانكم تفقدون طابعكم ، طابع المقاومة الفلسطينية ، فنضطر الى معاملتكم على هذا الأساس » .

وفي ما تبقى من الشؤون ، أبدى حافظ الأسد كثيراً من الايجابية . فقال لالياس سركيس : « لم أدرس اتفاقية القاهرة درساً عميقاً . ولكني أظنها كافية لضمان سلامة المقاومة الفلسطينية . واني اتبنى ، في ما يختص بالتنفيذ ، التفسير اللبناني الرسمي » . وحول وجود الجيش السوري والعلاقات العربية قال : « ان الجيش السوري المرابط في لبنان هو تحت تصرف السلطات اللبنانية الشرعية ، سواء أكان ذلك بموجب ميثاق أمن أو بغير ميثاق ، وهو سينسحب بناء على طلب هذه السلطات . أما جامعة الدول العربية فلا تزعج أحداً ، وفي الوقت ذاته لا تحل شيئاً . ولن تعقد قمة عربية من أجل لبنان ما دام النزاع بين مصر وسوريا مستمراً . ان قمة مصغرة في الرياض محتمل عقدها . ولا مجال للربط بين الأزمة اللبنانية وأزمة الشرق الأوسط . بل بالعكس ، يجب الفصل بينهما » .

ومما لفت نظر الياس سركيس في أثناء محادثاتهما المعقدة والكثيفة ان حافظ الأسد بدا محتاراً بالنسبة الى الاتحاد السوفياتي : « فالرئيس السوري ، علق سركيس أمامنا ، يقف على المسافة نفسها بين الجبارين . ويظهر أن حليفه السوفياتي لا يؤيده في تدخله في لبنان والولايات المتحدة الأميركية لم تعطه الضوء الأخضر » .

ولم يتوقف الياس سركيس طويلاً عند الأمور المتعلقة بالشأن الدولي ، بل شدد على أنه «كسب احترام الأسد » الذي كان منتبهاً لآرائه كلها يحاول فهم أدق التفاصيل وان لم يوافق عليها كلياً . وختم الرئيس المنتخب عرضه قائلاً : « لقد أكد لي الرئيس السوري دعمه التام . ودعاني الى أن أكون قوياً ، حازماً وحذراً . وحثني على تأدية قسمي الدستوري في صوفر أو شتورة تجنباً لاعتداء قد يقع عليّ في بيروت ! » وخلص الياس سركيس الى تقويم شخصية حافظ الأسد مردداً : « إنه رجل يحيط بكل شيء ، وهو عميق ، عميق ، عميق ... » .



٤ ـ وَفي القَاهِرةِ بَدَأت الصّعوبَات

أخذ الرئيس اللبناني يرى الأمور بمزيد من الوضوح . فهو يعلم الآن أن الرئيس السوري قد يقبل بأن يترك مجالاً للحل السياسي ، وان يكن يميل الى الحل العسكري . أما حيال جنبلاط فالاسد لا يتساهل ، ولا يهاود ، في حين أنه يترك الباب مفتوحاً بالنسبة الى عرفات . ورجح الياس سركيس أن لا تقدم سوريا على عمل كبير قبل ٢٣ أيلول ، تاريخ بدء ولايته . أما الخطة اللبنانية للسلام فتبقى معلقة بانتظار عبور مضيق العلاقات المتوترة بين مصر وسوريا . وقد بقي الرئيس المنتخب متمسكاً بمعادلته المفضلة ، ومقولتها : « حل أزمة لبنان يساوي التفاهم بين القوات الفلسطينية — التقدمية والجبهة اللبنانية زائد الاتفاق بين سوريا ومصر » . فما دامت الخصومة السورية المصرية مستمرة ، ستظل ، بنظر الياس سركيس ، الحرب اللبنانية مشتعلة . فاذا كانت سوريا تملك مفتاح الحل في لبنان ، فمصر بالمقابل ، تستطيع أن تعرقل كل تسوية . الحل سوري ولكن العقدة مصرية .

وكانت المملكة العربية السعودية تعمل من جهتها بصمت لعقد قمة عربية لمصالحة مصر وسوريا . أما « الطاولة المستديرة اللبنانية » التي دعا اليها الياس سركيس على أثر انتخابه ، فانها موضوع محادثات عديدة على كل المستويات . وقد نوقشت هذه الفكرة بين الرئيسين فاليري جيسكار ديستان وحافظ الأسد لما زار هذا باريس من ١٧ الى ١٩ حزيران ١٩٧٦ . كما تناولها بضجة كبيرة أنور السادات الذي وجه دعوات عديدة ، في أوائل أيلول ، الى الزعماء اللبنانيين ، ولاسيما الى الإمام موسى الصدر ، وكمال جنبلاط ، ورشيد كرامي ، وصائب سلام ، وبيار الجميل ليزوروا القاهرة ؛ كما تلقى الرئيس سركيس في ١٨ أيلول ١٩٧٦ دعوة لزيارة العاصمة المصرية .

دعاني الرئيس الى الاجتماع في منزله لدى عودته من القاهرة في ٢٠ ايلول ، ووصف الاستقبال « الضخم » الذي أُعد له . لكنه سجل مازحاً بعض الملاحظات حول تصرف الرسميين المصريين ، فقال : « لقد رافقني الى الاسماعيلية كبار المسؤولين وعلى رأسهم حسني مبارك وسيّد مرعي وممدوح سالم واسماعيل فهمي حيث كان ينتظرني الرئيس السادات وكانوا مستخفين بي بعض الشيء . أما في طريق العودة فقد تبدل موقفهم كلياً ، اذ لاحظوا بأي اهتمام عاملني رئيسهم » . والواقع ان الياس سركيس فرض نفسه في أثناء محادثاته مع الرئيس المصري .

« بدأتُ هذه المفاوضة ، قال لي الياس سركيس ، مصراً على أهمية التضامن العربي ، وختمتُها مؤكداً أن لا تضامن عربي بدون اتفاق بين مصر وسوريا . فعندما تتفق هاتان الدولتان

يتحقق التضامن تلقائياً كما أثبتته حرب تشرين . أما عندما تختلفان فينهار كل تضامن بين العرب كما تبين في الأزمة اللبنانية . وهكذا فان الحل في لبنان يبدأ باتفاق سوري — مصري » .

ولكن الرئيس المصري لم ينظر الى الأمر من هذه الزاوية ، بل هاجم سوريا بعنف قائلاً انها المسؤولة الرئيسة عن المأساة اللبنانية ، ولكنه حرص على مسايرة الرئيس السوري بعض الشيء . فقال : « حافظ الأسد صديقي . التقيته منذ فترة في مؤتمر دول عدم الانحياز في كولومبو أمام المصعد ، وحييته . لكن حزب البعث يستغله ويقدم له معلومات خاطئة ... يجب البدء بتحديد المسؤوليات » .

فرد الرئيس اللبناني على الفور ، « لا ، البيت يحترق ، ويجب أولاً اخماد الحريق . ليس هذا وقت تحديد المسؤوليات ، بل وقت اطفاء النار . وعلى كل حال ، فدخان الحريق يعمي البصيرة ويحجب المسؤولين ، وهم كثر » .

بهذا التعبير أفهم سركيس السادات أن سوريا لا تتحمل وحدها كل المسؤولية عن كل ما حدث ، وان مصر تتحمل قسطها من المسؤولية عما يجري على أرض لبنان . عندئذٍ بدّل الرئيس المصري لهجته وقال : « اني مستعد للاجتماع بالأسد متى يشاء وحيث يشاء . واذا دعت الضرورة فاني مستعد للذهاب شخصياً الى دمشق لأضع حداً لحرب لبنان . ولكن لا أوافق على عقد مصالحة مع الأسد من أجل اعطاء تغطية مصرية للوجود العسكري السوري في لبنان . وما دام هذا الموضوع قد طُرح ، فما الذي تنوي عمله بالجيش السوري ؟ » .

لقد تصور الرئيس المصري انه سيحرج الرئيس اللبناني بطرحه هذا السؤال المباشر المتعلق بوجود الجيش السوري . فتمهل هذا الأخير قبل أن يرد ثم قال : «سأعمل كل ما يأمرني به الله ، وضميري ، ومصلحة بلدي » . وقد تعمد سركيس اعطاء هذا الجواب المبهم ليفهم السادات أن وجود الجيش السوري في لبنان ليس موضوع مناقشة في غياب الجانب السوري ، ثم همس في اذن السادات قائلاً له : « أطلب اليك شيئاً واحداً هو أن تتصالح مع الأسد ... » .

ووجه سركيس كلامه اليّ فقال : « ها هنا بلغنا المحطة الحاسمة من الحديث لأن السادات قرر فيها أن يكشف لي أوراقه ، وأن يطلعني على الغاية الحقيقية من العمل الديبلوماسي المصري . فحدّق الى عيني بقوة وقال لي : تعال الى القاهرة وترأس فيها طاولة مستديرة بين اللبنانيين والفلسطينيين ، بل أكثر من ذلك ، فلنذهب معاً وفوراً الى المملكة العربية السعودية . وهناك أدعو ياسر عرفات ، وتحلان معاً الأزمة اللبنانية . إني مستعد لضمان تنفيذ اتفاقية القاهرة تنفيذاً صحيحاً ، وأن أساعد سوريا على الخروج من الموحلة اللبنانية بارسال قوات مصرية الى لبنان » .

وتابع الياس سركيس حديثه قائلاً : « في هذه اللحظة بالذات سلمونا برقية مستعجلة من ياسر عرفات ، وفيها يؤكد للسادات عزمه على أن يقدم لي حالاً ومباشرةً كل التنازلات الضرورية ، شرط أن لا تمر بطريق دمشق » .

ولكن الرئيس اللبناني الذي كانت سوريا قد حذّرته مسبقاً ، رفض بشدة عروض السادات ، وختم كلامه عن زيارته للقاهرة بالمقارنة التالية : « ان السادات ممثل بارع جداً يبهر أكثر من الأسد ، ولكنه أقل عمقاً منه » .

لا ريب في أن الرئيس السادات يجيد التمثيل والاخراج ، ويحب الاثارة المسرحية . فصوته الواضح والموسيقي الجرس ، ونبرته المتصنعة ، ولغته المنمّقة ، ومرحه الطبيعي ، من العوامل التي تؤهله ليكون نجماً مسرحياً . وقد أصبح ، بالفعل ، في أواخر العام ١٩٧٧ ، لمناسبة زيارته للقدس أعظم نجم مسرحي على كل شاشات التلفزة في العالم . ولكن ليس هذا كل شيء ، فالسادات مفاوض ماهر ، موهوب بقدرة فذة على المواربة والتستر ، وهو يستعمل سلاحاً سرياً : المفاجأة .

فعلى أثر وفاة جمال عبد الناصر الساحر ، ورثه السادات بموافقة الجميع ، بمن فيهم منافسوه . وكل منهم كان يفكر آنذاك بأن يستخدمه ويستغله . وقد بدا اختياره للرئاسة وكأنه موقّت وعابر . فهو لم يكن عبقرياً سياسياً ولا قائداً شعبياً ملهماً . ومع ذلك ، ما لبث أن أقصى على الفور وبمهارة فائقة كل معارضيه في الداخل ، عام ١٩٧١ ، ثم طرد ، عام ١٩٧٢ ، الخبراء السوفيات ، وأعلن ، عام ١٩٧٣ ، الحرب على اسرائيل ، وشن حملة واسعة لازالة آثار الناصرية .

السادات هو النقيض الكامل لعبد الناصر . فقد أطلق شعار الوطنية المصرية كبديل عن القومية العربية التي حمل سلفه رايتها . وانتهج سياسة مرنة وواقعية حيث كان عبد الناصر يتبع سياسة راديكالية وحالمة . ولقد كان السادات ردة على الناصرية الى درجة يمكن القول معها انه في كل قرار اتخذه كان يفكر بماذا كان يمكن أن يفعله عبد الناصر في مثل هذه الحال لو بقي حياً ليبادر الى اتخاذ الموقف المعاكس تماماً . لم يكبُ السادات تحت ثقل الزعامة الموروثة ، بل راح يتصرف كفرعون جديد . والواقع أن مصر هي صانعة الفراعنة وليس الفراعنة هم الذين يصنعون مصر . ويظهر عاملان ثابتان من خلال تاريخ مصر الطويل : النيل كمصدر رئيس للحياة ، والحاكم كمصدر وحيد للسلطة . ولم ينجُ السادات من تجربة التسلط والغرور .

واذا كان السادات مضاداً لعبد الناصر في مصر ، فهو مضاد للأسد في لبنان . فمنذ بداية الأزمة اللبنانية ، تجابه السادات والأسد بلا هوادة . فلما كان الرئيس السوري ، في العام ١٩٧٥ ، يؤيد

المعسكر الفلسطيني والتقدمي ، كان الرئيس المصري يوجه نداءات التعاطف مع الجبهة اللبنانية ، وعلى الأخص مع بيار الجميل . وعام ١٩٧٦ انقلب الموقف ، فأصبح السادات يؤيد الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية ، والأسد يدعم الجبهة اللبنانية . وقد بدا السباق اللبناني الطويل وكأنه بلغ نهايته ، ولم يبق منه إلا المئة متر الأخيرة ، فالفائز به سيفوز بالزعامة العربية . وكان كل من المتنافسين يدرك أبعاد المعادلة الجديدة : من يحل أزمة لبنان يصبح هو المؤهل لحل أزمة الشرق الأوسط .

لقد بدت لعبة أنور السادات واضحة ، فهي ترمي الى عزل سوريا والانتصار عليها في ربع الساعة الأخير . ولبلوغ هذا الهدف ، أُتيحت له امكانيتان : عقد طاولة مستديرة لبنانية في القاهرة تضم رئيسياً بيار الجميل وكمال جنبلاط ، أو طاولة مستديرة لبنانية — فلسطينية بين سركيس وعرفات برعاية مصر .

الامكانية الأولى تقلصت إثر الزيارة التي قام بها وفد كتائبي الى القاهرة في ١٤ و ١٥ أيلول ١٩٧٦ . فقد اقترح الرئيس المصري على بيار الجميل في أثناء محادثاتهما أن يلتقي كمال جنبلاط وزعماء آخرين سنيين للوصول الى وفاق وطني . ولكن رئيس الكتائب تملص ببراعة قائلاً : « اني مستعد أن التقي كل لبناني ، ولكن في بيروت » . فأخذ السادات يحاول العمل بالامكانية الثانية وهي ترتيب لقاء بين سركيس وعرفات . وكان لا بدّ أن تثير هذه المحاولة قلق دمشق التي عارضت بشدة زيارة الرئيس المنتخب الى القاهرة . فنشأت في هذه المناسبة أولى الصعوبات بين الحكمين اللبناني والسوري .

* * *

قبل أربعة أيام من زيارة القاهرة استدعانا الرئيس سركيس ، فؤاد بطرس وأنا ، ليطلعنا على الدعوة التي وجهها اليه أنور السادات . وقال لنا : « لا أستطيع رفض هذه الدعوة ، على الرغم من اني لا أتوقع منها شيئاً ايجابياً ، ولكني حريص على اجتناب الانعكاسات السلبية التي يمكن أن تنجم عن رفض هذه المبادرة . وعليّ قبل أي شيء ، أن أستدرك كل تأويل خاطئ يمكن أن تفسّر به سوريا موقفي » .

وفي هذا السبيل ، طلب اليّ أن أذهب الى دمشق لأطلع المسؤولين فيها على خلفيات هذه الدعوة منعاً لأي اساءة فهم أو سوء تفاهم . ولكن اذاعة القاهرة استعجلت ، وبظني عمداً ، الاعلان عن خبر الزيارة الرئاسية بعد ساعات معدودة من توجيه الدعوة ، وقبل أن نتمكن من الاتصال بالعاصمة السورية . مما جعل مهمتي أشد صعوبة وأكثر تعقيداً .

وفي اليوم التالي ، ١٥ أيلول ، ولدى وصولي الى دمشق ، وجدت المسؤولين السوريين مستائين استياءاً بالغاً ، فقال لي عبد الحليم خدام : « أيجوز أن نطّلع من راديو القاهرة عن زيارة الرئيس سركيس ؟ ريمون أده نفسه ، لو كان مدعواً لأخبرنا بذلك ! اننا نشعر بمرارة حادة ، بالنظر الى التضحيات التي كابدناها والضغوطات التي تحملناها بسببكم . فتدخلنا في لبنان حمل الاتحاد السوفياتي على وقف شحن الأسلحة إلينا ، والبلدان العربية علّقت مساعداتها الاقتصادية التي بلغت في العام ١٩٧٤ أكثر من مليار ونصف المليار من الدولارات . إننا نعاني حقاً خيبة أمل مريرة » .

رددت على غضبته هذه بالصبر والتعقل . وحاولت أن أشرح الموقف فميّزت بين مبدإ الزيارة التي لا يجوز الجدل حوله ونتائجها المحتملة التي يمكن التفاهم عليها مسبقاً . وسلمت بأن تحذر سوريا النتائج لكني استغربت أن ترفض المبدأ . غير أن وزير الخارجية السوري المحتدم غيظاً أصر على معارضته للزيارة من حيث المبدأ ، وطلب اليّ أن أنقل الى الرئيس اللبناني رسالة تتضمن النقاط التالية :

* « ترى سوريا أن مصر تستهدف من خلال هذه الدعوة تعقيد الأمور في لبنان ، وخلق تناقضات جديدة لمنع قيام السلام وعودة الأمن والاستقرار .

* ان هذه الدعوة ، في هذا الوقت ، تستهدف الاساءة الى جهود سوريا السلمية ، والى سمعة سوريا ، وتؤدي الى تركيز الصورة لدى الرأي العام العربي والدولي على أن سوريا ضد السلام ، في حين أخذ هذا الرأي العام يتحول لصالح الموقف السوري .

* كنا نأمل عندما وُجهت الدعوة ، ولاسيما ان الموضوع أصبح يعنينا جميعاً كسوريين وكلبنانيين ، أن تجرى مناقشة مشتركة فيما بيننا . وكنا نأمل أن يتم التشاور المشترك . هذه الظاهرة ، على ما يبدو ، ربما لا تشجع في مستقبل العلاقات .

* لقد تحمل الرئيس الأسد شخصياً تبعات كبيرة في سبيل عودة الأمن والسلام والوحدة الى لبنان ، وقد تعرض من جراء هذا الموقف الى حملة كبيرة عربية واسلامية وفلسطينية وعالمية . واذا بنا نفاجأ بانفراد الرئيس سركيس بهذا الموقف دون أن يقدر ماذا يعني ذلك معنوياً ومادياً على سوريا .

* للدعوة هدفان . دعم أبو عمار بخلق وجود مصري عسكري وسياسي في لبنان ، أملاً بتحجيم الدور السوري . وهدف مصري ، لأن مصر بصدد ارسال قوات الى لبنان بحجة المساعدة في عملية السلام وتريد لها غطاءً لبنانياً ، ولاسيما من قبل الرئيس سركيس الذي لن يتمكن من رفض هذا العرض اذا تمت هذه الزيارة .

* اننا نأمل أن يعيد الرئيس سركيس النظر في مبدإ الزيارة فيتم تأجيلها الى موعد آخر ، فينفذها بعد تسلمه مسؤولياته الدستورية في إطار جولة عربية .
* لا بدَّ من التنويه أخيراً الى أن هذه الزيارة ، في حال حصولها ، ستؤدي الى اعادة نظر جذرية وعملية في السياسة السورية تجاه لبنان » .

على الرغم من اللهجة الجازمة التي صيغت بها هذه الرسالة ، فقد اعتبرت موقف سوريا قابلاً للتبدل . وفي اليوم التالي ، ١٦ أيلول ، عدت الى بيروت لأنقل الى الياس سركيس الرسالة السورية ، واقترحت عليه أن يؤكد عزمه على القيام بالزيارة في وقتها المحدّد ، وأن يطلب ، في الوقت نفسه ، أن يستقبله الرئيس الأسد مرتين ، قبل ذهابه الى القاهرة وفي طريق عودته منها . واعتبرت أن من شأن هذين اللقائين أن يكوِّنا تعويضاً معنوياً للرئيس السوري . وكان محمد الخولي قد أسرّ اليّ ، قبل أن أغادر دمشق قائلاً : « لا يجوز للرئيس سركيس أن يخسر صداقة الرئيس الأسد الشخصية حتى لو عادت عليه زيارة القاهرة بأكبر المكاسب » . وبالنظر الى قرب محمد الخولي من الرئيس الأسد ، والى ثقتي بحسن نيته ، توقفت عند كلامه . وفهمت أن الصراع السوري — المصري قد تحوّل مجابهةً بين رجلين : السادات ضد الأسد . فأمست المعركة شخصية ، اذن حادّة . فنصحت الرئيس اللبناني ، في هذه الحال ، بأن يراعي حساسيات حافظ الأسد الى أقصى الحدود .

ولم يتردّد الرئيس اللبناني في تبني تحليلي والرد على الرسالة ، فأملى عليّ الجواب التالي :

* « سأسهر على أن لا تؤدي هذه الزيارة الى أي نتيجة سلبية تجاه المبادرة السورية في لبنان . على العكس فقد تشكل تغطية عربية لها ان لم يكن في الوقت الراهن ففي المستقبل .
* سأرفض ، في أثناء هذه الزيارة ، الاشتراك في أي اجتماع يمكن تأويله أو تفسيره بأنه مصالحة أو وفاق بين اللبنانيين أو بين اللبنانيين والفلسطينيين تحت رعاية الرئيس السادات . فكل تسوية أو اتفاقية يجب أن تكونا بمثابة امتداد طبيعي للمبادرة السورية والجهود التي بذلتها في لبنان .
* ان دخول قوات مصرية — أو سواها — الى لبنان موضوع لا يقبل الفصل فيه ، وحتى البحث فيه . ولن تتخذ السلطات اللبنانية أي قرار في هذا الصدد ، إلا بالتوافق والتنسيق مع سوريا .
* اقترح لقاء الرئيس الأسد في ذهابي وايابي . فلا يمكن بالتالي أن يعلق في ذهن الرأي العام العربي والدولي أن هذه الزيارة قد جرت بدون التنسيق مع دمشق . وبهذا الأسلوب نعطل مفعول كل مناورة لمس كرامة سوريا والانقاص من تضحيات الرئيس الأسد الشخصية .
* لا أرى مبرراً لتأجيل موعد الزيارة ، لأنها لن تؤثر ، لا في الشكل ولا في الأساس ، على قناعاتي أو على المواقف المشتركة التي تبلورت خلال اجتماعي بالرئيس الأسد . ان تأجيل هذه

الزيارة سيعرضني لانتقادات داخلية وعربية وعالمية من شأنها إضعافي وعرقلة الجهود السورية المبذولة .

* أعتقد أن الثقة التي تعمقت خلال زيارتي الى دمشق هي من القوة بحيث تتيح لي اتخاذ المبادرات التي أراها ملائمة . وفي مطلق الأحوال فأني مصمم على عدم اصدار أي بيان مشترك في ختام مباحثاتي في القاهرة .
* لهذه الأسباب ، وبهذه الروحية ، وافقت على دعوة الرئيس السادات واني سألبيها » .

عدت بعد ظهر اليوم نفسه الى دمشق أحمل رسالة الياس سركيس الجوابية . وقبل سفري قال لي الرئيس بلهجة ملحّة : « يجب الحصول على جواب ايجابي مهما كلف الأمر ، حتى لو دعت الحاجة الى مقابلة الرئيس الأسد شخصياً » .

ومنذ وصولي الى دمشق ، باشرت مفاوضات طويلة مع عبد الحليم خدام ، فحصلت بعد جهد على موافقة سوريا . وقد لعبت الرغبة التي ابداها سركيس في مقابلة الأسد مرتين دوراً حاسماً . ولتثبيت اتفاقنا طلبت وضع طوافة سورية في تصرف الرئيس سركيس لنقله الى دمشق ومنها الى القاهرة ، فقُبل طلبي . وأبرقت في مساء اليوم نفسه الى الرئيس المنتخب لأطمئنه ، إلا انه لم يتسلّم برقيتي ، بسبب تعطيل الخطوط السلكية واللاسلكية بين بيروت ودمشق . ولم يغمض له جفن طوال الليل . ولكن ، في اليوم التالي ، لما رأى الطوافة السورية وعلى متنها محمد الخولي ، أدرك أن مهمتي قد كُلّلت بالنجاح . فتوجه بكلامه الى الخولي مازحاً وقال : « هل جئت لترافقني الى دمشق أم لتطلب مني أن أبقى في بيروت ؟ » . فأجابه الخولي مبتسماً : « كل شيء قد تم أخيراً على ما يرام سأرافقك اذا شئت ، لا الى دمشق فحسب ، بل الى القاهرة » .

٥ ـ زئبقيّة ياسر عرفات

تساند الأنظمة العربية كلها ، المحافظة منها والتقدمية ، المقاومة الفلسطينية ، ولكن الجميع يحذرونها . فالمحافظون يحترزون منها لأنها تحمل في ذاتها بذرة ثورية ، والتقدميون يخشون فوضاها العسكرية التي قد تورطهم في معركة خاسرة ضد اسرائيل . فالعلاقات بين الدول العربية ومنظمة التحرير الفلسطينية هي مزيج من التواطؤ والمداهنة . فكل نظام عربي حاول ، بطرق متفاوتة بين اللين والعنف ، أن يوظف المقاومة الفلسطينية لصالحه ما عدا لبنان . فالقضية الفلسطينية ورقة رابحة في الحرب ، إلاّ انها عقبة صعبة في المفاوضات . ولبنان هو الدولة العربية الوحيدة التي لا تحاول ، ولم تحاول أن تستخدم الفلسطينيين ، ولا أن تستغل قضيتهم ، بل على العكس من ذلك ، فقد راحت المنظمات الفلسطينية ، ومنذ العام ١٩٦٧ ، تتدخل في شؤون لبنان الداخلية ، وتحاول الهيمنة عليه .

وليس الفلسطينيون ، في نظر الرئيس سركيس ، اخوة ، ولا هم أعداء . انهم أبناء عم . وبسبب هذه الحرب أمسوا أبناء عم بعيدين . أما المقاومة الفلسطينية فتتصرف كما لو كانت طريق فلسطين تمر بلبنان . فبين آذار ونيسان ١٩٧٦ شنّت المنظمات الفلسطينية ، تساندها القوات التقدمية ، بتحريض من كمال جنبلاط ، هجوماً واسعاً أطلقت عليه اسم « عملية الجبل » . فاحتلت القوات المشتركة جرود المتن وكسروان التي تعتبرها الجبهة اللبنانية استراتيجية وحيوية بالنسبة لها ، وزحفت الى مسافة عشرات الكيلومترات عن قصر الرئاسة في بعبدا ، وبلغت جوار بكفيا ، معقل آل الجميل . وقد أضفت هذه العملية نوعاً من المصداقية على النظرية القائلة بامكان الوصول الى نصر عسكري تام . ولكن مقاومة المسيحيين الشرسة ، وتدخل السوريين المحسوب بدقة فائقة ما لبثا أن قلبا الأوضاع . وما كان يُعتبر نصراً في آذار ، أصبح في أيلول عبئاً ثقيلاً . فقد أصرت كل من سوريا والجبهة اللبنانية على انسحاب الفلسطينيين من الجبل شرطاً مسبقاً لكل اتفاق أو هدنة .

واذا استبعد حافظ الأسد الاتفاق مع الحركة الوطنية فقد أبقى على امكانية الحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية . لذلك شجع الياس سركيس القيادة الفلسطينية ، منذ عودته من دمشق ، في أوائل أيلول ، على الاتصال بالمسؤولين السوريين ، وقال لهم : « لم يقطع الرئيس الأسد الجسور بعد بينه وبينكم » . وحثهم على الانسحاب من الجبل . فوافق ياسر عرفات على هذا الانسحاب مبدئياً ، ولكنه طلب ، في المقابل ، الحصول على انسحاب سوري جزئي ، أو على بعض اصلاحات يدعو لها حليفه كمال جنبلاط .

في هذا الاطار ، عقد اجتماعان بين السوريين والفلسطينيين في صوفر ، في ١٠ و ١١ أيلول ١٩٧٦ . حضر في الاجتماع الأول عن الجانب السوري ناجي جميل ، قائد القوات الجوية ، ومحمد الخولي ، وعن الجانب الفلسطيني أبو أياد وأبو مازن وأبو ماهر . وفي اليوم الثاني حضر اضافة الى الأشخاص المذكورين الوزير السوري عبد الكريم عدي والقائد الفلسطيني أبو صالح .

وقد حمل محمد الخولي ، في ١٣ أيلول ، رسالة من الرئيس الأسد الى الرئيس سركيس تتضمن خلاصة هذين الاجتماعين هذا نصها : « ما برحت منظمة فتح تطلب بالحاح عن طريق أطراف فلسطينية ولبنانية وعربية متعددة عقد لقاء مع المسؤولين السوريين على أساس أن لديها مبادرات جديدة ايجابية من شأنها وقف القتال وايجاد مخرج سياسي للأزمة اللبنانية . نتيجة ذلك وافقنا على اللقاء ، وعقد اجتماعان في صوفر طرحت خلالهما مسألة انهاء القتال على الساحة اللبنانية . ولم يتم التوصل الى تصور مشترك بسبب التفاوت في وجهات النظر ، وعدم وجود أي تغيير حقيقي في موقف « فتح » . وباعتقادنا أن عدة عوامل دفعت بالمنظمة الفلسطينية في طلب اللقاء وأهم هذه العوامل ثلاثة :

أولاً : محاولة استطلاع موقفنا وتوجهنا على الساحة اللبنانية في الظروف الراهنة ، ومحاولة كشف ما جرى الاتفاق عليه مع الزعماء اللبنانيين الذين زاروا دمشق (*) .

ثانياً : امتصاص الضغوط العربية التي تصر على « فتح » لايجاد مخرج سياسي للأزمة اللبنانية بالاتفاق مع سوريا .

ثالثاً : كسب مزيد من الوقت لتحسين وضع الفلسطينيين العسكري المتردي . وقد تأكد لهم من خلال اللقائين انه اذا لم يتم ايجاد مخرج مقبول من كل الأطراف لوقف القتال فان الحسم العسكري يبقى السبيل الوحيد .

وقد تم لقاءات أخرى . وفي تقديرنا أن هذه اللقاءات قد تكون مفيدة لكنها لن تؤثر على خطنا السياسي المبدئي على الساحة اللبنانية وعلى علاقتنا مع مختلف الأطراف » .

بعبارة أخرى ، ان سوريا تعتقد أن « فتح » تناور أما هي فتفاوض « فتح » بانتظار اكتمال الشروط الموضوعية لانتشار الجيش السوري على كل الأراضي اللبنانية . فتوازن القوى لا يسمح بعد بالوصول

(*) استقبلت دمشق ما بين ٦ و ٩ أيلول ١٩٧٦ على التوالي بيار الجميل وكميل شمعون والقادة السنيين الممثلين « بالتجمع الاسلامي » .

الى حل . فلا أحد يشعر بأنه حقاً مغلوب ، وكل فريق يأمل بأنه يستطيع أن ينتصر . وقد بدأ الياس سركيس يدرك أكثر فأكثر حدود عمله . ولكنه لم ييأس . فبعد اخفاق اجتماعي صوفر بين السوريين والفلسطينيين ، دعا الى اجتماعات أخرى في شتورة ، على أن تكون هذه المرة بحضوره . وقُدر لهذه الاجتماعات أن تكون الفصل الأخير للنشاط السياسي الذي بذله خلال خمسة أشهر من الانتظار الطويل بين انتخابه في أيار ١٩٧٦ وتسلمه صلاحياته الدستورية في أيلول من العام نفسه .

* * *

جرت لقاءات شتورة من ١٧ الى ١٩ أيلول ١٩٧٦ ، وضمت الياس سركيس من الجانب اللبناني ، وياسر عرفات من الجانب الفلسطيني ، وناجي جميل من الجانب السوري . واصطدمت كلها بمسألة انسحاب الفلسطينيين من الجبل ولم تتوصل الى عقد اتفاق بين دمشق ومنظمة التحرير الفلسطينية .

في ٢٤ أيلول اختصر لي الرئيس مضمون تلك الاجتماعات ، فاعتبر أن الاجتماع الأول كان أفضل نسبياً من الثاني . وقد دافع أبو عمار عن نفسه دفاعاً حسناً ، وكان ناجي جميل يحشره بلا هوادة وبشكل لا تنفع فيه زئبقية ياسر عرفات . وقد امتنع رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ، في بادئ الأمر ، عن اثارة مسألة الانسحاب السوري . ولكنه لما تطرق لهذا الموضوع ، في أثناء الاجتماع الثاني ، قطع عليه ناجي جميل الكلام مؤكداً : « ان وجود الجيش السوري في لبنان هو قضية لبنانية منوطة بالدولة اللبنانية وبرئيسها الموجود بيننا . وبناءً على طلبه وحده ننسحب أو نبقى . لذلك لا نسمح لأحد ، أياً كان بأن يثير هذا الموضوع معنا » .

واحتدمت المناقشة . فطلب ياسر عرفات ضمانات لسلامة المقاومة الفلسطينية . وأيد الياس سركيس الموقف السوري مؤكداً للزعيم الفلسطيني : « أن الرئيس الأسد وأنا نكوّن الضمانة المطلوبة . وليس من الطبيعي ولا المنطقي أن تثق بالجيش السوري في سوريا ، وأن تحذره في لبنان . ولا مجال اليوم لأن أطلب سحب الجيش السوري » .

وشرح الرئيس موقفه في المحادثات على أساس أن الانسحاب الفلسطيني من الجبل هو ، في نظره ، « المحك والعقدة » . فياسر عرفات يريد أن ينتزع ، في مقابل هذا الانسحاب ، بعض التنازلات له ولكمال جنبلاط . فلم يتردد سركيس في مصارحة عرفات بقوله : « الانسحاب من الجبل هو بمثابة صدمة نفسية ضرورية واعتبره دليلاً على حسن النية ، فلا مقابل له . واذا لم يتم هذا الانسحاب ، فان الجبهة اللبنانية تبقى متشددة ، ترفض كل تنازل ، واني لأفهمها . ان مفتاح الحل هو في الانسحاب الفلسطيني من الجبل . هذا هو الأمر الأول والأهم ، وكل ما تبقّى متعلّق به » .

ثم روى الرئيس سركيس أن ياسر عرفات أثار موضوع مراقبة تنفيذ الاتفاق المحتمل . وقد دعا الزعيم الفلسطيني الى أن يجري الانسحاب باشراف جامعة الدول العربية ، واقترح أن ترفع القوات السورية علم الجامعة . ووصف الرئيس سركيس هذا الاقتراح بأنه مقبول ، ولا بأس في أن تكون القوات السورية تحت علم عربي .

وقد بدا للرئيس في أثناء الاجتماع الأول ، وكأن عرفات موافق على انسحاب الفلسطينيين من الجبل ، في الأيام الخمسة عشر المقبلة ، تحت إشراف عربي . وبناء على ذلك أُنشئت لجنة عسكرية لبنانية — فلسطينية تضم عن الجانب اللبناني موسى كنعان واحمد الحاج ، وعن الجانب الفلسطيني أبو جهاد وأبو الوليد ، بغية وضع خطة تنفيذ الانسحاب . ولكن ما لبث رئيس منظمة التحرير أن تراجع في الاجتماع الثاني ، ولم يعد يقبل إلا بنصف انسحاب من الجبل ، رابطاً الانسحاب التام بشرطين : الأول أن تدخل سوريا في حوار مع كمال جنبلاط ، والثاني أن تنسحب القوات السورية من صوفر . فكان الرفض السوري جازماً . وكان من الواضح أن الحركة الوطنية رفضت ما قبلت به المقاومة الفلسطينية . ولم يكن في وسع عرفات أن يتخلّى عن تضامنه مع كمال جنبلاط بدون أدنى مقابل . وهكذا حاول الحصول على تنازلات لمصلحة الزعيم الدرزي ، على أن تكون بمثابة « هدية القطيعة بين الرجلين » .

كانت العلاقات بين ياسر عرفات وكمال جنبلاط ، وما تزال ، لغزاً . والأكيد أن أبو عمار كان يبحث عن حليف سياسي لبناني منذ عام ١٩٧٠ ، اذ تلقى درساً من التجربة الأردنية عندما قام الملك حسين بسحق المقاومة الفلسطينية فيما سمي « بأيلول الأسود » . ومنذ أيار ١٩٧٣ صارحني أبو عمار قائلاً : « لم تكن هزيمتنا في الأردن عسكرية ، انما هي أولاً سياسية . قاومنا في عمان طوال أسابيع عديدة ، إلا أننا افتقدنا الدعم السياسي . لم يقف في وجه الملك أي رجل سياسي » . لذلك كان همّ عرفات الأول في لبنان أن يجد ذلك الرجل السياسي ، فكان كمال جنبلاط . ولكن في عام ١٩٧٦ انقلبت الأدوار ، فأصبح جنبلاط هو المحتاج الى عرفات ليواجه سوريا والجبهة اللبنانية .

وقبل أن يختم الرئيس حديثه ، أضاف استطراداً متعلقاً بحسن صبري الخولي ، الأمين العام المساعد لجامعة الدول العربية الذي حضر اجتماعات شتورة كلها ، فقال : « كنت أحسبه أوفر ذكاءً . ففي الاجتماع الأول ، منعت المصورين ، خلافاً لرأيه ، من دخول ردهة الاجتماع . وفي الاجتماع الثاني ، حمل آلة تصوير وراح يقفز من زاوية الى أخرى ليأخذ صوراً تذكارية ، وذلك في أحرج فترات المفاوضات » .

ثم ختم الرئيس كلامه قائلاً : « ان اجتماعات شتورة قد فشلت . وسأتابع بذل جهدي

للوصول الى انسحاب فلسطيني من الجبل بدون معركة مع السوريين . ان حظي بالنجاح في هذه المحاولة ضئيل جداً ، ولكني سأعمل كل ما يمكن عمله لأوفر دماء الناس ، وآمل ألا تعاكسني الظروف » .

وكان المقدّر للأحداث أن تتصاعد فجأة . فبعد يومين ، في ٢٦ أيلول ١٩٧٦ ، استولت جماعة مسلحة من الفلسطينيين على فندق سميراميس في دمشق . وكانت نتيجة ذلك الهجوم خمسة قتلى وعشرات الجرحى . وفي اليوم التالي شُنق في الساحة العامة الثلاثة الذين ظلوا أحياء من الجماعة الفلسطينية . واتهمت سوريا منظمة فتح بتدبير ذلك الاعتداء . ووصل محمد الخولي سراً الى بيروت ، فاجتمع أولاً بالرئيس سركيس ونقل اليه رسالة من الرئيس الأسد تقول : « على أثر الاعتداء على فندق سميراميس ، قررت القيادة السورية شن هجوم على المنظمات الفلسطينية في الجبل اللبناني . والرئيس الأسد يرى الفرصة ملائمة لذلك . فالغليان الشعبي على أشده يطالب بالاقتصاص . ان هذه الفرصة ثمينة ، فلا يجوز أن ندعها تمر بدون أن نغتنمها . لذلك ، قررت السلطات السورية شن الهجوم فجر غد ، عند الساعة الرابعة » .

لم يوافق الرئيس سركيس على هذه العملية ، وقال للخولي : « اني أفضل الحل السياسي ، ولا أستطيع الموافقة على الحل العسكري . أمس بالذات ، لمناسبة قيامي بالقسم الدستوري أدنت علناً اللجوء الى القوة ودعوت الى حل الأزمة بالطرق السياسية . وحبر دعوتي هذه لم يجف بعد . اني رجل بنى حياته على الصدق والصراحة . ولن أغيّر مسلكي اليوم وأنا في أول عهدي . لا أقدر أن أتصور نفسي أضرب الفلسطينيين وأنا ما زلت أتفاوض معهم . فما دامت المحادثات مع عرفات حول الانسحاب من الجبل لم تنقطع بعد ، لا أستطيع الموافقة على مثل هذه العملية » . وعبثاً حاول الخولي اقناعه بأن هذه العملية العسكرية المحدودة قد تؤدي الى حل سياسي شامل . وافترق الرجلان في جو متوتر ، فخرج الرئيس سركيس من هذا الاجتماع متجهماً ، والخولي خائباً .

وعند كميل شمعون ، كان الجو مفعماً بالسرور والانشراح . وقد قال الزعيم اللبناني بارتياح واضح : « اني موافق بنسبة مايتين في المئة . لا تسمع أقوال الرئيس سركيس . انه ما يزال مبتدئاً . اذا كان يريد الوثوق بوعود عرفات ، فلن يحرر الجبل أبداً » . ثم سأل الخولي : « أتريدون القيام بعملية عسكرية في المتن فقط ؟ لماذا لا تنتهزون الفرصة وتتابعون هجومكم فتصلون الى عاليه ؟ »(*) . فأجاب العقيد السوري بكل تهذيب بأن العملية تقتصر حالياً على المتن .

(*) يعتبر المتن من منطقة الجبهة اللبنانية . أما عاليه فتعتبر حصناً للقوات المشتركة الفلسطينية والتقدمية .

وكان بيار الجميل يستعد للذهاب الى الفراش في بكفيا لما وصل الخولي وأطلعه على العملية ، فأجابه : « أخيراً ، هذا خبر حسن يستحق أن أدخن له سيكارة » . والمعروف عن الرئيس الكتائبي أنه يدخن نادراً ، واذا دخن اكتفى بمجة واحدة من سيكارته . وقد أضاف مخاطباً الخولي : « اني موافق بنسبة ألف بالمئة ... واذا أردتم أن تأخذوا بعين الاعتبار كل الآراء فلن تفعلوا شيئاً ، فامضوا في سبيلكم » . ثم استدعى الشيخ بيار ابنه البكر أمين رئيس أقليم المتن آنذاك ، والرئيس المقبل للجمهورية ، وأطلعه على الخبر ، فعلق الشيخ أمين مبتسماً : « لوكنا نعلم أن عملية سميراميس ستؤدي الى ردة الفعل هذه لكنا نحن قمنا بها من زمان ! » .

أما سليمان فرنجية ، فكان جوابه بسيطاً ، فبعد أن استمع صامتاً الى أخبار الخولي ، حدق اليه راضياً مرتاحاً ثم قال له : « الله يوفق » . وعاد الموفد السوري عند الساعة الثانية عشرة ليلاً الى دمشق بالطوافة وبدأ الهجوم العسكري عند الفجر .

استدعاني الرئيس صبيحة الهجوم السوري . وبرر موقفه قائلاً : « لا أستطيع القبول بالعملية السورية . إني أرفض القيام بلعبة مزدوجة : التفاوض صباحاً والضرب مساءً . هذا ما لا يخطر في بالي ، وهو يناقض ضميري . أريد أن أبقى أميناً لنفسي » .

وفي أثناء اجتماعنا اتصل به عرفات هاتفياً ، وطلب اليه التدخل لوقف الاجتياح السوري ، وللحصول على وقف اطلاق النار ، واذا تعذر ذلك فلشجب الهجوم على الفلسطينيين . فأجاب الرئيس بوضوح كلي : « الحق عليكم . وما يحدث هو نتيجة سياستكم في المواربة واللف والدوران ، قدموا لي مقترحات مكتوبة ، فأذهب فوراً الى دمشق » . فالرئيس اللبناني يريد أن يبقى حكماً بينما سوريا وعرفات يريدانه فريقاً في النزاع .

وقد حدد أمامي موقفه حيال الأحداث الجارية . فأكد لي أنه لن يعمل شيئاً : فلا يوافق ولا يستنكر ، كما أنه لن يتوسط لدى سوريا الا في حال تلقيه تفويضاً خطياً من عرفات . واعتبر أن مصلحته الشخصية هي في شجب الهجوم السوري فيصبح عندئذ بطلاً في نظر الفلسطينيين والمسلمين والتقدميين ، الا ان هذه البطولة الرخيصة تسيء الى المصلحة الوطنية . كما أن الموافقة الصريحة على العملية السورية تمس الوحدة الوطنية . فهو يرفض الوقوع في منطق يقوده الى سحب الجيش السوري أو الاستقالة . لذا لن يتخذ موقفاً علنياً : « اذا انسحب الجيش السوري تلبية لطلبي تضررت القضية اللبنانية ، واذا لم ينسحب هذا الجيش اضطر الى الاستقالة فيتضرر لبنان أيضاً » .

وهكذا لم يشجب الرئيس العملية العسكرية ولم يؤيدها محاولاً اتخاذ موقف حيادي . انه موقف

الاتزان الذي سيبقى السمة البارزة لعهده خلال ست سنوات . لكن هذه السياسة تعني أيضاً شيئاً من الانكفاء والتراجع .

استغرقت عملية الجبل أربعاً وعشرين ساعة . وفي اليوم التالي ، ٢٩ أيلول ، اضطر الفلسطينيون الى الانسحاب من المتن كله . واذا بالرئيس سركيس ممزّق بين الخلقية والواقعية السياسية . فمن الجانب الخلقي يشجب الهجوم السوري ، وعلى الصعيد السياسي يؤيده ، لأنه كان على الفلسطينيين أن يغادروا الجبل . ولكن المشكلة هي غير ذلك . فالرئيس سركيس غاضب ومتأثر . وبعد سكوت استغرق أياماً ، قال لنا ، فؤاد بطرس وأنا : « لا أحد يريد أن يتخلّى عن مواقعه . كل جانب يعمل لحل يضمن له الحد الأقصى من المكاسب ، والحد الأدنى من التنازلات . ومشكلتي تتلخص في سؤال هو : كيف أحكم ؟ كيف استعيد سلطتي المبعثرة بين الجبهة اللبنانية والحركة الوطنية ومنظمة التحرير الفلسطينية وسوريا واسرائيل وغيرهم ... لا ريب أن الجبهة اللبنانية وسوريا هما الأقرب اليّ . ولكن ماذا تريد سوريا ؟ هل تسود الثقة حقاً بيننا ؟ لقد أُسيءَ تأويل زيارتي للقاهرة على الرغم من أنني ذهبت الى مصر كصديق لسوريا . فهل أكون مضطراً كل مرة الى تقديم شهادة حسن سلوك ؟ ان طبيعتي والكرامة الوطنية لا تسمحان لي بأن أقع تحت وصاية أي كان . ولا يجوز أن تكبل سوريا يديّ . اذا كنا حليفين حقاً فليتركوا لي حرية الحركة . أريد أن أحكم . أنا رئيس جمهورية منذ خمسة عشر يوماً ، ولم أحكم بعد ساعة واحدة . من الراهن أني لا أملك وسائل انتزاع السلطة بالقوة ، ولكني أستطيع على الأقل أن أحتج ... » .

ذلك هو الانذار الأول . ان الخلافات والشكوك بدأت تهدد العلاقات الوثيقة التي نسجها الرئيس اللبناني بينه وبين الرئيس السوري . الا أن الياس سركيس لم يستسلم بل كرر محاولاته التوفيقية بين السوريين والفلسطينيين . فعاد الى عقد الاجتماعات في شتورة مع ناجي جميل وياسر عرفات . وأرسل فؤاد بطرس الى دمشق ليوضح موقفه . ولكن بين ١٢ و ١٥ تشرين الأول اتسع الهجوم السوري باتجاه صيدا التي كانت واقعة تحت السيطرة الفلسطينية . واذا كان الهجوم الأول لم يؤدِ الى نتائج سياسية كبيرة ، فالثاني سيعجل في عقد القمة العربية المصغرة في الرياض . وقد أخذت تلوح في الأفق بوادر السلام السوري وفي مسراه انطلاقة عهد الياس سركيس .



الفصل الثاني

فرص ورهان

لقد طالت حرب لبنان كثيراً ، فأصبحت مدمرة للمنطقة وخطرة على مصالح الدول الكبيرة . فالاتحاد السوفياتي يحاول أن يضع حداً لحرب أخذت توتر العلاقات بين حليفتيه : سوريا والمقاومة الفلسطينية . والولايات المتحدة الأميركية تخشى أن يتحول لبنان الى فيتنام جديدة . والدول العربية تشعر بأنها متورطة في حرب أهلية عربية لا حظ لأحد في كسبها . والفلسطينيون مطوقون ، واللبنانيون منهكون . ولم يبق سوى مؤسسة واحدة : الشرعية . ولا يطفو على السطح سوى رجل واحد : الياس سركيس .

في ٢٣ أيلول ١٩٧٦ ، أدى الرئيس سركيس القسم الدستوري في شتوره ، وقوبل خطابه ، في هذه المناسبة بالارتياح ، حتى من جانب المعارضين. وتوجه مساءً ، وللمرة الأولى ، الى قصر الرئاسة الذي هجره سليمان فرنجية منذ ستة أشهر . فوقع نظره على مشهد مفجع : رائحة العفن والنتانة تفوح من الغرف والمكاتب ، الجدران مثقوبة ومحروقة ، زجاج النوافذ محطم ، الغبار والقذارة يكسوان كل الطبقات ، المكتب الرئاسي غير صالح للاستعمال . وبعض العمال يعدون مكتباً كيفما كان الأمر في زاوية محمية من ذلك البناء المدمر لاستقبال الرئيس الجديد . فالقصر على غرار لبنان ، بحاجة الى اعادة بناء كامل . فقال رئيس الدولة : « اني انطلق من الصفر ، لا بل من تحت الصفر ! اني رئيس بلا دولة . ولكني واثق من النجاح » .

على الرغم من منظر القصر المحزن بدا الرئيس منشرحاً ، وكأنه يشعر باقتراب الفرج القادم من الرياض . ففي ١٧ و ١٨ تشرين الأول ١٩٧٦ تبنى مؤتمر القمة المصغر الذي دعت اليه السعودية مجمل مقترحات الرئيس اللبناني ، وتلا هذا المؤتمر المصغر آخر موسع في القاهرة في ٢٥ و ٢٦ تشرين الأول . فخرج الياس سركيس من المؤتمرين بتأييد عربي قلّ نظيره . وفي ١٠ تشرين الثاني دخل الجيش السوري بيروت باسم قوات الردع العربية . وبذلك انتهت مرحلة الانتظار ولمعت في الأفق تباشير الأمل . فالفرص كبيرة ، لكن الرهان أكبر .



١ ـ الحلّ في الرياض

كان الرئيس اللبناني يعلل الأمل لشعوره بأن شيئاً نهائياً يحدث . فالمملكة العربية السعودية تنشط لمصالحة السادات والأسد . ومبدأ انعقاد مؤتمر القمة المصغر أصبح حاصلاً ، ولكن هناك خلافاً على المشتركين فيه . فسوريا تدعو لقمة سباعية تضم مصر ، وسوريا ، والمملكة العربية السعودية ، والكويت ، ولبنان ، والأردن ، ومنظمة التحرير الفلسطينية . ومصر ومنظمة التحرير تدعوان الى قمة سداسية تضم الدول المذكورة ما عدا الأردن . والياس سركيس يقترح قمة ثلاثية من مصر وسوريا والمملكة العربية السعودية . ويضيف موضحاً وجهة نظره : « اذا كانت القمة السداسية أو السباعية تسبب مشكلات ، فلتُدعَ عندئذ قمة ثلاثية الى الانعقاد بدون لبنان ومنظمة التحرير الفلسطينية . المهم أن تتم المصالحة بين مصر وسوريا وعليّ الباقي » . وكان شأن هذا الاعتبار انه جمّد عقد مؤتمر الرياض مدة شهر . وأخيراً انحلّت العقدة ، وتدخل الملك حسين شخصياً لدى الرئيس حافظ الأسد ، تلبية لطلب المملكة العربية السعودية ، ليقبل الرئيس السوري بالقمة السداسية بدون الأردن . ولما صدر بلاغ المملكة السعودية ، في ١٥ تشرين الأول ، يعلن أن مؤتمر قمة سداسية يُعقد في الرياض في ١٦ من الشهر نفسه ، ابتهج سركيس ابتهاجاً عظيماً . وأمضى الليل حتى الساعة الثالثة صباحاً ، يضع اللمسات الأخيرة على ملفاته . فالفرصة ملائمة للحصول على تكريس عربي للقضية اللبنانية . والفرصة مناسبة للانطلاق بقوة .

وعند عودته من الرياض ، في ١٩ تشرين الأول ، استدعانا ، فؤاد بطرس وأنا ، الى منزله الخاص ، وبدا راضياً ، مستبشراً وواثقاً بنفسه . وما لبث أن وصف لنا بأدق التفاصيل فصول ذلك المؤتمر في السعودية . سافر الى الرياض عن طريق دمشق بواسطة طوافة سورية ، لأن مطار بيروت كان معطلاً ومقفلاً بوجه الطيران وتسيطر عليه المقاومة الفلسطينية . وصل العاصمة السورية في ١٦ تشرين الأول ، حيث كان ينتظره حافظ الأسد محاطاً بمعاونيه جميعاً . فأوضح له الرئيس السوري انه أخّر سفره الى عمان ليستقبله ، منعاً لكل تأويل لغيابه لدى وصوله الى سوريا . وقال له : « ما كنت لأقبل الاشتراك في هذه القمة لو لم يلحّ عليّ الملك حسين شخصياً ومباشرة لأقبل بالذهاب الى الرياض بدونه ... وعلى كلٍ لم تُتخذ الاستعدادات اللازمة لهذا المؤتمر ، وآمل ألا تكون نتائجه سيّئة » . وبدا حافظ الأسد وكأنه غير متحمس لهذا اللقاء !

عقد الرئيس اللبناني ، منذ وصوله الى الرياض ، اجتماعاً مع الملك خالد وولي العهد الأمير فهد . وألح على المسؤولين السعوديين بعدم الدعوة الى اجتماع عام ، قبل أن يكونوا قد أجروا المصالحة بين

الرئيسين الأسد والسادات . فالوقت لا يهم ، المصالحة هي الأهم . وأضاف مازحاً : « فلتطل مدة المؤتمر كل الوقت اللازم . نحن في ضيافتكم الكريمة ولن تبخلوا علينا بالاقامة في ربوعكم » .

عقد الاجتماع الأول يوم الأحد ١٧ تشرين الأول ، دون أن يكون الرئيسان المصري والسوري قد التقيا . كان الجو متوتراً ومكهرباً ، برأي الرئيس اللبناني . وبعد كلمة المناسبة التي ألقاها الملك خالد ، اقترح السادات أن يعرض سركيس الموقف الراهن بمثابة تمهيد للمناقشات . واقترح الأسد الاستماع الى عرفات أيضاً . بدأ الياس سركيس حديثه بكلمة شكر وجهها الى المشتركين في المؤتمر جميعاً ، ولاسيما الى المسؤولين السعوديين . وأشار منتقداً بلطف مبطن التغاضي العربي ، فقال : « يقدر اللبنانيون مبادرتكم ، وان تكن متأخرة ، ويودون الوصول الى نهاية عذابهم . ويأملون ان يكون هذا الاجتماع منعطفاً حاسماً باتجاه السلام . فالأوضاع في لبنان اليوم مأساوية ، ونتائج ما حدث فيه باهظة ، وباهظة جداً : ألوف القتلى والجرحى ، مؤسسات منهارة ، اقتصاد نازف ، هجرة مستمرة وأخوة يتذابحون . مدننا وأسواقنا التي كانت مزدهرة أمست حقول دمار ، فالخراب في كل مكان » .

وانتقل الرئيس سركيس الى عرض أسباب الأزمة فقال : « ان تشريد الشعب الفلسطيني من قبل الصهيونية هو سبب المأساة اللبنانية . واليوم ، يتحمل لبنان من عافيته نتائج هذا التشريد وانعكاساته . انه يدفع ثمناً غالياً يهدد مستقبله وحتى وجوده من أجل ذنب لم يرتكبه . ولكن لهذه المأساة أسباباً أخرى تعود الى المفارقات العربية التي تفاعلت على أرضنا . فلو عاملت الدول العربية الفلسطينيين معاملة متساوية لما وصلت الحالة في لبنان الى ما وصلت اليه . لقد قيدتم الفلسطينيين فالتجأوا بأكثريتهم الساحقة الى لبنان . وقد أكرهت الظروف الدولة اللبنانية ، عام ١٩٦٩ ، على عقد اتفاقية القاهرة التي تنظم علاقاتها بالمقاومة الفلسطينية . وتعتبر هذه الاتفاقية بالنسبة الينا ، الحد الأقصى المحتمل ، وألا نكون قد قضينا على سيادتنا . ومع ذلك ، رفض فريق من المقاومة ، على الأقل ، تطبيق هذا الاتفاق فتقلصت عندئذ تدريجياً الثقة بين الدولة والمنظمات الفلسطينية . وحيال حجم التسلح الفلسطيني ، ساور الخوف قسماً من اللبنانيين ، وقد أضحت المقاومة الفلسطينية قوة ضاغطة مهمة في وجه الدولة اللبنانية . فضلاً عن ذلك ، تدخل الفلسطينيون في شؤون البلاد الداخلية ، فدعموا مطالب فئة من اللبنانيين ضد فئة أخرى » .

وذكر سركيس بعدئذ الأسباب اللبنانية للحرب ، فقال : « يعاني المجتمع اللبناني امراضاً عديدة كمختلف مجتمعات العالم . ففي داخله توترات ولدى فئاته مطالب بعضها محق وبعضها الآخر مرفوض . أنا شخصياً أعلنت بوضوح عزمي على بناء مجتمع أوفر مساواة ، وأكثر عدالة ، وأوسع ازدهاراً . ولكن هذا لم يؤدِ الى وقف حدة المعارك . اذن فليست الاصلاحات هي سبب الأزمة الأساسي . فهذه الأزمة لم تكن لتتخذ حجمها المأساوي لولا الوجود الفلسطيني المسلح وما سبّبه من ردة فعل لبنانية مسلحة » .

وهكذا أوضح الياس سركيس أن النزاع الحالي لا ينبع من مطالب اجتماعية وسياسية داخلية ، بل هو ناجم عن رفض المقاومة الفلسطينية تطبيق اتفاقية القاهرة . كما يرجع أصله الى التناقضات العربية التي ازدادت حدة بسبب الصراع بين الدولتين العظميين . فأزمة لبنان ليست لبنانية ، فهي تتعلق بالعرب كلهم . وخلص الرئيس موجهاً كلامه الى القادة العرب : « ان قضية لبنان بين أيديكم وفي ضمائركم . فان عقدتم العزم ، وأنتم عازمون ، وصممتم على حلها حُلت ، وان لم تصمموا فلا حول ولا قوة ... » .

نجح الياس سركيس في مرافعته . انه محام بارع لقضية عادلة . لقد أظهر لبنان بمظهر الذبيحة التي يضحى بها على مذبح الأثرياء والاقوياء . فللحفاظ على النفط تدمر حضارة ، ولاجتناب المجابهة بين الكبار يدفع الصغار الفدية المرهقة . وأثبت ان اللبنانيين لا يتحملون من مأساتهم الا مسؤولية يسيرة . واستحوذ الرئيس على أذهان مستمعيه . وأعلن ايمانه بلبنان ، وعزمه على العمل جاهداً لانقاذه . ثم وصف الحالة والحلول ، ووضّح التطورات والقواعد ، فأكد : « أن لبنان يجب أن يعود حراً ومستقلاً وسيداً . ويجب تمكين السلطة اللبنانية من توفير أمن لبنان وسلامة أبنائه والمقيمين على أرضه . ويجب أن تستعيد الدولة دورها العربي ، وتكون ، على الأخص ، في نجوة من التدخلات الخارجية . فيقتضي أولاً اخماد الحريق الذي ستمتد ألسنته الى خارج الحدود فيصيب كل العرب . ومن الضروري أن تكون للشرعية قوة عملانية توحي بالثقة للمواطنين الآمنين ، وتردع الصائدين في الماء العكر . هذه القوة أكثر من ضرورية ، انها لا غنى عنها . ان سوريا لم تتردد في تقديم العون لنا ، واني على يقين بأن بلداناً عربية أخرى لن تبخل علينا لفرض نهاية الاقتتال . لقد وجه لبنان نداءه الى الجيش السوري طالباً اليه ضبط الفلتان بداعي العلاقات الخاصة القائمة بين البلدين . ومن الطبيعي أن يكون للقوات السورية دور راجح في داخل قوات الردع . وتكون هذه القوات خاضعة للأمرة اللبنانية التي يعود اليها حق تحديد العدد والمهمات ومدة الاقامة » .

وأنهى الرئيس اللبناني خطابه بتقديم مجموعة من الاقتراحات ، فقال : « ليست حرب لبنان حرباً أهلية ، ولا حرباً دينية . انها أكثر من ذلك . فما استطيع أن أفعله بمفردي سيبقى محدوداً . أنتم ، كمجموعة عربية ، تستطيعون حل المشكلة . واقترح أن تقوموا ببذل جهد عربي جماعي لبلوغ الأهداف الأربعة التالية :

١ ــ وقف القتال كلياً على كل الأراضي اللبنانية على أساس تطبيق اتفاقية القاهرة فوراً .

٢ ــ احترام المقاومة الفلسطينية لسيادة لبنان وعدم تدخل الفلسطينيين في شؤون لبنان الداخلية .

٣ — تأليف قوة ردع عربية تكون تحت أمرة السلطات اللبنانية . ولهذه السلطات أن تقرر عدد تلك القوات وعتادها ، على أن تكون مهمة قوات الردع وضع حد للمجابهات المسلحة ، والسهر على تنفيذ اتفاقية القاهرة ، وفرض الأمن والاستقرار على كل الأراضي اللبنانية حتى يتسنى للبنان أن يجدد بناء قواته المسلحة .

٤ — تقديم العرب مساعدة اقتصادية لاعادة تعمير لبنان » .

وأخيراً لخّص الرئيس معنى خطابه فأعلن : « اني أضمن سلامة المقاومة الفلسطينية في اطار اتفاقية القاهرة ، وعلى العرب من ناحيتهم أن يضمنوا عدم تدخل المقاومة الفلسطينية في الشأن اللبناني الداخلي » .

لاحظ سركيس أن الملوك والرؤساء الحاضرين أعجبوا بحديثه . ومكثوا برهة صامتين عند الانتهاء من القاء كلمته. وقد أعرب السادات عن كامل موافقته على خطاب الرئيس اللبناني، واقترح اعتماد وجهة نظر لبنان ، واعطاء الاولوية لوقف اطلاق النار ولانشاء قوة الردع العربية . وأبدى السادات ليونة بالنظر الى ورقة العمل المصرية التي تقدم بها قبل افتتاح المؤتمر والتي تطالب بانسحاب الجيش السوري من لبنان . وكان مجرد تبني مصر لفكرة قوة الردع العربية يعني الاشارة من طرف خفي الى استعداد السادات للتسوية والامتناع عن المطالبة بانسحاب الجيش السوري كشرط ملزم لكل اتفاق .

ثم جاء دور ياسر عرفات ليعرض وجهة نظره . وفي هذا الصدد ، قال لنا الرئيس اللبناني : « تحدث عرفات عن كل شيء ولا شيء . وكان تارة يتهم وطوراً يتباكى . فاتهم كميل شمعون والانعزاليين بالتعامل مع اسرائيل ، وذكر تصريحات بعض المسؤولين الاسرائيليين الذين أكدوا ارسال أسلحة الى المسيحيين لمقاتلة الفلسطينيين . واعترف بالتجاوزات الفلسطينية ، ولكنه أراد ، على الأخص ، اكتساب عطف الرئيس السوري . فقابله هذا الأخير بموقف صارم لم يخلُ من بعض التهكم . لقد تصرف الرئيس الأسد كرجل دولة بكل معنى الكلمة . انه يتمتع بذكاء وقّاد وشجاعة . انه يفرض نفسه أكثر من الرئيس السادات » .

ولخص الرئيس سركيس لنا بقية المناقشات التي جرت على مستوى وزراء الخارجية، والتي تولّى رئاستها بحضور ياسر عرفات ، فأشار الى أن نقطتين اثنتين كانتا موضوع مفاوضات طويلة وهما : عودة المهجرين وأمرة قوة الردع العربية . وقد أصر أبو عمار على عودة الفلسطينيين الى مخيمي تل الزعتر وجسر الباشا . فعارض الرئيس اللبناني هذا الطلب بشدة مؤكداً أن عودة الفلسطينيين الى هذين المخيمين

اللذين يقعان في قلب المنطقة المسيحية تعني استئناف القتال فوراً . فاعادة هذين المخيمين لا تنفع الفلسطينيين ولا يقبل بها المسيحيون . وقال لعرفات : « لو ان الدولة اللبنانية طلبت منك أن تعود الى مخيمي تل الزعتر وجسر الباشا فعليك أن ترفض . فهذه العودة فتيل يشعل النار من جديد ، وعلينا سحب الفتيل وليس اشعاله » . واقترح الياس سركيس وضع قطعة أرض بتصرف منظمة التحرير الفلسطينية لتقيم عليها مخيماً يأوي الفلسطينيين المهجرين . وبعد مناقشة طويلة وافق الحاضرون على هذا الاقتراح .

أما النقطة الثانية المتعلقة بقوات الردع العربية ، فقد انقسمت حولها الآراء . طالب كل من وزير خارجية مصر اسماعيل فهمي وياسر عرفات ملحَّين بأن تكون هذه القوات بقيادة جامعة الدول العربية .أما الياس سركيس وعبد الحليم خدام فأصرا أن تتولى قيادتها السلطات اللبنانية . ولما طالب الرئيس اللبناني بأن يكون عديد هذه القوات ثلاثين ألف رجل ، قفز ياسر عرفات محتجاً وقال ان الجيش اللبناني ، في ذروة قوته لم يكن يضم أكثر من أربعة عشر ألفاً . فأجابه سركيس : « أن الجيش اللبناني كان أربعة عشر ألف رجل لما كان في لبنان كله أربع عشرة بندقية . أما اليوم ، والأسلحة تملأ الأرض ، فالحاجة لا تقتصر على ثلاثين ألف جندي ، بل أراني بحاجة الى مائة وثلاثين ألفاً » .

وغاصت المناقشات في ما يشبه الرمال المتحركة ، وتلاحقت الاجتماعات على مستوى وزراء الخارجية بدون نتيجة . واستمرت المجابهة المصرية — السورية آخذة بالتصاعد . فطرحت مصر فكرة قيام قوة عربية بدلاً عن القوات السورية ، وحاولت سوريا الحصول على تغطية عربية لوجودها العسكري في لبنان . لقد غدا لبنان محكاً لمستقبل الزعامة العربية التي تتنافس عليها مصر وسوريا . وفي الوقت نفسه أضحى مستقبل لبنان محكوماً بتطور النزاع المصري — السوري . فبدون المصالحة بين السادات والأسد أمسى مؤتمر الرياض معرضاً للفشل . لذا القت المملكة العربية السعودية بثقلها كله في الميزان .



٢ ـ المصالحة المصرية ـ السورية

ضاعف ولي العهد ، الأمير فهد ، محاولاته للتقريب بين الرئيسين المصري والسوري . وفي ساعة متأخرة من ليل ١٧ تشرين الأول ١٩٧٦ ، انتهت الوساطة السعودية الى نجاح . فقرر السادات والأسد أن يتبادلا الزيارات ، وتمت المصالحة ونجا المؤتمر .

وصف لنا الرئيس سركيس ، عندئذ ، الاجتماع الثاني الذي عُقد على مستوى الرؤساء . فقال ان السادات بدا منشرحاً ، خلافاً لما كان عليه في الاجتماع الأول . واتخذ موقفاً ليّناً تجاه الأسد . أما هذا الأخير فلم يبدل تصرفه لكن ظهرت عليه بعض علامات الرضى . أما السعوديون فكانوا فخورين بما حدث ، في حين كان عرفات شديد القلق .

وقد شعر الرئيس اللبناني بأن الجو ملائم فعرض نتائج الاجتماعات التي عقدت على المستوى الوزاري . وتطرق للنقطة الأساسية التي بقيت معلقة ، وهي المختصة بقيادة قوات الردع العربية . ولاحظ أن هناك طرحين متعارضين : الأول يريد إلحاق قوات الردع العربية بالسلطات اللبنانية ، والآخر يريد إلحاقها بجامعة الدول العربية .

وروى الياس سركيس كيف أن حافظ الأسد شرح وجهة النظر السورية ، فأوضح أن قوات الردع العربية يجب أن تناط مباشرةً وشخصياً برئيس الجمهورية اللبنانية ، ولا يجوز أن تعود قيادتها الى وزير الدفاع ولا الى وزير الداخلية . واستطرد الرئيس السوري ، موجهاً كلامه الى الرئيس المصري ، فقال : « علينا جميعاً أن ندعم الرئيس سركيس الذي يتمتع بثقتنا كاملة . فهو ليس رئيس حزب ، ولا رئيس ميليشيات . ولا مجال لخلق ازدواجية في قيادة قوات الردع التي ليست قوة فاصلة بين المتقاتلين فحسب ، بل هي قوة مدعوة الى الحلول محلّ الشرطة والجيش اللبنانيين ، ولا أفهم لماذا يجب أن يكون جيش في لبنان تحت سلطة غير لبنانية . كل ازدواجية في الأمرة تكون مساً خطيراً بالسيادة اللبنانية » .

أيد أنور السادات موقف سوريا ، وحاول ياسر عرفات الحصول على بعض الضمانات بعد أن تخلّى عنه الجميع . إلا أن حافظ الأسد ظل حازماً لا يهاود . وبدا أحياناً قاسياً لا يرحم . وتحول هذا الاجتماع الى مبارزة غير متكافئة بين رابح سلفاً هو الأسد ، وخاسر سلفاً هو عرفات .

وتذكر الرئيس اللبناني بعض المجادلات الحادّة . فروى أن عرفات صاح محتجاً على صلابة الأسد ، فقال له : « انك تذبحني ! » . فأجابه الرئيس السوري : « الحق عليك . انك تذبح نفسك وتذبح المقاومة معك » . ولما اشار الزعيم الفلسطيني الى انه فقد في المواجهة الأخيرة مع الجيش السوري مقاتلاً فلسطينياً هو « دكتور من جامعة هارفرد ، وزميل كيسنجر » ، رد عليه رئيس الدولة السورية بكل برودة : « لا أسف عليه . انه يستحق ما حدث له ، خصوصاً لأنه زميل كيسنجر » . وأخيراً ، لما أشار عرفات ، مداورة ، الى أن المسلمين اللبنانيين كالفلسطينيين ، يطالبون بالانسحاب السوري ، رد الأسد قائلاً : « نصف الزعماء المسلمين يقيمون في دمشق والنصف الآخر يزورنا بشكل مستمر . أما البيانات التي تصدر عنهم فانهم مستعدون لتوقيع أي شيء ما دام الكلشينكوف مصوباً الى رؤوسهم » . ثم أضاف بلا تردد : « عملية سميراميس كلفتكم الجبل ، وعملية سفارة روما كلفتكم بحمدون . وسأتابع الضرب كلما حصلت عملية فلسطينية ضد هدف عربي في العالم ، أياً كانت المنظمة التي تدعي قيامها بهذه العملية » .

أمام موقف حافظ الأسد الحازم ، غيّر الزعيم الفلسطيني تكتيكه ، إلا أنه لم يخضع ، بل طالب بتنفيذ اتفاقية القاهرة تحت اشراف جامعة الدول العربية ، فقال : « اني مغلوب . احتاج الى حماية . أشعر بأني تحت الوصاية . أُريد أن تكون جامعة الدول العربية حكماً في كل نزاع بين المقاومة الفلسطينية والدولة اللبنانية . ليكن هناك على الأقل مبعوث دائم من الجامعة في لبنان . هذا يكفيني » .

رفض الرئيس السوري هذا الطلب قائلاً : « ان ما يطلبه ياسر عرفات هو تغييب الدولة اللبنانية . يريد أن ينتزع من السلطات اللبنانية حقها في تطبيق اتفاقية القاهرة ، ووضع الأمر في عهدة الجامعة العربية . هذا مسّ لا سابقة له بسيادة دولة عربية . من غير المعقول قيام سلطة فوق سلطة رئيس الجمهورية اللبنانية . من غير الطبيعي اعطاء الجامعة العربية حق المراقبة والنقض بالنسبة الى كل أمر يصدره الرئيس اللبناني . هذا غير معقول ! يجب تنفيذ اتفاقية القاهرة تنفيذاً دقيقاً بحيث تحل قوات الردع العربية موقتاً محل الجيش اللبناني . ومن غير الطبيعي أن يرفض الفلسطينيون أن يعطوا جيشاً عربياً هو قوات الردع ، ما قبلوا بتسليمه ، بموجب اتفاقية القاهرة ، للجيش اللبناني الذي يقاتلونه الآن . لينفذ الفلسطينيون اتفاقية القاهرة ، لا أكثر ولا أقلّ ، فتكون المشكلة كلها قد حُلَّتْ . فلا يحق للمقاومة الفلسطينية اقامة دولة في داخل الدولة » .

أعرب الرئيس اللبناني عن تأييده لوجهة نظر الأسد . فلاحظ : « اشراف جامعة الدول العربية يعني ، في حقيقته ، أن الدولة اللبنانية قد جُرِّدت من كل صلاحياتها ، وان قراراتها أضحت عرضة للسقوط . لنفترض أن رئيس الجمهورية اللبنانية قرر القيام بعمل معين . فيكفي أن تُعطى جامعة

الدول العربية حق الاشراف ، لتستطيع معارضة هذا العمل والحؤول دون تنفيذه . آمل أن تدركوا الخطر الذي ينطوي عليه الاقتراح المطروح : فمبعوث الجامعة العربية يستطيع نقض أمر يُصدره رئيس الجمهورية ! لهذا السبب لا أستطيع القبول بانتشار قوة مسلحة على الأرض اللبنانية ان لم تكن بأمرتي . ولا أقبل أن تتحرك هذه القوات بغير أمري . ولا أقبل ان استأذن أي مرجع عندما أقرر تحريكها » .

وأخيراً ، تدخل أنور السادات فقال : « اقترح أن يتولى الرئيس اللبناني شخصياً قيادة قوات الردع العربية . اننا نثق بالرئيس سركيس . أما بشأن اتفاقية القاهرة ، فيمكن التفكير بتأليف لجنة عربية مهمتها مساعدة الرئيس اللبناني للعمل على تطبيق بنود الاتفاق . أما الشؤون الأخرى كلها فمنوطة بالسيادة اللبنانية ، وللرئيس سركيس ملء الحرية في معالجتها كما يريد » . واقترح تأليف لجنة رباعية تضم ممثلين عن مصر ، والمملكة العربية السعودية ، وسوريا ، والكويت ، على أن تجتمع بصورة دورية لمساعدة الرئيس اللبناني على تطبيق اتفاقية القاهرة بدون المس بالسيادة اللبنانية . وحذر الفلسطينيين من الخلط بين مفهومين مختلفين كلياً : مفهوم السيادة ، ومفهوم التمثيل ، وأضاف : « صحيح أن منظمة التحرير تمثل الفلسطينيين في لبنان ، ومصر ، وسوريا وغيرها ، إلا أنها لا تتمتع بأي سيادة في داخل هذه الدول . ان تمثيل الشعب الفلسطيني شيء ، والسيادة اللبنانية شيء آخر : فلا يجوز لمنظمة التحرير أن تدعي ، باسم الشعب الفلسطيني ، سيادةً في داخل لبنان » ، واعتبر انه يكفي لاعطاء الفلسطينيين الضمانات المطلوبة تأليف اللجنة الرباعية للسهر على تطبيق اتفاقية القاهرة . وانتهى الى القول : « فلنكن صريحين ، ولننسَ الألقاب ولنتكلم بين أخوة. علينا جميعاً أن ندعم الرئيس اللبناني الجديد . ومن مصلحتنا جميعاً أن ينجح . اسمع ، يا ياسر ، اذا لم تنفذ المقاومة اتفاقية القاهرة ، فاعلم اننا سنكون ضدك حافظ وأنا » .

لقد انتهت اللعبة . فليست مصر التي خسرت بلٍ هي سوريا التي ربحت بوجه منظمة التحرير . وبقي أن تعلن النتائج : وقف عام لاطلاق النار ابتداءً من ٢١ تشرين الأول ١٩٧٦ ، تأليف قوة عربية رادعة بأمرة رئيس الجمهورية اللبنانية ، تأليف لجنة رباعية من السعودية ، ومصر ، وسوريا ، والكويت ، مهمتها تطبيق اتفاقية القاهرة في مهلة تسعين يوماً .

لقد أسفر المؤتمر عن منتصر ، هو حافظ الأسد ، ورابح هو الياس سركيس ، ونافذ هي المملكة العربية السعودية . فبالنسبة الى الرئيس السوري تم اعتراف العرب بتدخله السياسي والعسكري في لبنان : اعتراف صريح بصوابية المبادرة السورية . وبالنسبة الى الرئيس سركيس ، جرى تكريس العرب لدوره وسلطته : شيك على بياض . أما المملكة العربية السعودية ، فنجحت في أهم عملية سياسية أجرتها منذ وفاة الملك فيصل الذي اغتيل في ٢٥ آذار ١٩٧٥ ، في بدء الحرب اللبنانية تماماً .

كان الملك فيصل ، قبيل وفاته ، يتمتع بشهرة دولية واسعة . بينما الملك خالد بن عبد العزيز ، شقيقه الذي خلفه على العرش ، يكاد يكون شبه مجهول في خارج بلاده . فهو متحجّب ، قليل الظهور ، وفي منتهى البساطة ، لم يتقن فن المفاوضات السياسية والديبلوماسية ، إلا أنه يوحي بالاحترام والثقة ، وله تأثير خاص في قبائل البدو . انه بين اشقائه الوحيد الذي لم يتلق دروساً عليا في خارج بلاده ، مريض القلب ، يبدو أكبر سناً مما هو بالحقيقة . زاهد ، يبدو أوفر اهتماماً بأعمال الخير منه بشؤون الدولة . ولما استقبل ، في حزيران ١٩٧٧ ، وفداً كتائبياً برئاسة الشيخ بيار الجميل ، أعرب عن اعتزازه ببناء المساجد ، فقال : « بنيت مائتي مسجد منذ عامين ، أحدها في روما » . فهو يتصرف كما لو كان يملك ولا يحكم ؛ مما أتاح البروز لشقيقه الأمير فهد ، ولي العهد ، الذي سيصير ملكاً في ١٣ حزيران ١٩٨٢ .

ويمتاز الأمير فهد بخبرة سياسية واسعة . فقد قام باكراً جداً بمهمات عديدة وصعبة في الخارج ، حيث نسج علاقات متينة . وتولّى منذ فجر شبابه ، وزارة التربية ، فوزارة الداخلية ، وأشرف على المناصب الرئيسة الفاعلة في انماء البلاد . وهو طموح وعملي ، يسافر كثيراً ، ويعيش على النمط الغربي ، ويوجه السعودية بروح واقعية وحيوية . وقد لاحظ الرئيس سركيس بشأنه قائلاً : « انه الذي يدير فعلياً شؤون المملكة ، وهو المهندس الحقيقي في مصالحة مصر وسوريا من خلال تحرك مكوكي بين السادات والأسد . وقد وضع ثقل المملكة العربية السعودية كله في الميزان لانجاح مؤتمر الرياض . وكان يتصرف كما لو كان اخفاق هذا المؤتمر يُعتبر هزيمة سعودية . كان يريد أن ينجح ، مهما يكلف الأمر ، ومهما يكن الثمن . ولا أدري أي مبلغ دفع السعوديون لمصر وسوريا ، ولكني أفترض انه مبلغ ضخم ! » .

يتّبع الملك خالد والأمير فهد ، خط الملك فيصل الذي حدّد محاور الديبلوماسية السعودية الثلاثة وهي : انتشار الاسلام المحافظ خصوصاً في بلدان العالم الثالث ، ترسيخ الاستقرار في منطقة الشرق الأوسط ولاسيما منطقة الخليج ، القيام بدور الوسيط الفعّال في النزاعات بين العرب . والنتائج الاستراتيجية الناجمة عن هذه السياسة واضحة كل الوضوح وتؤدي الى تقوية القادة المعتدلين ضد المتطرفين الراديكاليين ، والى التحالف مع الولايات المتحدة الأميركية في وجه الاتحاد السوفياتي ، والدعوة الى التضامن بين العرب والمسلمين . وفي هذا الصدد ، تحولت المشكلة اللبنانية ، بالنسبة الى السعوديين ضرباً من الاختبار الصعب . لقد كان الحكم السعودي يشعر ان حل المعضلة اللبنانية هو دليل ساطع على جدارة السعودية وقدرتها في حل المسائل المعقدة والشائكة .

مما لا شك فيه أن المملكة العربية السعودية تدرك أبعاد قوتها المالية في عالم تعصف به أزمة اقتصادية لا سابقة لها . والسعوديون يعتقدون ، كالأميركيين ، ان في وسع الدولار أن يحل كل شيء .

وهم يملكون ، فضلاً عن ذلك وقبل ذلك ، سلاحاً يفوق قوة الدولار وهو الاسلام . وهكذا يشعر القادة السعوديون بأنهم مهيئون للتأثير في مجرى الأحداث . وبضمان نجاح مؤتمر الرياض يدخل المسؤولون السعوديون الجدد دخولاً مرموقاً الى المسرحين الاقليمي والعالمي . فالمملكة السعودية لا تكتفي بأن تكون « يابان » الشرق الأوسط فتمثل قوة اقتصادية بدون فعل سياسي مؤثر ، بل تحاول أن تصبح « أميركا » الشرق الأوسط فتفرض ما عاد المعلقون يتحدثون عنه « العصر السعودي » ، وهو تعبير استعمل للمرة الأولى بعد حرب تشرين عام ١٩٧٣ على أثر قرار الملك فيصل قطع النفط السعودي ورفع الأسعار . وها هي السعودية تسجل من جديد كسباً سياسياً من خلال انجاح قمة الرياض المصغرة ، ومن بعدها قمة القاهرة الموسعة التي ستقر نهائياً انشاء قوة الردع العربية لتسوية أزمة لبنان .

٣ ـ قوة الردع العربية

لم يكن ثمة شك بأن القمة العربية الموسعة التي تضم البلدان الأحد والعشرين الأعضاء في جامعة الدول العربية ستصادق على مقررات القمة المصغرة في الرياض . ففي كل مرة تتفق فيها مصر وسوريا والسعودية يحصل القرار على اجماع باقي الدول العربية تقريباً . وفي مقابل ذلك ، تملك كل واحدة من هذه الدول الثلاث نوعاً من حق النقض — الفيتو— لا ينص عليه نظام الجامعة . وكلما اختلفت هذه الدول الثلاث حول أمر ما ، تعذر اتخاذ أي قرار عربي . وفي ضوء مصالحة الرياض ، لم يكن هناك بد من نجاح مؤتمر القاهرة .

واعتبر الرئيس سركيس أنه هو أيضاً قد نجح ، اذ تمكن في الرياض من الحصول على كل ما يمكن الحصول عليه . فالقمة اعترفت بسيادة لبنان على كل أراضيه وضمنتها . ولكن مقررات الرياض لاقت انتقادات من قبل كمال جنبلاط وكميل شمعون الذي تحفظ في ما يختص بدخول قوات الردع الى المناطق المسيحية مما جعل الياس سركيس يطرح النتائج التي توصل اليها في الرياض على الجبهة اللبنانية .

قال لي : « لا أريد أن يقبل كميل شمعون وبيار الجميل بمقررات الرياض اكراماً لي ، فهذه المقررات تخدم مصلحة لبنان ، ورفضها كلياً ، أو حتى جزئياً ، يعني سحب الثقة بسياستي . فهذه المقررات تؤلف حلاً متوازناً لا يتجزأ ، فأما أن نأخذ بها جملة ، أو أن نرفضها كلياً ، فلا مجال لأخذ بعضها وترك بعضها الآخر ، وبالأخص فيما يتعلق بقوات الردع العربية » . وهو يعتبر هذه القوات بديلاً عن الجيش اللبناني وقوى الأمن الداخلي ، ويجب أن تستطيع الدخول الى مختلف المناطق اللبنانية بدون أن تواجه عراقيل . ومن غير الطبيعي أن تنتشر فقط في المناطق الاسلامية وأن تستثنى المناطق المسيحية . ويخلص الرئيس الى القول : « يهمني أن يوافق زعماء الجبهة اللبنانية على ما وقعته في الرياض فهم الذين قاتلوا ، وعليهم هم أن يوقفوا القتال . ليفكروا بهذه المقررات ويحكّموا فيها ضمائرهم ، فاذا أيدوها أذهب الى القاهرة ، وإلا ، فسأرى أي موقف أتخذ ... » .

وصمت مفكراً فترة طويلة ، ثم أعلن ، للمرة الأولى ، ما سيكوّن فيما بعد ، احدى الثوابت الأساسية في سياسته ، فقال : « لا أستطيع أن أحكم ضد السوريين أو ضد المسيحيين . حكمي يقوم على التفاهم بين سوريا والجبهة اللبنانية ، وعلى الأخص التفاهم بين سوريا وحزب الكتائب اللبنانية .

هذا هو المحور الأساسي لعهدي . بلا سوريا تنشب الحرب ، وأنا رجل سلام ، وبلا الكتائب تكون نهاية لبنان ، وأنا لبناني » . هوذا مفتاح سياسته ، ولكن في الوقت ذاته سبب مأساته . فما دام السوريون والكتائبيون متفاهمين يسير كل شيء على ما يرام ، أما إذا تجابه الفريقان ، فماذا يعمل الياس سركيس ؟ من حسن الحظ اننا لم نصل بعد الى هذا الاحتمال الأسوأ .

بدأ الرئيس تحركه فاجتمع أولاً ببيار الجميل وأطلعه على رسالة شفهية حمله إياها أنور السادات . وقد قال الرئيس المصري للرئيس اللبناني قبل مغادرته الرياض : « ليس لدي ما أقوله لسليمان فرنجية . ولا أريد التعاطي مع كميل شمعون . ولكن ، قل لبيار الجميل أن السادات يرجوه أن يبذل جهده لتنفيذ مقررات الرياض » . وأضاف الرئيس اللبناني ، موجهاً كلامه الى الرئيس الكتائبي : « ان معارضة مقررات الرياض تعني سحب الثقة مني » . وكانت ردة فعل الجميل ايجابية وفورية ، فقال : « كل خلاف بيننا ، يا فخامة الرئيس ، سيكون كارثة » .

أما كميل شمعون فكان أكثر تحفظاً . فاقترح أن تشترك قوات أردنية في قوة الردع ، وأن تنتشر هي في المناطق المسيحية . ولكنه ما لبث أن قبل بدخول القوات السورية بعد توسط صديقه الملك حسين عاهل الأردن الذي أرسل لمقابلته في بيروت موفداً خاصاً هو زيد الرفاعي ، رئيس مجلس الوزراء الأردني سابقاً .

بقيت مسألة أقلّ أهمية كان ينبغي حلها قبل قمة القاهرة . فالرئيس سركيس حضر وحده قمة الرياض بدون رئيس الحكومة ، رشيد كرامي ، الذي أصرّ على الذهاب الى القاهرة باسم « المشاركة » في السلطة . فالزعماء المسلمون التقليديون قلقون من الدعم غير المشروط الذي يقدمه القادة العرب للرئيس اللبناني . فقبل هذه المرحلة كان الدعم العربي يأتي دوماً عن طريق الاسلام التقليدي ، وكانوا هم بدورهم يتصرفون وكأنهم يمثلون العرب في لبنان . وها هو الآن الدعم العربي يأتي مباشرة لرئيس الجمهورية المسيحي !

ولكن الجبهة اللبنانية كانت تمانع في اشتراك كرامي بالقمة بسبب موقفه السلبي طوال الأزمة اللبنانية . فوجد الرئيس سركيس مخرجاً من هذا المأزق ، إذ دعا كميل شمعون بصفته نائب رئيس الحكومة ووزير الخارجية الى مرافقته مع كرامي الى القاهرة . إلا أن شمعون رفض تلك الدعوة قائلاً : « أتريد لي أن أكون وصفي التل آخر ؟ » . وكان كميل شمعون يلمح الى عملية اغتيال رئيس الوزراء الأردني عام ١٩٧١ على يد منظمة أيلول الأسود الفلسطينية في أثناء انعقاد مجلس الدفاع العربي المشترك في القاهرة . وهكذا تمكن الياس سركيس من اصطحاب رشيد كرامي الى القاهرة دون أن تقوم قيامة الجبهة اللبنانية .

* * *

وكما فعل الرئيس سركيس لدى عودته من الرياض دعانا فؤاد بطرس وأنا ، فور رجوعه من القاهرة . ولخص لنا رحلته بايجاز . وأطلعنا على فحوى محادثته مع حافظ الأسد وهو في طريقه الى العاصمة المصرية في ٢٤ تشرين الأول . فقد حدد له الرئيس السوري موقفه من قيادة قوة الردع العربية وقال له : « المهم أن ترتبط أمرة قوات الردع بك شخصياً ومباشرة . فلا تكون لهذه القوات علاقة بالمراجع الأخرى في الدولة اللبنانية . إني أعرفك شخصياً ، ولكني لا أعرف وزير الدفاع المقبل أو وزير الداخلية ، ومن غير المعقول أن أسلّم جنودي الى مجهولين . لن أضع جيشي بين يدي رجل ككميل شمعون أو رشيد كرامي . وقد يُحجم هذا الأخير عن استعمال قوة الردع العربية كما رفض استعمال الجيش اللبناني . وسأوضح لكرامي موقفي ، وأطلب اليه أن يقبل اسناد قيادة الردع اليك مباشرة وشخصياً ، وأرجو ألاّ تتساهل في هذا الشأن . يجب تصديق مقررات الرياض بدون أي تعديل » .

افتتحت القمة العربية الثامنة في ٢٥ تشرين الأول ١٩٧٦ . انها « قمة لبنان » كما وصفها الياس سركيس . وظهرت آثار المصالحة المصرية — السورية في مجرى المناقشات وسادت روح التفاهم بين السادات والأسد ، فكل ما يرغب أحدهما فيه يقبله الآخر . ولاحظ الرئيس اللبناني انهما في « شهر عسل » . وقد أشاد الرئيس المصري عند الافتتاح « بروح تشرين » أي بالتحالف بين مصر وسوريا ، ودعا الى التضامن العربي لوضع حد للحرب في لبنان ، وهي حرب تشكل حسب قوله « تحدياً للعرب » ، ثم دافع بمهارة عن مقررات الرياض .

وردّ الرئيس السوري التحية بالمثل ولكن بلهجة مختلفة ، فحذر العرب من مستقبل قاتم إن هم تمادوا في إضاعة الوقت والفرص . وفاتح المجتمعين بمصالحته مع السادات وببعث روح تشرين من جديد ، وأضاف : « يجب الآن انهاء مأساة لبنان التي ترهق اللبنانيين والفلسطينيين والعرب . وأرانا نهدر في حرب لبنان مكاسب حرب تشرين عوضاً من أن نفيد منها » .

ثم جاء دور الياس سركيس فشرح الموضوعات والطروحات التي تناولتها قمة الرياض . وأكد ضرورة تأليف قوة ردع عربية من ثلاثين ألف رجل لمنع تفاقم الأزمة وانتقال « عدوى حرب لبنان » فتصيب العالم العربي بأسره . وشدد على ان بلده يدفع « فاتورة مزدوجة » : فاتورة التقاعس الدولي في حل المشكلة الفلسطينية ، وفاتورة التناقضات التي تمزق العالم العربي . وألحّ أخيراً على ضرورة انهاء النزاع المسلح في لبنان ، وتطبيق اتفاقية القاهرة في مهلة تسعين يوماً ، ومنع كل تدخل في شؤون لبنان الداخلية .

مع ذلك لم يحصل الاجماع ، فوزير خارجية العراق ، سعدون حمادي ، الذي يتولى رئاسة وفد بلاده ، طلب بلهجة عنيفة انسحاب القوات السورية من لبنان ، واتهم سوريا و « اصدقاءها

الانعزاليين حلفاء اسرائيل بذبح الفلسطينيين والتقدميين » ، واستنكر سياسة الهيمنة التي يمارسها حافظ الأسد ، ورفض مقررات الرياض .

وعلى الفور طلب الرئيس اللبناني الكلام ورد على المزاعم العراقية والتمس من الحاضرين الامتناع عن توجيه الاتهامات المجانية والمتسرعة . وأكّد في هذه المناسبة أن وجود القوات السورية في لبنان هو « وجود شرعي » . فوفّر هكذا على الرئيس السوري الرد على المندوب العراقي ، ناهيك بأن الأسد لا يحب الرد على وزير ، بل يفضل أن يهاجم ، اذا لزم الأمر ، صدام حسين شخصياً ومباشرة .

وتابع الياس سركيس روايته فأشار الى أن ياسر عرفات بذل قصارى جهده ليحمل مصر على الاشتراك في قوة الردع العربية ، وإن بصورة رمزية . والاشتراك المصري ، بحسب رأي عرفات ، يقلّل من تخوّف الحركة الوطنية ، ويخلق توازناً ميدانياً بين دمشق والقاهرة في لبنان . ولكن السادات رفض جازماً هذا الاقتراح . وقد خفي على أبو عمار أن القاهرة لا توافق على الاشتراك بأي قوة عربية تكون فيها المساهمة المصرية في الدرجة الثانية بعد أي دولة عربية أخرى . فاما أن تكون مصر القوة الرئيسة واما أن لا تشترك . والواقع أن الرئيس المصري يعلم علم اليقين أن الدور الأول في لبنان أصبح بعد اليوم لسوريا .

ولم يدع الرئيس السوري هذه الفرصة تفوت من غير أن يستغل الفوز الذي حققه في الرياض . فأكد أن الجيش السوري دخل لبنان تلبية لطلب السلطة الشرعية اللبنانية ، ولن يخرج إلا استجابة لطلبها . وشدّد على ان سوريا تتحمل عبئاً باهظاً نيابة عن العرب جميعاً وعوضاً عنهم . ودعا الدول العربية كلها الى الاشتراك في قوة الردع التي تتألف من ثلاثين ألف رجل . ثم توجّه الى الحاضرين قائلاً : « اذا قدمتم عشرة آلاف رجل لهذه القوة ، قدمت قبالتها عشرين ألفاً ، واذا قدمتم عشرين ألفاً ، قدمت عشرة آلاف . واذا قدمتم ثلاثين ألفاً ، وهو العدد المطلوب ، فاني أسحب فوراً الجيش السوري شاكراً لكم صنيعكم سلفاً » . وكان هذا الموقف بمثابة ضربة معلم أجبرت الجميع على القاء سلاحهم .

وأخيراً روى لنا الرئيس اللبناني حواراً جرى مع عرفات ، اذ طلب أبو عمار « اشتراك منظمة التحرير » في قوات الردع العربية ، وربط انسحاب القوات النظامية الفلسطينية بانسحاب ما أسماه « المرتزقة الغرباء من صفوف الميليشيات المسيحية » ، واعتبر نفسه « شهابياً » على قدم المساواة معه . فرد الياس سركيس بلهجة حازمة : « يعود لي وحدي حق تقرير من يجب أن يبقى في لبنان ومن يجب أن

يرحل ومتى . ان مجرد طرح أي شرط من الشروط لخروج القوات الفلسطينية النظامية التي دخلت الى لبنان بصورة غير شرعية هو تدخل في شؤوننا الداخلية . ونحن لسنا شهابيين قدامى . فأنت رئيس منظمة التحرير الفلسطينية وأنا رئيس جمهورية لبنان » .

في النهاية صادقت قمة القاهرة على مقررات الرياض بلا تعديل فنجح الياس سركيس بعد انتخابه بستة أشهر وبعد تسلمه صلاحياته بشهر واحد في كسب الثقة العربية بشخصه وسياسته . لقد اعتمد الحكمة والروية والحزم فاستخرج شيئاً من لا شيء وقفز من تحت الصفر الى فوقه . وهو يعلل الأمل الآن بوقف الحرب وتحقيق فرص السلام .

ولكن ، في اليوم التالي لقمة القاهرة ، تدهورت الأوضاع : فاستؤنف قصف الأحياء السكنية في بيروت ، وهاجم الدروز بيوت المسيحيين في الشوف ، ونشبت معارك عنيفة في الجنوب ، وانتشرت اشاعات كثيرة عن هجوم اسرائيلي محتملٍ . فراح الرئيس سركيس يبذل جهوداً مضنية لتطبيق خطة السلام التي وُضعت في الرياض ، وصُدِّق عليها في القاهرة . وفي ٧ تشرين الثاني ، وجّه نداءً الى الأمة لتعد استقبالاً حسناً لقوة الردع العربية . وفي ١٠ تشرين الثاني تمت المرحلة الأولى : فتقدمت قوة الردع العربية نحو عاليه وضاحية بيروت . وفي ١٥ من الشهر نفسه ، بسطت هذه القوة ظلها على بيروت كلها في مرحلة انتشارها الثانية . فانتقل لبنان من حقبة الفلتان الفلسطيني الى حقبة الضبط السوري .

في اليوم السابق لدخول الجيش السوري الى بيروت ، حبس لبنان انفاسه متسائلاً هل هذه نهاية الحرب ؟ وقد دعاني الرئيس سركيس الى تناول العشاء عنده ، ورسم لي لوحة كاملة للأوضاع ، ثم أطلعني على بعض انطباعاته فقال : « اني واثق كل الثقة بأن الرئيس السادات قد حذر اسرائيل عن طريق الولايات المتحدة الأميركية من مغبة قيامها بالهجوم على جنوب لبنان . وربما يكون قد هدد بابطال اتفاقية سيناء الثانية(*) في حال قيام الجيش الاسرائيلي باحتلال الجنوب اللبناني . وهذا يعني عملياً تقديم دعم سياسي وعسكري لسوريا » . وأشار الرئيس اللبناني الى أهمية المصالحة في الرياض التي أعادت تضامن القاهرة مع دمشق ، وأمنت ضمانة الأوضاع في لبنان . ويعتقد الرئيس أن السادات قد قدّم التأكيدات اللازمة لكمال جنبلاط ليحمله على القبول بوجود القوات السورية في بيروت والشوف . ومن ناحية أخرى ، أعطت المملكة العربية السعودية ضمانات كافية لياسر عرفات

(*) اتفاقية موقعة من مصر واسرائيل في ٤ أيلول ١٩٧٥ في جنيف وتنص على تعهد البلدين بعدم اللجوء الى القوة والامتناع عن القيام بأي عمل عسكري .

الذي يبقى في نظرها أقل ضرراً وخطراً من جبهات الرفض الفلسطينية الأخرى . فالمسؤولون السعوديون يخشون أن يتسلم المتطرفون قيادة منظمة التحرير ، اذا ما اهتز موقع عرفات الذي يمثل الاعتدال الفلسطيني .

وانتقل سركيس الى عرض المرحلة الثانية من خطة السلام المفروض تطبيقها صباحاً ، وهي تنص على دخول قوة الردع العربية بيروت كلها . فنظر اليّ واثقاً وقال لي : « غداً سنشهد يوماً تاريخياً » . ثم أضاف مبتسماً : « يجب أن يكون المرء مجنوناً ليُقدم على ما أقوم به » . فأجبته : « لست وحدك مجنوناً فلبنان كله أصبح عصفورية »(*) .

(*) اسم المكان الذي يقوم فيه مصح طبي للمجانين في لبنان .

٤ ـ فريق العمل

التقيت الياس سركيس للمرة الأولى في ١١ شباط ١٩٧٥ ، فقال لي آنذاك : « ممارسة الحكم تستوجب ثلاثة أمور : رجلاً وبرنامجاً وفريق عمل » . الرجل اضحى موجوداً وهو الرئيس ذاته ، والبرنامج اصبح مرسوماً وهو مقررات قمتي الرياض والقاهرة ، ولم يبق سوى ايجاد فريق العمل بدءاً بتأليف حكومة جديدة .

في ٧ تشرين الثاني ، طرح الرئيس موضوع الحكومة ، وقال : « اني مدعو الى أن أكون إما أقوى رئيس وإما أضعف رئيس عرفه لبنان . واذا اضطررت أن أكون الرئيس الأضعف ، فمن الأفضل ألا أبقى في مكاني أكثر مما بقيت » . وهو يفكر أن وضعه شبيه بوضعية فؤاد شهاب ، مع فارق رئيسي انه يستطيع الذهاب أبعد منه ، لأنه ربح الدعم العربي . ففي العام ١٩٥٨ ، لم يكن جمال عبد الناصر يميل صراحة الى الجنرال . أما اليوم فحافظ الأسد الى جانب الرئيس سركيس . والاسلام اللبناني أصبح ضعيفاً بعض الشيء في حين خرج من أزمة ١٩٥٨ منتصراً نسبياً . وللمرة الأولى منذ ١٩٤٣ لم يبق في لبنان ثقل اسلامي يواجه رئيس الجمهورية . وقد راح الياس سركيس يعطي بعض الأمثلة ليؤكد وجهة نظره فأشار الى ان بشارة الخوري لم يكن يستطيع أن يحكم بدون رياض الصلح ، وكميل شمعون كان مضطراً لأن يواجه صائب سلام وكمال جنبلاط . وفي عهد فؤاد شهاب برز رشيد كرامي بالاضافة الى صائب سلام وكمال جنبلاط . مع شارل حلو ، أي من هؤلاء وغيرهم كان أقوى من رئيس الجمهورية . في عهد سليمان فرنجية كان كمال جنبلاط يقوم بدور الرئيس الظل . أما اليوم ، فرئيس الجمهورية هو الأبرز . وهكذا يصل الياس سركيس الى استنتاج منطقي فيقول : « ان الوضع الجديد يؤدي الى قيام نظام حكم جديد والى الانتقال واقعياً من النظام البرلماني برأسين الى النظام الرئاسي برأس واحد » . انه مشروع مهم ولكن الأهم أن يتحقق فلا يبقى حلماً وكلاماً .

والواقع أن الرئيس اللبناني لم يكن واهماً . وكان يتصور ، من غير أن يعبر عن فكره بصراحة ، بأن قمتي الرياض والقاهرة أضفتا معنى جديداً على ميثاق ١٩٤٣ . وثمة الآن ميثاق ١٩٧٦ الذي سيسير عليه لبنان . فالدول العربية محكومة كلها من قبل رجل واحد أو أسرة واحدة أو حزب واحد . لبنان وحده يخضع لنظام ذي رأسين ، وقد آن الوقت لتوحيد السلطة في لبنان بموافقة عربية .

حاول الرئيس أن يبعث المعادلة الشهابية التي كانت تقوم على تفاهم كمال جنبلاط وبيار الجميل . وقد أعربت المملكة العربية السعودية عن رغبتها ، عن طريق الرئيس السوري ، في أن يختار الرئيس اللبناني رئيس الوزراء من ضمن العائلات التقليدية . وقد أكد السعوديون أنهم لا يقبلون بأن يُستبعد الاسلام المحافظ عن الحكم وأن ينهزم السنّة في لبنان . فما كان من الياس سركيس الا أن تجاوب ، فقال : « أريد تأليف حكومة اتحاد وطني يتولى رئاستها تقي الدين الصلح ، وهو ممثل أصيل لطموحات السنّة وفي الوقت ذاته هو صديق كبير وسيكون تعاوننا مثمراً » .

والواقع أن حجر العثرة على طريق تأليف أول حكومة هو كمال جنبلاط . ولحل هذه العقدة أوفد الرئيس فؤاد بطرس الى دمشق وهو يحمل اقتراحين : إما تأليف حكومة سياسية تضم ممثلاً لكمال جنبلاط ، أو تأليف حكومة لا سياسية لا تضم ممثلين عن الحركة الوطنية ولا عن الجبهة اللبنانية ، وبرر موقفه قائلاً : « لا أستطيع أن أستبعد فئة لبنانية لمصلحة فئة أخرى . اني رئيس كل اللبنانيين » .

لدى عودته من دمشق ، في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٧٦ ، أطلعنا فؤاد بطرس على نتائج محادثاته . فقد أبدى حافظ الأسد موقفاً صارماً ونصح بالعدول عن احياء المعادلة الشهابية التي « مرّ عليها الزمن » قائلاً : « انكم لا تستطيعون الرجوع الى الوراء . أنظروا الى المستقبل ... يجب أن تعلموا أن كمال جنبلاط هو سبب الأزمة في لبنان وفي المنطقة . لقد تآمر على أمن لبنان وسوريا ، ولو أنه انتصر ، لما كان رحم أحداً . انه يحاول الآن اعادة علاقته معنا ، ولكننا نرفضها . لقد عزلناه وأوصدنا كل الأبواب بوجهه ، فهل تريدون فتحها له من جديد ؟ بوجود كمال جنبلاط لن يرتاح أحد ، لا لبنان ، ولا سوريا ، ولا الرئيس سركيس نفسه . جنبلاط قد انتهى ، ويجب أن ينتهي » .

ولما سأل فؤاد بطرس الرئيس الأسد : « أتريدون القضاء على كمال جنبلاط ؟ » أجاب الرئيس السوري : « القضاء عليه جسدياً ، لا . اننا لا نؤمن بالاغتيال السياسي ، أما القضاء عليه سياسياً ، فنعم . يجب أن يعود كمال جنبلاط مواطناً عادياً كالآخرين جميعاً » .

ثم تساءل الرئيس السوري لماذا يريد الحكم اللبناني الاكتفاء بانصاف الحلول ، والبقاء في منتصف الطريق . وحث فؤاد بطرس على المجاهرة وعدم تحاشي الصدام ، وأضاف : « لقد أنذرت ياسر عرفات باننا سنكون ضده إن لم يفك ارتباطه بجنبلاط . أما أنتم ، فتتصرفون كما لوكنتم تخجلون بنا . فاذا لم يصمم الرئيس سركيس على أن يحكم ، فالحرب ستندلع من جديد ، ضده وضد لبنان وضد سوريا ، وستدمر هذه الحرب الشرق الأوسط برمته » .

وأسمع عبد الحليم خدام فؤاد بطرس الكلام نفسه مضيفاً اليه بعض التفاصيل فقال : « لقد

أهان جنبلاط الرئيس الأسد وحاول قلب الحكم في سوريا. انه قد هُزم ، ويجب أن يعامل على هذا الأساس ، ولن نقبل ابداً ان نُحييه . وعندنا تجربة مماثلة مع أكرم الحوراني (*) الذي كان أنظف من جنبلاط وأكثر وطنية ، فانتهى مواطناً عادياً ليس إلا . ممَّ يخاف الرئيس سركيس ؟ في تصرفه ثلاثون ألف جندي لا يعرفون أحداً في لبنان ، ولا يفرقون بين الناقة والجمل ، فهو الأقوى من الجميع على الاطلاق . انه أقوى ماروني وأقوى سني بلا منازع . فالرئيس سركيس هو اليوم مارون سركيس ومحمد سركيس في آن واحد . فلا أحد يستطيع أن يزايد عليه أو يتطاول » . وختم فؤاد بطرس تقريره مشيراً الى أن السوريين قد اتعبوه ولم يتوصل معهم الى أية نتيجة . فهم يرفضون بصورة قاطعة كل حكومة يشترك فيها كمال جنبلاط أو من يمثله ، ويتحفظون حول صيغة الحكومة اللاسياسية .

كان الرئيس سركيس يستمع مكفهر الوجه ، عصبي الحركة . وقد بذل جهداً ملحوظاً للحفاظ على شيء من الهدوء . فالمنطق السوري يقلقه ولا يريد الافصاح عن عواطفه فاكتفى بالقول : « فهمت . ستكون الحكومة لا سياسية » . ثم أخذ على الفور أقصوصة من ورق كتب عليها اسماء ثمانية وزراء سيؤلفون حكومته الأولى .

باشر الرئيس اللبناني ، محافظة منه على الشكليات ، الاستشارات البرلمانية المعهودة . وعين في ٨ كانون الأول ١٩٧٦ سليم الحص رئيساً للحكومة ، وأعلن في اليوم التالي رسمياً مرسوم تأليف الوزارة . بعضهم أطلق على هذه الحكومة اسم « حكومة البيروقراطيين » ، وبعضهم الآخر سماها « حكومة المستشارين » . وأجمع الكل على أنها « حكومة موقتة » لمدة أقصاها ستة أشهر . وبعد أن نالت الحكومة ثقة المجلس النيابي واستحصلت على الصلاحيات الاستثنائية المطلوبة ، قال الرئيس : « اني سعيد بأن تكون هذه الحكومة قد تألفت هكذا . انها نموذج للحكومة التي كنت اتمناها . وسأعمل لاستمرارها أطول مدة ممكنة » . وبالفعل فانها ستعمر أكثر من تسعة عشر شهراً . انها حكومة على صورة الرئيس ومثاله .

* * *

وقد برز في هذه الحكومة رجل محوري هو فؤاد بطرس الذي سيكون قبة الميزان طوال مدة العهد . انه شهابي عتيق ، تحمّل ، منذ اخفاقه في انتخابات ١٩٦٨ النيابية ، العزلة السياسة في عهد سليمان فرنجية ، وهو يعتقد أن ساعته قد حانت من جديد مع فوز الياس سركيس برئاسة الجمهورية . كلمته مسموعة أكثر من جميع المستشارين ويعترف له القاصي والداني بذكاء حاد وتجربة عميقة في

(*) زعيم سوري يساري عارض حكم البعث في سوريا مدة ثم اضطر الى التخلّي عن العمل السياسي .

الشؤون السياسة والدولية . وسيلعب مدة ولاية سركيس ليس فقط دور وزير الخارجية الدائم الحضور ، بل دور الرجل الصانع لكل القرارات وعلى مختلف الصعدان .

يعامله رئيس الدولة باحترام ، ويحيطه بكثير من المودّة والتقدير ، ويعتبره كشخصه بالذات . وقد قال لي الرئيس سركيس عام ١٩٧٨ : « فؤاد وأنا نفكر التفكير نفسه . وفي تسعين بالمائة من الأحوال ردة فعلنا على مسألةٍ ما هي نفسها ، دونما حاجة للتشاور معاً » .

ورث من انتمائه الى الطائفة الأرثوذكسية الكوزموبوليتية البيزنطية ، ومن تنشئته القانونية ، القدرة على التحليل بدقة ووضوح . براغماتي ، يتصدى للحقائق بلا أفكار مسبقة أو مواقف جامدة . يتعامل في داخل توازن القوى القائمة . انه أستاذ الواقعية ، وفيلسوف التشاؤم .

حدد هدف الدبلوماسية اللبنانية ، خلال ولاية الياس سركيس ، « بالمحافظة على وجه لبنان المتميّز ، والحؤول دون أن يبتلعه العرب أو اسرائيل » . انه يجتنب ، في الدرجة الأولى ، انضمام لبنان الى خط السياسة السورية . ويحاول ، في الدرجة الثانية ، الانفتاح على العالم العربي . ويبحث عن تسوية الأزمة اللبنانية بفصلها عن مسألة الشرق الأوسط .

وعلى الرغم من اتهامه ، خصوصاً من قبل نظيره السوري عبد الحليم خدام ، بأنه « أميركي مفضوح » ، ما انفك فؤاد بطرس يشكك بامكان حل الأزمة اللبنانية باقصاء الاتحاد السوفياتي كلياً عنها . لم يتفاءل في الحل إلا في حقبة قصيرة من تشرين الأول ١٩٧٧ ، على أثر البلاغ الأميركي — السوفياتي المشترك بشأن الموافقة على عقد مؤتمر جنيف . وقد غرق في التشاؤم إثر توقيع اتفاق كمب دايفيد ، واعتماد الولايات المتحدة الأميركية سياسة اقصاء الاتحاد السوفياتي عن حل أزمة الشرق الأوسط . واعتبر أن السوفياتيين يتحولون الى عناصر اضطراب وإخلال بالاستقرار . وهذا يعني حشر لبنان في عنق الزجاجة ودخوله الى المأزق .

وبغية ادارة مأزق الأزمة ، حاول فؤاد بطرس المحافظة على الوضع الراهن عن طريق التفاهم مع سوريا ، مع اجتناب تحويل لبنان حكراً لسوريا . انه يعترف بأنه لا يستطيع شيئاً بدون سوريا ، ولكنه لا يستطيع أيضاً أن يعمل كل شيء معها ، ويقول : « ان سوريا تهيمن ، ولبنان يحتاج الى ثقل يوازيه بها » .

وقد انصب جهد الديبلوماسية اللبنانية على جعل الثقل السوري مقبولاً بايجاد ثقل آخر يوازنه . فاصطدم فؤاد بطرس ، في هذا الصدد ، بتواطؤ الدول القوية أو بلا مبالاتها . فالسوفياتيون يعلنون

دائماً أنهم ليسوا أوصياء على سوريا ، ليجنّبوها كل ضغط من جانبهم . والعرب يدعمون دمشق ومنظمة التحرير بغية اجتناب المتاعب ووجع الرأس . اوروبا راغبة في عمل شيء ما ، ولكنها لا تستطيع النجاح بدون مساندة احدى الدولتين العظميين . فالولايات المتحدة الأميركية ، بحسب رأي بطرس ، تتكلم أكثر مما تعمل . واذا عملت ، كان عملها لمصلحة اسرائيل . وعلى كلٍّ ، لا يملك الأميركيون قدرة على التأثير في سوريا بمعزل عن اسرائيل ، وهذه ورقة خطرة ذات حدّين . وحيال تخلّي العالم عن لبنان ، طبق فؤاد بطرس ديبلوماسية الحدّ من الخسائر . وبدون تضامن داخلي أو مساندة خارجية أعاد الى لبنان حضوره على المسرح العالمي . واجتنب الأخطاء والخطوات الناقصة وهو يتباهى بانه « أخطأ أقل ما يمكن » .

شامخ ، عصبي ، غيور على صلاحياته وضنين بأفكاره ، نجح بتوطيد مكانته وتوسيع شهرته مما زاد في حسد منافسيه . وهو بطبيعته قليل الشعبية وغير محبوب . هذا ثمن النجاح ، خاصة أنه لا يحب ديماغوجية الزعماء السياسيين ، ولا ثرثرة المثقفين العاجزة ، ولا سفسطة العرب . وقد مازحنا الرئيس سركيس مرة عندما قال فيه : « قد يكون فؤاد بطرس سعيداً ، ولا ريب ، اذا عينتُ وزير خارجية آخر للعلاقات العربية والأفريقية ، وتركته هو للشؤون الغربية والسوفياتية » .

طوال ستة أعوام ، لم تكن ثمة وزارة خارجية في لبنان ، بل كان هناك وزير كبير . يُحمِّل كثيرون فؤاد بطرس اخفاقات الياس سركيس وخيباته . ولكن الجميع يعترف للوزير بوطنيته واخلاصه للشأن العام . وقد استدعي مرة لاستمزاج رأيه ، على أثر لقاء بين الرئيس سركيس والأسد ، في تشرين الأول ١٩٧٨ ، فأبدى تحفظات على الاتفاق الذي توصل اليه الرئيسان . قال له الرئيس السوري مبتسماً : « يا أخ فؤاد ، معاذ الله أن تبدأ في التشبه بكيسنجر . كلما كنا نعقد اتفاقاً مع نيكسون ، كان كيسنجر يأتي ويخربطه » .

شغل فؤاد بطرس المرتبة الأولى في هرمية الحكم ، وجوني عبده الثانية . كل مرة تحصل فكرة أو خطوة على موافقة هذين الرجلين يتبناها الرئيس سركيس فوراً . واذا اختلفا في الرأي ، تردد الرئيس قليلاً ، ثم تبنى ، في أغلب الأحيان ، وجهة نظر وزير خارجيته . وقد قال لي الرئيس مرات عديدة : « أحكم بفريق مصغّر يتألف من أربعة أشخاص أو خمسة ، كما في عهد فؤاد شهاب . ففي المرتبة الأولى يأتي فؤاد بطرس ، ويليه جوني عبده فأحمد الحاج » .

والعميد أحمد الحاج نموذج العسكري المكتمل الصفات . يُجل الجيش اللبناني ويعتبره أفضل بوتقة لصنع أمة . ولصهر شعب متعلق بوطنه . ينفر من ألاعيب السياسيين ، ويرفض كل مس

بصلاحيات الدولة وامتيازاتها . عُيّن عام ١٩٧٦ قائداً لقوات الردع العربية ، وقد أعفي من هذا المنصب استجابة لإلحاحه ، لأنه لم يتحمل تجاوزات العسكريين السوريين والمنظمات الفلسطينية ، وعُيّن مديراً عاماً لقوى الأمن الداخلي .

أكب بضمير حيّ وبلا هوادة على جمع رجال الشرطة والدرك الذين بعثرتهم الحرب . وكان المتنازعون جميعاً يحترمونه ، فما انفك يدعوهم الى الاعتدال والتحفظ ، ويحرص شخصياً على تبني مواقف متوازنة في الصراعات الجارية . أكثر افراد الفريق السركيسي شهابية ، فهو حريص على اعادة بناء الوحدة اللبنانية على أساس ميثاق ١٩٤٣ ، واقامة دولة قوية ، عادلة وعصرية .

ويضم فريق العمل حلقة أخرى من المعاونين والمستشارين وهم : سامي الخطيب ، وفاروق ابي اللمع ، وميشال المر ، ورينه معوض ، وميشال أده .

سامي الخطيب عسكري محترف . عيّن على رأس قوات الردع العربية خلفاً لأحمد الحاج . وكانت مهمته التنسيق مع دمشق . ويا لها من مهمة صعبة ومضنية . وقد أمسى اختصاصي في الشؤون السورية وفي ادارة القوات العربية . فاروق أبي اللمع ، المدير العام للأمن العام ، يتميز بذكاء مرهف وروح مرحة . ويُشيع الابتسامة والتفاؤل حيثما حلّ . وقد أمن العلاقات العامة للدولة .

أما ميشال المر ، وهو رجل اعمال كبير ، فكان وما زال الصديق الأمين والسخي والناشط أبداً . عُيّن وزيراً للمواصلات والاسكان عام ١٩٧٩ ، وبذل من نفسه وجيبه بلا حساب للحصول على نتائج سريعة وباهرة . كلف القيام بعدة مساع مع زعماء الجبهة اللبنانية ، وهو يعمل لتثبيت صيته بأنه صاحب المهمات والمشاريع الناجحة .

من جهة أخرى ، يتسم رينه معوض بالتكتم والتروي . شهابي من الرعيل الأول ، أصبح مستشاراً خاصاً لشؤون شمال لبنان ، ويعتبره الرئيس سركيس بمثابة « بارومتر البرلمان » . وقد كلّفه مهمات عديدة في البلدان العربية حيث كانت له علاقات طيبة مع المسؤولين ، ولاسيما في المملكة العربية السعودية .

أخيراً ، يمثل ميشال أده وجه « الماروني الأحمر » . وهو ضليع في الشؤون الماركسية وخبير بسياسة الكرملين . وقد أقام علاقات بعيدة عن الأضواء مع الاتحاد السوفياتي وأحزاب اليسار اللبناني . تولّى وزارة الاعلام وأظهر مواهب نادرة وبراعة كبيرة في الجدل والنقاش .

هؤلاء الرجال الذين يتألف منهم فريق العمل يتسمون بالأمانة والعلم والنزاهة . أكثرهم شهابيون أو شهابيون جدد لم يتعاطوا العمل السياسي المباشر ولم يشتركوا في الحرب التي مزقت لبنان . ولكنهم ليسوا بيروقراطيين عاديين فقد نجحوا في حقول مهنهم واختصاصاتهم ، واكتسبوا سمعة عطرة في الكفاءة والجد ، كالوزيرين فريد روفائيل ، وأسعد رزق . فهذا الفريق يحمل الوعد بلبنان جديد ، وبديمقراطية حقيقية .

ان فريقاً كهذا يستجيب ، ولا ريب ، لتمنيات شعب بكامله أرهقته الأحداث فأمسى تواقاً الى التجدد . وقد اسرّ اليّ الرئيس مراراً بانه ينوي ادخال اصلاحات جذرية على المؤسسات والهيكليات وفي العمق مردداً قوله : « لبنان القديم انتهى . ولبنان الجديد يجب أن يكون بالضرورة مختلفاً عما كان . سيكون برنامجي اصلاحياً حقاً . سأمضي الى أبعد من كل الاصلاحات التي دعا لها الداعون حتى اليوم » .

لم يكن ذلك التيار الاصلاحي المجدِّد تعبيراً عن ارادة داخلية فقط ، بل كان تعبيراً عن أمنيات خارجية أيضاً . وقد أطلعني الرئيس سركيس ، في أواخر تشرين الثاني ١٩٧٦ ، وهو بادي الرضى والارتياح ، على مضمون مذكرة أميركية موجهة الى الحكومة الفرنسية وفيها انتقاد لل « امراء الذين يحكمون لبنان » ودعوة الى الرئيس سركيس ان لا « يُدلِّعهم » ، وأن يُنهي دور اولئك الذين يحكمون لبنان ويتحكمون به . وفي المذكرة أيضاً ثناء على « الخطى الثابتة والمرنة » التي يخطوها رئيس الدولة ، وهي تحضه ، من ناحية أخرى ، على اظهار لبنان بمظهر يختلف عما كان في السابق ، بحيث يعين في الدولة المفكرين والمخططين والمنتجين ، فينشئ طبقة جديدة من الحكام الجدد الذين لا يحبون الظهور والتظاهر والمظاهر !

بدأ فريق العمل يتحرك في ظروف مؤاتية موضوعياً . لكنه كان يفتقر الى شيء من الحماسة ، والى قليل من الجرأة والى قدر وافر من الخيال . فهذا الفريق « محترف » أكثر من اللزوم ، و « عقلاني » أكثر من اللزوم . لم تعركه الصراعات والتحديات ولم يكن يملك آفاقاً واسعة يعكس عليها مشروعاً كبيراً . ففريق العمل هذا لم يعش المعاناة ، ولم يحلم بما فيه الكفاية . وقد تكون نقطة الضعف الأهم فيه مبالغته في الحذر وخوفه من الاقدام ، فلم يشارك في معمودية الدم . والواقع أنه لا يمكن الحكم بلا ايمان ولا العمل بلا مجازفة . لذا راح الرئيس يتذمر بعد ستة أشهر فقط من عهده . لقد خمدت ، وبسرعة ، حماسة فريق العمل أمام الصعوبات وحلّ بالرجال التعب المبكر والمسيرة ما زالت في أولها . فكان الرئيس يردد : « اني الرئيس الوحيد في العالم الذي يفتقر الى مساعدين » .

٥ ـ مـذهَبُ الأسـد

ساءل الرئيس سركيس نفسه غير مرة : « ماذا يريد حافظ الأسد ؟ انه يبقى لغزاً بالنسبة اليّ » . هذا الرجل الغامض الذي يحيط نفسه بالاسرار والاحاجي يُسيطر ، منذ تشرين الثاني ١٩٧٠ ، على سوريا التي لم تتعود الاذعان لرجل أو الخضوع لسلطة. انه يحكم ما لا يُحكم ، وبصورة مطلقة . والسياسة السورية تدهش العالم أجمع ، لأنها محصورة كلها في دماغ رجل واحد فولاذي الأعصاب ، هو حافظ الأسد .

طويل القامة ، أبيض اللون ، مستطيل الوجه تعلوه جبهة عريضة ، ذقنه مرتفعة تدل على السطوة . عيناه صغيرتان تتألقان ذكاءً وحزماً . خجول التصرف ومتحفظ . يمشي على مهل ، ويتحرك بهدوء وبشيء من الجلال . يتكلم دائماً بتهذيب وبصوت خفيض فيه بحة طبيعية . لا يرفع صوته أبداً ، حتى ليبدو على شيء من الخفر . أنيق القيافة ، وإن بدت عليه رواسب من أصله القروي ومن تنشئته العسكرية . يقص شعره قصيراً على طريقة المجندين . ويحمل جسماً غير متوازن يميل الى الثقل ، بعكس نظراته المتوقدة قوة ودهاء . فهو ابن الأرض الذي اعتاد مصارعة الطبيعة ومجابهة الأخطار .

لقد نمى معنى الكرامة الوطنية التي تمتزج بكرامته الشخصية . شخصه أو كل ما يتعلق به يبدو مقدساً لا يُمس . فالحكم السوري قد يتسامح ويتساهل في النهاية مع كل الأغلاط والأخطاء إلا واحدة : إهانة الرئيس . فهي خطيئة مميتة لا صفح عنها .

يقسو على ذاته وعلى الآخرين ، ويسير الى هدفه بصبر وعناد . ومسيرته السياسية تنطبق على صورة شخصيته . لقد بنى سلطته حجراً بعد حجر ، وسار بها خطوة خطوة . لا يستعجل ابداً . لا يتأثر ، ولا يثور . يفضل الوصول الى غايته بهدوء وعلى الناعم ، ويعتمد طريق الاقناع قبل الانتقال الى وسائل الاكراه . وهكذا ، تسلم السلطة في سوريا على مرحلتين : انقلاب أبيض عام ١٩٦٩ ، ثم ضربة نهائية عام ١٩٧٠ . تدخل في لبنان سياسياً أولاً ، عام ١٩٧٥ ، ثم عسكرياً عام ١٩٧٦ . يجب أن يهضم فريسته ويركز عملياته . يتوقف بعد كل ضربة ، يفاوض ، يفحص ، يحسب ، ثم يكيل الضربة التالية . انها سياسة الصدمات الكهربائية القصيرة والمتلاحقة ، انه لا يسلك سياسة أخذ كل شيء وفوراً بل يسعى لأخذ كل شيء ولكن بالتقسيط .

يعرف كيف ينتظر الفرص الثمينة والمناسبات الخصبة فيوظف الوقت لتقوية أوراقه الرابحة تاركاً

أخطاء خصومه تكثر وتتراكم . يجيد اختيار ساعته . فاذا كان موقفه ضعيفاً اعتبر كل مفاوضة ابتزازاً مرفوضاً . واذا كان موقفه قوياً اعتبر كل تسوية غير ملزمة . فهو لا يتراجع عندما يكون ضعيفاً ولا يتساهل عندما يكون قوياً . كل شيء له ثمن بالنسبة إليه ، ولكن ليس كل شيء بأي ثمن كان . فلا يهتم بالمعادلات القائمة ولا بالخطوط الحمراء ويعتبر كل شيء قابلاً للتعديل وجس النبض . قال لوفد من الجبهة اللبنانية ضم أمين الجميل وطوني فرنجية وجورج سعادة وادمون رزق وداني شمعون ومارون الحلو وبحضوري في أواخر عام ١٩٧٦ : « لا تهتموا « بالخط الأحمر » الذي يتحدث عنه الأميركيون والاسرائيليون ، فلا وجود له ، وعلى كل حال فاني لا أراه . في بدء العام ١٩٧٦ حذرتني الولايات المتحدة ونصحني الاتحاد السوفياتي ألا أجتاز الحدود اللبنانية في المصنع . فالخط الأحمر كان اذن في المصنع ، لأن اسرائيل كانت تعتبر دخول الجيش السوري لبنان سبباً كافياً لاعلان الحرب . اجتزنا المصنع . فحدثونا عن خط أحمر جديد في صوفر . ولما تجاوزنا صوفر حددوا لنا بيروت على أنها الخط الأحمر الجديد . والآن ، بعد انتشارنا في بيروت راحوا يتكلمون عن النبطية وعن الليطاني كخط أحمر . فما هو هذا الخط الأحمر المبهم والمتحرك والمتنقل بشكل مستمر من مكان الى آخر ؟ » .

يسيطر على نفسه مادياً ومعنوياً بطريقة مدهشة . فمنذ امتناعه عن التدخين لم يعد يفارق سبحة صغيرة يتسلى بها . وقد روى لي كيف أوقف التدخين ، فقال : «كنت أدخن مائة سيكارة في اليوم . فالتدخين بشراهة وشرب الخمرة بكثرة كانا يعتبران ، في الجيش ، بمثابة علامة رجولة وتباهٍ . ثم انقطعت عن التدخين دفعة واحدة عملاً بوصية الطبيب . في الأسبوع الأول الذي أمضيته بلا سيكارة كنت مشوَّشاً طائشاً . احتجت الى ثلاثة أسابيع من العناية الطبية لتنقية جسمي من السموم . وبعدئذ لم أعد أدخن سيكارة واحدة » .

قوي الشكيمة ، يتصدى للمفاوضات بعزم وصلابة ، فلا يمكن اختراق نياته اذ يرتدي في المحادثات قناعاً حديدياً أجاد صنعه . فهو يستقبل ضيوفه ، وفق سيناريو لا يتغير ، في « قصر الشعب » ، أو في منزله الخاص ، بحسب ما يريد أن يُضفي على اللقاء طابعاً رسمياً أو حميماً . سواء أكان الضيوف ملوكاً ، أو رؤساء ، أو أشخاصاً عاديين ، وسواء أكانوا وفوداً تضم عدة أشخاص أو شخصاً واحداً ، فانه يستقبلهم كلهم في المكان نفسه . تُعقد الاجتماعات بالقصر الرئاسي في ردهة رحبة ، لا طاولات فيها ، ولا أوراق ، ولا أقلام . إنها تشبه باحات الاستقبال أكثر منها صالة اجتماعات . يجلس دائماً على المقعد نفسه ، وبالطريقة نفسها ، وضيفه على مقعد آخر بالقرب منه . وفي منزله الخاص ، يستقبل في ردهة استقبال متواضعة الى حدّ ما وخالية من كل مظاهر البذخ والترف . وهنا أيضاً لا شيء للكتابة . لا يستعين في أثناء المفاوضات ، بأي مفكرة أو ورقة . يعرف كل ملفّاته معرفة تامة وبالتفصيل عن ظهر قلب ، ويحفظها بفضل ذاكرة مذهلة وقدرة على التركيز الذهني قل مثيلها .

في المراحل الإعدادية لكل مفاوضة ، وقبل أي لقاء ، لا يدع حافظ الأسد أي شيء يتسرب من نياته ومطالبه . يطبق استراتيجية الغموض والتمويه . يترك كل طرف يحزر ، أو يُراهن ، أو يتأهب ليدفع له ثمناً لم يكن قد طلبه ، وذلك قبل ولوج المحادثات . وأحياناً يصبح اللقاء به بحد ذاته موضوع تفاوض ، وله ثمن يدفع سلفاً . إنه يوحي ، عن قصد ، باشارات متناقضة ، أو لها تفسيرات عديدة ، ليتبادر الى ذهن كل فئة انها اكتشفت ما ينوي . وعندما تبدأ المفاوضات ، يحضر لمحاوريه مجموعة مفاجآت لم تكن بالحسبان .

هذا قبل بدء المفاوضات ، أما عندما يحصل الاجتماع فانه لا يستعجل في طرح المواضيع الأساسية ، بل يبدأ الحديث بالعموميات أو بالهوامش . فاذا كان محدثه عربياً أو من دولة شرقية سأله عن بعض الأصدقاء والأشخاص الذين يعرفهم . أما مع الغربيين ، فانه يتحدث عادة عن أمور ثانوية لا أهمية لها . وربما كان أفضل مدخل معه رواية نادرة . وكان يُسرّ سروراً عظيماً بسماع النوادر اللبنانية المتعلقة بالجيش السوري في لبنان . في أغلب الأحيان لا يكون هو أول الداخلين في صلب الموضوع . انه يأخذ وقته ليزن المفاوض ، اذا كان يجتمع به للمرة الأولى ، أو ليعاين مزاجه ، اذا كان التقى به سابقاً . هو تارة بارد وطوراً حار ، متجهم أو مبتسم ، بحسب الأشخاص والمواضيع . يستمع الى محدثه حتى النهاية ، ويدفعه الى الفراغ من عرض كل أفكاره وحججه بحيث يتمكن من التقاط حقيقة غايته وحجم امكاناته واستعداداته . وكثيراً ما يشد المفاوض الى البوح بكل ما عنده بواسطة ابتسامة أو هزة رأس ، أو عن طريق طرح سؤال اعتراضي أو بسيط . وعندما يظن محدثه أنه نجح في اقناعه ، ينبري حافظ الأسد فجأة ليرفض بلطف وحياء كل الآراء والطروحات التي سمعها ويروح يفند كل فكرة على حدة دون هوادة أو مجاملة .

عندما يغوص الرئيس السوري في المناقشة ، فانه يُعطي انطباعاً في البدء وكأنه يفكّر بصوت مرتفع : يطرح الأسئلة ، يصمت ، يتردد ، يردد الجملة نفسها ويكتفي بتسجيل ملاحظات جانبية . ثم ، على مدى الساعات ، تصبح آراؤه أكثر دقة ، ومواقفه أكثر وضوحاً ، وحججه أرجح وأصلب . انه رجل الربع الساعة الأخير ، يحتفظ بأوراقه للدقائق الأخيرة من اللعبة . لا يتعب ، مهما طالت المفاوضات وتشعبت . وكثيراً ما تنتهي محادثاته عند الفجر . وقد حدث لي ، في آذار ١٩٧٦ ، بعد اجتماع استغرق سبع ساعات ، أن استمعت الى الرئيس السوري يناقشني في الأصول القانونية لتعديل الدستور اللبناني ، وفي أفكار ابن خلدون التاريخية والاجتماعية . وبعد هذا الاجتماع القياسي ، رافقني الى باب منزله ، وهو مرتاح ويقظ كما لو كنا في بداية الاجتماع .

انه مفاوض داهية لا يمكن التكهن بردات فعله . فهو قادر أن يفاجئ محاوره بالفصل في مسألة اساسية فصلاً قاطعاً ، وقد يمتنع في بعض الأحيان عن اعطاء جواب صغير بشأن مسألة تفصيلية . اذا

وعد وفى حالاً . واذا كان يريد الرفض قال : « سأدرس هذا الأمر » ، أو « سأناقشه مع فلان » . واذا رد برفض صريح وجازم ، وهذا قلما يحصل ، فلا فائدة من الاصرار عليه لحمله على تبديل رأيه ، لأن قراره يكون عندها نهائياً ، في الوقت الحاضر على الأقلّ . لأن لا شيء نهائي بالنسبة إليه وبصورة مطلقة . « فاللا » تنطوي على الشروط التي اذا تحققت في المستقبل قد تصير « نعم » . و « النعم » تحمل في طياتها بذور تحولها الى « لا » . فلا الرفض مطلق ولا القبول غير مشروط . البعض يرون في هذا الأسلوب دهاء وازدواجية ، والبعض الآخر يعتبرونه مدرسة متقدمة في علم التفاوض . والحقيقة انه الاثنان معاً وأكثر !

لقد صقلت فيه تنشئته العسكرية كضابط طيار مواهب نادرة . انه كالنسر ، قادر ان يعاين الأمور التفصيلية على الأرض ، وهو على علو شاهق . يدخل في المسائل الصغيرة والدقيقة وفي الوقت ذاته لا تغيب عن بصيرته الرؤيا الشاملة . وكما في المعارك الجوية فانه يقوم بتحديد الأهداف الاستراتيجية وفي الوقت ذاته الوسائل التكتية لاصابة الهدف . يتولّى القيادة في المنعطفات والممرات الصعبة . ويحسب حساب المجازفات والمكاسب . وبحكم تشدده يعرف كيف يدفع بالتحدي الى بعيد ، مهملاً نصائح التروّي والحكمة ، ومحتقراً التهديد . وبحكم مرونته ، يمكنه تجنب المأزق أو المهلك ببراعة وسهولة . وقد وصف لي عبد الحليم خدام ، لمناسبة قمة بغداد ، أسلوب الأسد ، فقال : « رئيسنا استاذ كبير في فن المناورة . يُخبّئ امكاناته التكتية التي لا تخطر في بال أحد . ويعرف كيف يركب الموجة في ذروة ارتفاعها ويعود بها الى حيث يريد . يمارس سياسة شفير الهاوية ، ويتمكن من التوقف في الوقت الملائم ، على مسافة قصيرة من الحافة . فولاذي الأعصاب . مدهش باخفاء مقاصده . قادر على اتخاذ القرار المناسب في الوقت الذي لا ينتظره فيه أحد » . الصيت لخدام ولكن الفعل للأسد .

طوّر حافظ الأسد أسلوبه في الحكم بمناسبة تدخله في لبنان ، فجعل منه مذهباً دولياً واسع الطموح . واخترع لهذا المذهب اداة عملانية نسميها : « اللعبة المفتوحة » .

ويبدو « مذهب الأسد » متعدد الوجوه . فهو تارة قوة استقرار ، وطوراً نظام حماية ، وأحياناً سياسة تدخل . ويقوم هذا المذهب على ثلاثة مبادئ أساسية في العلاقات الدولية وهي :

١ — حق دولة عربية بالتدخل عسكرياً على أرض دولة عربية أخرى ، لمنع منظمات فيها من تهديد أمنها الوطني ، أو الأمن القومي العربي . مفهوم الأمن يتخطى مفهوم السيادة .

٢ — حق دولة صغيرة أو متوسطة كسوريا بأن تدير مباشرة شؤون دولة أخرى صغيرة كلبنان

بدون تفويض مسبق من الدولتين العظميين أو من احداهما على الأقلّ . وهذا يعني نشوء قوى اقليمية قادرة على التدخل بشكل مستقل أو مواز لآراء الدولتين العظميين .

٣ — حق دولة ذات منحى سوفياتي ، سوريا ، أن تسهر على أمن دولة أُخرى ذات منحى أميركي ، لبنان . ويشكل مذهب الأسد من هذا القبيل خروجاً على القاعدة الدولية المتعارف عليها التي تقضي بعدم دخول جيش أية دولة الى أرض دولة أخرى لا تنتمي الى نفس المحور الدولي ، تحت طائلة اشعال حرب عالمية .

أما فيما يتعلق « باللعبة المفتوحة » وهي الأداة الاستراتيجية لادارة الأزمات وفق مذهب الأسد ، فتقوم على استبعاد كل حل نهائي قد يؤدي الى نزاع مفتوح واستبداله بلعبة مفتوحة تضع حلاً موقتاً يرضي ، الى حد ما ، أطراف النزاع المختلفة . وأهم ما في هذه السياسة أنها تحول الحل الموقت الى وضع ثابت يفرض نفسه مع الوقت . وبقدر ما تكون المشكلة معقدة والمطالب غير قابلة التوفيق فيما بينها ، يبدو الحل الموقت مقبولاً ، والحل النهائي بعيداً ورمزياً . فاللعبة المفتوحة تتيح لحافظ الأسد التمسك بمواقف راديكالية ومتصلبة ، من غير أن يجازف بتفجير نزاع مسلح مع خصومه ، وخصوصاً مع اسرائيل . وهكذا تطبق سوريا سياسة أكبر منها ، عن طريق اقامة أوضاع موقتة تشكل نقطة التقاء لمجمل مصالح متناقضة . فيصبح الحل الموقت أقل كلفة من الحل النهائي ويشعر المتنازعون أن تبديله أشد ضرراً من المحافظة عليه . فيرتبون أوضاعهم في داخله ، حتى يمسي أحدهم قادراً على قلب الوضع القائم لصالحه . وبذلك تبقى اللعبة مفتوحة من الجانبين : فكل خطوة يمكن أن تكون مرحلة نحو التسوية الأخيرة ، أو فترة هدنة قبل المجابهة الشاملة . تجاه هذه اللعبة ستبقى الولايات المتحدة ، ولوقت غير قصير ، مترددة تتساءل ما اذا كانت سوريا قابلة للتفاوض أو ميؤوساً منها .

وقد طبق حافظ الأسد مذهبه ولعبته بأكثر ما يمكن من الدقة والحذق خلال الأزمة اللبنانية . كانت الولايات المتحدة الأميركية ، والاتحاد السوفياتي ، واسرائيل ، ومصر قد عارضت تدخل سوريا عسكرياً في لبنان . فرأى انه يستطيع ، على الرغم من هذه المعارضة ، أن ينشر جيشه تدريجياً . وقد أوجد ، بدخول القوات السورية الى لبنان عام ١٩٧٦ ، أمراً واقعاً ، راح يفاوض ، من خلاله ، الأطراف المعنية . وكانت النتيجة : ترسيخ هذا الأمر الواقع السوري ، واضفاء التأييد اللبناني ، والعربي والدولي عليه . مما حمل حافظ الأسد على ان يقول لي عام ١٩٧٧ : « اذا كان بقاء الجيش السوري في لبنان مشكلة لبعضهم ، فان سحبه هو مشكلة للجميع » .

وكي يدير حافظ الأسد هذه اللعبة فانه لا يعتمد فقط الحدس والبرغماتية فهو يتبع بعض الثوابت والأصول وفي مقدمتها سياسة « الجسور الممدودة » . فقد تعود دائماً ان يفاوض ولكن

في الوقت الذي يراه مناسباً . هذه القابلية للمفاوضة تحدها ثلاثة تحفظات أساسية . فهو لا يقبل أن يفاوض اسرائيل مباشرة ، بل يفعل ذلك بواسطة الولايات المتحدة الأميركية . ولا يقبل أن يفاوض الولايات المتحدة الأميركية بشأن النزاعات العربية — العربية ، بل يفعل ذلك عن طريق المملكة العربية السعودية . ولا يقبل أن يفاوض السعودية الا محشوراً أو عرضاً بشأن المسائل الفلسطينية واللبنانية ، بل يعمل على تسوية هذه المشاكل مباشرة مع المعنيين أنفسهم .

ان انتهاج سياسة « الجسور الممدودة » هذه يفترض مسبقاً خطاً متوازناً على الصعيد الدولي . وقد قال لي الرئيس السوري في تموز ١٩٧٦ : « حوارنا مع الولايات المتحدة الأميركية مستمر ، ولكنه كثيراً ما يتحول الى حوار الطرشان ، بسبب الدعم الأميركي الأعمى لاسرائيل . أما علاقتنا بالاتحاد السوفياتي ، فهي أيضاً تمرّ بمراحل حرجة . ولكن الاتحاد السوفياتي يختلف عن الولايات المتحدة بأنه حليف ثابت من غير أن نكون بالضرورة شيوعيين » . فهو يحرص على أن يكون حليف السوفياتيين من غير أن يصبح تابعاً لهم يدور في فلكهم . ويريد أن تحتل سوريا بالنسبة الى موسكو نفس المركز الذي تشغله اسرائيل بالنسبة الى واشنطن .

والعنصر الثاني الرئيس في استراتيجية الأسد هو سياسة « التحالفات البديلة » . فهو يعقد التحالفات ويفكها بقدرة مذهلة . يستطيع الاستدارة مئة وثمانين درجة ، بحيث يحتفظ بحيّز واسع من الحركة فيخترع أوراقاً جديدة ويفرز قوى اضافية قادرة على الحلول محل القوى العاملة . ولا يكاد يرتبط مع حليف حتى يُهيّئ البديل الذي قد يحلّ محله . وقد وفّر له تشرذم العالم العربي حقلاً مثالياً لتطبيق هذه السياسة . لذا يسهر على أن يضرب الخصم دون أن يقضي عليه تماماً ، ويدعم الحليف دون أن يفرجه كلياً . لأن خصم اليوم قد يكون حليف الغد . وعلى عكس ذلك ، لا يربط مصيره كلياً بمصير الحليف الذي قد ينقلب خصماً . يحسب لكل شيء حسابه . ويشكل خلافه أو تفاهمه مع منظمة التحرير الفلسطينية والجبهة اللبنانية والحركة الوطنية أفضل نموذج لسياسة التحالفات البديلة . وهو يحرص على أن لا يغرق في الانتهازية الرخيصة . فعندما يقطع علاقاته يقدم التبريرات ، وعندما يحالف يحدد الأهداف المشتركة .

ويضع حافظ الأسد لقاعدة « التحالفات البديلة » ثلاثة حدود . أولاً ، يعتقد أن اسرائيل تريد السيطرة بمساعدة الولايات المتحدة الأميركية على كل المنطقة العربية الممتدة من الفرات الى النيل . اذن ، فاسرائيل عدو حقيقي ، والولايات المتحدة حليفة هذا العدو . ثانياً ، يظن أن كل اتفاق مع اسرائيل ، في الوقت الحاضر ، يُعتبر استسلاماً ، بسبب تفوق الدولة العبرية عسكرياً . فلا مجال للتحالف مع اسرائيل أو مع الولايات المتحدة الأميركية . ثالثاً ، يبذل جهده لتكوين جبهة عربية تضم

سوريا ، والأردن ، ولبنان ، ومنظمة التحرير الفلسطينية لتكون الرد الاستراتيجي على اسرائيل في ما يختص بحل أزمة الشرق الأوسط . ويعتبر أن هذه الشعوب تؤلف حلفاً طبيعياً تعود قيادته الى سوريا .

ولا ينكر حافظ الأسد دور الأميركيين ، لكنه لا يثق بهم . يتصدى لهم من غير أن يصدمهم ، ويواجههم من غير أن يثير عداوتهم كلياً . قصة حافظ الأسد مع الولايات المتحدة الأميركية ، من نيكسون الى ريغان ، ومن كيسنجر الى حبيب ، مزروعة بالمبهمات ، وسوء التفاهم ، والخيبات .

في مقابل ذلك يميل الرئيس السوري الى أوروبا ، ويحتفظ بشيء من الحنين بالنسبة الى فرنسا . انه يأسف على شارل ديغول الذي كان يستطيع ، بحسب رأي الأسد ، أن يعطي أوروبا وزناً محترماً . ويرى الرئيس السوري أن أوروبا ليست قوة متماسكة وتفتقر الى زعامة سياسية ، وانها « في النهاية ، حليفة الولايات المتحدة الأميركية ، ولكنها ليست الولايات المتحدة » ، لذلك يجب أن تبقى متنفساً للعالم الثالث . وهكذا يرى أن الاتحاد السوفياتي صديق صعب المراس ، والولايات المتحدة الأميركية شر ضروري ، وأوروبا ملجأ محتمل .

ان « مذهب الأسد » واداته الاستراتيجية ، « اللعبة المفتوحة » ، يخدمان هدفاً كبيراً : سوريا . وحافظ الأسد هو ، في نهاية الأمر ، وطني سوري . حوّل سوريا من لعبة الى لاعب ، ومن دولة في مهب رياح الانقلابات الى قوة أقليمية عظمى .

قبل أن يتسلم الأسد السلطة في دمشق كان يتجاذب العالم العربي محوران وأحياناً ثلاثة : مصر ، والسعودية ، والعراق . وكان دور دمشق لا يتعدى دور التابع للقاهرة ، أو لبغداد . ولكن سرعان ما أسقط الأسد دور بغداد وأنزله الى المرتبة الثانية منذ عام ١٩٧٣ ، وعزل مصر بعد زيارة السادات للقدس عام ١٩٧٧ ، وراح يقتسم الزعامة العربية مع السعودية .

لم تعرف سوريا مثل هذا النفوذ وهذا الاستقرار إلا في عهد حافظ الأسد . ولكن الجانب الآخر من الصورة هو أن سوريا تعيش في حالة حصار واستنفار دائمين منذ ١٩٧٠ . انه ثمن النجاح . فلا يمكن لدولة صغيرة أن تعتنق سياسة كبيرة بدون تضحيات جمّة وهفوات كثيرة .

لقد استطاع حافظ الأسد أن يستمر هذه الحقبة القياسية ، وان يحقق هذه السياسة الكبيرة والطموح بفضل أحكام قبضته الحديدية على الوضع الداخلي . ولا تخفي بعض مظاهر الليبرالية على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي واقع النظام العسكري السائد في سوريا . فسرايا الدفاع التي يتزعمها

رفعت الأسد ، والوحدات الخاصة بقيادة علي حيدر ، وأجهزة المخابرات المتشابكة ، والجيش النظامي ، والدرك ، وميليشيات حزب البعث تحكِم طوقاً متيناً حول البلاد . وثمة طرفان يقاتلان النظام الأسدي : الاخوان المسلمون الى اليمين ، والشيوعيون الى اليسار . الأولون يعتبرونه « مغتصباً » لأنه علوي ، والآخرون يتهمونه بـ « خيانة » الاشتراكية لأنه ليس يسارياً بما فيه الكفاية . وقد غذى تدخله في لبنان ضد منظمة التحرير الفلسطينية والحركة الوطنية عام ١٩٧٦ عنف المعارضة السياسية ضده . فمما لا شك فيه أن عمليات القمع الدموية تدعم بقاء النظام لكنها لا تفسر استمراره الا جزئياً . وحدها سياسة الأسد تفسر صمود هذا الحكم وتصاعد نفوذه .

ويحرص الرئيس السوري على تبرير أعمال القمع فيرد كل الصعوبات التي يواجهها الى موقفه القومي العربي الصلب . فمن وجهة نظر دمشق كل النزاعات ، ابتداء من الاضطرابات الطائفية وانتهاء بالصراع مع الفلسطينيين ، ترمي أساساً الى القضاء على الصمود السوري بوجه « المؤامرة الأميركية — الاسرائيلية » . فباسم القومية العربية يتدخل الحكم في الخارج ويتشدد في الداخل .

والواقع أن حزب البعث هو أقلية سياسية في سوريا ، والعلويون أقلية دينية . فحافظ الأسد ، بصفة كونه بعثياً وعلوياً ، يستفيد على الصعيد الداخلي أيضاً من سياسة اللعبة المفتوحة . فتحالفه مع الاتحاد السوفياتي لا يقويه عسكرياً فقط تجاه أعداء الخارج بل يدعم موقفه الداخلي . فيقضي على كل معارضة الى يساره ويتفرد بورقة التصلب العربي . من جهة أخرى ، فان تفاهمه مع المملكة العربية السعودية يحسّن وضعه الاقتصادي ، ويفرغ ، في الوقت نفسه ، كل معارضة الى يمينه ، ويحتفظ بورقة الاعتدال . وهكذا يحجم الشيوعيين بالتوافق مع الاتحاد السوفياتي ويحطم الاخوان المسلمين بمباركة الرياض والقذافي والخميني . بفضل راديكاليته يعبئ الطبقة العاملة والشبيبة بدون أن يصبح « عبد ناصر آخر » . أما اعتداله فيكسبه دعم البرجوازية وأهل الأرياف السنيين من غير أن يصبح « سادات جديداً » . هذه البراعة المذهلة في توظيف سياسة اللعبة المفتوحة تتيح له الفرصة لكي يكسب بكل الاتجاهات .

ولكن ، ليس كل شيء سياسة . وحافظ الأسد مقتنع بدور سوريا المميز . ولنفهم عقيدته يجب أن نكون فهمنا رؤياه القومية . وقد حدد بوجودي ، عام ١٩٧٨ هذه الرؤيا ، فقال : « تختلف سوريا عن كل البلدان العربية الأخرى . فنحن نحمل رسالة العروبة بمفهومها الواسع الذي يعني وحدة المصير العربي المشترك . فكل ما هو عربي يعنينا . كما نتميّز عن سوانا بقومية ناشطة وفاعلة . كل وحدة عربية لا يمكن تصوّرها بدون سوريا ، وكل حرب أيضاً . لو كانت لنا حدود مشتركة مع مصر ، لدخل الجيش السوري الأراضي المصرية حتماً بعد زيارة السادات للقدس بغض النظر عن توازن القوى المسلحة . لسنا فقط قلب العرب النابض بل نحن في قلب العرب . سوريا هي العقدة وهي الحلّ

في لبنان والشرق الأوسط » . هذه اقتناعات هذا الرجل الذي يمكن أن نلقبه مع فوارق المكان والزمان ببسمارك العرب ، أو معاوية القرن العشرين .

* * *

اذا كان حافظ الأسد من أبرز نجوم السياسة في العالم فان الفريق الحاكم الى جانبه مجهول ، باستثناء المجموعة التي تعاطت في المسألة اللبنانية . ففضلاً عن رفعت الأسد ، شقيق الرئيس السوري ، وقد كان له دور خاص في الشمال والبقاع ، فان فريق العمل اللبناني كان يتألف عام ١٩٧٥ من عبد الحليم خدام ، وحكمت الشهابي ، وناجي جميل ، وعلي المدني ، ومحمد الخولي .

عام ١٩٧٦ ، أجاب الأسد أولئك الذين سألوه أن يتخذ موقفاً أقل تصلباً في المفاوضات مع ياسر عرفات : « اني اتخذ موقفاً مرناً . والبرهان اني أرسلت الى اجتماعات المفاوضة ناجي جميل عوضاً عن عبد الحليم خدام ! » .

انها صورة معبرة عن حقيقة هذا الدبلوماسي الحديدي ، القصير القامة ، الدائم الحركة والنشاط والذي يبدو أصغر من سنه . ان عبد الحليم خدام يفاوض حول الطاولة كأنه يقود معركة على جبهة . يستكشف . يتنصت . يستعلم . يخطط . يستعد . يهجم . كثيراً ما يتنقل وفي زناره مسدس ، فقد نجا من عدة محاولات اغتيال . تحليلاته الطويلة تشبه المحدلة . استنتاجاته حادة ، متفجرة ، وصارخة كأنها أمر عسكري . لا ريب في أنه أكثر الديبلوماسيين عسكرية . ويمكن تصوره يدير العمليات في هيئة الأركان بالسهولة نفسها التي يدير فيها وزارة الخارجية .

محام ومناضل ، فقد حفظ من تنشئته القانونية اناقة المحاورة وزهوة البيان . كما أثر انتماؤه البعثي في لغته وسلوكه . فهو يتكلم بمنطق ايديولوجي ويؤمن بالعمل الشعبي وبتنظيم الجماهير . أمانته لحافظ الأسد لا تتزعزع . وهو يحوز على ثقة رئيسه التامة ، بدليل احتفاظه منذ العام ١٩٧٠ ، على الرغم من اسلوبه الهجومي ، بمنصبه الدقيق كوزير للخارجية . انه ، مع اندريه غروميكو في الاتحاد السوفياتي ، وصباح الأحمد الصباح في الكويت أقدم وزراء خارجية في العالم .

حماسته متدفقة . يكب على العمل بلا هوادة . يقرأ كل شيء . يكتب قليلاً ، ولكنه يحفظ كثيراً بفضل ذاكرة قوية . قلمّا يجلس وراء مكتبه . يفضّل الحوار واقناع الناس على كتابة التقارير . منقطع كلياً الى مسؤولياته . يرفض الدعوات والسهرات في الأماكن العامة . لا يشرب خمراً . لا يدخن . يصوم رمضان . يمارس تعاليم الاسلام . لا يزور أحداً ، ولا يقدم خدمات لأحد ، لأنه لا

يحب اضاعة الوقت ولا الاتجار بالنفوذ . يعيش عيشة بسيطة كرب عيلة ، وله هوايتان : الصيد ، والفيديو .

خلال ما لا يقل عن خمسين اجتماع معه اكتشفت أنه من طينة الرجال الذين يدافعون عن مواقف بلادهم بكل ايمان وحزم ، وبغطرسة وشراسة ، اذا دعت الحاجة . موهوب بطاقة جدلية فذة . يحلل بمنطق الحرب الباردة ، ويعتمد معايير توازن القوى ، ويندد بمفاهيم الامبريالية والصهيونية . يفكر بشمولية ويربط كل الجزئيات بالخيارات الكبيرة ، ويعيد كل نزاع الى موقعه الشامل . فاذا أراد التعرض مثلاً لموضوع لبناني محدد ربطه بكل المسألة اللبنانية وعالج هذه الأخيرة في ضوء النزاع العربي — العربي والعربي — الاسرائيلي وأحال مجمل الأمر الى الصراع بين الشرق والغرب أو بين الشمال والجنوب .

داعية فطن . انه أفضل « بياع » لسياسة حافظ الأسد . يبرع في فن التركيز على الناحية التي تجتذب محاوره أو تخيفه . يستعمل سلاح الترغيب أو الترهيب ، أو الاثنين معاً . يستطيع الدفاع عن الشيء ونقيضه ، بحسب الظروف والمحاورين . يفهم بنصف كلمة وحتى بالاشارة ، ولا يفوته تدبير حيلة أو التملص من فخ . يجيد التفحص وتمهيد الطريق للمفاوضات على مستوى القمة . يقدم ، في أغلب الأحيان ، أفكاره بصفة موقتة ، ويترك للرئيس السوري حرية اتخاذ القرار المناسب . متصلب ومكابر ، يبدأ دائماً بالرفض ، ويلعب قصداً دور محامي الشيطان مما يتيح لرئيسه أن يقوم بالدور الايجابي والطيب .

جريئ حتى الوقاحة ، يتمتع بحيوية فكرية نادرة في عالم عربي بليد بعض الشيء . سريع الجواب ، خصب الخيال . متأهب دائماً للوثوب في كل لحظة . ذكاؤه متوقد ، فيه مدّ وجزر ، يحلق ويهبط لكنه لا يخمد ولا يجمد .

يعتنق خدام المواقف الصعبة ويتحمل المهمات المستحيلة . عدو السادات من قبل زيارة القدس ، ومعارض عرفات منذ زمن بعيد ، وخصم كمال جنبلاط في العام ١٩٧٥ . غير أنه عرف أن يحافظ على علاقاته مع بعض الدول التقدمية ، على غرار ليبيا والجزائر ، وفي الوقت ذاته ، على بعض البلدان النفطية ، ولاسيما المملكة العربية السعودية والامارات العربية . يحاول أن يعزز دائماً الحلف مع الاتحاد السوفياتي ، ولا يساير الولايات المتحدة الأميركية ، ويتهمها بانها « تخلّت دائماً عن أصدقائها » . ويرى أن السياسة الأميركية ليست ، في النهاية ، سوى « سلسلة من الاخفاقات والخيبات في الشرق الأوسط » . يكره اسرائيل الى أقصى حد . وقد رفض حضور مؤتمر جنيف في كانون الأول ١٩٧٣ لان ابنه قال له : « صحيح ، بابا ، انك رايح تسلّم على يهودي في جنيف ؟ » .

كان الرئيس سركيس يقول لي : « في البدء ، كنت أرى خدام متعجرفاً . ولكني ، مع الوقت ، اكتشفت أنه محام جيد عن قضية سوريا » . ويرسم فؤاد بطرس صورة لخدام قريبة من نظرة الياس سركيس ، فيقول : « خدام متوقد الذهن ، لا تربكه التناقضات حين يريد الدفاع عن وجهة نظر طلب إليه الرئيس الأسد أن يتبناها . اذا حُشر ، خرج من مأزقه بكلمة حلوة أو بكلمة غليظة . اذا تعامل مع طرف ضعيف بالغ في التشدّد . يجب أن يكون المرء معه دائماً على سلاحه . أسلوب الديبلوماسية السورية أسلوب متصلب . وليس لدى السوريين ميل الى التنازلات والى الاعتدال . انهم راديكاليون بالغريزة ، بالطبع ، وعن اقتناع » .

يوجد صنفان من الديبلوماسيين : الذين يريدون أن يكونوا شيئاً ما ، والذين يريدون أن يفعلوا شيئاً ما . وخدام من الفئة الثانية . لقد عرف أن يساهم في تولي دمشق زعامة العالم العربي . انه أهم وزير خارجية في تاريخ سوريا الحديث .

حكمت الشهابي ، رئيس الأركان ، هو رجل نافذ في الحكم . انه يمثل نموذج العسكري الصرف : رصين ، حازم ، ودقيق ، يتكلم قليلاً ولكن حسناً . لا يجيد المفاوضة ، بل يُحدث تأثيراً عميقاً في نفوس الذين يتصلون به . متحفظ بالطبع . لا يحب المناقشة ولا المساومة . بارد ومنطوٍ على نفسه ، يحترم الشكليات والتراتب فهو رجل نظام وانضباط . يدرك بوضوح وسرعة جوهر الموضوع المطروح ، ويريد أن يظهر بمظهر الليونة والاتزان . ولكنه يصبح شرساً وعنيفاً حين يتعلق الأمر بسلامة الجيش أو بحياة جنوده . لا يمزح ولا يحسن التندر ، توحي شخصيته بالحزم والعزيمة . اتسع نفوذه اتساعاً مرموقاً بعد اخراج ناجي جميل من قيادة سلاح الطيران .

ترتسم صورة ناجي جميل معاكسة لصورة الشهابي . أشقر اللون ، أزرق العينين ، حسن الوفادة ، رحب الصدر ، مرح المزاج ، يبدو ناجي جميل بمظهر رجل سياسة أكثر منه عسكري . يحب المناقشة والمفاوضة لكنه يعرف كيف يقرر ويأمر في نهاية المطاف . شغل من ١٩٧٦ الى ١٩٧٨ منصب مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي .

دائم الابتسام . متفائل وواثق بنفسه . لا يخفي نفوره من المنظمات الفلسطينية ، ولا ميله الى الاتفاق بالعمق مع المملكة العربية السعودية . يريد التبرؤ من اليسار ، ويدعو الى الانفتاح على الغرب . صقلته الأيام والأحداث فذاق مرها وحلوها . عرف حتى « المنفى » في مصر مع حافظ الأسد في أثناء الوحدة السورية المصرية بين ١٩٥٨ و ١٩٦١ ، كما عرف ظروفاً بلغ فيها الذروة لما اعتُبر عام ١٩٧٧ الخليفة المحتمل للرئيس السوري .

على الرغم من اقصائه عام ١٩٧٨ ، ظل يعلن ولاءه لحافظ الأسد . ومن الواضح أنه تأثر من ابعاده . فقد قال لي : « شخصي لا يهم . المهم أن تستمر حركتنا وأن ينجح رئيسنا . نحن لا نمثل شيئاً في معزل عن الرئيس الأسد » .

بقي وجهان بارزان في الفريق السوري الذي تعاطى الأزمة اللبنانية : علي المدني ، ومحمد الخولي . وهما مبدئياً عنصرا تنفيذ ، إلا أنهما شاركا ، في بعض الأحيان ، في اتخاذ القرار . أمضيا القسم الأكبر من وقتهما في بيروت خلال العام ١٩٧٦ . لقيا مصاعب عديدة مع منظمة التحرير الفلسطينية والحركة الوطنية .

عُيِّن علي المدني ، عام ١٩٧٧ رئيساً للمخابرات العامة . وحصر اهتمامه الأساسي ، ابتداءً من ذلك الحين بمحاربة العراق والاخوان المسلمين . انه رجل شريف مع رؤسائه أمين لأصدقائه . تخلّى عن مهماته لما أُقصي ناجي جميل .

أما محمد الخولي فقد واكب الأزمة اللبنانية كلها . وهو يتمتع بثقة الأسد المطلقة ، فضلاً عن كونه رئيس الاستخبارات في سلاح الجو . يضحك . يمزح . ولكنه يسجّل كل شيء بجذافيره بفضل ذاكرة تشبه الكومبيوتر . يكلفه الرئيس السوري أدق المهمات ، ويقوم بالاتصالات السرية جداً ، وينفذ العمليات الخاصة . أمين كل الأمانة ، شريف في العمل وفي التعاطي مع الناس ، يُظهر مقداراً من التواضع والتهذيب ويُحسن المحافظة على الصداقة والاستقامة وهي صفات لا تتوافر بكثرة في الأنظمة القوية وفي عالم الاستخبارات .

الجـزء الثـاني

المـأزق

في مطلع العام ١٩٧٧ بدت الحياة وكأنها تعود الى حالتها الطبيعية : فتحت الطرق للسير ، تحركت الادارات العامة ، عاودت المدارس عملها ، وفتحت المصارف أبوابها رسميا في ١٧ كانون الثاني . اقلعت الحركة التجارية على الرغم مما كابدت من خسائر ، طرحت مشروعات اعادة بناء المصانع والفنادق والوسط التجاري في بيروت ، واخذت الثقة تعود بعودة الذين هربوا من الحرب . وعلى الرغم من ان مسيرة التعمير بدت طويلة وصعبة ، فأن السلام اطل برأسه ، وان في حياء .

وقد واكب عودة السلام اللبناني تحرك نحو السلام باتجاه الشرق الاوسط . فطغت على العام ١٩٧٧ فكرة انعقاد مؤتمر جنيف . وقام سيروس فانس ، وزير الخارجية الاميركي ، بجولات عديدة على لبنان وبلدان المنطقة ، وتبعه على الخط نفسه لوي دي غيرنغو ، وزير خارجية فرنسا ، وكورت فالدهايم ، الامين العام لمنظمة الامم المتحدة ، وتوالت الاتصالات بين الرئيس الأميركي الجديد ، جيمي كارتر ، وزعماء دول المنطقة ، وبرزت في الافق رؤيا سلام شامل في الشرق الاوسط مما عزز امكان استتباب السلام التام في لبنان .

وعلى الرغم من هذه المظاهر المشجعة ، كان الياس سركيس قلقا . قال لي في شهر تموز ١٩٧٧ : « لا شيء يتقدم . فمنظمة التحرير الفلسطينية ترفض تطبيق اتفاقية القاهرة قبل تحقيق المصالحة بين اللبنانيين ، والجبهة اللبنانية ترفض المصالحة مع الحركة الوطنية قبل تطبيق اتفاقية القاهرة ، العرب ، ما عدا سوريا ، يتخذون موقف المسايرة من منظمة التحرير الفلسطينية ، واسرائيل تتدخل تدخلا مشبوهاً في جنوب لبنان . لم استطع الحصول على أي نتائج ملموسة ، ولا أرى بصيص حل في وقت قريب . مقررات قمتي الرياض والقاهرة مجمدة . كل شيء يتعقد ، كل شيء يتوقف عن الحركة ... اننا في مأزق » .

وراح هذا المأزق يكبر فانتقل من طور الشكوك قبل زيارة الرئيس السادات للقدس في نهاية عام ١٩٧٧ الى مرحلة الانفجارات خلال عام ١٩٧٨ .

الفصل الاول

تصاعد الشكوك

لم يتقلّص الأمل دفعة واحدة . ففي العام ١٩٧٧ ، آمن اللبنانيون بنجاح رئيسهم . ولما لم يحمله احد مسؤولية نشوب الحرب ، فقد اجمع الكل على اعتباره رجل السلام .

وحاول الرئيس بكل قواه ان لا يُخيِّب الآمال المعقودة عليه . فعمل جاهداً ، ولكن التحسن لم يكن على مستوى الجهد المبذول . فلا أحد يريد تسهيل مهمته . اللجنة العربية الرباعية انقسمت حول تفسير اتفاقية القاهرة ، ولم تمارس ضغطاً كافياً على الفلسطينيين . ومنظمة التحرير الفلسطينية استغلت الانقسامات العربية للتملّص من تنفيذ التزاماتها ، فبدأ الشك يعم البلاد . ودعت الجبهة اللبنانية الى صيغة جديدة لحكم لبنان ، وكانت تميل الى اقامة نظام لا مركزي ، وحتى فدرالي ، وراحت تتصرف كانها قوة موازية للسلطة . والحركة الوطنية التي فقدت رئيسها كمال جنبلاط لم تنضم الى رئيس البلاد ، بل تجمعت حول سليم الحص لتعرقل الاوضاع وتعيدها الى الحكم برأسين . واستولت اسرائيل على جزء من جنوب لبنان ، وانتكست الحالة الامنية ، وهي ما تزال بعد ركيكة . ولكن زيارة السادات للقدس هي التي ستقضي على كل امل في تنفيذ المقررات المتخذة في الرياض والقاهرة ، وستقلب معطيات النزاع في الشرق الاوسط رأساً على عقب . وهكذا أُعيد توزيع الاوراق ، وحدث انقلاب في التحالفات ، وتصاعدت موجة الشكوك فدخلت قلب السلام .

١ _ اللجنة الرباعيـة أو الرهان الخاسر

دعا الرئيس اللبناني ، في ١٤ كانون الأول ١٩٧٧ ، اللجنة الرباعية المنبثقة من قمتي الرياض والقاهرة ، والمؤلفة من ممثلي مصر وسوريا والسعودية والكويت الى الاجتماع الاول . حدد الرئيس سركيس جدول الاعمال باربع نقاط : جمع الاسلحة الثقيلة ، انسحاب جيش التحرير الفلسطيني من لبنان ، انتشار قوات الردع العربية وقيام منظمة التحرير الفلسطينية بتنفيذ اتفاقية القاهرة ، على ان يبدأ تنفيذ النقطة الاولى خلال خمسة عشر يوماً ، وينتهي تنفيذ النقطة الاخيرة خلال تسعين يوماً .

وتردت حالة الامن من جديد ، على اثر انفجار خطير في الاشرفية اسفر عن خمسة وثلاثين قتيلاً وخمسين جريحاً . ففي ٦ كانون الثاني ١٩٧٧ لم يخف الرئيس سركيس قلقه عن محمد الخولي ممثل سوريا في اللجنة الرباعية . وذكره بقرار جمع السلاح الثقيل قبل ٢٩ كانون الاول ١٩٧٦ ، والذي بقي دون تنفيذ واشار الى أن الجبهة اللبنانية لن تنفذ ما هو مطلوب منها قبل ان تنتشر قوات الردع في الشوف . وأضاف : « طلبت اليكم اكثر من مرة ان تنشروا هذه القوات هناك دون جدوى . حكمت الشهابي يردد لمن يريد أن يسمعه أنه يريد ليس فقط دخول الشوف بل الوصول حتى الى أقبية قصر كمال جنبلاط في المختارة ، ان هذا الوضع يلحق بي ضرراً كبيراً . فالجبهة اللبنانية تظن أن سوريا تريد أن تنفذ ، واني أنا أمنعها لأرضي كمال جنبلاط . والحقيقة هي نقيض ذلك . اذا أردتم أمراً خطياً لجمع السلاح فأنا مستعد لتوقيعه فوراً . يجب أن تستعمل سوريا القوة . واذا كان جمع الأسلحة الثقيلة يكلفنا اليوم عشرين قتيلاً ، فانه سيكلفنا غداً مائتين » . وكان الرئيس مقتنعاً كل الاقتناع بضرورة جمع كل الأسلحة من كل نوع من جميع المسلحين . وكان يرفض قطعاً الموافقة على بقاء الأسلحة الثقيلة أو المتوسطة في المخيمات الفلسطينية . ولا يحق لمنظمة التحرير الفلسطينية ، في نظره ، الاحتفاظ إلا ببعض الأسلحة الخفيفة لضمان سلامتها في داخل المخيمات .

اجاب محمد الخولي مستغرباً موقف فؤاد بطرس الذي يزعم ان سوريا لن تجمع الاسلحة الثقيلة . فانكر الرئيس سركيس الموقف المنسوب الى فؤاد بطرس . وتابع العقيد السوري حديثه قائلاً : « اني احمل اليك رسالة شخصية من الرئيس الاسد الذي يعتبر جمع كل الاسلحة ضرورة في منتهى الاهمية . وهو يعتبر ان لا سبيل الى الامن ولا الى السلام ما دام الشعب مسلحا . ان سوريا مستعدة ان تستعمل القوة ، اذا دعت الحاجة . وقد اعطت اللجنة الرباعية مهلا كافية لكل الفرقاء . ولم يعد القبول بالماطلة جائزاً وليس لدينا وقت نضيعه » .

وهكذا تكامل الموقفان اللبناني والسوري مبدئياً ، ولكن الشكوك بدأت تذر قرونها ، فالحكم في بيروت يشك بنيات حكمت الشهابي والقيادة في دمشق تشك بخلفيات فؤاد بطرس .

وكانت اللجنة الرباعية قد عينت الثالث من كانون الثاني ١٩٧٧ حدا اقصى لانسحاب جيش التحرير الفلسطيني من لبنان ، ولجمع السلاح الثقيل . وقد تم الانسحاب ، ولكن تجريد الشعب من السلاح كان ظاهريا اكثر منه واقعيا . وهذا ما خبرته اللجنة عن كثب اذ توارى القسم الاكبر من الاسلحة في المخابىء ، فقررت اللجنة ان توجه الى قوات الردع أوامر خطية للقيام بعمليات تفتيش ومداهمة . فثارت ثائرة ياسر عرفات وبذل مساعي عديدة لدى مصر والسعودية لمنع هذه العمليات ، وقال : «ان هذه العمليات ستؤدي الى حمام دم جديد . اني اقبل شخصياً مبدأ جمع الاسلحة الثقيلة ، ولكن جبهة الرفض لن تقبل بهذه الفكرة ، لانها لا تثق بسوريا ، اعطوني الوقت الكافي لاعيد جو الثقة أولاً » . صحيح ان الثقة مفقودة بين سوريا وجبهة الرفض ، ولكن الاصح انها مفقودة بين سوريا وعرفات أيضاً . انه اسلوب أبو عمار للتعبير عن تخوفاته الذاتية .

هكذا تفاقم الخلاف من جديد بين منظمة التحرير الفلسطينية ودمشق . فحاول الرئيس سركيس ان يحلحل الموقف ، واجتمع مرات عديدة بابو اياد ، والتقى في مسقط رأسه ، الشبانية ، في ٢٩ كانون الثاني ١٩٧٧ ، ياسر عرفات الذي لم يقبل بالذهاب الى القصر الرئاسي زاعماً انه يوجد في الحرس الجمهوري ضباط وجنود من اتباع سليمان فرنجيه يريدون اغتياله .

وقد انصب البحث اساسا على تنفيذ اتفاقية القاهرة . وتابعت اللجنة الرباعية اعمالها بلا نتيجة . واستطاع عرفات ان يكسب مزيدا من الوقت ، متذرعاً تارة بالاعتداءات الاسرائيلية في الجنوب ، وطوراً بوفاة كمال جنبلاط ، وحينا بوصول مناحيم بيغن الى الحكم في اسرائيل . وانتهت مهلة التسعين يوما من غير ان تنفذ اتفاقية القاهرة . وعقدت اللجنة الرباعية ، في ٢١ ايار ١٩٧٧ ، اجتماعها العاشر لتعترف باخفاقها . وفي ٢٧ ايار ، اعلنت الجبهة اللبنانية ان اتفاقية القاهرة اصبحت ملغاة بنظرها .

عقدت اتفاقية القاهرة عام ١٩٦٩ ، غير انها لم تطبق من قبل الفلسطينيين على الاطلاق . ففي حين اعتبر لبنان ان هذه الاتفاقية تؤلف الحد الاقصى من التنازلات المقبولة نظرت اليها منظمة التحرير على انها الحد الادنى وغير الكافي لمطالبها وتعاملت معها وكأنها نقطة الانطلاق التي تمكنها من انتزاع مجموعة من التنازلات الاخرى على حساب السيادة اللبنانية . اضف الى ذلك ان هذه الاتفاقية لم تبق مجرد ميثاق ثنائي بين لبنان ومنظمة التحرير بل اتخذت بعدا عربيا . فالدولة اللبنانية لا تستطيع ان ترفض ما وافقت الدول العربية على منحه لمنظمة التحرير في لبنان . وفي المقابل ، لا تستطيع

منظمة التحرير ان تذهب في لبنان الى ابعد مما تقبل به الدول العربية . لقد تدخل جمال عبد الناصر ، عام ١٩٦٩ ، لعقد هذه الاتفاقية ، وفي العام ١٩٧٦ ، حاول الاسد ان يطبقها . وكان من شأن هذا التداخل العربي ان يخدم ياسر عرفات الذي يعرف ان يستغل الصراع بين الانظمة العربية والصراع في داخل كل نظام .

وقد برع الزعيم الفلسطيني في فن توظيف المواقف لمصلحته . واكتشف امكانية التملص من تنفيذ تعهداته بالتمييز الذكي بين الوضع القائم في جنوب لبنان والوضع السائد في ما تبقى من لبنان . فعارض بشدة كل رقابة أوكل تقييد على الاسلحة الثقيلة في الجنوب « لأن لا احد يستطيع ضمان سلامة المقاومة الفسطينية في وجه الهجمات الاسرائيلية » . ولكنه قبل بمبدإ جمع اسلحته في خارج الجنوب ، ولكن بحسب « التفسير الفلسطيني » لاتفاقية القاهرة .

وهكذا طرح ياسر عرفات موضوعا شائكاً جديداً وهو الاتفاق على المرجع المؤهل لتفسير اتفاقية القاهرة . وقد اثار هذا الموضوع مناقشات لا نهاية لها . فالسعودية ومصر والكويت تذهب الى ان كل تفسير يجب ان ينجم عن موافقة مزدوجة من الدولة اللبنانية ومنظمة التحرير الفلسطينية في حين ان الرئيس سركيس ، بدعم من سوريا ، يعتبر ان كل تفسير يبقى منوطاً حصرا بالدولة اللبنانية ، انطلاقا من مبدإ السيادة الوطنية .

ورد الرئيس اللبناني خلال اجتماعات لجنة المتابعة العربية المقولة الفلسطينية . ونوه الى انه ، قبل انتشار الجيش السوري في لبنان ، كان الفلسطينيون على حق في ان يقلقوا على امنهم وسلامتهم في وجه اسرائيل . فالجيش اللبناني كان بالفعل غير قادر على حمايتهم . اما بوجود قوات الردع العربية فقد حلت المشكلة ، ودمشق ستدافع عن الفلسطينيين في لبنان كما في سوريا ويضيف الرئيس : « استطيع المطالبة باصرار وانا مرتاح الضمير ، بجمع الاسلحة ، كل الاسلحة . ولن اقبل في أي حال من الاحوال بوجود الاسلحة الثقيلة في المخيمات الفلسطينية ، وقد اقبل ، اذا دعت الحاجة القصوى ، بابقاء الاسلحة الثقيلة في الاماكن التي لا تستطيع قوات الردع الوصول اليها في الجنوب . وساعطي في الوقت الملائم الاوامر اللازمة الى قوات الردع والى الجيش اللبناني للرد على كل هجوم اسرائيلي . وقد اتفقت على هذه السياسة مع الرئيس السوري » .

وكشف لي محمد الخولي في آذار ١٩٧٧ ، بشكل لا لبس فيه النيات الفلسطينية فقال : « لا يريد الفلسطينيون تنفيذ اتفاقية القاهرة ، ولا تسليم الاسلحة الثقيلة بل يريدون تحويل مخيماتهم قلاعا » .

* * *

وكان من المتوقع أن تفقد الجبهة اللبنانية صبرها أمام مماطلات الفلسطينيين وألاعيبهم . مما حمل الرئيس على الاجتماع بأعضاء الجبهة مراراً بغية اخماد غضبهم . ورداً على اقتراح بيار الجميل الدعوة الى عقد قمة عربية جديدة ، شرح رئيس الدولة أن لبنان ليس بحاجة مطلقاً الى طلب عقد قمة عربية ، وذلك لسبب بسيط هو أن العرب يجتمعون في دياره بانتظام . فاللجنة الرباعية هي العرب . ولا فائدة من اشتراك العرب الآخرين كليبيا والعراق اللذين لن يقدما شيئاً محسوساً أو ايجابياً . وأدلى بمعادلة بديهية هي : « إذا نجحت اللجنة الرباعية تصبح القمة بدون مبرر ، واذا لم تنجح اللجنة ستكون القمة بدون نتيجة » . أجابه بيار الجميل : « انك على حق يا فخامة الرئيس . فاللجنة الرباعية هي روح العرب » . ولكن من المؤسف أن تصبح هذه الروح ميتة .

لخص لي الرئيس في ٤ أيار ١٩٧٧ جملة المحادثات التي أجراها مع زعماء الجبهة اللبنانية . وقد أفهمهم ان تنفيذ اتفاقية القاهرة ليس أمراً سهلاً ، ولا هو مسألة ساعات ودقائق ، ومن دون سوريا يبدو التنفيذ غير ممكن وغير مرغوب فيه . وأطلعهم على أن الرئيس السوري يريد تطبيق اتفاقية القاهرة ولكنه يصطدم بضغوط عربية ، ولاسيما من جانب مصر والسعودية . كما يصطدم بضغوط دولية ، ولاسيما من الاتحاد السوفياتي . وأوعز اليهم بضرورة تسهيل مهمة دمشق بكل الوسائل ، وتهيئة الشروط الايجابية المساعدة للتنفيذ . واعتبر ان التنفيذ لن يكون بسيطاً ، لأنه يثير مشكلات دقيقة ويتطلب كثيراً من الحكمة والحذر . فقرارات قمتي الرياض والقاهرة تنطوي على التزامين مترابطين ترابطاً وثيقاً أوجزهما الرئيس كالآتي : « لبنان يتعهد بحماية أمن المقاومة الفلسطينية ، والزعماء العرب يتعهدون بتطبيق اتفاقية القاهرة » .

وردا على منطق الجبهة اللبنانية التي ألحت عليه بأن يأمر قوات الردع بدخول المخيمات الفلسطينية ، قال الرئيس سركيس : « حتى لوكان بأمرتي جيش ماروني كليا من كسروان لترددت في اصدار الامر بدخول المخيمات الفلسطينية بالقوة . فلا غرابة اذا كنت لا اقدم على مثل هذه المخاطرة بجيش سوري عهد به اليّ بصفة شخصية . ان الاستيلاء عنوة على المخيمات الفلسطينية عملية باهظة الثمن ، ولست مستعدا للتضحية بالف جندي على اقل تعديل للقيام بها . اريد منكم ان تنظروا بعمق اكثر الى الامور والظروف الراهنة . اتظنون ان تطبيق اتفاقية القاهرة منوط بأمر اصدره ؟ اتحسبون ان كل امر ، مهما يكن ، سينفذ اوتوماتيكيا ؟ ان امرة الجيش السوري تعني الاخذ بعين الاعتبار الوضع السوري . عليّ ان ادرك ما تستطيع دمشق ان تتحمله وما لا تستطيع . ان اتفاقية القاهرة اما ان تطبق بالتنسيق مع سوريا ، أو لا تطبق ابداً ... » هل بدأ الرئيس يشك ؟ أم هو يستشف بحدسه السياسي المستقبل القاتم ؟.

وفي ما يختص باقتراح تدويل الازمة اللبنانية الذي يدعو له زعماء الجبهة اللبنانية ، حدد لهم

الرئيس سركيس رأيه بدقة قائلاً : « لن اقوم بأي مسعى ديبلوماسي بدون تنسيق مسبق مع سوريا . لن اذهب الى جامعة الدول العربية ولا الى الامم المتحدة لاعاكس المبادرة السورية في لبنان . ماذا تستطيع الجامعة العربية والامم المتحدة ان تعطيني اكثر من سوريا ؟ وماذا ينفعني كسب العطف العربي والدولي اذا خسرت تأييد سوريا العملي ؟ » . واشار الى انه يتابع بانتباه النشاط الديبلوماسي الذي تبذله الادارة الاميركية الجديدة . وعلق اهمية خاصة على لقاء الرئيسين كارتر والاسد ، في ٩ أيار ١٩٧٧ ، في فندق انتركونتيننتال في جنيف ، وهو الثاني بين رئيس اميركي ورئيس سوري منذ عشرين عاما . وتوقع ان يكون هذا الاجتماع حاسما على الصعيدين الاقليمي واللبناني . واطلع قادة الجبهة اللبنانية على انه طلب الى الولايات المتحدة أن تقنع المملكة العربية السعودية بالامتناع عن معارضة التحرك السوري في لبنان . واوضح للاميركيين انه يجب تسهيل مهمة دمشق ، اذا كانوا حقا يريدون تسهيل مهمته .

تحقق الياس سركيس من اخفاق اللجنة الرباعية نهائيا خلال شهر حزيران ١٩٧٧ . واتهم مصر والسعودية والكويت بمعارضتها الصريحة للمبادرة السورية . وكشف التواطوء الخفي بين مصر والسعودية لصالح ياسر عرفات . وقد لخص الرئيس اللبناني أمامنا ، جوني عبدو وأنا ، مختلف مراحل عمل اللجنة الرباعية وخيبات الأمل التي عاناها وأكد انه لاحظ ، منذ البدء ، قيام محورين في داخل اللجنة : سوريا من جهة ، وباقي الاعضاء من جهة اخرى . كما لاحظ توجهين : ممثل سوريا في اللجنة يدعم موقفه بلا تحفظ في حين ان ممثلي الدول الاخرى راحوا يتحفظون بحياء في الفترة الاولى ، ثم بصراحة في الفترة التالية . لقد اعترض ممثلو مصر والسعودية والكويت على صلاحية الرئيس اللبناني في تفسير اتفاقية القاهرة من جانب واحد زاعمين ان أي تفسير للاتفاقية بحاجة الى موافقة منظمة التحرير الفلسطينية . فاصر الرئيس ، باسم السيادة اللبنانية ، على حقه المطلق في تفسير الاتفاقية ودعا اعضاء لجنة المتابعة لمشاركته في ايجاد تفسير موحد للبنود المختلف عليها مع منظمة التحرير . فوافقت اللجنة بالاجماع بعد اجتماعات عدة على تفسير موّحد ومقبول من الجميع . وتولى علي الشاعر وعبد الحميد بعيجان ، سفيرا السعودية والكويت في لبنان وممثلا بلديهما في اللجنة الرباعية ، مهمة أقناع أبو عمار الذي رفض التفسير المتفق عليه . عندها طلب الرئيس من اعضاء اللجنة الرباعية توقيع هذا التفسير واعتباره نافذاً وتكليف قوات الردع العربية تنفيذه . ففوجىء الياس سركيس بطلب ممثل الكويت التريث في التوقيع وتأجيل الاجتماع « بناء على طلب حكومته » . واعلن ممثلو مصر والسعودية والكويت في الاجتماع اللاحق امتناع دولهم عن توقيع التفسير اللبناني لاتفاقية القاهرة وعن اصدار الاوامر للتنفيذ بحجة « ان الظروف غير ملائمة » . لقد سقطت الاقنعة وادرك الرئيس سركيس ان عدم تنفيذ اتفاقية القاهرة يؤدي الى مأزق . فقرر ان يرسل فؤاد بطرس الى القاهرة والرياض لحلحلة هذا الواقع .

تبين لفؤاد بطرس ، أثناء زيارته لمصر في ٣٠ حزيران ١٩٧٧، أن أنور السادات يرغب في اعادة النظر بقرارات قمتي الرياض والقاهرة . فهو يدعو الى اتفاق شامل وجديد قبل تنفيذ اتفاقية القاهرة . وينوي ان يدعو الى عقد مؤتمر قمة مصغر بشأن لبنان . ويعتبر التوفيق بين اللبنانيين والفلسطينيين ، وبين الفلسطينيين والسوريين أمراً ضرورياً . وهو يعرب عن استعداده للنظر في تعديل اتفاقية القاهرة ، ويظن ان هذه الاتفاقية غير قابلة التطبيق قطعاً بشكلها الحالي وفي الاحوال الحاضرة . بمعنى آخر ، لا تطبيق لاتفاقية القاهرة قبل اجراء تعديلات لصالح الفلسطينيين .

ولما قال الوزير اللبناني للسادات انه من غير المناسب ان تدعى الدول العربية الى عقد قمة أخرى قبل تطبيق مقررات القمة السابقة ، اجاب الرئيس المصري على الفور : « لقد تغيّرت المعطيات ، منذ قمتي الرياض والقاهرة . فاذا عُقد مؤتمر قمة آخر فاني اضمن شخصياً تطبيق مقرراته . واني مستعد للذهاب الى بيروت ، والى البقاء فيها كل المدة اللازمة لحل الازمة اللبنانية نهائياً . اني استطيع انجاز ما لم تستطع سوريا متابعته بسبب سوء تصرفها » .

وختم فؤاد بطرس حديثه عن زيارته للقاهرة قائلاً : « ان السادات ليس مع الفلسطينيين ولا مع السوريين ، ولا مع اللبنانيين ، انه مع السادات فقط . وهو يتحرق توقاً الى القيام بدور حاسم في لبنان . وهذا الدور هو ، في نظره ، وسيلة لتعزيز نفوذه وهيبته على ثلاثة صعدان : المصري ، والعربي ، والدولي » .

وعلّق الرئيس على موقف مصر فاعرب عن خيبة امله تجاه السادات الذي « يكتفي بالكلام ، ولا يعمل شيئاً ملموساً » . لقد قدّر الياس سركيس موقف بعض البلدان العربية ، الأقل أهمية من مصر ، كاليمن ودولة الامارات ، التي شاركت في قوة الردع العربية . لقد كان ينتظر اكثر من السادات لان مصر قامت دائماً بدور اكبر في لبنان .

ثم ابدى فؤاد بطرس رأيه في موقف المملكة العربية السعودية التي زارها ما بين ٤ و ٥ تموز ١٩٧٧ ، فاشار بان موقفها مطابق للموقف المصري مع فوارق هامشية . فالمسؤولون السعوديون يعترفون مبدئياً لسوريا بدور خاص في لبنان ، ويمتنعون عن توجيه أي انتقاد علني الى دمشق . لكن فؤاد بطرس استشف وجود تنسيق في العمق بين القاهرة والرياض ، مع رغبة من السعودية بالمحافظة على مظهر الحياد ، وهي الصورة التي تصرّ عليها تجاه النزاعات العربية . فالسعوديون يميلون الى عقد قمة عربية جديدة مصغرة بعد ازالة الملابسات بين مصر وسوريا . وهم يربطون تطبيق اتفاقية القاهرة بالوفاق الاسلامي — المسيحي في لبنان . وينوون القيام بمبادرة لمصالحة اللبنانيين ، ولكنهم لا يقبلون

بممارسة أي ضغط على المنظمات الفلسطينية لتطبيق اتفاقية القاهرة . « وبعبارة أخرى ، يضيف بطرس ، فان المملكة العربية السعودية تشترط ، لتطبيق اتفاقية القاهرة حصول المسلمين اللبنانيين على ضمانات » .

وروى لنا فؤاد بطرس انه قد شدد في أثناء محادثاته مع المسؤولين السعوديين على ارتباط الوفاق بين اللبنانيين بالوفاق بين العرب ، فأجابه سعود الفيصل مازحاً : « قد يكون من الأسهل اتمام الوفاق بين اللبنانيين قبل التوصل الى الوفاق بين العرب » .

٢ ـ الجبهة اللبنانيّة أو السّلطة - الظلّ

الرئيس سركيس محشور : منظمة التحرير الفلسطينية على يساره والجبهة اللبنانية على يمينه . الجبهة تتصرف وكأنها هي الممثل الحقيقي للبنان . بالأمس ، كانت الجبهة تساند السلطة الشرعية الممثلة بسليمان فرنجية . أما اليوم ، وبرئاسة كميل شمعون ، فأنها تنصب نفسها كأنها الشرعية الأخرى أو السلطة — الظل .

ان اختلاف وجهات النظر بين الرئيس سركيس والجبهة اللبنانية ازداد بشكل مضطرد بعد مؤتمر سيدة البير المنعقد ما بين ٢١ و ٢٣ كانون الثاني ١٩٧٧ . وقد اتخذت الجبهة فيه ثلاثة قرارات اساسية . دعت أولا الى اصلاح النظام السياسي القائم على ميثاق ١٩٤٣ ، والى استبداله بنظام لا مركزي حيث تستطيع فيه كل مجموعة طائفية ان تعالج شؤونها الخاصة ، ولا سيما التربوية منها والمالية والأمنية . واعلنت بعدئذ عزمها على العمل لتوزيع الفلسطينيين المقيمين في لبنان على البلدان العربية . وابدت بعض التحفظات على توغل القوات السورية في المنطقة المسيحية من بيروت . وقد دعا بشير الجميّل ، في ٢٤ كانون الثاني ١٩٧٧ ، الى اضراب احتجاجي على انتشار الجيش السوري في الاشرفية .

لقد ادرك الرئيس سركيس خطورة هذه الخلافات بينه وبين الجبهة اللبنانية ، وحاول أن يخفف منها ، وقال لي في ٩ كانون الثاني ١٩٧٧ : « إن الأكثر أهمية الآن هو الخيار السياسي حول مستقبل لبنان الذي نريد ، وكل الامور تتفرع بعدئذ عن هذا الخيار . والمسألة التي تشغل بالي هي التالية : هل تعمل الجبهة من أجل لبنان واحد ؟ اذا جرى الاتفاق حول هذا الخيار الاساسي بدقة اصبح من السهل تقرير كيفية بناء الدولة ، والجيش ، والجامعة اللبنانية ، والادارة » .

في الفصل الاول من العام ١٩٧٧ ، بلغت العلاقات بين رئيس الدولة والجبهة اللبنانية عتبة المواجهة المكشوفة . اذ عارضت الجبهة تعيين قائد جديد للجيش اللبناني وقررت ، بدون استشارة الرئيس ، تقديم مذكرة الى وزير الخارجية الاميركية سيروس فانس ، لمناسبة زيارته الرسمية للبنان .

عقد الرئيس سركيس اجتماعاً عاصفاً مع بيار الجميل ، في ١٦ شباط ١٩٧٧ ، وقال له : « أتريدون ، كجبهة لبنانية ، انشاء جيش مسيحي ؟ أنا ، بوصفي رئيس لبنان ، أريد تكوين جيش لبناني ، أعني جيشاً اسلامياً — مسيحياً . ومن غير المعقول تأليف جيش مختلط على رأسه ضباط

مسيحيون ، لا تنفكون عن المطالبة ببقائهم في مناصبهم . ولنكن واضحين ، اذا كنتم قد اخترتم قيام جيش مسيحي فلا تتكلوا عليّ وفتشوا عن غيري » . واحتدّ قائلاً : « هل قررتم الانفصال عن الشرعية ؟ فبتقديمكم مذكرة خاصة بكم الى سيروس فانس تتصرفون تماماً مثل كمال جنبلاط » . وأقر رئيس الكتائب بأنه لم ينتبه الى هذه الناحية ، وعرض على الرئيس أن يرسل اليه نسخة عن المذكرة ، ونصحه بأن يستدعي زعماء الجبهة الآخرين ليسمعوا منه الكلام نفسه وليحدد معهم السياسة الواجب اتباعها . لكن الرئيس اللبناني لم يبدِ أي تحمس في الاطلاع على المذكرة وفي استقبال باقي زعماء الجبهة ، وحرص على الاحتفاظ بود رئيس الكتائب .

عهد الرئيس الى فؤاد بطرس بمهمة عرض موضوع العلاقة مع الجبهة اللبنانية على المسؤولين الاميركيين . وقد تعمد الوزير اللبناني أن لا يتطرق الى هذا الامر بحضور سليم الحص . لذا اغتنم ، في ١٨ شباط ١٩٧٧ ، فرصة انتقاله بالسيارة مع سيروس فانس ورتشارد باركر ، السفير الأميركي في لبنان ، من المطار الى القصر الجمهوري ليطرح لهما بوضوح اهتمامات الرئيس سركيس . وأشار بطرس الى أن الغموض يكتنف السياسة الأميركية في لبنان . ويظن كثيرون أن الأميركيين ينتهجون سياسة مزدوجة : سياسة معلنة تؤيد الرئيس سركيس وخياراته ، وأخرى غير معلنة ، تدعم الجبهة اللبنانية وطروحاتها . وقال لهما : « انكم تتركون الانطباع بأن لكم سياسة رسمية برسم الدولة ، وسياسة موازية لها برسم الجبهة يجري نقلها عبر شارل مالك » . ومن المعروف أن شارل مالك هو مستشار الجبهة اللبنانية للشؤون الأميركية وقد شغل في عهد كميل شمعون منصب وزير الخارجية . وانتقل بطرس الى تقييم هذا التصرف الأميركي قائلاً : « ان الازدواجية لا تخدم مصلحة أميركا ولا مصلحة لبنان . فاذا كنتم راغبين في انشاء دولة مسيحية فلنتناقش في هذا الأمر ، ولنتفق . ولكن أود في هذا السياق أن أطرح عليكم سؤالاً واحداً : هل تتحمل الولايات المتحدة الأميركية قيام اسرائيل ثانية في الشرق الأوسط ؟ » .

أجاب وزير خارجية أميركا بوضوح وجد بأن الولايات المتحدة الأميركية شديدة التعلق بوحدة لبنان وسيادته ، وهي تؤيد بدون اقل مواربة الرئيس سركيس وسياسته . وأضاف : « ان واشنطن تريد ان تقيم علاقات مع الدولة اللبنانية ، ومعها وحدها . ولا ترمي مطلقاً الى انشاء دولة مسيحية ، فليس هذا من مصلحتنا ، ولن ندعم أية محاولة في هذا الاتجاه » . وابدى فانس استعداده لتأكيد هذه السياسة رسميا وعلنا(٥) . اما بشأن شارل مالك فلاحظ فانس ان هذه الشخصية اللبنانية

(٥) أدلى سيروس فانس في أعقاب زيارته الى لبنان ، في ١٨ شباط ١٩٧٧ ، بتصريح جاء فيه : « ان الولايات المتحدة الأميركية تعتبر المحافظة على سلامة لبنان وعلى وحدته وسيادته في منتهى الأهمية ، وهي تؤيد جهود الرئيس سركيس الرامية الى توحيد البلاد » .

تنمي علاقات قديمة لها في الولايات المتحدة ، ترقى الى العام ١٩٥٩ ، وهذا لا يعني على الاطلاق ان الادارة الاميركية تتعامل معه بصورة رسمية . ولم يتردد فانس في اتخاذ الموقف المناسب تجاه مذكرة الجبهة اللبنانية المرسلة الى السفارة الاميركية ، فقد استدار نحو السفير باركر وقال له : « لا تسلمني هذه المذكرة في أثناء وجودي هنا ، بل أرسلها اليّ بالحقيبة الدبلوماسية العادية الى واشنطن » .

* * *

للحديث الذي اجراه بطرس مع فانس مغزاه البليغ . انه يدل على مدى التوتر القائم بين سركيس والجبهة . انه توتر يشمل الجبهة بجملتها ، لكن نسبته تختلف بالنظر الى كل عضو من اعضائها . فالعلاقات مع بيار الجميّل حسنة ، ومع سليمان فرنجية عادية ، ومع كميل شمعون سيئة . ويتهم شمعون سركيس بأنه يعمل لزرع الشقاق في قلب الجبهة ، وانه يريد انشاء جيش معاد للميليشيات المسيحية ، وانه يفرض عودة الشهابية الجديدة . وفي الواقع ، فإن رئيس حزب الوطنيين الاحرار لا يضمر الود للرئيس اللبناني ، ولا يثق بحسه السياسي ولا بسياسته ، كل شيء يفرق بين الرجلين : الماضي ، والخيارات ، والطبع .

كميل شمعون ساحر كبير . فهو لا يقنعك ، انه يبهرك . وقد أقرّ الياس سركيس بمواهبه عندما قال لي في حزيران ١٩٧٨ : «كميل شمعون ظاهرة غريبة . فعلى الرغم من ان فؤاد شهاب كان مسيحياً ممارساً ، فالمسيحيون لا يشعرون بذاتيتهم الا من خلال كميل شمعون . في كل احتفال ديني كنا نطلب الى التلفزيون ان يصوّب اضواءه على فؤاد شهاب عندما كان يرسم اشارة الصليب ، أو عندما كان يستعد لتناول القربان المقدس . ولكن بلا فائدة . فالمسيحيون كانوا ، وهم الآن ، وسيكونون دائماً مسحورين بكميل شمعون » . انه بطريرك المسيحيين المدني .

هذا البطريرك يعتبره بعضهم ملاكاً والبعض الآخر شيطاناً . ولكن الكل يعترف بأنه من أهم السياسيين على الساحة الاقليمية . يلقبه اصدقاؤه بالـ « نمر العتيق » . ويعتبره خصومه « ثعلباً عتيقاً » . والحقيقة انه هذا وذاك معاً : له شجاعة النمر ، وحيلة الثعلب . يردد محازبوه بلا انقطاع : يكفي أن يعقد كميل شمعون حاجبيه ، ليرتجف الجميع رعباً . يمثل كميل شمعون أضخم سوء تفاهم عرفته السياسة اللبنانية . انه عميد السياسيين في الشرق الأوسط : كان فيصل العراق وشاه ايران صديقيه ، وعبد الناصر وبن غوريون نظيريه .

طالب ، وهو وطني شاب ، بالغاء الانتداب الفرنسي . ووقف الى جانب الانكليز داعياً الى نوع من العروبة . ودافع ، عام ١٩٤٧ ، عن القضية الفلسطينية في الامم المتحدة ، فاستحق لَقب

« ابن العروبة البار » . ولكن ، لما تولّى رئاسة الجمهورية عام ١٩٥٢ ، فاجأ الجميع بتأييده لحلف بغداد الذي عُقد عام ١٩٥٥ . ولم يُدن عام ١٩٥٦ حملة السويس التي شنتها على مصر فرنسا وبريطانيا واسرائيل . وانضم عام ١٩٥٧ الى مشروع ايزنهاور ، وطلب التدخل الأميركي في لبنان عام ١٩٥٨ . على الرغم من الهزائم والاخطاء والمجازفات بقي كميل شمعون يحتل مكان الصدارة على المسرح السياسي . انه يُبعث حياً بعد كل سقطة ، ويقوم من الموت بعد كل ضربة . فهو يعرف ان ينتصر ، ويعرف أيضاً ان يتغلب على الانكسار .

بارع ، جريء ، لا يهاب القوى الخطيرة ، ويجابه التيارات الجارفة . في الخمسينات عادى الناصرية . وفي الستينات قاوم الشهابية . وفي السبعينات وقف بوجه ياسر عرفات . ومنذ العام ١٩٧٨ ، يواجه سوريا — الأسد . ومع كونه رئيس حزب الوطنيين الاحرار ، فانه يفضل العمل من خلال الجبهات السياسية اكثر من تنظيم الاحزاب الشعبية . انه ارستقراطي شعبي . عام ١٩٥٢ ، ألّف مع كمال جنبلاط الجبهة الاشتراكية الوطنية التي حملته الى رئاسة الجمهورية . وعام ١٩٦٨ أنشأ ، مع بيار الجميّل ، وريمون اده ، الحلف الثلاثي الذي أبعد الياس سركيس عن رئاسة الجمهورية ، واوصل سليمان فرنجية اليها . وعام ١٩٧٧ ، أخيراً ، أطلق الجبهة اللبنانية وترأسها .

صياد محترف . يعرف كيف يطلق ناره في الوقت الملائم والاتجاه المناسب فيصيب . ذكي . يحب الأذكياء ويحترم الذكاء . قال لي في تشرين الثاني ١٩٧٧ : « لوكان السادات أوفر ذكاء ، لراهنت عليه . يجب ان نراهن دائماً على الاذكياء » . نضاله الطويل مستمر منذ الاربعينات . فقصة حياته هي قصة لبنان في نصف قرن . عصر شمعون لا ينتهي . انه كطائر الفينيق لا يموت .

أما سليمان فرنجية فليس له مأخذ على الياس سركيس كشخص ، ولكن في عقله الباطن شعوراً غامضاً وغير واعٍ يحمله على التخوف من نجاح مشروع الرئيس التوحيدي ، لأن توحيد لبنان يعني ادانة ضمنية للعهد السابق . فكل نجاح يحققه الرئيس الحالي قد يكون برهاناً على أن الرئيس فرنجية لم يستطع المحافظة على وحدة الوطن ، أو لم يعرف ان يمنع حدوث التقسيم . والرئيس السابق يعلم ان ثمة سؤالاً مطروحاً ، وهو : هل كانت حرب لبنان قد نشبت لو ان سركيس انتخب رئيساً عوضاً عن فرنجية عام ١٩٧٠ ؟...

لهذه الأسباب ، يحرص الرئيس سركيس على معاملة فرنجية بكل رعاية واهتمام ، ويحاول ، في كل مناسبة ، مراعاة حساسيات الرئيس السابق . فمنذ تسلمه الحكم راح يثبّت كل مريدي فرنجية في مناصبهم ، سواء أكان في الحرس الوطني ، أو في رئاسة الجمهورية ، أو في الادارة العامة . وفي هذا الموضوع قال لي : « اني مدين لفرنجية بهذا ، لأنه كان بوسعه ان يعزلني من منصب حاكم

مصرف لبنان ، عام ١٩٧٠ ، فلم يفعل ، بالرغم من ضغط جماعته عليه ، وفي طليعتهم صائب سلام » .

واذا كان الرئيس يشكو من تصلب الجبهة اللبنانية ، فانه يعزو نزعتها هذه الى كميل شمعون وسليمان فرنجية ، ويعتبر بيار الجميل معتدلاً . وقد ردّد لي مراراً قوله : « اريد اقامة علاقات طيبة مع الجبهة كلها مجتمعة ، وعلاقات متوازنة مع كلٍّ من اعضائها . لا اريد ان تنمو علاقاتي الحسنة مع بيار الجميّل على حساب العلاقات التي اقيمها مع كميل شمعون . أريد أن أعاملهم جميعاً على قدم المساواة ، مع ذرة واحدة لصالح بيار الجميّل » . والحقيقة ان القائد الكتائبي يختلف عن باقي الزعماء اللبنانيين ، ولو كان الفارق « الذرة الرئاسية » .

استاذ كبير في السياسة اللبنانية في مظاهر طفل بريء . انه رئيس الكتائب اللبنانية الأعلى منذ العام ١٩٣٦ ، وهي اهم حزب سياسي في لبنان . يحلو له ان يردّد انه لا يحب السياسة والسياسيين ، وانه أسّس « مدرسة وطنية » لا « حزباً سياسياً » ، وهو يتصرف تصرف « المعلم » .

ويعزو هذا « المعلم » سر بقاء حزب الكتائب الى أمرين : الانضباط والمحبة . انه يهتم بكل فرد ، ويراقب كل شيء ، ولا تخفى عليه حتى التفاصيل . الانضباط يأتي قبل أي شيء ، في نظره . تلميذ الآباء اليسوعيين ، وقد أعجب بطريقة تنظيم هذه الرهبانية ، فسعى الى تطبيق النموذج نفسه في رهبانيته المدنية أي الكتائب . فاختار شعارهم المختص بالطاعة ، وهو لا ينفك يكرره علناً : « ان على الكتائبي ان يكون كاليسوعي ، جثة بين ايدي رؤسائه » .

بفضل هذا الانضباط الذي أصبح مذهباً بحد ذاته ، حافظ بيار الجميل على « وحدة الحزب المقدسة » . وهو يبذل اقصى الجهد لنشر روح المحبة بين اعضائه ، متبنياً الشعار القائل : « واحد للجميع والجميع لواحد » . يدعو الى الفضيلة والقوة . ويردد قوله في كل اجتماع تقريباً : « يجب ان يكون الحزب قوياً عسكرياً ، وطاهراً خلقياً » .

لقد جعل نفسه مثالاً حياً للقوة الطاهرة فهو يعتبر ان القوة بلا أخلاق كارثة ، والاخلاق بلا قوة انتحار . ويشدّد على القول إن الأخلاق بأهمية القوة العسكرية ، لا بل أهم منها . ويعتبر أيضاً ان المال يوسّخ المرء ويحط من قدره ، وينصح بالابتعاد عنه . ومن اقواله : « عندما تبدأ امرأة قيصر بالتدخل في شؤون المال لا تبقى فوق الشبهات . انا الرئيس الأعلى للحزب ولكني لست الرئيس الاعلى لماليته » .

لا فيلسوف ، ولا ايديولوجي . انه قائد ، وكأنه ولد ليأمر فيطاع . يهزأ بالثرثرة الجوفاء التي يتغرغر بها المثقفون ، وهو يقول : « لسنا في حاجة الى الذين يعطوننا افكاراً . نريد الذين يبذلون الدماء » . يؤمن بالقوة وبمظاهر القوة : العرض العسكري ، الحفلات الشعبية المنظمة ، الموسيقى والاناشيد الحماسية . يغذي علاقته المباشرة مع جماهير حزبه . كل محازب يستطيع ان يلتقيه شخصياً وفي كل حين .

يتكلم اكثر مما يستمع . يلاحق افكاره اكثر مما يتنبه لآراء الآخرين . يشرح مواقفه بدون تصميم أو منهجية ، ولكنه يتبع منطقاً داخلياً متماسكاً . قال لي انطوان أيوب ، وهو من الكتائبيين الأولين ، اذ كان يستمع الى الشيخ بيار : « المدهش انه يلقى صعوبة مضنية في التعبير وفي الوقت ذاته هو رجل الكلمة أي المؤمن بقوة الاقناع » .

يكرس الرئيس الكتائبي قسماً كبيراً من وقته لاستقبال الصحافيين ، يجري المقابلات ، ويستمع الى الاذاعات . وقد اعتاد ان يردد بدون تعب أو ملل الافكار ذاتها . وهو يعلم ذلك ويعترف به . الا انه مقتنع بفضيلة التكرار ، فيقول : « لتغرز مسماراً يجب أن تضربه ضربات عديدة » .

ويتمحور فكر بيار الجميّل السياسي حول ثلاثة مرتكزات : الخصوصية اللبنانية في العالم العربي ، صيغة التعايش الاسلامي — المسيحي القائم على ميثاق ١٩٤٣ ، ونظام الحريات الذي يضمن كل انواع الحرية ، وخاصة حرية المعتقد .

وبمقدوره ان يحيط الواقع المعقد بمفاهيم بسيطة . ظاهرياً الاشياء واضحة وسهلة . هناك الأخيار والأشرار ، الأميركيون والسوفياتيون ، اليمين واليسار ، العرب واسرائيل ، اللبنانيون الحقيقيون واللبنانيون المزيفون . عملياً بيار الجميّل أكثر براعة مما يبدو عليه . يهتم بربح الأصدقاء وبتحييد الأعداء . يريد أن يكون غربياً دون أن يقاطع الشرق ، وأن يكون أميركياً دون ان يعادي السوفيات ، وأن يكون لبنانياً قحاً دون أن ينسلخ عن العرب . انه يحب أن يعتمد التوازنات وأن يجمع الأضداد ، وأن يوفق ما لا يتوافق .

عبقرية بيار الجميّل تكمن في أنه أدرك ضرورة تأسيس الكتائب كقوة عسكرية مساندة للدولة ورديفة لها . فما دامت المؤسسات الرسمية قادرة على الدفاع عن الاستقلال الوطني والوجود المسيحي تبقى الكتائب حزباً مسانداً لها . ولكن في حال انهيار الدولة تقوم الكتائب على الفور ، لكونها قوة احتياط استراتجية ، بالحلول محلها ، وان موقتاً . فالكتائب كانت دوماً اكثر من حزب وأقل من دولة .

خلافاً للسياسيين ، لا يتباهى بقوته بل يظهر نفسه دائماً باضعف مما هو عليه . كما انه لا يفاخر بمهارته بل يخفي فطنة ووعياً كبيرين . ولما ابدى بعض رفاقة تخوفهم من اجتماعه ، واغلب الاحيان وحيداً ، بالسادات والأسد وعرفات وغيرهم ، قال لهم جوزف شادر ، احد مؤسسي الكتائب : « لا تخافوا عليه . انه اقوى مما تتصورون . وهو قادر على وضع كل محاوريه في جيبه الصغير » .

انه قوة من قوى الطبيعة . عصبي ، وفي حركة دائمة . انه قدر يتحدى الاخطار والموت . بعد فشل محاولة اغتياله في حزيران ١٩٧٩ بنصف ساعة ، كنت الى جانبه وهو مستلقٍ على محمل ، فنظر اليّ بهدوء قائلاً : « لقد اعتدت هذا النوع من الرياضة ! » . هجوميّ ، له طاقة فذة على تبرئة نفسه وتجريم الخصم وحتى الصديق . قوي الارادة ، حذر الطباع ، منطوٍ على ذاته ، كوّن لنفسه صورة شعبية طيبة ومحبوبة . اذا حُشر واراد التملص ، يدهش سائليه بتصرفٍ غير متوقع أو بجواب مفاجىء . ولما سألته صحافية أميركية عام ١٩٨٢ رأيه في ترشيح ابنه لرئاسة الجمهورية ، اجاب بلهجة طبيعية : « بشير ممتاز ... مثلي » .

انه شخصية مركّبة من صفات عديدة . رفعه محازبوه الى مرتبة القداسة فهو لا يُمس . فاذا به يتمتع بقدرة واسعة على المناورة تتيح له تغيير اتجاهه بدون التعرض لخطر فقدان شعبيته أو موقعه . وقد قال فيه الياس سركيس : « لا اعرف في لبنان سوى شخصين يستطيعان الاستدارة ١٨٠ درجة بدون ان تهتز قاعدتهما الشعبية ، وهما : بيار الجميّل وكمال جنبلاط . في وسع كل منهما ان يسمح لنفسه بتبني فكرة في الصباح ونقيضها مساءً ، بدون ان يأتي احد ليطرح عليه أي سؤال » . وهذه الحرية في الحركة أهّلت الرئيس الكتائبي ليحدد موقعه على هواه ، ومكنته من اتخاذ المواقف الملائمة فيفاجىء الحليف والخصم .

مع مرور الوقت أمسى بيار الجميل ضمير الأمة والدرع التاريخية لمسيحيي لبنان . يعبر عن خوف المسيحي على الكيان في وجه العروبة والاسلام . لا تقلقه أية معارضة على يساره ، لانه يعرف كيف يحتويها ، ولكنه يتخوف من كل راديكالية على يمينه لئلا تفقده مكانته . وهكذا كانت المنافسة مع كميل شمعون دائمة . فالمسيحيون كلهم مولعون بهذين الرجلين : كميل شمعون يشدهم بسحره وكأنه دون جوان ، وبيار الجميّل بمثاليته وكأنه دون كيشوت .

* * *

لم تتوان الجبهة اللبنانية ، خلال العام ١٩٧٧ ، عن ترسيخ نفوذها وتقوية بنيتها وتنظيماتها . فراحت تجتمع ، برئاسة كميل شمعون ، مرة في الاسبوع كما لوكانت مجلساً للوزراء ، وتوجه البلاغات

والمذكرات الى الدول العربية والاجنبية ، وتقوم بالاتصالات الديبلوماسية عبر العالم ، وتنظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المناطق المسيحية . مؤسساتها اكثر ايمانا واوفر حيوية من مؤسسات الدولة . فارتفع عدد المنتمين اليها واطمأن المسيحيون الى اعمالها ومواقفها . اما الدولة ، فانها بقيت مفككة ، عديمة المعنويات ، وكأنها تتلاشى .

وقد اعرب الرئيس عن قلقه من تصاعد نفوذ الجبهة اللبنانية كسلطة موازية للسلطة الشرعية . وباشر بتشجيع من بيار الجميّل ، انفتاحا على كميل شمعون . وخلال ربيع العام ١٩٧٧ ، عقد اجتماعات منتظمة مع رئيس حزب الوطنيين الاحرار ولا سيما مع ابنه داني . فالشمعونيون يعلقون اهمية كبيرة واساسية على التعيينات في الجيش والادارة ، ويريدون باصرار انشاء قسم ثان من الجامعة اللبنانية في المنطقة المسيحية . وفي ١١ أيار ، رفع الرئيس الستار عن بعض نواحي محادثاته مع شمعون ، وروى لي انه حذر من انشاء جامعتين لبنانيتين . واوضح لشمعون ان المسلمين أيضا يطالبون بالشيء نفسه . وانه يُخطىء اذا كان يظن ان « الجامعة المسيحية » ستكون متفوقة على « الجامعة الاسلامية » . ان بلدانا عربية عديدة مستعدة فوراً لتمويل أي جامعة اسلامية ، في حين لا توجد دولة واحدة لمساعدة جامعة مسيحية قد تنشأ . والدليل على ذلك أن القذافي تقدم بطلب يرمي الى انشاء معهد انماء في لبنان يضم أربعة آلاف طالب . ويضيف الرئيس سركيس : « انتم في الجبهة تفضلون اعطاء المسلمين نصف الجامعة اللبنانية لتحتفظوا بالنصف الآخر . اما انا ، فافضل المحافظة على جامعة لبنانية واحدة ، وان اعهد برئاستها الى ماروني » .

اقتنع شمعون لكنه ما عتم ان طرح موضوعا آخر يتعلق بانتشار الاحزاب اليسارية في الجامعة اللبنانية . فاجابه الرئيس سركيس انه لا يستطيع تصور جامعة بلا احزاب . ولن يمنع الشبان الذين تراوح أعمارهم بين ١٧ و ١٨ سنة أن يكونوا الى اليسار ، حتى وعلى الأخص في محيط يميني . وأضاف : « فلندع الشبان يتطورون طبيعياً . رأيت منذ أيام برنامجاً متلفزاً عما آل اليه زعماء طلاب حركة أيار ١٩٦٨ الشهيرة في فرنسا . ان أكثر هؤلاء الشبان الثوريين أصبحوا ، بعد عشرة أعوام ، مديرين واداريين بارزين في المؤسسات العالمية والمتعددة الجنسيات . الشباب نستطيع كسبهم جميعاً . انهم طلاب تجدد ، وهذا حقهم » .

وشرح الرئيس انه ينوي القيام بعملية واسعة لتوحيد لبنان على أسس جديدة ، كأنشاء المجلس الوطني الاقتصادي والاجتماعي ، واعادة تنظيم المناطق على اسس لا مركزية واسعة اداريا واقتصاديا ، وادخال هيكليات جديدة وحديثة في مؤسسات الدولة . وأعتبر أن هذه الطرق تحيي الوفاق الوطني من جديد ، وتتجاوب وامنيات الشباب وطموحاتهم .

واغتنم الرئيس سركيس فرصة هذه اللقاءات ليطلب الى كميل شمعون أن يزور دمشق بغية استمرار التفاهم بين سوريا والجبهة اللبنانية . وهذا ما فعله زعيم الجبهة اللبنانية فالتقى حافظ الاسد في ٢ حزيران ١٩٧٧ .

ولكن هذا الانفتاح الواسع على الجبهة اللبنانية ، لم يؤد الى النتائج المتوخاة . فدعا الرئيس زعماء الجبهة الثلاثة في ٣٠ آب ١٩٧٧ الى اجتماع اراده صريحاً ومباشراً . واعد لهذه المناسبة بضع ملاحظات دونها على دفتر صغير يستعمله . وكان في منتهى الصراحة ، فقال لهم : « انكم تتصرفون كما لو كانت الدولة غير موجودة ، بل أسوأ من ذلك ، كما لو كانت الدولة مكسر عصا. تعطون انطباعا بأن الدولة عاجزة أو جامدة لا حياة فيها ، وان لديكم حلولا لكل شيء ، وانكم تملكون الوسائل لانجاز أي شيء . وبالاختصار انكم على وشك تحويل الدولة الى كبش محرقة ، كما لو كانت هي المسؤولة عن كل المصائب التي حلت بالبلاد . كلما حدث حادث أو طرأ طارىء تجتمعون ، وتصدرون بلاغا وتعلنون مسؤولية الدولة . والحقيقة انكم مسؤولون مثلي إن لم يكن اكثر مني . إني مسؤول عن اعمالي كلها منذ ان توليت رئاسة الجمهورية ، أما انتم فمسؤولون ، بالنظر الى زعامتكم التاريخية ، عن كل ما يحدث الآن وما حدث سابقاً . بفضلكم انتم انتُخبت رئيساً للجمهورية في ظروف قاسية واستثنائية . اخترتموني لأكون وسيطاً بينكم وبين المسلمين ، وبين مختلف المتقاتلين . دوري هو أن أوحّد الوطن وأن أنشر السلام في البلاد ، وإلا لكان كل واحد منكم أكفأ مني للرئاسة . اني باق في منصبي لتوحيد اللبنانيين . أنا رئيس لكي أؤدي هذه الرسالة . اذا كنتم قد غيرتم اختياركم فصارحوني ، أنا لم أتغير » .

بعد هذه المداخلة المؤثرة عدد الرئيس مآخذه على قادة الجبهة اللبنانية ، وانتقد مواقفهم المؤيدة له كلامياً والمعادية فعلياً فهم يناصبونه العداء بدلاً من التأييد الذي يحتاج اليه لتنفيذ مهمته الصعبة . وأشار الى تصرفات بشير الجميل المعادية لسوريا بدون أن يسميه ، وحذرهم من الانزلاق في المواجهة مع دمشق . ولاحظ أن حافظ الأسد شديد الحساسية حيال كل تبديل في موقف الجبهة أو كل حملة على العرب بلا تفريق أو تمييز . وأنهى الرئيس حديثه قائلاً : « انه لمن الخطإ والظلم أن تحملوا على كل العرب دون استثناء سوريا . فالعرب ، ما عدا سوريا ، يبتعدون عنا ويحرصون على إبقاء مسافة بينهم وبيننا . لا تخدعوا نفوسكم ، ولا تجازفوا بمخاصمة دمشق » .

خفف هذا الاجتماع حدة التوتر بين الدولة والجبهة ، الا انه لم يحل كل المشكلات التي ظلت معلقة . فقد ألـحّ الرئيس في الخطاب الذي القاه في ٢٣ ايلول ١٩٧٧ على مفهوم « الانتماء المطلق الى لبنان » . وشرح لي معنى اصراره على مفهوم هذا الانتماء قائلاً : « أفهم به أن يمتنع المسيحيون عن كل تعاون مع اسرائيل ، وان يمتنع المسلمون عن التشيُّع للفلسطينيين » .



٣ ـ الإسلام أو الحكومة الصّعبة

حدثان بارزان هزا في العامين ١٩٧٧ و ١٩٧٨ لبنان ، ولا سيما الاسلام اللبناني : اغتيال كمال جنبلاط في ١٦ آذار ١٩٧٧ ، واختفاء الامام موسى الصدر في ٣٠ آب ١٩٧٨ .

جاء الامام الصدر من ايران ، وقد وُلد في مدينة قم عام ١٩٢٨ . انتقل الى صور عام ١٩٦٠ بصفته الرئيس الروحي للطائفة الشيعية ، وتمكن من وضع مشروع سياسي في حجم الوطن . بسط نشاطه ونوّعه بانشاء هيئات اجتماعية وجدد تنظيم الطائفة الشيعية . اسس عام ١٩٦٩ المجلس الاسلامي الشيعي الأعلى وجعله مستقلاً عن المجلس الاسلامي الآخر ذي الطابع السني . فأطلق لدى الطائفة الشيعية نزعة استقلالية عن السنة .

وسيم الطلعة يُعنى بقيافته ، وهندامه ، ومظهره ، وصورته ، وكلامه . لما وصل لبنان ، كان يتكلم اللغة االعربية بصعوبة . ولما عرفته ، عام ١٩٧٥ كان واحداً من افصح الخطباء وابلغهم في اللغة العربية ، إلا ان لهجته ظلت تنطوي على لكنة فارسية .

عنيد ، طموح ، شجاع ، وشعبي . يتقن استعمال سلاح الدين في السياسة ، ولغة اللاهوت في الايديولوجيا . بعث في الطائفة الشيعية شعوراً بتفوقها العددي ، وتراثها التاريخي ، ودورها الأكثري ، وانتمائها اللبناني . وكثيراً ما كان يردد : « لبنان ، بالنسبة إلينا ، هو وطن نهائي » .

اطلق « حركة المحرومين » ، هذا التيار الشيعي ذا الطابع الاجتماعي — السياسي . وانشأ سراً ، عام ١٩٧٤ ، منظمة عسكرية سماها « أمل » . ويقول احمد القبيسي ، احد مستشاريه المقربين ، ان الامام حدد لهذه المنظمة هدفاً اساسياً وهو مقاومة العدوان الاسرائيلي « وكل عدوان آخر من أي جهة أتى » .

ادرك الامام ان الفعالية السياسية في عقيدة ما تقوم على قدرتها في تحريك الحواس والعصبية ، أكثر مما تقوم على منطقها اللاهوتي . فلا يترك فرصة تفوته من غير أن يشير الى آيات من التراث الشيعي الغني بالشهداء والمثير للعواطف والحماسة وهو يجيد توظيف المؤشرات والروحانيات . وقد أجابني يوماً رداً على سؤال طرحته عليه لما زار البطريرك الماروني في بكركي : « اني ألعب لعبة الرموز » .

خصم الشيوعية ، وعلى الاخص خصم الجنبلاطية ، لدرجة اصبح فيها ابغض الناس الى اليسار اللبناني . اتهم الحركة الوطنية بأنها تستغل الجماهير الشيعية وتضعها في فوهة المدفع في صراعها ضد المسيحيين . وقد قال لي ، في هذا الصدد : « تريد الحركة الوطنية مقاتلة المسيحيين الى آخر شيعي » . وحمّل كمال جنبلاط ، عام ١٩٧٦ ، مسؤولية اطالة حالة الحرب ، فلاحظ امامي : « لولا كمال جنبلاط لأنتهت الحرب في شهرين . وبسببه هي تستمر منذ عامين ، والله أعلم الى امتى ستدوم ! » .

وينفر الإمام في المقابل من غطرسة الجبهة اللبنانية . قال لي في حزيران ١٩٧٧ : « لا يجوز أن تكون الجبهة متكبرة الى هذا الحد على المسلمين . ولا يحق لها ان تعاملهم كانهم خونة . فاليمين الحاكم مسؤول لانه اهمل الجنوب والشيعيين اللبنانيين منذ فجر الاستقلال ، فاصبحوا محرومين وتحولوا الى بروليتاريا لبنان . لا يخدعن احد نفسه ، فكل ظلم ينتهي الى انفجار ! » .

هذه الثائر والمتمرد يدين « جشع اليمين الحاكم » ، بقدر ما يدين « فوضوية الفلسطينيين والتقدميين » . وقد طور مشروعاً سياسياً يستبعد فيه هؤلاء واولئك ، وتعمد توجيه ضربة الى اليمين ، وضربة الى اليسار . انه خميني لبنان ، ولكنه خميني مستنير !

اما علاقاته بدمشق فغير ثابتة . صديق حافظ الاسد وبيت سره . ولكنه يحذر السياسة السورية . ولم يكتم تخوّفه من رؤيته سوريا تُقسِّم لبنان . وقد قال لي في حزيران ١٩٧٧ : « من حسن الحظ ان سوريا لا تستطيع ان تهضم لبنان . فابتلاعه يصيبها بعسر الهضم » .

وقد فرغ صبره من اعتداءات الفلسطينيين ، فاتخذ موقفاً صارماً من منظمة التحرير الفلسطينية . وقبل اختفائه بقليل قال لي حازماً : « ليست المقاومة الفلسطينية ثورة ، لانها لا تتصرف تصرف الساعي الى الاستشهاد . انها آلة عسكرية ترهب العالم العربي . بفضل الاسلحة يستطيع عرفات انتزاع الاموال ، وبفضل الاموال يغذي الصحافة ، وبفضل الصحافة يُحدثُ تأثيراً في الرأي العام العالمي » . ويضيف مهدداً : « منظمة التحرير سلطة فوضوية في الجنوب . لقد تغلّب الشيعيون على عقدة الدونية حيال المنظمات الفلسطينية . لقد طفح الكيل ! » .

شخصيته تربك الجميع . قال لي حافظ الأسد ، متحدثاً عن الامام : « انه فيلسوف كبير وصاحب رؤيا » . وقد تردد فؤاد شهاب قبل منحه الجنسية اللبنانية . لأنه كان يعتبره « رجلاً ليس كالآخرين وهو خطر » . ورأى الياس سركيس فيه « رجل غموض وألغاز » ، يتصرف سراً ، ويحيط نفسه بالاحاجي . وقد قال لي : « الامام يوحي اكثر مما يوضح ، ويقلق اكثر مما يريح » .

* * *

حزن الياس سركيس على اغتيال كمال جنبلاط عام ١٩٧٧ اكثر من تأثره على غياب الامام موسى الصدر عام ١٩٧٨ . لم يكن يريد ان يصدق ان كمال جنبلاط قد قُتل واعتبر هذا الامر بمثابة « زلزال سياسي » . وركز الجهد لتطويق ذيول هذا الاغتيال ولوقف الهيجان الدرزي ضد المسيحيين في الشوف الذي أودى بحياة اكثر من مئة وخمسين قتيلاً . وقد تجاوب وليد جنبلاط مع مساعي الياس سركيس لوقف هذه المجازر .

خلف وليد جنبلاط اباه ، وهو دون الثلاثين من العمر ، في زعامة الطائفة الدرزية ، وفي رئاسة الحركة الوطنية . وبدا مرهقاً بالعبء الذي القاه عليه القدر عندما القى شيخ عقل الطائفة العباءَة السوداء على كتفيه للدلالة على تسلمه مقاليد القيادة . وهذا تقليد اتبعه الجنبلاطيون في اختيار زعيمهم منذ القرن الثامن عشر .

هذا « الاقطاعي » بالوراثة هو سليل أسرة مليء تاريخها بالامجاد والمآسي معاً . لقد ترك اسلافه بصماتهم على صفحات الزمن لكنهم انتهوا مقتولين أو مغلوبين . أما هو فقد عانى طفولة صعبة : أب لا يهتم به لانه غارق في السياسة ، وأم بعيدة عنه لانها في حالة فراق مع زوجها . وفعلت هذه المعاناة فعلها في نفس وليد جنبلاط فازداد ميله الطبيعي الى الانكفاء على الذات والحذر من الغير ، وهما سمتان بارزتان من تعاليم طائفته . والواقع ان الدين الدرزي يدعو الى « التقية » فيسمح للدرزي ان يخفي عقيدته ومعتقده وحقيقته ، ويتظاهر بالاسلام أو بدين الاكثرية أو بدين الحاكم .

عند تسلمه القيادة ، لم يكن وليد جنبلاط واثقاً باصدقائه ، وكان يجهل نيات اعدائه . يظن ان سوريا اغتالت اباه ، وان لم يكن لديه أقل دليل . وهو فاقد الرجاء من قدرة العرب في ايجاد حل لأزمة لبنان ، ويخشى « حرباً صليبية جديدة » تقودها اسرائيل لتمزيق لبنان . أمام مسؤولياته الجسام لم يكن يدري الى أين يتجه . فبدا متردداً ومتقلباً .

في لقائنا الأول ، بعد غياب أبيه ، لمست فيه صراعاً داخلياً . فهو يطمح الى القيام بدور شبيه بدور أبيه ، مع علمه اليقين ان الاحوال قد تبدلت اليوم ، وأن الواقع لا يساعده على ذلك . ولكن طموحه ظل كبيراً ، وقد قال لي : « اذا كانوا يريدون مني ان اكون زعيماً عادياً للدروز ، فاني أُفضِّل أن لا أتعاطى السياسة » .

طويل القامة دقيقها حتى لتبدو مشيته مخلعة . لطيف الحركة أنيسها تتهاوى يداه الطويلتان على جسمه برخاوة وتلفت الانتباه اصابعه النحيلة وكأنها انامل عازف بيانو . ينظر الى العالم بعينين هاربتين

نظرة خوف وكأنه رجل مطارد يتربص به الشر وهو يفتش عن طريق البقاء . يتكلم بسهولة العربية ، والفرنسية ، والانكليزية ، إلا انه ، ولا ريب ، أقل هيبة من أبيه . يبدو متحرراً من الرسميات ، وقليلاً ما يعقد كرافات ، وهو مولع ، على الأخص ، ببنطلونات « الجينز » . يحب الحياة والمرح والمال ، ويهوى السيارات والسرعة . انه مراهق السياسة اللبنانية .

عصبي المزاج ، قليل الصبر ، يفضل الأفكار البسيطة والاجوبة الواضحة . يضايقه الكلام المفخم والثقيل والعقيم الذي يستعمله اليسار اللبناني . وهو كلام ينطوي ، في نظره ، على كثير من العجز . ولا تخفى عنه انتهازية المسؤولين في حزبه . وقد قال لي : « ليس فيهم واحد يريد ان يتحمل مسؤولية . إنهم جبناء » . المناقشات التي لا تنتهي داخل صفوف الحركة الوطنية تغيظه . لا شيء أثقل من القداس على قلب خال من الايمان . لا يفصح عن كل اقتناعاته لكنه يعتقد أن الحركة الوطنية ، ليست سوى خليط غريب من الوصوليين والحالمين . ومع ذلك ، وعلى الرغم من انتقاداته ، انتهى الى تبني الحركة الوطنية ، والى القبول باولئك الذين كان يديهم بقسوة .

اذا حدثه احد عن ابيه ، وعن ضرورة التفاوض مع دمشق ، فانه يتأثر ، وينسحب ليبكي في صمت . ولما اقترحت عليه ، في ١٠ ايار ١٩٧٧ ، أن يحاور الجبهة اللبنانية ، بدا حذراً ومتردداً ثم قال : « لا ، الوقت غير ملائم . فالحركة الوطنية مطوّقة ومنهكة . ولا نستطيع ان نقدم شيئاً ، أو بالاصح ، لم يبقَ لنا ما نقدمه . اظن ان النظام اللبناني لن يتطور . لقد خسرنا معركة الاصلاحات حتى قبل ان نبدأها . العالم العربي يرفض الاصلاحات الديمقراطية ولا يفهمها . وسركيس لا يقدر ان يضمن لي شيئاً » .

يرى الرئيس اللبناني أن وليد جنبلاط يميني النزعة على الرغم من كونه رئيس اليسار . وقد فرض الواقع على هذا الزعيم ان يقاسي من المتناقضات العربية التي تجتاح الحركة الوطنية : سوريا ضد العراق ، وليبيا ضد مصر والسعودية . وبكثير من الغموض يحاول الجمع بين مفاهيم متباعدة : العروبة والدرزية ، الاشتراكية والليبيرالية . على صورة الجيل الجديد الخارج من الحرب يرفض وليد جنبلاط الماضي ولكنه لم يقدر على تحديد مشروع المستقبل . انه رمز جيل حائر يفتش عن وطن ضائع .

* * *

بدون كمال جنبلاط امست الحركة الوطنية بلا رأس . والمنظمات الفلسطينية مكشوفة ، وراح الاسلام السياسي يفتش عن زعامة جديدة . وما لبث رئيس الحكومة ، سليم الحص ، ان برز كمدافع عن وجهة نظر التحالف الفلسطيني — التقدمي . فراح يبتعد عن الياس سركيس سياسياً .

وقد تجلّت الاشارة الاولى للعودة الى الحكم برأسين في مناسبة اتخاذ قرار بطرد حوالي عشرة ضباط انضموا الى الملازم الفارّ أحمد الخطيب الذي تمرد على القيادة وأنشأ منظمة باسم « جيش لبنان العربي » . فقد رفض سليم الحص طردهم ، وأصرّ على المطالبة بطرد عدد مماثل من الضباط المسيحيين الذين قاتلوا مع الميليشيات المسيحية .

في حزيران ١٩٧٧ رأيت الرئيس يعاني خيبة مرة . إنه نادم ندماً شديداً على اختياره سليم الحص لرئاسة وزارته الأولى . وأطلعني على أنه تعرف على الحص خلال عمله في مصرف لبنان واكتشف فيه صفات النزاهة والكفاءة . وتعاونا معاً بكل تفاهم وانسجام . وبعد انتخاب سركيس رئيساً ، كان الحص يسعى للحصول على رئاسة المجلس الوطني للإنماء ، وهو الذي وضع قانون هذا المجلس . ولما عرض عليه الرئيس الاشتراك في حكومة غير سياسية دُهش وكانت اقصى طموحاته تقف عند استلام وزارة التصميم ، ويضيف الرئيس : « وقف الحص ذاهلاً لما قلت له انه سيكون رئيس حكومة » . ولما زالت دهشته لم يتردد في القول : « عليك أنت ان تهتم بالسياسة ، أما أنا فاتعهد بالشؤون الاقتصادية ، لأني لست سياسياً » . لكن الياس سركيس ذكّره بأن الموقف حرج ، وبأنه سيكون هدفاً لضغوط شديدة ، وربما اضطر أن يغادر منزله ، على سبيل الاحتياط الأمني ، وأن يقيم في قصر الرئاسة . فوافق الحص على الفور . قائلاً : « سأجيء عند اللزوم الى هنا ، لعندك » .

سرد الرئيس هذه الرواية امامي ليختمها قائلاً : « بالأمس كان سليم الحص يقول لي : سآتي ، اذا لزم الامر ، لأنام في قصر الرئاسة تضامناً معك ، واليوم صار يقول : لا استطيع توقيع مرسوم طرد الضباط خوفاً من أن أصبح سامي صلح[*] ثانياً » . اكتفى الرئيس بهذا القدر من الكلام ولم يزد شيئاً .

كان الاتفاق المعقود بين سركيس والحص يقضي بارساء حكم ذي نزعة رئاسية بدلاً من الحكم التقليدي برأسين الذي جمّد عمل المؤسسات الدستورية . ولكن الحلف الفلسطيني — التقدمي ، وقد أحس بتخلفه عن قافلة الأحداث ، كان يبحث عن غطاء في داخل النظام اللبناني ، بعد غياب كمال جنبلاط . رأى هذا الحلف في الحص ، بواقع منصبه ، الرجل الذي يستطيع صدم القرارات الرئاسية ومعاكسة خطط الرئيس .

يمتاز سليم الحص ، هذا الاقتصادي غير الملتزم ، بقدر وفير من الاستقامة والعمق ، وقد اظهر

(*) رئيس حكومة سابق في عهد كميل شمعون ، نبذ من طائفته بسبب مماشاته المطلقة لسياسة رئيس الجمهورية .

مهارة سياسية غير متوقعة في اقتناص الفرص الصعبة . فقد عرف الافادة من الظروف القائمة . وتمكن من كسب دعم منظمة التحرير الفلسطينية التي كانت مهزومة ، عام ١٩٧٧ ، كما استطاع ربح ثقة سوريا ، عام ١٩٧٨ ، عندما بدأت دمشق تفتش عن نقيض شرعي للرئيس اللبناني . وبفضل هذا التأييد المزدوج بقي ما يقارب أربع سنوات رئيساً للوزارة ، وفي السنتين الأخيرتين ، على الرغم من ارادة الياس سركيس . لقد نجح في السياسة الى حدٍ تبدلت فيه نظرة السياسيين اليه . قال لي عبد الحليم خدام عند تعيين الحص رئيساً للحكومة عام ١٩٧٦ : « لا يمكن لمدير بنك (*) فاشل أن يصير رئيس وزراء ناجحاً » . لكنه عاد عن رأيه ، عام ١٩٧٩ ، عندما أراد سركيس أن يكلف رئيساً غيره ، فقال لي وزير الخارجية السوري : « الحص هو أفضل اختيار في الوقت الحاضر » .

بلغ الخلاف بين سركيس والحص تمامه في ٩ حزيران ١٩٧٧ . وقد وصف الرئيس الاجتماع الذي عُقد مع الحص في هذا التاريخ بأنه « كارثة » ، وقال : « هذا اسوأ اجتماع في حياتي . فقد جمّد الحص مسيرة تجديد بناء الجيش اللبناني » . اذ طرح موضوع الجيش من الزاوية الطائفية ، وأيد موقف مجموعة من الضباط المسلمين ، في داخل الجيش اللبناني ، تضامنوا مع الضباط المنحازين الى جيش لبنان العربي . وبقي الحص مصرّاً على طرد عدد من الضباط المسيحيين يعادل عدد الضباط المسلمين « باسم التوازن الطائفي » . وهذا غير مقبول في عرف الرئيس الذي أبدى استياءَه وهو يروي لي هذا الخلاف واضاف : « انه من الظلم ان نعامل على قدم المساواة الضباط المسيحيين الذين قاتلوا دفاعاً عن الشرعية ، والضباط المسلمين الذين تمردوا على الدولة » . واشار بان موقف الحص أدى الى وضع الجيش في مأزق واعترف بان نجاح عهده ومستقبل لبنان منوطان بمدى حل عقدة الجيش . لقد وعى أن الحص يحاول العودة الى الحكم برأسين . وكان الرئيس مشمئزاً لدرجة رفض معها سرد وقائع اجتماعه بالحص طالباً مني ان اتصل بفؤاد بطرس ليطلعني على التفاصيل .

كان فواد بطرس في ثورة هوجاء . وروى لي انه قال للحص ما يلي : « ان الرئيس وأنت وأنا نمثل استمرار الدولة . ونحن ، شئنا أو أبينا ، الخلفاء الشرعيون والدستوريون لسليمان فرنجية الذي تمرد عليه الضباط المسلمون . فلا نستطيع ان نعامل الذين اطاعوا السلطات العسكرية كما نعامل الذين عصوها . لا نستطيع ان نوازي بين اللبنانيين الذين دافعوا عن أرضهم وكرامتهم ، وبين الذين قاتلوا الى جانب الفلسطينيين ضد الجمهورية . اذا كان الياس سركيس ، وسليم الحص ، وفؤاد بطرس ، وهم أوفر اللبنانيين اعتدالاً ، لن يتمكنوا من ايجاد جامع مشترك بينهم ، فهذا يعني ان لبنان قد انتهى » .

(*) شغل سليم الحص من ١٩٧٣ الى ١٩٧٦ منصب رئيس مجلس ادارة بنك الانماء .

في ضوء هذه الاوضاع اعتبر فؤاد بطرس ان الحل الوحيد هو في ان يقدم الحص استقالة حكومته . فقد اضحى رئيس الوزراء هذا يمثل كل مساوىء السنيين التقليديين بدون ان يؤمن حسنة واحدة من حسناتهم . ويوضح فؤاد بطرس رأيه قائلاً : « ان الحص متطرف ومتعصب ، بدون ان يقدم ، في مقابل ذلك ، غطاء اسلامياً للنظام القائم . فالحص لم يعد يدافع عن سياسة سركيس ، بل راح يجمدها . يجب التخلص منه » .

لكن الحص بقي متشبثاً بموقفه . وعمد الى استنفار الزعماء المسلمين والحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية ، وطرح الموضوع على الرأي العام عن طريق تسريب اخبار نزاعه المفتوح مع الرئيس الى الصحافة . وهكذا اخفقت محاولة اقامة نظام رئاسي ، وأطل الحكم برأسين من جديد .

ولكن الرئيس لم يُلق سلاحه ، بل احتفظ لنفسه بحرية القرار في مجالات السياسة الخارجية والدفاع الوطني . وتابع الاتصال المباشر مع الفئات المختلفة . وفي هذا الشأن أكد لي انه بعد تسوية مشكلة الجنوب ، سيكرّس نفسه لتحقيق المصالحة الوطنية . وسيتدخل شخصياً لابقاء كل المبادرات بيده . واضاف : « يجب أن تكون الدولة برأس واحد ، وإلا تبقى بدون سلطة . اذا ربحت في الجنوب ، أنقذت عهدي » .



٤ ـ الجنوب أو التحدي الإسرائيلي

في اثناء الازمة التي ادت الى المواجهة بين الجيش اللبناني ومنظمة فتح في جنوب لبنان عام ١٩٦٩ ، استنجدت الحكومة اللبنانية بجمال عبد الناصر . وكان لبنان يريد منع عمليات الفدائيين انطلاقا من الجنوب ، خوفا من ان تحتل اسرائيل هذه البقعة من الارض اللبنانية . فانقسم اللبنانيون بين مسلمين يؤيدون المقاومة الفلسطينية ومسيحيين يساندون الجيش اللبناني . وكان الرئيس المصري قد حذر لبنان من خطر نشوب حرب اهلية فيه . وقال : « اذا خسرتم الجنوب يصير لبنان عضوا في جمعية مشوهي الحرب (٥) اما اذا خسرتم وحدتكم الوطنية ، فتخسرون لبنان كله » . وبعد عشرة اعوام خسر لبنان الجنوب والوحدة الوطنية ، والرئيس سركيس يحاول استعادة الاثنين معاً .

على أثر دخول قوات الردع العربية الى كفرتبنيت ، قرب النبطية ، في الجنوب ، في ٢٥ كانون الثاني ١٩٧٧ ، وجهت اسرائيل بواسطة الولايات المتحدة الاميركية انذارا اعتبرت فيه ان الجنوب « مدى حيوي » ضروري لأمنها وان كل انتشار للجيش السوري في هذه المنطقة سيكون بمثابة اعلان حرب .

وصل محمد الخولي على غير موعد ، في ٢٦ كانون الثاني ، يحمل رسالة من الأسد لسركيس . وتشير هذه الرسالة الى ان الجيش السوري تقدم في الجنوب حيث تدور معارك بين الفلسطينيين من جهة ، والميليشيات المسيحية واسرائيل من جهة أخرى . وليست سوريا قادرة ان تعرف هل تنسق القوات اللبنانية اعمالها مع اسرائيل . ومهما يكن الامر ، فالرئيس الاسد يعتبر الوضع خطراً ، ويرى ان الضرورة تقضي « بوقف المعارك لوضع حد لهجرة السكان المدنيين ، ولمنع تدمير الممتلكات والمواسم الزراعية ، وتخفيف الخسائر في الارواح البشرية » .

أطلع رئيس الدولة الموفد الرئاسي السوري على جملة المساعي الديبلوماسية التي يبذلها لبنان ، خصوصاً لدى الولايات المتحدة الاميركية ، للوصول الى وقف اطلاق النار . وأوعز إليه بأن يلتقي زعماء الجبهة اللبنانية ، ولا سيما كميل شمعون الذي « يستطيع التأثير اكثر من الكتائب ، في مجرى

(٥) يعني مصر وسوريا والأردن . وقد احتلت اسرائيل عام ١٩٦٧ قسماً من أراضي هذه الدول .

العمليات » . غير ان الموفد السوري ذهب أولاً الى سليمان فرنجية الذي أعلن أنه يجهل كل شيء عن الحالة في الجنوب ، وأرسل الخولي الى بيار الجميّل . ولكنه أثار معه ، قبل ذلك ، مسألة الوجود الفلسطيني في لبنان وأكد له قائلاً : « هناك اختلاف في وجهات النظر بين الرئيس سركيس وبيني ، في ما يتعلق بعدد عناصر منظمة التحرير الفلسطينية وباقامتها في الجنوب . ومهما يكن الأمر ، فنحن متفقون على أن الفلسطينيين لا يملكون حق احتلال الجنوب . إنهم يستطيعون الاقامة حصراً في العرقوب(*) فقط . فليذهبوا الى هناك . ولتضربهم اسرائيل ، ولننته من هذه المشكلة » . أخذ الخولي علماً بما سمع ، وابتسم ، ولم يجب . إن لمهمته شأناً آخر .

أما بيار الجميّل فأكد له بدوره أنه يفتقر الى معلومات عن احداث الجنوب . ووعد الخولي بأن يستدعي المسؤولين العسكريين الكتائبيين ، وبأن يبذل جهده لوقف اطلاق النار . وأضاف الرئيس الكتائبي قائلاً : « إننا نؤيد المبادرة السورية في لبنان ، ونحترم الرئيس الأسد أكثر مما نحترم أي شخص آخر . ولكني أُنبهك الى أن عملاء مخربين تسلّلوا الى صفوفنا ، كما تسلّلوا الى داخل جيشكم . إنهم عملاء عراقيون ، وليبيون ، واسرائيليون وغيرهم . يريدون بذر الفرقة بيننا لأن تفاهمنا يلحق الضرر بهم . يجب أن نتعاون ، وأن نعزّز العلاقات القائمة بيننا لنفشّل خطتهم » . وبدا الضابط السوري موافقاً على هذا القول من غير أن يدرك مداه المستقبلي .

لم ينكر كميل شمعون معرفته بأسباب نشوب المعارك في الجنوب . وأوضح الحالة واتهم الفلسطينيين بشن اعتداء موصوف ووقح على البقعة المسيحية ، وختم قائلاً : « اذا تابع الفلسطينيون اطلاق النار ، فستكون القوات اللبنانية مضطرة الى الردّ عليهم بالمثل . أوقفوا الفلسطينيين تنتهِ المعركة » . ولكن المعارك استمرّت . وأمست اسرائيل أشد تهديداً .

وحيال تصاعد المخاطر ، تدخلت الحكومة اللبنانية لدى الادارة الاميركية لتطلب مساعدتها . فاعلم الديبلوماسي الاميركي ، جورج لاين الذي ترأس بعثة بلاده بعد اغتيال السفير فرنسيس ميلوي ، فؤاد بطرس بأن حكومة الولايات المتحدة حذّرت الدولة العبرية من القيام باية عملية في الجنوب . ولكنه أضاف : « ان اسرائيل تتصرف أحياناً بدون ان تستشيرنا . وقد تضعنا أمام الأمر الواقع . والحكومة الاسرائيلية متشدّدة لا تتساهل . إنها تُصرّ على انسحاب الجيش السوري الى ما وراء النبطية » . وقد حمل إخفاق المساعي الاميركية الرئيس سركيس على القيام بزيارته الثانية لدمشق في ٢ شباط ١٩٧٧ .

(*) منطقة جبلية في جنوب لبنان عرفت باسم « فتحلند » أي « أرض فتح » .

سيطرت قضية الجنوب على هذا اللقاء . فاستعرض الرئيسان الاوضاع في جملتها ، ونسّقا بين موقفيهما في مؤتمر جنيف ، ودرسا وسائل تطبيق اتفاقية القاهرة . وصدر بيان مشترك لبناني سوري يشدّد على تعاون البلدين في كل المجالات .

بعد هذه القمة ، اجتمع فؤاد بطرس اثنتي عشرة مرة في عشرة ايام مع جورج لاين بدون الوصول الى تسوية لان اسرائيل طرحت اختيار احد امرين : اما الانسحاب السوري واما الحرب . فاتصل الرئيس اللبناني هاتفياً بحافظ الأسد الذي اجابه بلا تردد : « الجيش السوري هو بقيادتك . اصدر اليه الامر الذي تراه مناسباً فينفذه » . فقرر الرئيس سركيس ان لا يورط الجيش السوري . فاصدر ، في ٩ شباط ١٩٧٧ ، أمره الى قوات الردع العربية بالانسحاب وبدت الازمة في حكم المنحلة فزال خطر الحرب الداهم بعد تفاقم الازمة الحادة طوال خمسة عشر يوماً . ولكن شيئا لم يحل نهائيا . ولما عاد فواد بطرس من دمشق في نيسان ، لخص الاوضاع بما قل ودل ، اذ قال : « احرزنا بعض التقدم في الجنوب في ما يختص بتخفيض حدة التوتر بين سوريا واسرائيل ، ولكننا لم نصل الى شيء ملموس في ما يتعلق بتطبيق اتفاقية القاهرة من قبل منظمة التحرير الفلسطينية » .

* * *

لقد صار الجنوب مادة انتخابية في اسرائيل ، في اثناء الانتخابات التي أسفرت عن فوز الليكود في ايار ١٩٧٧ ، ثم تحول الى ورقة سياسية في اللعبة الديبلوماسية الشديدة التعقيد التي بدأت بين اسرائيل والولايات المتحدة والدول العربية . وفي حزيران ، لم يعد الرئيس سركيس يخفي قلقه . ولاحظ ان اسرائيل تستعد لاحتلال الجنوب وهي تمهد بقصف القرى قصفا كثيفا وبحشد الجيوش على طول الحدود وبقيام الطيران بطلعات استكشافية . وقد أكدت له مراجع عديدة ان مناحيم بيغن يتأهب « للقيام بعمل ما » .

وهكذا ركز الرئيس سركيس محادثاته مع وزير الخارجية الأميركي ، في آب ١٩٧٧ ، على مسألة الجنوب . وقد طرح سيروس فانس سؤالا هو : « ماذا يطلب لبنان من الولايات المتحدة ؟ » . فاجابه الرئيس : « تكفلوا باسرائيل ، وانا اتكفل بالباقي » .

في هذه المناسبة توسع الرئيس بشرح المعطيات الديبلوماسية امامي فقال : « الجنوب هو مسألة اسرائيلية . ولدي نظرياً طريقان لانقاذه : اما التفاوض مباشرة مع اسرائيل ، وهذا ما ارفضه ، أو جعل الولايات المتحدة تضغط على اسرائيل ، وهذا ما أسعى اليه » . وأشار الى أنه يتكل اتكالاً كبيراً على السفير الأميركي في بيروت ، أكثر من اتكاله على السفير اللبناني في واشنطن . ولاعتقاده بجدوى

هذا الأسلوب أكّد نيته في العمل بالطريقة نفسها مع كل سفراء الدول الكبرى المعتمدين في لبنان . وطلب الى فانس أن يمارس كل الضغوط اللازمة ليحمل اسرائيل على تسهيل مهمته التي ترمي الى بسط السيادة اللبنانية على الجنوب ، والى استعادة كل الأراضي اللبنانية حتى الحدود الدولية المعترف بها .

وبعد بضعة ايام ، في ٢٥ آب ١٩٧٧ ، اعرب الرئيس عن سروره بنتائج محادثاته مع فانس . فقد وردت معلومات تفيد ان وزير الخارجية الاميركي تحدث فور عودته الى واشنطن مع كارتر في موضوع جنوب لبنان . ثم وجه فانس رسالة الى سركيس اكد فيها عزم الولايات المتحدة على حل هذه المسألة . ويقوم هذا الحل على ارسال الجيش اللبناني حتى الحدود اللبنانية — الاسرائيلية . ويرى الاميركيون ان الجيش اللبناني يبدو الوسيلة الافضل ، ان لم تكن الوحيدة ، للوصول الى حل معقول . وقد باشرت الولايات المتحدة في هذا الشأن اتصالاتها باسرائيل التي لخصت موقفها في أربع نقاط : « وقف اطلاق النار وقفاً شاملاً وفعلياً ، انسحاب الفلسطينيين الى مسافة عشرة كيلومترات عن الحدود ، سحب الاسلحة الثقيلة الى مسافة خمسة وأربعين كيلومترا شمالي الليطاني ، ارسال الجيش اللبناني الى الجنوب بدون أي عنصر من عناصر قوات الردع العربية » .

ونقل الينا الرئيس قول السفير الأميركي رتشارد باركر له ان فانس تطرق الى مسألة الجنوب في حديث مع موشي دايان وزير الخارجية ، وان هذا اعلن عدم كفاءته للخوض في هذا الموضوع ، وطلب معالجته مع عازر وايزمن وزير الدفاع لأن الجنوب ، بحسب رأي دايان ، لا يكوّن مسألة تتعلق بالسياسة الخارجية لاسرائيل بل مسألة امن داخلي تتعلق بوزير الدفاع ، لا بوزارة الخارجية . ولهذا الموقف دلالته ، فهو يعني ان اسرائيل تنظر الى جنوب لبنان كمحمية .

وقد خيل للرئيس ان ازمة الجنوب في طريقها الى الحل ، فدعا سامي الخطيب ، قائد قوات الردع العربية ، لتنسيق الانسحاب الفلسطيني مع منظمة التحرير ودمشق . لكنه بقي متحفظاً بعض الشيء . وقال في هذا الموضوع : « لن اطلق عملية انتشار الجيش اللبناني في الجنوب الا بعد تحقق شرطين هما : من جهة ، التنسيق التام مع سوريا ، ومن جهة أخرى ، الموافقة الصريحة من الولايات المتحدة . بهذين الشرطين سيكون لخطتي بعض الحظ في النجاح . ولكني أخشى احباط هذه الخطة من جانب اسرائيل ، وجبهة الرفض الفلسطينية ، وبعض البلدان العربية كالعراق وليبيا ... » .

* * *

في نطاق التنسيق مع سوريا التقى فؤاد بطرس عبد الحليم خدام وحكمت الشهابي في ٢٤ آب ١٩٧٧ في بلدة شتورة . عرض الوزير اللبناني جملة الاتصالات الجارية مع الولايات المتحدة ، وقال

لمحدثيه السوريين : « ان الرئيس سركيس يلعب مع الولايات المتحدة وأوراقه مفتوحة على الطاولة ، لأنه لا بديل للبنان عن أميركا ولا ورقة واحدة مستورة ليخفيها ، فهل ترى سوريا ضرراً في ذلك » ؟ أجابه وزير الخارجية السوري مبتسماً : « قد تكون هذه الطريقة هي الجيدة » . اوضح بطرس ان الجيش اللبناني قد اعد وحدة من ألف الى ألف وخمسماية جندي لارسالها الى الجنوب ، ولكنها تفتقر الى وسائل نقل ، فوعد حكمت الشهابي بدرس امكانية تجهيزها بما يلزم .

ولكن القذافي كان يثير مخاوف الرئيس اكثر من سواه . وقد اطلعني في ٢٢ آب ١٩٧٧ على رسالة تلقاها من الزعيم الليبي وهي تنص على ما يلي : « اطلعت على البرقية التي وجهها السيد ياسر عرفات الى الامين العام للجامعة العربية يوم الثلاثاء الموافق ١٦ آب ١٩٧٧ والتي اشار فيها الى خطورة الوضع في لبنان . واننا نتوجه اليك بالدرجة الاولى باعتبارك الرئيس الشرعي للبنان وباعتبارك مسؤولاً عن التراب اللبناني . هذا التراب يهمنا لانه جزء من التراب العربي الذي نقف عليه . ان تمكين العدو الصهيوني من ضرب المقاومة الفلسطينية بواسطة ما يسمى بالجبهة اللبنانية امر نأسف له اشد الاسف . ولهذا فاننا نرى ان تتحمل مسؤولياتك الوطنية في الحيلولة دون استمرار قيام ما يسمى بالجبهة اللبنانية بالاضرار بالمقاومة الفلسطينية متعاونة في ذلك مع العدو الصهيوني . ان الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية تضع امكاناتها معك في بناء لبنان الموحد وكل ما من شأنه ان يحقق استتباب الامن والشرعية الدستورية ، ويعيد الاخوة اللبنانية للمسلمين والمسيحيين على السواء ، ويحفظ المقاومة الفلسطينية باعتبارها طليعة النضال العربي . واننا نعتقد انه في الامكان حل المشكلة التي تطرأ بين المقاومة الفلسطينية واللبنانيين بروح الاخوة داخل اطار الشرعية ودون الحاجة الى وسائل اخرى » .

وصف الرئيس هذه الرسالة بانها « وقحة ومتغطرسة » ، ورد عليها برسالة جافّة وقاسية . وقد صرف النظر عمداً عن استهلالها بالعبارات الدارجة والمألوفة بين رؤساء الدول العربية ، فلم يوجهها الى « أخيه » أو « صديقه » القذافي ، بل الى « رئيس » الجماهيرية الليبية ، وقال فيها : « سلمني يوم أمس سفير الجماهيرية في بيروت البرقية المؤرخة في ٢٢ آب ١٩٧٧ ، وكان استغرابي لطريقة صياغتها ومضمونها لا يقل عن اسفي العميق لاعتماد مواقف اعتبرها ، من حيث المبدأ ، نقضاً صريحاً للتقاليد المتعارف عليها في العلاقات بين الدول الصديقة ، ولا سيما الشقيقة ، وتجاوزاً على الاصول التي نحرص على ان تكون قائمة بين رؤسائها ، خاصة لجهة عدم التدخل في شؤون الآخرين ، واحترام مبادىء السيادة التي نعالج على اساسها شؤوناً لبنانية صرفاً تعود معالجتها ، في مطلق الاحوال ، الى السلطات اللبنانية وحدها دون سواها . وانطلاقاً من ذلك ، لا بد لي ان انوّه باني لست بحاجة الى مناشدتي للمحافظة على تراب لبنان وتحمل مسؤولياتي الوطنية في هذه الظروف الدقيقة . ومهما يكن من أمر ، فقد أحطت سفير الجماهيرية علماً بالمعطيات المتوفرة لدينا والتي تختلف كلها عن المعطيات الواردة في

البرقية المقدم ذكرها . وطلبت منه أن ينقل هذه المعلومات الى المراجع العربية الليبية المسؤولة ، متمنياً أن يساعدنا ذلك على تكوين صورة صحيحة للأمور » .

لم تكن العلاقات مع الفلسطينيين أفضل حالاً . وكان الرئيس اللبناني مطمئناً نوعاً ما الى نيات أبو اياد الذي كان يسعى للتقرب من دمشق . الا انه كان قلقاً من مواقف أبو عمار الذي راح ينحاز اكثر فاكثر الى الموقف الليبي . ومما يدل على مدى هشاشة العلاقات اللبنانية — الفلسطينية حصول حادث شكلي اتخذ فوراً بعداً بليغ المعنى . اذ وجه عرفات ، في ١٦ آب ١٩٧٧ ، أي في اليوم السابق لاجتماع وزراء الخارجية العرب ، برقية الى الأمين العام لجامعة الدول العربية طلب فيها تسجيل مسألة جنوب لبنان في جدول الاعمال . وعلل طلبه بقوله : « ذلك لأن اسرائيل تحشد قواتها ومدرعاتها على طول الحدود لاحتلال الجنوب وتصفية المقاومة الفلسطينية ... » .

فاوعز الرئيس الى فؤاد بطرس بتوجيه رد خطي حاسم الى جامعة الدول العربية يرفض فيه رفضا قاطعا الطلب الفلسطيني لأن لبنان ، ولبنان وحده ، هو صاحب الحق في تقديم طلب ادراج مسألة الجنوب على جدول الاعمال ، ولأن الطلب الفلسطيني يعتبر تدخلا غير مقبول في شؤون لبنان الداخلية ، وانتقاصاً صريحاً لمقررات الرياض والقاهرة ، ولأن هذه البادرة الفلسطينية لا تساهم في حل أزمة الجنوب بل تضر بالمسيرة المتبعة حالياً لحل هذه المشكلة عن طريق برمجة تنفيذ اتفاقية القاهرة. لقد عززت هذه الحادثة الشكوك والهواجس . هل الفلسطينيون يتحركون من منطق الدفاع عن النفس أم ينوون الاستيلاء على الأرض في الجنوب ليجعلوه فيتنام ثانية أو فلسطين جديدة ؟ لا جواب اكيد في الوقت الراهن ، ولكن السؤال غدا مطروحا وبشكل جدي في ذهن الرئيس اللبناني .

وعلى الرغم من المساعي اللبنانية ، تعثرت مسيرة السلام في الجنوب ، وقد جاء التردد في البداية عن طريق الولايات المتحدة تحت تأثير اسرائيل ، إذ ابدت الادارة الاميركية استعدادها لاعطاء « وعود » لا « ضمانات » لدخول الجيش اللبناني الى الجنوب . وأكدت أنها لا تستطيع أن تضمن أية مسيرة على اساس اتفاقية القاهرة ، « لان ذلك يعني اعترافاً من الولايات المتحدة بحق الفلسطينيين في القيام بعمليات ضد اسرائيل انطلاقاً من لبنان ، وهذا ما يرفضه الاميركيون رفضاً قاطعاً » .

اما أبو اياد فاعلن اقتناعه بضرورة تجميد العمليات الفلسطينية في الجنوب ، وسحب المراكز الفلسطينية المتقدمة الى مسافة عشرة كيلومترات عن الحدود الاسرائيلية ، ولكنه رفض ان يتعهد تعهداً صريحاً وخطياً . وبعد مناقشات طويلة مع سامي الخطيب ، اقترح أبو اياد ، لحلحلة المفاوضات ، صيغة مطاطة هذا نصها : « نوافق على ان تتبدل المراكز الفلسطينية في القطاعين الاوسط والشرقي من جنوب لبنان ، لتسهيل مهمة دخول الجيش اللبناني . المهم عند تبديل المركز ان يؤخذ بعين الاعتبار

الهدف من المركز ، وليس المركز بحد ذاته . يتم تعيين المراكز الجديدة بالاتفاق بين المقاومة الفلسطينية وقادة الجيش اللبناني وقوات الردع العربية » .

ولم يخف أبو اياد نياته . فقال لسامي الخطيب أنه يوافق على تبديل « المواقع الجغرافية » للقوات الفلسطينية ، وتراجعها عشرة كيلومترات بدون ان يتخلى عن « الهدف العسكري » الذي يعني امكانية التسلل الى الجنوب للقيام بعمليات ضد اسرائيل وتأكيد حق الفلسطينيين بالكفاح المسلح . وهكذا يتصور أبو اياد انه يكون قد أرضى اسرائيل بتراجع القوات الفلسطينية وفي الوقت ذاته طوق المزايدات داخل منظمة التحرير الفلسطينية . ولكن هذه الحذاقة لن تنطلي على اسرائيل ولا على ياسر عرفات ، مما حمل أبو أياد على التراجع عن اقتراحه .

وبالفعل افاد سامي الخطيب ، في ٨ ايلول ١٩٧٧ ، ان أبو اياد لا يريد توقيع المقترحات التي قدمها . فالزعيم الفلسطيني يزعم ان الثقة وحدها تكفي بدون الحاجة الى نص مكتوب . وبرر موقفه مؤكداً ان كل قبول صريح بوقف العمليات ضد اسرائيل يعني ان المقاومة تخلت عن البندقية ، وان الثورة قد انتهت . واضاف : «كل نص مكتوب سينقل مباشرة أو بصورة غير مباشرة الى اسرائيل . وبالنتيجة سيفسر على انه استسلام من قبل منظمة التحرير امام العدو » .

لاحظ فؤاد بطرس أن موقف أبو اياد متماسك . لكنه لا يستطيع الركون اليه ولخص الوضع على انه اشبه بعمارة على رمال متحركة : «كارتر يتدخل لدى اسرائيل بناء على اقوال فانس ، وفانس بناء على اقوالي ، وانا بناء على اقوال سامي الخطيب ، وسامي الخطيب بناء على أقوال أبو اياد الذي يأبى ان يضمن تعهداته في أي وثيقة خطية ! »

ساهم التردد الأميركي والرفض الفلسطيني بالافساح في المجال أمام اسرائيل لشن هجوم كبير في ١٨ ايلول ١٩٧٧ على جنوب لبنان . والقى الاميركيون بكل ثقلهم للحصول على وقف اطلاق النار . وقد روى لي فؤاد بطرس جملة الاتصالات الديبلوماسية التي أجريت بهذا الشأن . فنوه الى ان المفاوضات كانت « مرهقة » . اذ قدم السفير الاميركي ، في بادىء الأمر ، مقترحات اعتبرها الرئيس اللبناني غير مقبولة ، متخذاً موقفاً حازماً وحكيماً . فالدولة العبرية رأت ، من جهة ، أنه من غير الطبيعي اتخاذ قرار بوقف النزاع المسلح من جانب واحد ، ورفضت ، من جهة أخرى ، اعلان هذا القرار مع الفلسطينيين لئلا يُفسّر موقفها بانها تفاوضت مع منظمة التحرير . وبناء على ذلك ، أوعزت الولايات المتحدة بان يعلن لبنان وقف اطلاق النار . فرفض الرئيس سركيس هذا المنطق الاميركي مؤكداً أن لبنان متمسك باتفاق الهدنة المعقود مع اسرائيل في ٢٣ آذار ١٩٤٩ ، ولم يفتح النار على

اسرائيل ، وهو ليس بلداً محارباً . وحيال موقف الرئيس هذا سحبت الادارة الأميركية إيعازها ، ونظمت اتفاقاً وضع في بيروت ، ووافقت عليه دمشق ، وقبلت به تل أبيب . وافصح لي فؤاد بطرس عن نص الاتفاق السري المؤلف من خمسة بنود هي :

١ — وقف اطلاق النار صباح يوم الاثنين ٢٦ ايلول ١٩٧٧ عند الساعة العاشرة .

٢ — اصدار بلاغ لبناني يعلن ان الوضع هادىء في الجنوب من غير ان يشير الى اتفاق ما لوقف اطلاق النار .

٣ — انسحاب الجيش الاسرائيلي من المواقع الجديدة التي احتلها في جنوب لبنان وذلك قبل الساعة العاشرة من يوم الاثنين ٢٦ ايلول ١٩٧٧ .

٤ — دعوة لجنة الهدنة الاسرائيلية — اللبنانية للاجتماع .

٥ — انسحاب الفلسطينيين الى مسافة عشرة كيلومترات عن الحدود ، ونقل الاسلحة الثقيلة الى خارج منطقة الحدود والى مسافة خمسة وأربعين كيلومترا في مهلة حدها الاقصى خمسة عشر يوماً .

وبقي هذا الاتفاق سريا تلبية لطلب اسرائيل . ارتاح الفلسطينيون ، وانشرح الاميركيون الذين كان يهمهم ان لا يعرقل تدهور الحالة في جنوب لبنان المساعي الجارية لعقد مؤتمر جنيف . وقد مارست واشنطن ضغطا شديداً لم يسبق له مثيل على حكومة مناحيم بيغن . فقد اخبرني بول مولينو ، احد الدبلوماسيين العاملين في السفارة الاميركية في بيروت ، أن البرقيات الموجهة من واشنطن الى الحكومة الاسرائيلية « وضعت بصيغة الامر واستعملت فيها لهجة الحزم الصارم » . فالادارة الاميركية الجديدة قد فهمت ان النصائح وحدها لم تعد تكفي مع اسرائيل ، وتذكرت بهذه المناسبة قول موشي دايان : « تقدم لنا الولايات المتحدة ثلاثة اشياء : اسلحة ، واموالا ، ونصائح . ونحن نقبل دائما الشيئين الاولين ، ولكننا نناقش دائما الشيء الثالث » .

ولم يكف لبنان تحمل وزر الخلافات العربية والصراعات الدولية ، فجاء كورت فالدهايم ليزيد الطين بلة ، ويقدم عروضاً اضطر الرئيس اللبناني الى رفضها . فأوصى الأمين العام لمنظمة الامم المتحدة بزيادة عدد المراقبين الدوليين المقرر ارسالهم بحسب اتفاق الهدنة الاسرائيلية — اللبنانية ، واقترح اشراك الاتحاد السوفياتي في هذا الامر . وهو يرمي بذلك الى اجتذاب التأييد السوفياتي لتجديد انتخابه لامانة سر المنظمة الدولية . وقد استغل الازمة اللبنانية لبلوغ هذا الارب . فأجابه الرئيس بأنه يقبل بمبدإ زيادة العدد بشرط أن « يكون المراقبون الجدد من البلدان التي اشتركت أصلاً بالمراقبة ، وبالنسب نفسها » . ومن المعروف ان الاتحاد السوفياتي لم يرسل في البداية مراقبين ؛ وكان هذا الاستدراك

طريقة لبقة لاستبعاد الوجود السوفياتي في لبنان واحباط غروض كورت فالدهايم بدون ان تُمس الحساسية السوفياتية .

لقد اصبح الجنوب لعبة دولية . ولاحظ الرئيس بمرارة وواقعية قائلاً : « لا احد يريد تطبيق الاتفاق المعقود ، فوقف اطلاق النار هش ، وعرفات يعارض كل انسحاب لقواته واسلحته من الجنوب ، ووايزمن يرفض اجتماع لجنة الهدنة . كل شيء ينهار ، لا جيش ، ولا تفاهم ، ولا جنوب وحتى لا جنيف ... » .

٥ - مِن جنيف الى القدس

بدا الرئيس سركيس غير واثق من امكانية انعقاد مؤتمر جنيف على الرغم من المساعي الاميركية التي يقوم بها سيروس فانس . وقد تبين أن مؤتمر جنيف هو حجر الزاوية في سياسة الرئيس كارتر الخارجية ، وكشف لي الرئيس بحضور فؤاد بطرس وجوني عبده خلال اجتماعين متتاليين في ١٩ و ٢١ شباط ١٩٧٧ عن انطباعاته الاولى بشأن النشاط الديبلوماسي الجاري فقال : « يستمع فانس اكثر مما يتكلم . يريد ان يفهم اكثر مما يقترح . لا يحمل خطة دقيقة بل يكرر افكارا عامة » . شرح الرئيس له وجهة نظره ، وأوضح له ان لا حل في الشرق الاوسط بدون حل المسألة الفلسطينية ، وان هناك امكانية حقيقية لحل سياسي لأن قادة مصر وسوريا معتدلون ودعاة اعتدال للمرة الاولى منذ نشوء اسرائيل . وطلب اليه الضغط على اسرائيل لوقف تدخلها في شؤون لبنان الداخلية . وتمنى في الوقت نفسه تقديم مساعدة الى لبنان وبصورة أولية الى الجيش اللبناني .

لقد خرج الرئيس من محادثاته مع فانس باعتقاد خلاصته ان الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي متفقان على الدعوة الى مؤتمر جنيف ، وان تحرك وزير الخارجية الاميركي يرمي اساساً الى تحديد الطرق والوسائل لتوجيه هذه الدعوة خلال العام ١٩٧٧ . وبدا له فانس واثقاً بالنجاح . لكن الرئيس لم يكن ليشارك المسؤول الاميركي في تفاؤله ، وقال لنا : « سيصطدم هذا المؤتمر بسياسة اسرائيل التي تقوم على لاءات ثلاث : لا لاشتراك منظمة التحرير الفلسطينية في مؤتمر جنيف ، ولا لاعتراف اسرائيل بالمنظمة ، ولا حتى لقبول اعتراف المنظمة باسرائيل . فلو اعترفت المنظمة باسرائيل فاسرائيل لن تعترف بالمنظمة » .

وقد شرح لنا فؤاد بطرس خطة الاتحاد السوفياتي التي أطلعه عليها ميخائيل سيتنكو ، الموفد السوفياتي الخاص في الشرق الأوسط ، الذي يرى أن مؤتمر جنيف ، اذا انعقد ، لا يمكن أن يتم الا على مرحلتين : مرحلة تمهيدية ، ومرحلة تفاوضية . فالاولى تحدد المسائل الاجرائية وجدول الاعمال ، ولا تشترك فيها منظمة التحرير الفلسطينية . والثانية تكرس للتفاوض في المسائل الاساسية بحضور المنظمة . ويريد الديبلوماسي السوفياتي ، من ناحية أخرى ان يعرف نتائج التحرك الاميركي الجاري حاليا ، ويبدو مهتماً باقامة علاقات ودية مع كل الفئات في لبنان .

وعلق الرئيس على السياسة السوفياتية قائلاً : « اذا كان الاتحاد السوفياتي يريد حقا اكتساب

صداقة كل الفئات في لبنان ، فمن الواضح ان هذه الفئات ستبذل جهدها لاسترضائه . ولكن يجب ان يترجم الاتحاد السوفياتي دوره عملياً بالضغط على اصدقائه الفلسطينيين لوضع حد لتدخلاتهم في شؤون لبنان الداخلية ولتنفيذ اتفاقية القاهرة . ويجب ان يغير الاتحاد السوفياتي أيضاً مسلكه مع اللبنانيين ، فيمتنع عن مساندة فئة لبنانية ضد فئة اخرى . هذا ما ساطلبه الى الموفد السوفياتي في اثناء لقائي به » . وقد أسرّ الي رئيس الدولة ، بعد اجتماعه بسيتنكو ، « ان الاتحاد السوفياتي مهتم بكبح الاندفاع الاميركي في الشرق الاوسط . ويبذل جهده ليجمد كل حل اميركي لا يشترك فيه . والسوفياتيون يخشون تحول العرب الى المعسكر الغربي وارتضاءهم السلام الأميركي » . ويضيف : « لم يأت سيتنكو ليسهل الأمور بل ليضاعف العراقيل والعقد » .

لقد اتضح لي أن الرئيس اللبناني يقوّم الشأن الدولي تقويماً صائباً ، وينطلق من قاعدتين ثابتتين في تعاطيه مع الجبارين : يطلب من الولايات المتحدة ضبط اسرائيل ، ومن الاتحاد السوفياتي ضبط منظمة التحرير الفلسطينية . وقد لفت نظري الى أهمية هذه الزيارات لأنها تدل على أن لبنان عاد الى المسرح الديبلوماسي من جديد . والمهم بنظره أن يتوقف الفرنسيون والسوفياتيون والأميركيون من جديد عندنا ، فيبرز لبنان كمحطة ديبلوماسية ويخرج بالتالي من النسيان .

تأكيداً لهذا التوجه ، تلقى الرئيس اللبناني ، في ٣٠ ايلول ١٩٧٧ ، رسالة ثناء واطراء من الرئيس كارتر ، جاء فيها : « اعجبت بالصبر والبراعة اللذين تعالجون بهما مشكلة جنوب لبنان . آمل ان يكون وقف اطلاق النار المتفق عليه في ٢٦ ايلول ١٩٧٧ فاتحة استقرار في هذه المنطقة المعذبة ، مما يؤدي الى انتشار الجيش اللبناني الجديد . ومتى عاد النظام والقانون الى نصابهما ، يستطيع المهجرون العودة الى منازلهم ، والمزارعون الى حقولهم . اتمنى لكم نجاحا كبيرا في مهمتكم الشاقة والنبيلة ... » .

كيف لا يكون الياس سركيس فخوراً ومتأثراً ؟ فاقوى رئيس في العالم يثني على فضائل الرئيس الاضعف . وامتنع رئيس الدولة عن نشر هذه الرسالة بالنظر لما تحويه من ثناء شخصي ومديح مغرٍ . هذا الاطراء يجرح تواضعه . لكنه لم يتمالك من السؤال : « لماذا تبذل الولايات المتحدة كل هذه الجهود ؟ اني اكره الـ « أنا » واقصيها عن كلامي . ولكني اود ، ولو مرة واحدة ، ان اعمد الى شيء من المناجاة . اني اشعر بان جزءاً مهماً من الدعم الأميركي للبنان جاء بسببي . وكأني بالرئيس كارتر يبذل جهداً شخصياً ، ويكرر الضغوط على اسرائيل ، لأني على رأس الدولة . في عهد الرئيس فرنجية ، كانت العلاقات مع أميركا مقطوعة عمليا . اما اليوم فان السفير الاميركي لا ينفك عن زيارتي باستمرار لدرجة ان السوفيات اخذوا يتبرمون . لقد تعرفت على فانس . انه رجل هادىء وصافٍ . يعمل بلا ضجيج وبلا دعاية . لو كان كيسنجر في السلطة لكنت أقل ثقة وارتياحاً . ولو كان فريق نيكسون — كيسنجر هو الحاكم في أميركا لفضل في لبنان فريقاً مؤلفاً من شمعون — تويني . لا أعرف كارتر ولا

يعرفني ولكني أشعر بتعاطف معه . فهو رجل بسيط ، مؤمن وصريح . لم نلتق قط ، وليس هناك تفكير بالتقائنا في الوقت الحاضر . ومع ذلك ، فهو يعرف اني رجل شريف ومستقيم مثله . اعمل ما استطيع عن حسن نية . وقد هنأتني وزارة الخارجية الاميركية باختياري الموفق لمّا عينت فؤاد بطرس في الخارجية وغسان تويني في الامم المتحدة ، فهما يتعاونان ويكمل احدهما الاخر بشكل ممتاز على الرغم من حساسيتهما الارثوذكسية وتنافسهما على زعامة الطائفة . ولم يكن تعيين تويني سهلاً ، فقد اصطدم بتحفظ بطرس وبمعارضة دمشق . ولكني غير نادم على هذا الاختيار . فغسان تويني رجل ذو مقدرة فذة في الخلق والانتاج . انه يرسل وحده عددا من البرقيات يزيد عن عدد برقيات كل سفراء لبنان في العالم » .

بعد استحضاره هذه المناجاة الشخصية ، استعرض الرئيس خياراته السياسية المتعلقة بالولايات المتحدة الاميركية وبسوريا واعتبرها صحيحة . لكنه مع الوقت بدأ يشكك في امكانية عقد مؤتمر جنيف . وكان على حق . فقد قلب أنور السادات كل المعطيات في هذا اليوم الشهير الموافق ٢٠ تشرين الثاني ١٩٧٧ ، لما راح يلقي خطابه في الكنيست .

لم يستطع الرئيس ، في ذلك المساء ، ان يلتقط مباشرة خطاب انور السادات . ولكن شارل رزق ، المدير العام للاعلام ، احسّ باهمية الحدث فاتخذ كل الاستعدادات التقنية لتسجيل الخطاب على كاسيت فيديو . فتوجهنا معاً الى القصر الجمهوري فوجدنا الرئيس بصحبته فريد روفايل ، وزير المالية . ولم يكن الياس سركيس مضطرباً ولا متأثراً . رحنا ننظر الى خطاب السادات وكان الرئيس ، في بادىء الامر ، يخفي شيئاً من التهكم ، فقال : « أمن الضروري أيضاً ان يشكر السادات رئيس الكنيست ؟ أما كان الافضل له ان يلقي هذا الخطاب وهو في القاهرة ؟ » ولكن مع مر الدقائق اخذ الحدث يستحوذ على فكره فصاح : « هذا لا يصدق . السادات يحيط به بيغن ، ودايان ، وويزمن وغولدا مائير ؟ يا له من حلم ، بل يا له من كابوس . حتى الامس كنت مستعداً ان اراهن ان السادات لن يذهب الى القدس ، واليوم لا اصدق عينيّ . هذا جنون . الله يسامحه ويساعدنا ! » .

في تلك اللحظة اطلعه المرافق على خبر عاجل مفاده أن بيغن وجه نداء الى الرئيسين السوري واللبناني يدعوهما للذهاب الى اسرائيل . فعلق الرئيس على الفور : « اذا ذهب جميع الرؤساء العرب بدون استثناء الى القدس ، واذا توسلوا اليّ جميعا لأذهب معهم ، فعندئذ ، وعندئذ فقط ، سأبدأ بالتفكير في هذا الامر . خلافا لتصورات بعض الاسرائيليين ، فأن لبنان لن يكون ثاني دولة عربية تعقد اتفاقا مع اسرائيل ، بل الدولة الاخيرة » .

لم يستدع الرئيس هذا المساء احدا ولم يدع الى أي اجتماع استثنائي ، بل نام كعادته . لقد

تملكه شعور بأن الامور خارجة عن ارادته وبأن الحدث اكبر من لبنان . لقد اكتفى بملاحظة بسيطة فقال : « بعد يومين سألقي خطابا لمناسبة عيد الاستقلال . فهل يجب تعديله في ضوء هذا الحدث المقلق ؟ لا ، سأبقيه على حاله ، لأن احدا لن يستمع اليّ مهما اقل ، فالعالم سيكون مسحوراً بالسادات » .

* * *

بعد زيارة القدس بثمانية أيام ، كان الرئيس اكثر احاطة بانعكاسات الحدث . واعتبر ان العالم العربي قد انقسم قسمين . وشدد على ضرورة الحفاظ ، اكثر من أي وقت مضى ، على علاقاته الطيبة مع دمشق لاجتناب النتائج السيئة التي ستنجم عن الصراع بين العرب على أرض لبنان .

وتحدث الرئيس بحضوري وجوني عبده عن الاخبار الاولى التي وصلته في موضوع مبادرة السادات فقال : « عمل السادات فاجأ الجميع وحتى الولايات المتحدة الاميركية . لا ريب في ان كارتر كان يبذل جهده لتسهيل مفاوضات مباشرة بين الاسرائيليين والمصريين ، ولكن في الولايات المتحدة ، وليس على طريقة السادات المدهشة والمثيرة . لقد عمل السادات اكثر مما كان الاميركيون يطلبون ، وذهب الى ابعد مما كانوا يتوقعون . انه يثق بالولايات المتحدة اكثر من اللزوم . وهو يخطىء اذ يظن انه يستطيع ان ينال مباشرة من اسرائيل ما لم يستطع نيله بوساطة اميركا . الا ان الاتحاد السوفياتي هو الذي يبقى اللغز الكبير. لا ريب في أن شاوشسكو (*) كان على علم بزيارة السادات للقدس ، ومن المرجح أنه أشعر بها السوفياتيين . اذن ، كان هؤلاء مطلعين على مشروع السادات مثل الأميركيين وأكثر . أما المملكة العربية السعودية فبدت على خلاف مع الرئيس المصري ، وقد نفى الملك خالد أن يكون السادات قد استشاره قبل قيامه بتلك المبادرة » . ويستفاد من مصادر مقربة من الملك أن السعوديين صعقوا برحلة السادات ، وقد أعلن العاهل السعودي أن المسألة تعني كل العرب ، وان القدس هي مسؤولية جماعية ومشتركة ، لأنها مدينة مقدسة لكل مسلمي العالم ، وليست موضوع مفاوضة . ويضيف الملك خالد قائلاً : « اننا نجهل العوامل الحقيقية التي تحرك أعمال السادات . فاذا كان مدفوعاً بحاجة اقتصادية كما يزعم ، فعلينا أن نذكره بأن المملكة العربية السعودية ، وهي وحدها ، تساعد مصر فعلاً . ولن يقدم له الأميركيون ولا الاسرائيليون المساعدة الاقتصادية التي يتوقعها » .

(*) نيقولاي شاوشسكو ، أمين عام الحزب الشيوعي الروماني .

أما جوني عبده فيظن ان السادات كان قد اقام علاقات ثنائية مع اسرائيل بمعزل عن الولايات المتحدة الاميركية . ويؤكد ان الادارة الاميركية لم تكن على علم بكل الاتصالات التي مهّدت لزيارة السادات للقدس . ويعتقد عبده ان كارتر شجع السادات على ان يعمل «شيئاً ما» ، قبل نهاية العام ١٩٧٧ ، يُخرج مؤتمر جنيف من المأزق الذي كان فيه . ولكن كارتر لم يجرؤ قط على التفكير بدفع السادات الى زيارة القدس . ومن ناحية أخرى ، لوكانت واشنطن على علم بالاستعداد لمثل هذه الزيارة لما وقّعت بيان ١ تشرين الأول ١٩٧٧ بالاشتراك مع موسكو ، وفيه دعت الدولتان العظميان الى مؤتمر جنيف . ويروي عبده انه لما ذهب موشي دايان مسرعاً الى واشنطن ، واطلع المسؤولين الاميركيين على مجرى محادثاته مع مصر ، تراجعت الادارة الاميركية ، وتنكرت للبيان الموقع مع موسكو قبل أربعة أيام فقط . ويعلق عبده على مبادرة السادات قائلاً : « حنكة السادات في انه جرّ الولايات المتحدة الى الامر الذي بدأه هو » .

استمع الرئيس بانتباه الى نظرية رئيس مخابراته . وأحس بالحاجة الى تحديد موقعه بالنسبة الى التقلبات الجارية ، والى المقارنة بين اسلوبه السياسي واساليب نظرائه ، فقال : « اننا نواجه حقبة اضطرابات . ولبنان هو البلد الوحيد في الشرق الاوسط الذي يتبع سياسة ثابتة ومتوازنة . لن أُعدّل موقفي بحسب الظروف والاحداث كما يفعل العرب . فهؤلاء ينتقلون في علاقاتهم من الاطراء الى الشتائم بلا تمهيد ، ومن التضامن الى الحرب بلا اشعار . قبل قمة الرياض كانت مصر وسوريا في خالة عداء سافر . وبعد هذه القمة بقليل دخلتا مرحلة شهر العسل . وفي الوقت الحاضر عادت بينهما الحرب بلا هوادة . هذا كله في اقل من سنة واحدة . صحيح اني لا أقوم باعمال كبيرة ، ولكن الاكيد ، من جانب آخر ، اني لا ارتكب اخطاء كبيرة . اني ازن افعالي قبل الاقدام على العمل . ولا اعمل مستعجلاً لئلا اندم فيما بعد ، حين يكون قد فات الاوان ، ولم يعد ينفع الندم » .

وراحت سوريا تعارض بعنف مبادرة السادات الذي وقف يتصلب بدوره بوجه الأسد . وقدر الياس سركيس ان المواجهة ستكون لصالح السادات ، لان مصر تستطيع البقاء معزولة ووحيدة ، ولكن سوريا مضطرة الى عقد محالفات لمواجهة الموقف . والحال ان كل تحالف ينطوي على نقاط ضعف تعيق العمل . فالدولة المنفردة هي اوفر تماسكاً من التحالف بين دول عدة مختلفة . وهكذا ، يصبح اسهل على مصر ان تتحرك من ان تبادر سوريا الى مجابهتها .

انتقلت سوريا من المعارضة المبدئية الى المواجهة السياسية . فدعت الدول العربية الى اقامة جبهة عربية ضد السادات . وقد سمعت شخصياً الرئيس حافظ الأسد يروي المناقشات التي احتدمت بينه وبين الرئيس المصري في ١٦ و١٧ تشرين الثاني ١٩٧٧ ، وذلك قبل زيارة القدس بيومين . قال

الرئيس السوري لوفد كتائبي مؤلف من جورج سعاده ، وادمون رزق ، وجوزف الهاشم وانا زار دمشق في ١٨ و١٩ كانون الثاني ١٩٧٨ : « حاولت اقناع السادات بالعدول عن عزمه على زيارة القدس . شرحت له ان اسرائيل لن تتنازل عن شيء بسبب اختلال التوازن الاستراتيجي بينها وبين العرب ، وراهنته على ان هذه الزيارة لن تسفر عن أية نتيجة ملموسة . واذا كان من الممكن ان تؤدي هذه البادرة الى نتائج ، فان ثمن هذه النتائج سيكون عبئاً باهظاً من الخزي والعار . والامر الذي لا يفهمه السادات هو ان المصالح بين الدول لا تحل على طريقة النزاعات بين القبائل . فزيارة بسيطة قد تحل خلافاً قبلياً ، ولكن الحروب بين الشعوب والامم لا يمكن ان تُحلّ بمثل هذه الطريقة . ان السادات يتصرف تصرف رئيس قبيلة اكثر منه رئيس دولة . والذي اراه ان المهم ليس اعادة قطعة من الأرض الينا ، بل الأهم هو الطريقة التي تعادبها هذه الأرض . ذلك لأن ما يحسب له حساب اكثر من الاستعادة بحد ذاتها هو التصور الجماعي لهذه الاستعادة في الاذهان ، والصدمة التي تحدثها في معنويات الشعب . من الافضل لنا ان تبقى ارضنا محتلة ، من ان نستعيدها على حساب كرامتنا الوطنية ، ومن ان نضحي في سبيلها بمصالح الأمة العربية . اذا كانت المسألة مسألة مساحة ، فالاراضي العربية واسعة ومترامية الاطراف ، وعندنا منها ما يزيد على حاجتنا . الموضوع ليس موضوع أرض بل هو القضية التي ترمز اليها هذه الأرض » .

وتابع الأسد حديثه حول اجتماعه بالسادات : « خطأ السادات هو أنه بدأ حيث كان يجب أن ينتهي . اعترف باسرائيل حتى قبل ان يفاوض . ان موقف السادات قد آلمني جداً . لم يكن منطقه كمنطقي اطلاقاً في اثناء المحادثات التي أجريناها . لقد حاول ان يجد تبريراً لقرار اتخذه ولا يريد التراجع عنه . وحاولت ألاّ اقطع العلاقات معه ، وألا امسّ شعوره مساً مؤلماً . ولم يكن قد مضى زمن طويل على اتفاقنا في الرياض لانهاء الصراع المصري — السوري ، وبالتالي انهاء الحرب القاسية في لبنان . وقد كانت هذه الحرب ، الى حدٍّ ما ، حرباً بين سوريا ومصر . واني اعرف يقيناً ان كل نزاع مسلح مصري — سوري سيتطور في المستقبل الى حرب ضارية أشد فتكاً من حرب لبنان . معركتنا ضد السادات ستكون شرسة ، واختلاف وجهات النظر بيننا سيكون دامياً . فهو سيدفع ، ونحن سندفع ، بوصفنا عرباً ، ثمناً باهظاً . قوة العرب الحقيقية تقوم على تفاهم بين مصر وسوريا . وفي غياب تفاهم كهذا ، يجد العالم العربي نفسه بدون عموده الفقري » .

ويستفيض الرئيس السوري في الحديث عن زيارة السادات معلقاً على نتائج هذه المبادرة المصرية ، فيقول : «كان بيغن قليل الأدب مع السادات . فالآراء التي ابداها رئيس الكنيست كاللهجة التي تكلم بها رئيس الحكومة تظهر قلّة الاهتمام بنا . لو شئنا ان نصرف النظر عن العادات والتقاليد السائدة في العلاقات بين الدول والرؤساء ، لما سمحنا ابداً للسادات بمغادرة سوريا ليقوم برحلته الى القدس . لنا منطقنا الخاص على هذا الصعيد : فكل شخص على علاقة مع العدو يُعتبر خائناً . وكل

خائن يجب ان يُعدم . ولا يمكن اعتبار الخائن بطل سلام ، كما يريد السادات ان يوهمنا . شرحت للسادات الفارق بين السلام والاستسلام وصارحته قائلاً : ان مبادرتك قد تهدم السلام عوضاً عن ان تبنيه . فالاتفاق الثنائي بين مصر واسرائيل شيء ، ولكن السلام الحقيقي هو شيء آخر . فالصلح سيكون شاملاً أو لا يكون ابداً . نحن في سوريا فرضنا فيما مضى شروطاً تتعلق بمساهمتنا في مؤتمر جنيف . واردنا ان نضمن الحد الأدنى من الحقوق العربية قبل ان نبدأ المحادثات . فهل من الطبيعي ان نذهب الى القدس بلا شروط ، وبهذا المقدار من الخفة والاستهتار ؟ لقد افهمت السادات اني لا استطيع تأييده . وختمت حديثي معه قائلاً له بقوة : حتى لو وافقتُ انا على مسعاك ، فان شعبي لن يوافق عليه وسيشجبه » .

لزم الرئيس الاسد الصمت برهة ، ثم راح يروي ذكرياته عن حرب تشرين الأول ١٩٧٣ فقال : « السادات غريب الاطوار . انه دائماً مستعجل . نسف مؤتمر جنيف بسبب استعجاله الذهاب الى القدس . وخسّرنا مكاسب حرب تشرين باستعجاله على طريق فك الارتباط مع اسرائيل . لو قبل السادات بان تبقى القوات العسكرية في حالة اشتباك في سيناء والجولان ، لكانت المشكلة قد حُلّت الآن . استطاعت اسرائيل تدمير مراكز حيوية عندنا ، كالمصافي ، والمرافىء ، وحتى المدن ، ولكنها لم تتمكن من تحطيم جيشنا . هدم الاسرائيليون كل ما استطاعوا هدمه ، ولكنهم لم ينجحوا في تعطيل طاقتنا العسكرية . كنا نتأهب لشن هجوم مضاد على الجبهة السورية في ٢٣ تشرين الأول ١٩٧٣ ، لما وافق السادات على وقف اطلاق النار . واذا كان الجيش السوري قادراً ، في ذلك الحين ، على شن هجوم مضاد ، فمن الراهن والبديهي ان الجيش المصري أيضاً كان قادراً على القيام بالعمل نفسه . ولدى اعلان وقف اطلاق النار الذي استعجل السادت في الموافقة عليه ، كانت اسرائيل قد دمرت كل ما تستطيع تدميره ، فيما نحن لم نكن قد قمنا بعد باي عمل ضد الأراضي الاسرائيلية ، وعلى الأخص قصف المدن اليهودية . ومن ناحية أخرى كانت اسرائيل مشلولة سياسياً على الصعيد الداخلي . وكان واضحاً انها لا تستطيع ان تتحمل متابعة حرب الاستنزاف على جبهتين . كانت امكانات اسرائيل قد شحّت اقتصادياً ، وبشرياً ، ومعنوياً ، وقد أضحت مكرهة على ايجاد حل سياسي . لو قبل السادات استمرار المعارك ، ولو وقتاً قصيراً ، ولو انه لم يستعجل في قبول فك الارتباط ، لحُلّت مشكلة الشرق الاوسط حلاً شاملاً ولمصلحة العرب . في اسوإ الاحوال كنا قادرين آنذاك على بلوغ ما نطالب به الآن ، وما ترفضه اسرائيل أي الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة ، واقامة دولة فلسطينية . ولكن فك الارتباط جعل اسرائيل تستعيد انفاسها ، واتاح لها تجديد قواتها » .

لزم الرئيس الأسد الصمت من جديد ، ثم أخذ يسائل نفسه بصوت عال : « لم الاستعجال ؟ لسنا مستعجلين على الحل . لا شيء يجبرنا على ذلك . ثلاثون سنة انصرمت ، فلنقاوم ثلاثين سنة أخرى ! لا يُضحّى هكذا بقضايا الشعوب والأمم . والمهم في الوقت الحاضر هو أن نتجمع ونعيد

التوازن الذي اختلّ . وبعدئذٍ نحاول أن نجد حلاً . تؤكد معلوماتنا أن القوى المصرية الحية هي ضد السادات . صحيح أن الشعب المصري غير مُسيّس ، خلافاً للشعبين اللبناني والسوري . وعلى كلٍّ ليس في العالم شعوب مسيّسة بمقدار ما هم عليه اللبنانيون والسوريون . القسم الأكبر من الجماهير المصرية لا يهتم بالسياسة . وليست هذه حال القوى الحية ، كالطلاب ، والنقابات ، والمثقفين ، والأحزاب التي لا توافق كلها على مساعي السادات . ان الرئيس المصري يمشي معاكساً مجرى التاريخ . ان المستقبل لمصلحتنا . يكفي ، للتثبت من ذلك ، أن نلقي نظرة على طاقاتنا أرضاً وبشراً ، لندرك تفوقنا الكمي . أعرف ان الفارق بيننا وبين اسرائيل هو من الصنف النوعي لا العددي . ولكن هذا الفارق النوعي آخذ هو الآخر بالتضاؤل مع الوقت : عام ١٩٧٣ كنا في حالة أفضل من تلك التي كنا فيها عام ١٩٦٧ ، وفي المستقبل ستكون حالنا أفضل مما هي عليه اليوم . لقد بلغت اسرائيل حدها الأعلى في القوة ، فيما نحن لم نبلغ حدنا الاوسط . ومتى بلغنا حدنا الاقصى ، مالت كفة الميزان الى صالحنا . وأودّ ان أُعطي مثلاً على التقدم النوعي الذي سجلة الجيش السوري . تعرفون ان خدمة العلم اجبارية في سوريا . منذ عشرين عاماً كان حامل البكالوريا يُرقّى الى رتبة ضابط بينما هو اليوم لا يبلغ رتبة رقيب ، اعني انه لا يقود إلاّ اصغر وحدة في الجيش . على الضابط اجبارياً ان يحمل شهادة جامعية . وثمة مجازون عديدون ليسوا سوى ضباط صف . والفارق كبير بين رقيب يحمل البكالوريا ، يزن الامور ، ويفهم الأوامر الصادرة ، ويعرف كيف يحمل جنوده على تنفيذها ، وبين رقيب امي أو شبه امي ، كما كان الامر قبلاً . فالوقت لا يعمل ضدنا بالضرورة ، بل العكس هو الصحيح ، فالوقت هو حليفنا الأساسي ، بشرط ان نعرف كيف نستعمله » .

لم يشأ حافظ الاسد مفاتحتنا بموضوع زيارتنا الا في نهاية الاجتماع حيث راح يعدد النتائج المشؤومة التي جرّتها وستجرها مبادرة السادات على لبنان . وبعد ان زان كلماته بكل عناية ودقة ليعطيها معناها كاملاً ، قال للوفد الكتائبي : « اخشى ان لا تكونوا قد ادركتم في لبنان ادراكاً تاماً فداحة الاخطار التي تهددكم بعد مبادرة السادات . واخشى ايضاً ان تنظروا الى الاحداث من زاوية ضيقة وجزئية . لا تفرحوا كثيراً بموقف السادات المضادّ للفلسطينيين . ولا تستعجلوا في تأييده ، فقط لانه اليوم ضد المقاومة الفلسطينية . فخطة السادات ستؤدي الى ابادة الفلسطينيين واللبنانيين على التوالي . ولبنان هو اليوم في خطر من جراء مبادرة السادات . ولتكملة معلوماتكم اقول لكم ان بيغن والسادات تفاهما على توطين الفلسطينيين حيث هم الآن : في الضفة الغربية ، وسوريا ، ولبنان . وتوطين الفلسطينيين في سوريا ليس مشكلة . اما في لبنان فانه يُحدث مآسي . فكل عربي يستطيع عندنا ان يكون مواطناً مكتمل الحقوق . يستطيع الاقامة في سوريا ، والعمل فيها . وفي وسعه ان يشغل حتى منصباً سياسياً . ان قرارنا برفض توطين الفلسطينيين ناجم عن موقف مبدئي ومفهوم قومي . نرفض اعطاء الفلسطينيين الهوية السورية ما داموا لم يحصلوا بعد على دولة فلسطينية لهم . ومتى كانت لهم دولتهم الخاصة ، بات كل فلسطيني يستطيع ان يصبح مواطناً سورياً ، بمجرد طلبه هذه المواطنة ،

اسوة بجميع العرب الآخرين . ولكن الحالة في لبنان تختلف كلياً عن واقعنا . فالتوطين عندكم يتخذ حجماً آخر . انه يهز اسس بلادكم ، ويخل بتوازن صيغة التعايش . ورفضكم التوطين ناجم عن اعتبارات لبنانية صرفة . والحال ، ان الاتفاق المصري الاسرائيلي يوازي توطين الفلسطينيين في لبنان . لهذا السبب ، لا نطلب اليكم ان ترفضوا مبادرة السادات اكراماً لنا ، بل لتنقذوا الهوية اللبنانية » .

وفي صدد الاقتراحات التي قدمها اليه السادات في لقائهما الأخير ، قال حافظ الأسد : « اقترح السادات عليّ ان نذهب معاً الى القدس . فرفضت . واقترح عليّ أيضاً ان اتولّى قيادة مصر اذا اخفق في محاولته . فرفضت أيضاً » . وانقطع الرئيس السوري فجأة عن الكلام ، ثم قال باحتقار ظاهر : « لا اريد شيئاً من السادات . لن يترك هذا الرجل شيئاً بعده ! » .

انا شخصياً فهمت . لا شك بان الرئيس السوري يحذر الجبهة اللبنانية من كل تأييد لمبادرة السادات ، ويتخوف من انقلاب هذه الجبهة على دمشق . والرئيس سركيس كان يعيش هاجس تدهور العلاقات بين الجبهة اللبنانية والعاصمة السورية منذ زيارة القدس . وبحسب رأيه ، زال الامل بايجاد حلّ في جنيف ، والاخطار والمفاجآت تهدد المنطقة باسرها . وهو يتردد في اطلاق عملية الوفاق الوطني في ظل الوجود الفلسطيني المسلح في الجنوب وفي نصف العاصمة بيروت . ويعتقد الرئيس ان اجراء المصالحة بين اللبنانيين قبل تنفيذ اتفاقية القاهرة يساوي الاعتراف الضمني بتوطين الفلسطينيين وبتقسيم البلاد . ولا يطمئن للسياسة الاميركية التي تسعى ، ولو بصورة مبطنة ، الى حل مشكلة الفلسطينيين على حساب لبنان . لذا لن يتردد في رفض فكرة التوطين علناً في الرسالة التي وجهها الى السلك الديبلوماسي في ٦ كانون الثاني ١٩٧٨ .

اذن كل الطرق مسدودة والمأزق شبه تام . لكن بعض هذه الطرق خطرة وخطيرة . الرئيس سركيس يشعر في قرارة نفسه انه يستطيع تحمل أي شيء عدا الصدام بين الجبهة اللبنانية ودمشق . وفاتحني في نهاية ١٩٧٧ قائلاً : « هذه هي نقطة ضعفي ، انه المقتل . أشرح للسوريين أنني لا اريد تحجيم الجبهة اللبنانية ، وللجبهة اللبنانية انني لا اقدر ان اطرد الجيش السوري . لن اضرب الجيش السوري بالجبهة والجبهة بالجيش السوري . كل شيء مهدد بالانهيار . اني متشائم » . اكثر من متشائم ، اضحى الرئيس مستسلماً . انه يرى ان الصدام اصبح أمراً لا يمكن اجتنابه .



الفصل الثاني

زمان الإنفجارات

في العام ١٩٧٨ ، احتقن المأزق فانفجر على الرغم من اتّباع الياس سركيس سياسة التمهل . للخروج من المأزق فضل الرئيس الانتظار على المغامرة . ولم تنفع معه سياسة اسلافه التي كانت تحول المآزق الى التباسات . انها سياسة تفادي الانفجار وهي كثيراً ما تفيد ، ولكنها في بعض الاحيان تنهار . لم يتوصل الى فرض السلام ، فاكتفى بالهدنة المسلحة . لم يفقد الرئيس السلام نهائياً لكن حظوظه في الحقيقة أصبحت قليلة . فبان الرئيس حزيناً والرئاسة كئيبة . وقد أطلق عليه بريان اوركهارت ، مساعد أمين عام الأمم المتحدة ، لقب « الرئيس الحزين » .

هذا الرئيس الحزين واقع بين المطرقة الاسرائيلية والسندان السوري . ففي شباط ١٩٧٨ ، نشب فجأة اشتباك الفياضية بين الجيشين اللبناني والسوري . وبعد شهر اجتاحت اسرائيل الجنوب . أما في الشمال فالحالة متفجرة أذ مزقت هذه المنطقة الاشتباكات بين الكتائبيين وأتباع سليمان فرنجية . ففي أقل من سنتين من ولاية سركيس تدهورت الأوضاع كليا من الجنوب الى الشمال . فاستؤنفت المعارك في منتصف العام بين سوريا والجبهة اللبنانية وهدد الرئيس بالأستقالة ، ثم تراجع عن عزمه على أمل اجتناب الأنفجار الكبير ، هذا الأنفجار الذي طوق موقتاً . ثم اندلعت النيران في الأشرفية في تشرين الأول بين الجيش السوري والقوات اللبنانية . وهكذا تابع القدر الذي لا يرحم هجمته على لبنان . وجاء أتفاق كمب ديفيد في أيلول ليقلب كل المعطيات ويخلط كل الأوراق ويكمل ما بدأه القدر . واصبح لبنان ريشة في مهب الأعصار .

١٩٧٨ هو عام الحقيقة . وقد أدرك الرئيس أية مأساة يواجه : لا يستطيع أن يحكم ، وفي الوقت ذاته لا يستطيع ان يتخلى عن الحكم . أصبح محكوما عليه أن يتحمل حروب الآخرين وأن يخطىء السلام الذي يريد .

١ ـ فخّ الفيّاضيّة

قبيل التجديد لحافظ الأسد رئيسا للجمهورية السورية لمدة سبع سنوات اخرى ، وقع اشتباك مفاجىء ، في ٧ شباط ١٩٧٨ ، بين جنود لبنانيين وسوريين أمام ثكنة الفياضية اللبنانية ، بالقرب من بيروت ، سرعان ما امتد فشمل القطاع المسيحي من العاصمة . وكانت حصيلته أكثر من ثلاثين قتيلا جلهم من الجنود السوريين . وفي اليوم التالي ، ٨ شباط ، أختصر الرئيس اللبناني جلسة مجلس الوزراء العادية ، وصعد الى جناحه الخاص في القصر ، وهناك التقيته ، فبادرني متجهماً وقال : « وجهت دمشق اليّ انذاراً تطلب فيه أن أسلمها الضباط والجنود اللبنانيين ، المسؤولين عما يسمونه اعتداء على الجيش السوري » .

وكان الياس سركيس قد اتصل بحافظ الأسد يوم وقوع الاشتباك مرتين . في المرة الأولى كانت المكالمة ودية ، وقال له الرئيس اللبناني : « كان علي أن اتصل بك غداً لأقدم لك تهنئتي لمناسبة تجديد انتخابك ، ولكن الظروف قضت بأن أتصل بك اليوم لأقدم أسفي ... » . فأجابه الرئيس السوري الذي لم يكن قد علم بعد بعدد القتلى السوريين : « لا تقلق ، هذه حادثة يمكن أن تقع بين جيشين . وعلى كل حال فالجنود السوريون هم أبناؤك كالجنود اللبنانيين . أعمل ما يطيب لك » . في المكالمة الثانية اختلفت لهجة الأسد كلياً ، وقال لسركيس : « الحادث في منتهى الخطورة . لم أكن قبلاً مدركاً خطورته . فهو ليس اشتباكاً بل مجزرة . انه فخ مقصود نصب للجيش السوري لا حادثة عرضية . وقضية كهذه تثير نقاط استفهام عديدة . ولن أتساهل فيها : كل مسألة عسكرية يجب أن تجد حلاً عسكرياً . لقد انتشر جيشي في مجمل الأراضي اللبنانية وما كابد مثل هذا العدد من الضحايا . لا أستطيع الصفح عن الذين يطلقون النار على جنودي ، ان هيبة الجيش السوري كلها في الميزان ... » .

حاول سركيس أن يجد مخرجا مشرفا للجيشين ، فاقترح تأليف لجنة عسكرية لبنانية — سورية لأجراء التحقيق ، فرفض الرئيس السوري هذا الأقتراح ، وقال : « أنا ضابط ، وأعلم كيف تجري الأمور في الثكنة . أنا واثق أن الضابط المسؤول لا ينام قبل اجراء تحقيقه الخاص ، وتوضيح مجرى الوقائع ، وتحديد المسؤولين ، وهذا ما لا يخامرني فيه شك . قائد الجيش اللبناني يعرف المسؤولين لكنه يحاول التملص ، فيخترع المخارج والمبررات ، وتأليف لجنة تحقيق هو أحد هذه الأختراعات . أن قائد الجيش يريد حلا على الطريقة اللبنانية يبرىء فيه المذنبين . هذا مرفوض من جانبنا فعليه أن يكون مستعدا لتسليمنا الضباط اللبنانيين المذنبين ، ولأعدام بعضهم رميا بالرصاص . لا تسوية ولا مسايرة .

فأذا لم نعاقب المذنبين عقابا رادعا لا يعود الجيش السوري يطيعني ويبقى الجيش اللبناني مجموعة ميليشيات متوزعة الولاءات تنتحل اسم الجيش وتزرع الفوضى في البلاد . يجب العمل بحزم لأجتناب الفوضى ، وألا عجزنا ، أنت وأنا ، عن الامساك بالأوضاع . فأما أن تعاقب المذنبين أو أسحب جيشي » .

كان الرئيس مضطرباً وهو يروي لي تفاصيل مكالمتيه ، واضاف : « يريد العسكريون السوريون تطبيق أسلوبهم في لبنان ويفكرون بأحتلال الفياضية . المشكلة صعبة ، والموقف يهدد بالأنفجار . كنت أعلم أن الرئيس السوري رجل عنيد ، ولكني لم أعرفه شرساً الى هذا الحد » .

في اليوم التالي ، ٩ شباط ١٩٧٨، عمت المعارك كل القطاع المسيحي في العاصمة . وايدت الجبهة اللبنانية الجيش اللبناني . ولم يشأ فؤاد بطرس الذي كان يشغل ، بالاضافة الى منصبه كوزير للخارجية ، منصب وزير الدفاع ، ان يذهب وحده الى دمشق ، فيواجهه الغضب السوري . استنجد سركيس بسليمان فرنجية الذي تربطه علاقات وثيقة بالأسد . فوافق فرنجية على التوجه الى دمشق مع بطرس . وقبل السفر أسرّ سركيس الى فرنجية قائلا : « انك تعرف اكثر مني الرئيس السوري ، ولكني احذرك بأنه سيفاجئك . لن يكون صعب المراس وحسب ، بل سيكون قاسي القلب ايضاً . سيصر على ان يحاكم المذنبين ، وان يحكم عليهم بالاعدام . ولكن يجب افهامه اني اذا اعدمت جنديا لبنانيا واحداً ، انفجرت الحرب الاهلية فوراً . ارجوك ان تشرح هذا كله للأسد ، فأنت ، في نهاية الامر ، اقدرنا جميعا على تليين موقفه » .

اعتبر سليمان فرنجية بدوره الموقف السوري غير مقبول . وذكر بأن ثكنة الفياضية تضم الف جندي يستطيعون ، « كيفما كان الامر » ، الدفاع عن نفوسهم ، ثم اضاف : « من الافضل ان يحتل الجيش السوري ثكنة الفياضية بالقوة بدل ان نسلم دمشق طوعاً ضباطاً وجنوداً لبنانيين » .

وبانتظار عودة فرنجية اعتصم الرئيس بصمت طويل . انه يشهد عاجزاً انهيار دعائم سياسته بدون ان يكون لديه حل بديل . اذ لا يستطيع ان يحكم ضد المسيحيين ، ولا ضد سوريا . ويخشى ان يغرق لبنان في غمرة الدمار من جديد .

وعاد سليمان فرنجية مساء اليوم نفسه الى القصر الجمهوري يحمل بداية حل . وروى بحضوري للرئيس سركيس فحوى محادثاته في دمشق . فلاحظ ان المباحثات بدأت صعبة جداً لدرجة انه اصطدم في البداية بالرئيس الأسد الذي استخدم لهجة عنيفة جازماً بأنه كان يجب على قائد الجيش اللبناني ان يعدم رمياً بالرصاص المذنبين فوراً . ولكن في مجرى الحديث هدأ الرئيس السوري قليلاً وابدى

شيئاً من التساهل . وتبين لفرنجية ان الأسد يريد الحصول على تعويض سياسي عن طريق اصدار بيان من الجبهة اللبنانية تعلن فيه ان ثقتها بالسياسة السورية ما تزال كاملة . ومن شأن هذا البيان أن يعطي حافظ الأسد غطاء على الصعيدين العربي والدولي ، لأن العراق يزعم ان لا احد يؤيد الوجود العسكري السوري في لبنان ، لا المسيحيون ، ولا المسلمون ، ولا الفلسطينيون ، وان اسرائيل هي التي تشد الخيوط من وراء الستار . في مطلق الاحوال ، قبل الرئيس الاسد في النهاية ايفاد عبد الحليم خدام الى بيروت بعد صدور بيان الجبهة اللبنانية .

اكد فؤاد بطرس صواب هذا التحليل ، ولكنه ابدى بعض الشكوك في ما يختص بالنتائج . اما الرئيس سركيس فساوره الشك حول استعداد الجبهة اللبنانية لاصدار البيان المطلوب . الا ان الكلمة الاخيرة كانت لسليمان فرنجية الذي قال : « لا نخسر شيئاً في اقناع شمعون والجميل بضرورة اصدار مثل هذا البيان وعلى الله التوفيق » . واخذ سليمان فرنجية على عاتقه مهمة حمل حلفائه في الجبهة اللبنانية على التجاوب مع المطلب السوري .

وبالفعل ، اصدرت الجبهة اللبنانية ، بلا حماسة ، البيان المطلوب فتوقفت المعارك . بعدئذٍ اجتمع اركان الجبهة اللبنانية بالرئيس سركيس وطالبوا باجراء المحاكمة في لبنان ومن قبل قضاة لبنانيين ، وبألا يحكم على احد من العسكريين بالاعدام . واقترح كميل شمعون وبيار الجميّل على الرئيس اللبناني التوسط لدى الولايات المتحدة الاميركية لتضغط على سوريا . فاخبرهم سركيس انه تلقى من سيروس فانس برقية تشير الى ضرورة ايجاد حل سريع « على اساس التفاهم السوري — اللبناني ، وبالاتفاق مع الرئيس الاسد » . وهذا يعني ، بعبارة واضحة ، ان الولايات المتحدة تداري الأسد ولن تمارس بالتالي ضغطاً عليه . اذن فلا مناص من التوصل الى اتفاق مع دمشق . والرئيس اللبناني يسعى الى اجتناب تحوله الى كبش فداء ويعمل على الافلات من فخ الفياضية الذي يهدد بالانغلاق عليه وحده .

وبدا الفخ مزدوجا : التسليم بالمطالب السورية يعني فقدان كل مصداقية لدى المسيحيين وكل سلطة في قلب الجيش ، أما الوقوف الى جانب الجبهة اللبنانية فيعني التعرض لخطر مجابهة مع سوريا بدون أية مساعدة خارجية مضمونة ولخطر تسريع انفجار داخلي . واختار الياس سركيس طريقا وسطا ، اذ قرر رفض الشروط السورية ، من غير ان يذهب الى حدود مقاطعة دمشق والى التدويل الذي تطالب به الجبهة اللبنانية . وهو غير مقتنع بجدوى التدويل . ولما اتصل به غسان تويني ، ممثل لبنان في الامم المتحدة ، لدى معرفته بحادثة الفياضية ، ليطلب اليه توجيهاته ، اجابه على الفور : « هذه مسألة محلية ، لا مسألة دولية . وحلها ها هنا في بيروت وليس هناك في نيويورك » .

وعملت الولايات المتحدة في الاتجاه نفسه منعاً لتدويل النزاع . فاجرى سفير اميركا في

اسرائيل ، صموئيل لويس ، اتصالات مكثفة داعياً تل أبيب لعدم التدخل في المشكلة الحاصلة . وقد وصف لويس الحالة في لبنان بانها « حرجة » بعد حديث اجراه مع مناحيم بيغن طلب اليه خلاله الا تتخذ اسرائيل أية خطوة في لبنان قبل التشاور مع الولايات المتحدة . وقد جاء في التقرير الاميركي عن هذه المحادثة ، كما نقل الى العاصمة اللبنانية ، ان رئيس الحكومة الاسرائيلي حدق طويلا الى السفير لويس قبل ان يجيبه بكلمة واحدة : « موافق » . فاستخلص السفير الاميركي من ذلك ان اسرائيل كانت تفكر بان تقوم بعملية ما في لبنان بدليل تردد بيغن في الجواب .

في الوقت الذي كانت فيه الولايات المتحدة تركز على اسرائيل ، كان السفير الاميركي في بيروت ريتشارد باركر يوجه نصائحه بالاعتدال والروية الى الجبهة اللبنانية ، وبنوع خاص الى كميل شمعون وبشير الجميل . وبعد اسبوع من حادثة الفياضية طلب احد اركان السفارة الاميركية ، بول مولينو ، الى بشير الجميّل ان يسلم الكتائبيين الذين اطلقوا النار على جنديين سوريين. انكر الزعيم الشاب مسؤولية الكتائب في ما حدث . ولما سأله الديبلوماسي الاميركي : « اذا لم تكونوا انتم مسؤولين عن وفاة هذين الجنديين ، فمن اذن قتلهما ؟ » أجاب الجميّل ساخراً : « الروح القدس هو الذي قتلهما » .

على الرغم من كثافة الاتصالات التي قامت بها الولايات المتحدة فقد شاب الموقف الاميركي شيء من الغموض . من جهة بذلت وزارة الخارجية كل جهد للحيلولة دون الانفجار ، وأيدت بصورة غير مباشرة دمشق . في المقابل اتبعت وزارة الدفاع الأميركية طريقاً آخر . فالملحق العسكري الاميركي في بيروت ، ادورد بادولاتو ، مكث في مقر قيادة الجيش اللبناني طوال اليومين اللذين جرت فيهما اشتباكات الفياضية . وكان يحرض الضباط اللبنانيين على سوريا حتى ان فؤاد بطرس اضطر الى تقديم احتجاج رسمي ضد تصرفات الديبلوماسي الاميركي .

* * *

تنفيذا للاتفاق مع سليمان فرنجية وصل عبد الحليم خدام وناجي جميل الى بيروت ، في ١١ شباط ١٩٧٨ ، لاجراء مفاوضات مع الجبهة اللبنانية بحضور الرئيس سركيس الذي نقل لي مساء اليوم ذاته وقائع هذه المباحثات . واخبرني ان المفاوضات بدأت بطيئة . وبدت الطريق مسدودة في البداية اذ كان السوريون متعنتين ، والجبهة اللبنانية لا تهاود . الجانب السوري اصر على ان تطلق الجبهة يد الجيش السوري ليفرض النظام في مجمل البلاد ، وان يلقى القبض على المسؤولين عن حادثة الفياضية ويحكم عليهم بالاعدام . وكانت الجبهة متحفظة في ما يتعلق بالنقطة الأولى ، ورافضة بشدة النقطة الثانية .

واظهر الرئيس قدراً كبيراً من الصبر وتوصل الى اتفاق ذي شقين : الأول انشاء محكمة استثنائية

لبنانية ــ سورية لمحاكمة المسؤولين العسكريين ، والثاني قيام مسؤولين في حزبي الأحرار والكتائب بزيارة دمشق على سبيل تجديد ثقتهما بحافظ الاسد . وبالفعل صدق مجلس النواب ، في ١١ شباط ، على انشاء المحكمة الاستثنائية . كما ذهب الى دمشق تباعاً ، في ١٨ و ١٩ شباط ، وفد من حزب الوطنيين الاحرار وآخر من الكتائب .

تلك كانت الخلاصة التي توصل اليها الياس سركيس . اما الموفدان السوريان اللذان التقيتهما قبل مغادرتهما بيروت فكانا ينظران الى الامور بعين أخرى . لم يتوقف عبد الحليم خدام طويلاً عند النتائج ، لكنه أعار الحد الاقصى من الاهتمام لموقف كل من كميل شمعون وبيار الجميل في اثناء المحادثات . في رأي خدام ان رئيس الكتائب كان يتحدى الرئيس اللبناني معلناً ان الجبهة اللبنانية هي القوة الرئيسة في البلاد ، وانها تمثل تسعين بالمئة من المسيحيين وخمسين بالمئة من المسلمين . الا ان الجميّل ظل في كلامه على جانب من « المراعاة » فكان يردد ان الرئيس سركيس يجسد الشرعية وان الجبهة تدعمه « بشكل ثابت » . أما كميل شمعون فيتمنى ، في نظر خدام ، تخفيف عدد القوات السورية في المنطقة المسيحية ، ويلمح من طرف خفي الى انه مستعد للجوء الى تدويل الأزمة .

وابلغني عبد الحليم خدام انه اتفق وناجي جميل ، في ضوء مواقف الجبهة اللبنانية ، على رفع توصية للرئيس الأسد لسحب الجيش السوري ، وأضاف : « يظهر ان الجبهة تفضل المنظمات الفلسطينية على الجيش السوري . ان الجبهة تتصور انه يجب على الجيش السوري ان يكون نوعاً من ميليشيا مسيحية ، والا ، فما عليه الا ان ينسحب . ان الجبهة ترتكب خطأ مميتاً اذ تتكل على الولايات المتحدة الاميركية أو على اسرائيل لان الأولى هي ضد المسيحيين ، والاخرى هي مع نفسها دون سواها » .

اما ناجي جميل فكان ينظر الى المفاوضات من الزاوية العسكرية . وقد أعرب لي عن رأيه بأنه يفضل سحب الجيش السوري اذا لم يكن محترماً . وطالب بمعاقبة المسؤولين عن حادثة الفياضية للحؤول دون وقوع أية حادثة اخرى في المستقبل . ونادى بعزل قائد الجيش وتأليف حكومة جديدة . واعتبر ان كل حل يجب ان يبدو وكأنه ترضية للجنود السوريين ، واضاف : « ان كل جيش وطني حقيقي ، يعني في خدمة الدولة ، يجب أن يكون طبيعياً الى جانب سوريا . وكل جيش ضد سوريا هو حتماً ضد الرئيس سركيس . ان الجبهة اللبنانية تتصرف وكأنه لا شاغل لسوريا غير تنفيذ اتفاقية القاهرة . نحن لسنا مقاولين التزموا اتفاقية القاهرة ولا خدماً بتصرف الجبهة اللبنانية ... » .

عملياً طويت حادثة الفياضية ، ولكن النار بقيت خافية تحت الرماد ، وامضى الموفدان السوريان الليل في قصر الرئاسة . وقبل ان يناما سألا عن اسماء حراس القصر الذين كانا يشكان بهم ، واوصدا بابيهما بالمفتاح ، ورقدا وتحت مخدة كل منهما مسدس ...

٢ ـ فقدان الإستقرار من الجنوب إلى الشمال

تلاحقت الضربات من كل حدب وصوب وبسرعة جنونية . فاحتلت اسرائيل الجنوب . وقتل طوني سليمان فرنجية . وقصف الجيش السوري المناطق المسيحية . فعلى اثر غارة فلسطينية في ١١ آذار ١٩٧٨ ، اجتاحت اسرائيل ، بعد ثلاثة أيام ، جنوب لبنان . واحتلت أولا منطقة الحدود على عمق عشرة كيلومترات ، تلك المنطقة التي كانت تطالب بانسحاب الفلسطينيين منها لتجعلها جزءاً من حزامها الامني . ثم تقدمت الى الليطاني وقد عرف هذا الاجتياح باسم « عملية الليطاني » . اتخذ مجلس الأمن الدولي ، في ١٩ و ٢٠ آذار ، القرارين ٤٢٥ و ٤٢٦ اللذين يقضيان بانسحاب اسرائيل واحلال قوات الامم المتحدة محلها . فاعلنت اسرائيل عزمها على اجراء انسحابات تدريجية ابتداء من ١١ و ١٤ نيسان من غير ان تقبل بمبدإ الانسحاب التام من كل الاراضي اللبنانية المحتلة خوفا من ان تمتد السابقة اللبنانية الى بقية الاراضي المحتلة منذ العام ١٩٦٧ .

في ٣ نيسان ١٩٧٨ بدا الرئيس قلقاً ، فقال لي : « لا شيء يجري على ما يرام ، بل اكثر من ذلك ، كل شيء يجري بصورة معاكسة . اننا نعيش جميعا في التناقضات الفاضحة . فسوريا تريد المحافظة على النظام ، ولكن بدون ان تصطدم بالفلسطينيين : هذا مستحيل . انا اريد تطبيق اتفاقية القاهرة ، وفي الوقت نفسه ، القرارين ٤٢٥ و ٤٢٦ : هذا غير ممكن . منظمة التحرير الفلسطينية تريد اكتساب تأييد الجنوبيين وهي تجر الخراب على الجنوب وأهله : هذا محال » .

ثم ابدى الرئيس « تشاؤمه الشديد » في ما يختص بمستقبل علاقاته بمنظمة التحرير والحركة الوطنية . فالفلسطينيون والتقدميون كانوا قبلاً ينظرون اليه كرجل معتدل ، الا انهم اصبحوا يرون فيه « المدافع » الشرعي عن الجبهة اللبنانية والعضو غير المعلن فيها . وفي ختام هذه الجلسة ذكر الرئيس ان رئيس حكومته سليم الحص اصبح « شخصا سلبيا » في كل شيء . لم يكن يريد قوات الامم المتحدة في الجنوب من قبل ، ثم اصبح يريدها ، بعد ان رأى ان دمشق ومنظمة التحرير الفلسطينية والحركة الوطنية لا تعارضها . وهو يرفض ذهاب الجيش اللبناني الى الجنوب « لأسباب طائفية وضيقة » ، وغداً سيغير رأيه اذا وافقت سوريا . وأضاف الرئيس : « لم تعد الادارة الأميركية تفهم موقف الحص . فهي مندفعة لارسال الجيش اللبناني الى الجنوب ، واذا ما احجمنا فالأميركيون سيسحبون يدهم . فالولايات المتحدة الأميركية لا تريد أن تبدو أشد تصلباً نحو اسرائيل من الحكومة اللبنانية ، ولا يعقل أن يكون الأميركيون أكثر لبنانية من اللبنانيين » .

هل يمكن رد عدم فعالية الولايات المتحدة الاميركية الى الخلافات اللبنانية الداخلية ؟ جوني عبده قدم ، بعد مرور ما يقارب السنة على عملية الليطاني تحليلاً آخر . فاعتبر ان هذه العملية هي بمثابة تحرك عسكري لحماية الاتفاق السياسي الذي كان يجري الاعداد له بين مصر واسرائيل . وشرح جوني عبده وجهة نظره قائلاً : « انه خلال المفاوضات التي سبقت توقيع اتفاق كمب دافيد توافق كل من اميركا واسرائيل ومصر على ان كل حرب تحصل بين اسرائيل واحدى الدول العربية تؤدي الى بطلان الاتفاق بين اسرائيل ومصر . واعتبر المتفاوضون ان الجنوب اللبناني وحده ، في اوائل ١٩٧٨ ، هو النقطة الساخنة وغير المضبوطة حيث كانت المنظمات الفلسطينية توجه منه الضربات الى القرى الاسرائيلية في الجليل الاعلى . وكانت الولايات المتحدة الاميركية تعي تماما أن استمرار الهجمات الفلسطينية من الجنوب اللبناني سيؤدي عاجلاً أو آجلاً الى غزو الجنوب من قبل اسرائيل . لذا توافقت الدول الثلاث سراً على ضرورة ابعاد المنظمات الفلسطينية عن الحدود الاسرائيلية الى مسافة عشرة الى خمسة عشر كيلومتراً ، وذلك قبل توقيع اتفاق كمب دافيد . لكن منظمة التحرير الفلسطينية لم تنسحب بالطرق الديبلوماسية فنفذت اسرائيل عمليتها العسكرية ووصلت الى حدود نهر الليطاني كي تتمكن ، تجاوباً مع الضغوطات العالمية ، من نشر قوات دولية محلها وابعاد الفلسطينيين من الجنوب وتسليم الحزام الأمني البالغ عشرة كيلومترات عمقاً الى سعد حداد . فمن الزاوية الاسرائيلية تشكل هذه التدابير ضماناً لسلامة الجليل للسنوات الخمس المقبلة . أما من الزاوية المصرية فقد تصور السادات أن فترة الخمس السنوات هي الفترة الزمنية الكافية لادخال باقي الدول العربية في عملية السلام التي بدأت بزيارة القدس . لذا اعتبر جوني عبده « ان عملية الليطاني أحدثت تغييراً نوعياً في العلاقات بين دول المنطقة . فهي أول عملية منسقة بين الولايات المتحدة الاميركية واسرائيل ومصر وهي بمثابة حرب وقائية لحماية كمب دافيد » .

واستشهد جوني عبده دعماً لوجهة نظره بالسيناريو الذي جرى في مجلس الأمن : أسرع قرار مع اسرع تنفيذ في تاريخ الامم المتحدة ؟ فلأول مرة يتخذ قرار بانسحاب اسرائيل من جنوب لبنان ونشر قوات دولية محلها خلال ساعات وبموافقة الولايات المتحدة الصريحة . ولأول مرة تشكل قوات دولية تصل الى منطقة النزاع خلال اربعة ايام فقط وقبل وقف نهائي لأطلاق النار . « وكأن كل شيء جاهز سلفاً » . ويكشف رئيس الاستخبارات اللبنانية أمراً غريباً فيقول : « قبل فترة من الاجتياح الاسرائيلي وصل الى بيروت ضابط نروجي وطلب زيارة الجنوب في مهمة استطلاعية . فوافقت قيادة الجيش بشيء من الاستغراب بدون اعطاء أي اهمية لهذه المسألة . ولكن بعد عملية الليطاني اتضحت الامور فقد كانت النروج في عداد الدول التي شاركت في قوات الامم المتحدة التي انتشرت في الجنوب » .

حدثت المرحلة الثانية من فقدان الاستقرار السياسي في لبنان في ١٣ نيسان ١٩٧٨ ، بعد انقضاء ثلاثة أعوام ، يوماً بيوم على بدء الحرب في العام ١٩٧٥ ، إذ استؤنفت المعارك في القطاع المسيحي من بيروت والضاحية بين قوات الردع العربية والميليشيات . وقد بدا الرئيس عابساً كئيباً ، لا يتكلم إلاّ قليلاً ولا يستمع الى أحد . إنه يتألم بصمت ، ويعتبر قصف قوات الردع العربية على التجمعات المدنية « ضربة » موجهة إليه شخصياً . وقال لي : « لا أدري هل أستطيع تحمّل هذه الضربة . ومن المؤكد أني لن أستطيع القبول بضربة ثانية . ليس في وسع أحد أن يقبل بما يحدث . كان من الممكن أن تكون الحالة شبه مقبولة لو أن قوات الردع تقصف المراكز الكتائبية الثابتة ، ولكن من غير المقبول ان تصب نيرانها على المدنيين وبشكل عشوائي . قوات الردع هي مبدئياً بامرتي ، هذا يعني اني انا الذي اقصف المواطنين الابرياء ! » .

جاءت نتيجة المجابهة باهظة الى حد كبير : ٣٠ قتيلاً ، و ٢٥٠ جريحاً بين المدنيين . وفي ١٩ نيسان ١٩٧٨ استقالت حكومة الحص ، فاذا بالرئيس اقل توتراً . وقد عزا قراره الى ضرورة قيام الحكم بعمل ما . وان الخيار كان مطروحاً بين استقالته واستقالة الحكومة . فأقر الرأي مع سليم الحص على ان استقالة الحكومة هي الشر الأخف . ففي الانظمة البرلمانية تتألف الحكومات لتستقيل وتحل الازمات . ولكن الرئيس يجب ان يبقى . استقالة الحكومة ممارسة عادية وطبيعية لنزع الفتيل من وضع متفجر ، في حين ان استقالة الرئيس شيء خطير لانه يرمز الى استمرار الدولة بغض النظر عن كل ازمة . تبديل الحكومة شيء عادي ، وهو احياناً ضروري ، اما تغيير الرئيس فقفزة في المجهول .

ولاجتناب الادهى قام الرئيس بزيارة سوريا في ٣١ أيار ١٩٧٨ . فالتقى حافظ الأسد في مقره الصيفي في اللاذقية وانتهى الاجتماع في أول حزيران . وقد قرر الرئيسان ارسال الجيش اللبناني الى جنوب لبنان . وبقيت النقاط الاخرى كلها معلقة . وطالب الرئيس السوري بتسريح الضابطين سعد حداد وسامي الشدياق اللذين يتزعمان « جيش لبنان الحر » ، ويجاهران بتعاونهما مع اسرائيل . ونصح بالحكمة والتروي فيما يتعلق بضبط المنظمات الفلسطينية ، فقال الأسد : « ليس الوقت مؤاتياً للاصطدام بمنظمة التحرير الفلسطينية . فلا يجوز الابحار ضد التيار » . عاد الرئيس من زيارته لسوريا غير مرتاح ، وردد للذين اسرعوا لتنسم الاخبار قوله : « عملنا كل ما كان يمكن ان نعمله في الظروف الحاضرة » . بعبارة واضحة كان الاجتماع فاشلاً .

ولكن الاوضاع كانت تنذر بالانفجار على مستوى آخر وفي منطقة اخرى هي الشمال ، اذ راح اتباع سليمان فرنجية يمارسون الضغوطات والاعتداءات على كتائبيي الشمال . واغتالوا في ٧ حزيران ١٩٧٨ جود البايع ، رئيس اقليم زغرتا الكتائبي . وفي ١٣ حزيران ردّ الكتائبيون بقيادة سمير جعجع

بهجوم على بلدة اهدن . وفي أثناء هذا الهجوم قتل طوني فرنجية وعائلته وعدد من الأشخاص . فبلغ التوتر حده الأقصى بين الكتائبيين من جهة وجماعة فرنجية وسوريا من جهة أخرى . وسجلت هذه العملية بروز سمير جعجع كقائد عسكري ، وبشير الجميّل كقائد سياسي .

وتحدث امامي الياس سركيس في ١٦ حزيران عن الوضع فاشار الى انه بالغ الخطورة . وقال : « اذا بدأت دورة الاغتيالات السياسية فانها لا تنتهي . ولا يستطيع أحد ان يكون في مأمن منها . فكلنا في خطر . الحل المثالي هو اللجوء الى العدالة . ولكن المحاكم لا تستطيع ممارسة عملها في هذه الحوادث وفي هذه الظروف الاستثنائية . ومن غير المعقول ان يعيش لبنان وسيف داموكليس(*) معلّق فوق رأس كل واحد منا . الجرح عميق ، وقد تنشب حرب المائة سنة بين الموارنة . ولا أرى المصالحة محتملة على مدى منظور : لا اليوم ولا غداً . يجب أن نترك الوقت يخفّف تأثير الصدمة . وبانتظار ذلك ، كل ما نستطيع عمله هو أن نقدم للرئيس فرنجية تعويضات معنوية . يجب ان يشعر باننا الى جانبه في حزنه . وسأعمل كل ما في وسعي ، وبمختلف الوسائل ، لأُسهِّل المصالحة بين آل الجميّل وآل فرنجية . اني أفكر بالذهاب حتى الى الفاتيكان لأُوقف هذه الحرب بين الموارنة . سأطلب الى البابا أن يتدخّل شخصياً لتدارك كل تصعيد مأساوي . يجب أن نوقف مسلسل العنف . قد أدعو الى مؤتمر قمة يعقده الرؤساء الروحيون أو القيادات السياسية في البلاد لاجتناب تفكّك لبنان » .

الا ان سوريا سرعان ما تسلمت ادارة الامور . فقامت الوحدات الخاصة السورية ، انتقاماً لطوني فرنجية ، بخطف مدنيين مسيحيين في البقاع وقتلهم . اقترح رفعت الأسد ، شقيق الرئيس السوري ، ان يذهب رئيس الدولة الى زغرتا ويستقر فيها عند سليمان فرنجية الذي دعا بدوره الرئيس سركيس الى مغادرة بعبدا والاقامة في بيت الدين المقر الصيفي لرئاسة الجمهورية والذي يقع في منطقة الشوف التي يشرف عليها الجيش السوري . وتلاحقت الضغوطات من كل جانب لحمل الرئيس على التنكر للكتائب ، والموافقة على عملية عسكرية سورية ضد حزب بيار الجميّل .

لم يرتضِ الرئيس الانجرار الى هذه اللعبة ، وصدّ كل الحملات والتهديدات وقال أمامي : « الذين يطلبون اليّ ضرب الكتائب لا يدركون عمق المسألة اللبنانية . لا استطيع ان اصفي الكتائب لأني لا أريد ان اعمل ما يناقض اقتناعي . ان فكرة الاصطدام بالكتائب في حد ذاتها أرفضها ولا اسمح بها . ان تصفية الكتائب تعني اني اهدم بيدي توازن لبنان واخون التاريخ » .

* * *

(*) اشارة الى اسطورة يونانية مفادها أن الملك دنيس أراد أن يُفهم صديقه ومستشاره داموكليس أن السعادة في هذا العالم باطلة ومعرضة للخطر . فدعاه الى وليمة وعلق فوق رأسه سيفاً ثقيلاً مربوطاً بشعرة من ذيل حصان . فذهب ذكر هذا السيف مثلاً .

ضاق الرئيس ذرعا بالحوادث التي طغت عليه ، اذ تداخلت بوجهه ثلاث مشكلات متفجرة : اسرائيل ضد الفلسطينيين في الجنوب ، سوريا ضد الكتائبيين في بيروت ، والكتائبيون ضد فرنجية في الشمال . فعقد بين ١٢ و ٢١ تموز ١٩٧٨ سلسلة « اجتماعات تأمل وتبادل آراء » مع كبار مستشاريه : فؤاد بطرس ، جوني عبده ، أحمد الحاج ، سامي الخطيب ، فاروق أبي اللمع ، رينه معوض وميشال المرّ . ذكر خلالها ان سوريا تطالب بتسريح سعد حداد « لأنه بنظرها خائن » . واشار الى أنه « من السهل اطلاق كلام كهذا ، ولكن النتائج ستكون كارثة . اذا سُرح حداد اجتاحت اسرائيل الجنوب من جديد وأُعلنت دولة انفصالية هناك » .

واعرب الرئيس عن اعتقاده ان تسريح حداد سيواجه بتشنج وعنف من قبل الجبهة اللبنانية وسيؤدي في النهاية الى فقدان الجنوب . وابدى خشيته من ان مسألة الجنوب قد أصبحت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمسألة الشرق الأوسط . ولاحظ ان الأميركيين يلحون لأرسال الجيش اللبناني الى الجنوب ، ولكنهم لا يضغطون كفاية على اسرائيل لتُجبر حداد على الانسحاب من الجنوب أو على الأقل العودة الى ثكناته . وإرسال الجيش ، في مثل هذه الأحوال يعرّضه الى نشوب معركة بينه وبين حداد ، وبالتالي بينه وبين اسرائيل . واضاف بكل وعي : « حداد هو اسرائيل . لقد أصبح وحده أقوى من لبنان وسوريا مجتمعين ... » .

شارك جوني عبده الرئيس سركيس في الرأى ، وقرأ وثيقة اسرائيلية سرّية تؤكد أن اسرائيل ستتابع دفاعها عن المسيحيين في الجنوب حتى تقوم سلطة مسيحية قوية في بيروت . وتربط هذه الوثيقة ، من ناحية أُخرى ، حلّ مسألة الجنوب بحلّ ازمة الشرق الأوسط . وروى جوني عبده أنه في أثناء المفاوضات بين قوات الامم المتحدة في الجنوب واسرائيل ، قال الجنرال ارسكين ، قائد قوات الأمم المتحدة ، وهو غاني الجنسية ، لافيغدور بن غال ، قائد الجبهة الشمالية في اسرائيل : « ساعدني على الإسراع في تطبيق القرار ٤٢٥ الصادر عن مجلس الأمن الدولي ، لأني مستعجل في إنهاء مهمتي لأعود الى بلدي غانا » . فأجابه الضابط الاسرائيلي ضاحكاً : « في هذه الحال أخشى أن يشيب شعرك قبل أن تتمكن من العودة الى بلادك » .

خلال اجتماعات التقويم هذه ، ساءَل الرئيس نفسه عن نيّات اسرائيل الحقيقية . وأبدى اقتناعه بأن اسرائيل تسعى الى توطين الفلسطينيين في لبنان ، ولاسيا في الجنوب حيث تترك لهم « المدى الحيوي » الضروري لوجودهم . وأكد أن اسرائيل كانت قادرة على إبادة منظمة التحرير الفلسطينية كلياً في أثناء الاجتياح الذي قامت به في آذار . ولكنها لم تفعل قصداً ، فأبقت للفلسطينيين على جيب صور كميناء تموين ، وتقدمت في الجنوب تاركةً للفدائيين ممرّات مكّنتهم من الانسحاب . وجملة القول ان اسرائيل قدمت لياسر عرفات نصراً معنوياً أتاح له تحسين أوضاعه والمحافظة على ماء الوجه .

وفي سياق الحديث روى سامي الخطيب ان عبد الحليم خدام قال له : « انسوا جنوب لبنان موقتاً . اعتبروه محتلاً ، وانقذوا الباقي ، كما فعلنا نحن بشأن الجولان » .

عندها تطرق الرئيس الى العلاقة مع سوريا وموقف دمشق من الولايات المتحدة الاميركية . وأخبرنا ان الرئيس السوري أبدى تحفظات وشكوكاً تجاه واشنطن . ولكن الاميركيين يتخذون من سوريا موقفاً مختلفا كل الاختلاف ويتصرفون وكأنه يوجد اتفاق سري بين البلدين . فالادارة الاميركية تبدي اهتماما خاصا بسوريا ، وتدعم الدور السوري في لبنان ، وتعامل الرئيس الاسد بعناية وبطريقة متميزة ، وتأفف قائلاً : « انها طلاسم متعبة حقاً ، وكأن العلاقات السورية — الأميركية سر مغلق أو كلمات متقاطعة : سوريا تتصرف كما لوكان هناك نزاع حقيقي مع الولايات المتحدة ، بينما تعمل هذه كأن هناك مصالح مشتركة مع دمشق » .

ثم تساءَل سركيس اذا كانت سوريا تعرف تحديداً ماذا تريد ، ولاحظ : « دمشق تدوخني . تارة تؤيد الجبهة اللبنانية بلا تحفظ ، وطوراً تريد تحطيمها بلا رحمة . لا استطيع مماشاة سوريا في تقلباتها . انها تغيّر سرعتها وتوجهها بطريقة مذهلة » .

واستنتج الرئيس من كل هذه الجلسات الطويلة ان لبنان على ابواب انفجار كبير . وكان في غاية التشاؤم ، وقال لنا : « أحسبني فهمت من الرئيس الأسد أن مجال المناورة لديه قد ضاق في الوقت الحاضر . فهو لا يريد إحراج عرفات والضغط عليه بقوة لئلا يدفعه الى الارتماء في احضان السادات . وأنا من جهتي لا أستطيع إحراج الجبهة اللبنانية لئلا ترتمي بين ذراعي اسرائيل . وعملياً ، لم تعد قوات الردع العربية قادرة على ان تردع احداً ، لا الفلسطينيين ولا المسيحيين ، وبالتالي أمست الدولة اللبنانية بلا سلطة : الحكم عاجز تماماً ، والدولة بالاسم فقط » . وأضاف الياس سركيس : « ان توحيد لبنان ، كما كنت آمل به في بدء عهدي يبدو الآن مستحيلاً . التوحيد المطلق والكلّي خرافة ، لم أعد اعتقد بامكان تحقيقه . هذا لا يعني أني سأُعلن تقسيم لبنان ، وانكث القسم الدستوري . ولكن ما العمل؟ لم أنم أمس طوال الليل . حدّثت نفسي بأن عليّ أن أجد صيغة جديدة تكون في منتصف الطريق ، بين التقسيم الذي أرفضه ، والتوحيد الذي لا أتمكن من تحقيقه . يجب الاتجاه نحو نظام اللامركزية الموسّعة على كل الصعد . اني افكر بالمحافظة على تركيبة دولة واحدة تنتظم في داخلها وحدات طائفية لكل منها استقلالها الذاتي . هذا موضوع ميثاق وطني جديد » .

وذكر الرئيس انه التقى ، منذ ايام ، بولس نعمان ، هذا الراهب الماروني النشيط والملتزم بالمقاومة اللبنانية والذي سينتخب ، عام ١٩٨٠ ، رئيساً عاماً للرهبانية اللبنانية المارونية . وقد تميز دائماً

بمواقفه الصلبة والشجاعة والمستنيرة . وهو « صقر » على غرار بشير الجميّل . ولاحظ الياس سركيس ان اللقاء كان مفترضاً لخمس دقائق فقط فاستغرق ساعة كاملة . عرض رئيس الدولة أفكاره المتعلقة باللامركزية فساورت الدهشة بولس نعمان الذي علق قائلاً : « هذه المرة الأولى أسمعك فيها تتكلم هكذا عن اللامركزية . لم أكن أعتقد أنك تفكّر هذا التفكير ، فموقفنا لا يختلف كثيراً عن موقفك » . أجابه الرئيس : « إنك اكتشفت اليوم فكرة اللامركزية ، ولكن لا تنس أنها فكرة شهابية ما برحت أحتضنها منذ خمسة عشر عاماً » .

المهم في نظر الرئيس هو ان تستطيع البنى الجديدة للدولة ان تحافظ على المصير اللبناني . انه يعرف ان ضميره ومسؤوليته التاريخية كرئيس للجمهورية يحظران عليه تعريض مستقبل المسيحيين للخطر . وقد عبر عن هذا الشعور قائلاً لي : « لن اسمح ابدا بأن يقال يوما ما بأن نهاية المسيحيين بدأت في عهد الياس سركيس . الوقت يمر بدون ان يتحقق أي تقدم يذكر . اني غارق منذ عامين في حوادث هامشية حتى اني نسيت المسائل الاساسية في البلاد . وعلى هذا النمط سينتهي عهدي قبل ان تكون الازمة قد حلت . كنت اطمح بالامس الى حل المشكلة اللبنانية في ثلاثة اشهر ، وان اباشر الاصلاحات الضرورية للمستقبل . أما اليوم فيقتصر طموحي على أن أسلم لبنان الى خلفي كما تسلمته من سلفي » .

ابتداءً من الأول من تموز ١٩٧٨ ، استمر قصف قوات الردع على الاحياء المسيحية . فطالب كميل شمعون وبشير الجميّل برحيل القوات السورية . وتكررت نداءات العالم اجمع لوقف المعارك فوراً ، من البابا بولس السادس الى كورت فالدهايم ، أمين عام منظمة الامم المتحدة ، مرورا بالرئيس الاميركي كارتر . الكل يتحركون وبكل الاتجاهات .

صعد السفير البابوي الى بعبدا ليسأل الرئيس : « ماذا يستطيع البابا أن يعمل ؟ » . أجابه سركيس خائباً : « ليصلِ لأجلنا » . السفير الاميركي باركر نصح الجبهة اللبنانية بالاعتدال . وكان كميل شمعون يحمل الياس سركيس المسؤولية في كل ما يحدث . وبيار الجميّل يندد بالاتحاد السوفياتي داعياً الولايات المتحدة الاميركية للتدخل ، ويكرر رغبته في مصالحة الرئيس الأسد مشيراً الى وجود يسار سوري في دمشق يعمل على استمرار الفوضى . وعلّق الياس سركيس على موقف رئيس الكتائب قائلاً : « يحيرني بيار الجميّل . انه يخاطب الاميركيين كما لو كانوا مستعدين ان يخوضوا حرب فيتنام ثانية لأجل المسيحيين . ويخاطب حافظ الأسد كأن هذا مصمم على القيام بانقلاب لمصلحة الكتائب في سوريا » . اما الرئيس الجزائري هواري بو مدين فوجه رسالة صداقة الى سركيس الذي قال : « الجزائريون هم اكثر العرب جدية » .

في ٢ تموز تلفن رئيس الدولة اللبناني الى نظيره السوري وطلب إليه أن يوقف حالاً قصف الأحياء المدنية وقال : « لم أعد استطيع القبول بهذا القصف دقيقة واحدة بعد الآن » . على أثر هذه المخابرة أعلن الرئيس سركيس جهاراً أن الرئيس السوري أمر بوقف القصف . وللمرة الأولى يلقي مسؤولية ما يحدث على حافظ الأسد . وحتى ذلك الحين كان يغطي كل أعمال السوريين ، متصرفاً كما لوكانت امرة قوات الردع تعود له شخصياً . بعدها طلب الى فؤاد بطرس ان يذهب الى العاصمة السورية ، وأوصاه بأن يكون واضحاً وأن يسمي الاشياء بأسمائها ، وكلّفه نقل مآخذ السلطة اللبنانية على السياسة السورية . قال له : « إن سوريا لا تفهم لبنان . والسوريون لا يفهمون السياسة اللبنانية حتى لو أقاموا فيه مائة سنة . يريدون تطبيق اساليبهم عندنا . يعتقدون أن على الرئيس اللبناني ان يحكم لبنان كما يحكم الرئيس السوري سوريا . هذا غير منطقي . فلبنان ليس سوريا ، والنظام اللبناني يختلف اختلافاً عميقاً عن النظام السوري . هناك التباس يجب تبديده وإلاّ تفاقم الخلاف بيننا . إننا نعيش الآن ، في نزاع حقيقي مع سوريا . إذا كانت دمشق لا تريد الاستمرار في التعاون معي ، فأنا مصمم على الاستقالة . هذه هي الرسالة التي أريد أن تحملها الى العاصمة السورية » .

حمل فؤاد بطرس رسالة الرئيس سركيس الى دمشق في ٥ تموز ، فكان عبد الحليم خدام جازماً إذْ قال : « لا يجوز مطلقاً ان نترك الرئيس سركيس يستقيل . فمجرّد إثارة فرضية من هذا النوع يساهم في إضعاف السلطة اللبنانية » .

أما الرئيس الأسد فكان موقفه مختلفاً ، فقال مخاطباً الوزير اللبناني : « الاستقالة مجازفة محفوفة بالأخطار ، لا أظن الرئيس سركيس يقدم عليها ، ولن ينفّذ تهديده . اني أعرفه رجلاً منطقياً ومسؤولاً . وعلى كل حال لن تنفع استقالته في شيء ، بل تفتح الطريق للمغامرة . وأنا أعلم عن كثب أن الرئيس ليس مغامراً » .

لم يتمكن فؤاد بطرس من ازالة سوء التفاهم السائد بين الحكمين اللبناني والسوري ولا من اقناع دمشق بتعديل موقفها ووقف القصف الدامي . لذا عاد باقتراح واحد ، وهو ان يقدم رئيس الجمهورية استقالته .

٣ ـ إستقالة عابرة

صباح ٦ تموز ١٩٧٨ ، أوحى الرئيس بأنه مستقيل . الغى مواعيده . لزم جناحه الخاص في القصر الجمهوري فما نزل الى مكتبه الرئاسي في الطبقة الأولى . وتوالت التدخلات من كل نوع ، اللبنانية منها والاجنبية ، لحمله على العودة عن استقالته .

تلفن له كميل شمعون ليقول معتذراً انه لا يستطيع المجيء لمقابلته في قصر بعبدا : « ان القوات السورية تدمّر الاشرفية كلها ، وتستعمل الاسلحة الثقيلة الاشد فتكا . سأزورك عندما يزول آخر حاجز سوري في الطريق المؤدية الى قصر بعبدا » . لم يتوقف بيار الجميّل عند هذه الاعتبارات بل التقى الرئيس في بعبدا وقال له : « استقالتك كارثة » . وحاول أن يثنيه عن المضي فيها .

توالت ردات الفعل الخارجية ، اطلق جيمي كارتر نداء لوقف القتال فوراً ، وطلب الى مجلس الأمن الدولي أن يضع يده على المسألة اللبنانية . ولكن الحكومة اللبنانية رفضت ، تحت الضغط السوري ، الطلب الأميركي . وأعرب السفيران الأميركيان في دمشق وبيروت للمسؤولين السوريين واللبنانيين عن قلقهما وتخوفهما من « مفاجأة » اسرائيلية ممكنة . فرئيس الحكومة الاسرائيلية ، بحسب معلومات وزارة الخارجية الأميركية ، حانق غاية الحنق ، وهو يؤكد لمن يريد ان يسمعه أنه « لن يقف مكتوف اليدين حيال إبادة المسيحيين » . حتى وزير الدفاع الاسرائيلي ، عازر وايزمن ، المعروف بمعارضة التدخل في لبنان ، ظهر في نظر الاميركيين فارغ الصبر ، واعلن ان اسرائيل لا تستطيع ان تبقى بدون ان تعمل شيئاً . فالرأى العام الاسرائيلي متأثر بالشأن اللبناني والاحزاب مجمعة على تأييد كل تدخل عسكري في لبنان .

ورجح الديبلوماسيون الاميركيون امكانية حدوث التدخل الاسرائيلي ، اذا تابعت القوات السورية هجومها على الميليشيات المسيحية ، واذا اصر الرئيس سركيس على استقالته . لذا جدد السفير باركر دعم الولايات المتحدة لسركيس وتوسل اليه ان يعود عن استقالته ، وقال له : « مطلوب منك شيء واحد ان تبقى في منصبك . ابق وراء مكتبك ونحن نتكفل بايجاد الحل . اننا مستعدون ان نعمل كل ما تطلب ، وان نساندك بلا تحفظ . ان وجودك ضمانة للجميع ، وذهابك يعني دخول لبنان في المجهول واقتراب الشرق الاوسط من شفير الحرب » . كما مارست الولايات المتحدة ضغطاً مزدوجا : على اسرائيل لتوقف مساعدتها للمسيحيين وعلى سوريا لتوقف هجومها عليهم .

وتحركت أوروبا أيضاً ، فاحتجت باريس على قصف المدنيين اللبنانيين ومستشفى اوتيل ديو الفرنسي من جانب السوريين . وطلبت الحكومة الفرنسية الى اسرائيل أن تقلع عن التلاعب بالطوائف المسيحية في لبنان . ونصح سفير بريطانيا ، بيتر ويكفلد ، الرئيس سركيس بالقاء خطاب صريح ، وبأن يسمّي الأشياء بأسمائها ، وقال له : « إفعل ذلك لأنه لم يبق لك ما تخسره ، فيما كثيرون آخرون لهم مصلحة في أن تبقى الأشياء مخفية » .

وفيما كانت الاصوات ترتفع من كل جانب مطالبة الرئيس سركيس بالعودة عن استقالته ، لزم الاتحاد السوفياتي الصمت . فقابل ميشال اده السفير السوفياتي في لبنان ، الكسندر سولداتوف ، وسأله لماذا لا يذهب الى قصر الرئاسة اسوة بسفراء الدول العظمى كلهم . فتذرع الديبلوماسي السوفياتي بأن طريق القصر غير آمنة . اقترح عليه ميشال اده ان يتلفن للرئيس سركيس ، فأجاب سولداتوف : « خطوط الهاتف في القصر معطلة » . والحقيقة ان الاتحاد السوفياتي لا يريد القيام بأي عمل يمكن تفسيره بأنه مساندة لسركيس ضد دمشق . ان التأييد السوفياتي لسوريا تام لا يحتاج الى برهان .

وصل وزير خارجية الكويت صباح الاحمد الصباح الى بيروت في ٩ تموز ، حاملاً رسالة مودة الى الرئيس سركيس من أمير الكويت الذي أكد ، في المناسبة نفسها ، تأييده لدمشق وقال : « اننا لا نقبل بهزيمة جيش الجولان في الاشرفية ، وليس في وسع الجيش السوري الا ان يرد على الذين يعتدون عليه ، انه قوة ردع حقيقية . لقد اصطدم بالفلسطينيين لما ارتكبوا تجاوزات عام ١٩٧٦ ، وهو يواجه الآن المسيحيين المتحاملين على الشرعية والمتعاملين مع اسرائيل . ونحن في الكويت ندين كل تعامل بين أية فئة لبنانية واسرائيل » . وبعد ان تبنى الوزير الكويتي موقف دمشق ، لم يتردد في حث سركيس بصورة غير مباشرة على ان يعلن شكواه من الموقف السوري ، وختم حديثه قائلاً : « لا نعرف بالضبط من جهتنا ، ما ينتظره لبنان منا . هل طلبتم الى سوريا شيئا ورفضته ؟ هل انتم في حالة نزاع مع دمشق ؟ وما هي النقاط التي تعارضون فيها سوريا ؟ اننا مستعدون للدعوة الى قمة عربية اذا شئتم » .

امام هذا الموقف الملتبس تجنب الرئيس ان يشكو سوريا ، ورد على هذا الطرح محملاً الكويت مسؤولية الوضع الحاضر ، لأنها جمدت دمشق لما ارادت تطبيق اتفاقية القاهرة . فبدل الدعوة الى قمة ثانية تجب المساعدة على تطبيق مقررات القمة الاولى .

زار وزير الخارجية السعودي ، سعود الفيصل ، في ١٠ تموز ، دمشق ، وابلغ حافظ الأسد رسالة بشأن الوضع في لبنان ، الا انه لم يتابع طريقه ليصل بيروت . فاغتاظ الرئيس سركيس واظهر عتبه على القادة السعوديين . وذكر انه اوفد اليهم مرتين رئيس الحكومة فوزير الخارجية . وهو يستقبل شخصيا سفيرهم اكثر مما يستقبل أي سفير آخر ، ما عدا سفير الولايات المتحدة الاميركية . وفي مقابل

ذلك يصل وزير خارجيتهم الى دمشق « ولا يكلف نفسه عناء قطع مسافة مائة كيلومتر اضافية » للاستعلام عن الوضع اللبناني ! وأضاف الرئيس : « السعودية خيبت أملي » .

وتحركت دمشق ولكن لرفع العتب . فعبد الحليم خدام متأكد ان الرئيس اللبناني سيعود عن استقالته التي تبدو له « عديمة الفائدة ومجانية » ، ان على الصعيد الشخصي أو على الصعيد الوطني . ويجزم أن هذه الاستقالة لن تحمل سوريا على الانسحاب تحت ضغط عسكري تمارسه الكتائب وحزب الوطنيين الاحرار . وهدد باحتمال قيام الجيش السوري بضرب ميليشيات الجبهة اللبنانية التي لا تعبر عن رأي كل مسيحيي لبنان . وذكر ان مسيحيي البقاع والشمال هم ضد الجبهة اللبنانية التي لا تمثل ، في نظره ، سوى « عشرين بالمئة » من المسيحيين . واضاف خدام في حديث خاص معي : « لا نترك شيئاً للصدفة . لقد حسبنا حساب كل شيء ، بما فيه احتمال هجوم اسرائيل علينا . وقد حذرتنا الولايات المتحدة الاميركية من هكذا هجوم ، وأبدت رغبتها باللجوء الى مجلس الامن الدولي لطرح الازمة اللبنانية عليه . لكن رئيسنا رفض هذه الاقتراحات ، وافهم الاميركيين انه في حال اضطر الجيش السوري الى الانسحاب فالنزاع المسلح سينفجر مجدداً في لبنان والحرب ستنشب في المنطقة » .

وتراءت لي سياسة سوريا تجاه الولايات المتحدة الاميركية بوضوح كلي : اما ان يبقى الجيش السوري في لبنان واما ان يفقد لبنان استقراره . وعلى الولايات المتحدة ان تضبط اسرائيل والا اندلعت الحرب في الشرق الاوسط وهزت مواقع الدول العربية المعتدلة والموالية للغرب . ببراعة كلية تطرح سوريا نفسها كخصم للأميركيين وفي الوقت ذاته كأهون الشرور .

من ٦ الى ١٠ تموز ، بقي الرئيس مصراً على استقالته . وقد شرح موقفه هذا قائلاً : « إني أستقيل احتجاجاً على القصف العشوائي الذي يصبّه الجيش السوري على المدنيين والأبرياء بدون أية فائدة . بل أكثر من ذلك ، فالميليشيات المسيحية تعتبر الآن أنها انتصرت عسكرياً لأن القوات السورية لم تستطع التقدم إلى داخل الأشرفية . وفي اعتقادي أن الجيش السوري لن يستطيع احتلال الاشرفية حتى لو اراد ذلك . ان هدفاً كهذا باهظ الثمن . وإذا افترضنا أن الجيش السوري استطاع ان يدفع ثمن الاشرفية الباهظ ، فإن الكتائبيين سيعمدون الى حرب العصابات ويستمرون بمناوشة قوات دمشق بلا توقف . في نظري لن تستطيع سوريا فرض حلّ عسكري على المسيحيين . والحل العسكري غير أكيد بقدر ما هو خطر ، لأن اسرائيل لن تلبث حتى تتدخّل بذريعة الدفاع عن المسيحيين . فالحلّ لا يمكن أن يكون إلاّ سياسياً . يجب ان ينسحب الجيش السوري من الاشرفية ، وأن تحل محله قوة لبنانية أو عربية . والغاية من استقالتي هي الحؤول دون مغامرة عسكرية مجنونة » .

أورد الرئيس سبباً ذاتياً للاستقالة . وأقرّ بأنه يعيش في أزمة وجدانية حادة ، وأنه لا يتحمل

« رؤية النيران تشتعل ويستمر في منصبه بكل هدوء » . هذه مسألة طبع ومزاج . فهو ليس مقاتلاً ، ولا مدعواً ليكون مقاتلاً . ومع أنه رئيس مسيحي فانه لا يدعي تمثيل المسيحيين . ويضيف الرئيس : « في الواقع ، ممثل المسيحيين الحقيقي هو بشير الجميل أكثر من أي شخص سواه » . وتنمّ ملاحظات الياس سركيس هذه عن تحفظه وفي الوقت ذاته عن احترامه للعائلات المارونية الكبيرة التي لا ينتمي الى احداها وللمقاتلين الذين لم يحمل السلاح مثلهم .

صمم الرئيس قبل تركه سدة الحكم تكليف بيار الجميّل ان يتولى رئاسة حكومة موقتة . وفي ليل ٨ تموز كتب نص استقالته بخطه ولكنه لم ينشرها ، وكانت موجهة الى رئيس مجلس النواب حسب الدستور اللبناني ، وفي ما يلي نصها :

« دولة رئيس مجلس النواب المحترم ،

« الظرف الحاسم يتطلب مواقف حاسمة . ولقد بلغ تدهور الحالة الأمنية في البلاد درجة اصبح معها الظرف الذي تعانيه مصيرياً حاسماً ، لا بالنسبة لنا وحسب ، بل بالنسبة لسائر المنطقة ، وهو يقضي بوضع الجميع أمام مسؤولياتهم التاريخية .

« لقد استلمت الحكم في ظروف مستحيلة ، أملاً مني بانقاذ وضع يائس ، معتمداً على ما يملكه لبنان من رصيد عربي وعالمي ، وعلى شعور عام بوجوب الخروج من الأزمة — المأساة التي أوصلتنا الى شفير الهاوية وكادت أن تقوّض كياننا .

« وعلى هذا الأساس توجهت الى مؤتمر الرياض ، ومن بعده الى مؤتمر القاهرة حيث عرضت بصراحة اخوية تفاصيل الوضع والخطة التي من شأنها ان تخرجنا منه ، وفي أساسها جمع السلاح حيثما وُجد في لبنان لقطع الطريق على كل إمكانية لاصطدام جديد .

« غير ان المفارقات العربية ما لبثت أن ظهرت مجدداً على الساحة اللبنانية ، ولم يمض على البدء بتنفيذ الخطة الموضوعة سوى ثلاثة أشهر فقط ، فحالت هذه المفارقات دون تنفيذ القرارات العربية ، مما جعل الاصطدامات الدامية تعود الى بلدنا بصورة دوريّة ومتكاثفة بحيث شلّت أجهزة الدولة وأصبح الحكم متعذراً .

« أمام ضميري وشعوراً مني بالواجب تجاه وطني ، وتحسّساً بالمسؤولية تجاهكم جميعاً ، أجدني مضطراً الى ترك سدّة الحكم .

« وقبل تركي سدّة الحكم ، أتوجّه بنداء ملحّ من أجل وقف اطلاق النار ، ليعود الى البلاد جو الهدوء الذي يسمح بمعالجة المشكلات الراهنة والمصائب القائمة .

« وإذْ أتخلّى عن مسؤوليات الحكم ، لا أتخلّى عن مسؤولياتي تجاه بلادي . وإني لمستمرّ في خدمة لبنان ، واضعاً كل ما أملك وحياتي بالذات في تصرف هذا الوطن الحبيب سائلاً الله القدير أن يحفظه ويرعاه » . التوقيع : الياس سركيس

* * *

في ١١ تموز، وبعد ثلاثة أيام من كتابته الاستقالة بخط يده قرر الرئيس العودة عن هذه الاستقالة . اطلع على قراره مجموعة واسعة من مستشاريه بينهم فؤاد بطرس ، وميشال المر ، وسمعان الدويهي ، وأحمد الحاج ، وجوني عبده وغابي لحود وأنا . فشجعه فؤاد بطرس على الاستمرار في الاستقالة ، وقال له : « ليس من مصلحتك أن تبقى في منصبك . لم تعد قادراً جسدياً على تحمل مشقات السلطة » . وأوعز أحمد الحاج الى الرئيس بالعودة عن استقالته ولكن بشروط وقال له : « يجب أن تبقى بشرط أن يُطلق الجميع يدك في تطبيق سياستك » . ودافع ميشال المر وجوني عبده عن فكرة العودة عن الاستقالة ، بدون قيد أو شرط ، وقالا : « الاستقالة عمل لا معنى له . لا بد من العودة عنها بلا شروط . كل عودة مشروطة ضعف . لا يجوز إعطاء انطباع بأن عهدك موقت أو خاضع لإرادات غير إرادتك أنت » .

وبدا الرئيس ميالاً الى وجهة النظر الأخيرة ، ولكنه كان يتمنى اطلاق يده كما قال أحمد الحاج . وشرح ما يجول في خاطره طوال ساعتين واستعرض الاحداث منذ تسلمه سدة رئاسة الجمهورية ودعوته الى حل تبناه العرب واللبنانيون يقضي بتطبيق اتفاقية القاهرة وجمع السلاح . وسرعان ما تبين ان جمع الأسلحة لا يمكن أن يتم بالطرق السياسية وحدها . فأصدر عندئذ ، بالاتفاق مع الأسد ، أوامر خطية لجمع السلاح الفلسطيني تمهيداً لجمع أسلحة كل اللبنانيين . ولكن ، في أوائل العام ١٩٧٧ ، مانعت مصر والسعودية والكويت بصفتها اعضاء في اللجنة الرباعية في تطبيق اتفاقية القاهرة وحالت دون جمع الاسلحة من قبل سوريا . وأكمل الرئيس عرضه قائلاً : « فكرت عندئذ بالاستقالة ، ولكني رأيت الحياة تستعيد مسيرتها الطبيعية ، ولبنان يلملم انقاض خرابه ، فاردت تمديد حقبة الأمل الى أبعد مدى ممكن . وقررت أن انتظر وكان من حقي وبمقدوري أن أنتظر أياماً أفضل . وأدركت أن كل ما أستطيع عمله هو ادارة الأزمة من غير أن أجد لها حلاً » . وأعاد الى الأذهان معادلتيه السياسيتين : جمع السلاح من الفلسطينيين قبل جمعه من المسيحيين والحكم بالتفاهم مع الجبهة اللبنانية ودمشق . وقال : « لا أستطيع أن أكتفي بسليمان فرنجية وأعتبره يمثل وحده المسيحيين ، كما يدعي عبد الحليم خدام . فلا تمثيل حقيقي للمسيحيين بدون الكتائب ، وبمعزل عن بشير الجميل » .

ثم عدد الرئيس مجموعة من الاعمال يرى من الملح انجازها بعد العودة عن استقالته . فاعتبر انه من الضروري جداً سحب الجيش السوري من الاشرفية ، وادخال الجيش اللبناني الى الجنوب ، واقفال الاذاعات الخاصة ، وفرض الرقابة عملياً على الصحافة والدعوة الى قمة عربية جديدة .

بعد الاستفاضة في شرح أسباب الاستقالة والعودة عنها ، أكب الرئيس فوراً على كتابة الخطاب الذي سيلقيه بعد أربعة أيام ، في ١٥ تموز . وأوفد سراً ، في اليوم السابق لإلقاء هذا

الخطاب ، سامي الخطيب الى دمشق ، ليُطلع المسؤولين السوريين على قراره بشأن الاستقالة ، وعلى مقترحاته . فلم يفاجىء هذا الخبر عبد الحليم خدام الذي قال للخطيب : « كنا نتوقع هذا القرار الحكيم من جانب الرئيس ، وإننا نهنىء نفوسنا ونؤكد للرئيس ، في هذه المناسبة ، عزمنا على تسهيل مهمته . ولكن اذا طلبت السلطات اللبنانية الى الجيش السوري الانسحاب من الأشرفية ، فانه سينسحب من كل لبنان ، ويترك البلاد كما وجدها لدى دخوله إليها ، في غمرة من الفوضى الشاملة » .

وشرح سامي الخطيب معنى الموقف السوري بانه ليس لدى القيادة السورية رجل بديل عن الرئيس سركيس . لكنه شعر بان العسكريين ، وفي طليعتهم حكمت الشهابي ، ما زالوا يعدون ضربة حاسمة للميليشيات . وهم يتابعون المطالبة أما بحل الميليشيات المسيحية ، أو بتأليف حكومة لا تشترك الجبهة اللبنانية فيها .

استُقبل خطاب الرئيس سركيس الذي اعلن فيه استمراره في رئاسة البلاد استقبالاً فاتراً . ما كان يتمنّى احد ذهابه فجأة ، ولكن احداً لم يبتهج حقاً ببقائه في منصبه . وكان يعلم أن دائرة اللامبالاة اخذت تتسع حياله . واخذ هو بدوره يتظاهر بلا مبالاة متزايدة نحو الناس والاشياء . ومما قاله لي ، بعد يومين من اعلان عودته عن الاستقالة : « اعرف حق المعرفة أن الجميع غير راضين . هذا شأنهم . فالجبهة اللبنانية تلومني على أني أُوفر تغطية شرعية لما تسميّه العدوان السوري . والسوريون غير راضين لأني أريد أن ينسحبوا من الأشرفية . والفلسطينيون يعتقدون اني اتهجم عليهم بلا حق . والزعماء المسلمون يأخذون عليّ ربط تجريد المسيحيين من السلاح بتجريد الفلسطينيين . لست منحازاً الى هؤلاء ولا إلى أولئك . لا أحد من المتنازعين معي وكلهم ضدي . وأنا أُهنّىء نفسي بذلك . هذا دليل اني على الطريق السويّ . وعلى الرغم من الانتقادات الصادرة عن كميل شمعون وبشير الجميل ، لن أغيّر أسلوبي » . وتوقف الرئيس هنيهة قبل أن يخاطبني متنهداً : « أريد أن أكشف لك واقعة خصوصية . لقد قررت العودة عن استقالتي عندما سمعت كميل شمعون يتهمي باني « نصف لبناني » فعزمت على أن أبقى رئيس كل اللبنانيين . هذا مؤسف . وفي نهاية الأمر لا ادري هل من الأفضل المبادرة أو عدم الاقدام . لا شيء يؤثر بي . غدوت عديم الحسّ » .

في مساء يوم ١٧ تموز ١٩٧٨ ، تطرق الياس سركيس الى المسائل الاقتصادية فقال : « إننا ذاهبون الى الإفلاس ، إن لم تصل المساعدات العربية في الوقت المناسب . الخيار صعب وقاسٍ : فإما أن يتوقف الصناعيون عن دفع ديونهم ، وفي هذه الحال تفلس المصارف ، وإما أن تستعيد المصارف ما قدمت من تسليفات وقروض ، وعندئذٍ يفلس الصناعيون . إنها الكارثة في كلا الحالين . لا أدري هل يدرك الزعماء السياسيون خطورة الأزمة الاقتصادية . إذا استمرّ فقدان الأمن والاستقرار أصبحت المسألة الاقتصادية غير قابلة للحل . وحتى لو استطعنا فيما بعد تجاوز الأزمة السياسية ، فإننا سنصطدم

بمأزق اقتصادي . إن لبنان على طريق الافلاس الاقتصادي والانفجار الاجتماعي . يجب حمل بيار الجميّل على التحسس بهذا الأمر . هو وحده قادر على وضع حدّ للمواجهة بين الميليشيات والقوات السورية ، وبذلك يوقف تدهور الوضع الاقتصادي » .

وبالفعل ، التقى الرئيس سركيس رئيس الكتائب بعد يومين ، في ١٩ تموز ، وقال له دون مقدمات : « يا شيخ بيار ، إنك تتحمّل شخصياً مسؤولية خاصّة . إذا كان هناك حلّ فانت القادر عليه ، وإذا وقعت الكارثة فانت الذي تتحمّل نتائجها أكثر من غيرك . إن لبنان يقترب من انهيار كالذي حدث عام ١٩٢٩ في الولايات المتحدة . فمنذ ثلاث سنوات ما زلنا نحث ارباب العمل على دفع معاشات العمال فيما الانتاج مشلول بسبب فقدان الأمن . فكم من الوقت يستطيع ان يتحمل اصحاب الاعمال هذه الحالة ؟ سينتهي بهم الأمر الى صرف عمالهم فترى نفسك تواجه عبء ألوف العاطلين عن العمل . لقد أوعزنا الى المصارف بتمويل المشاريع الصناعية ، ولكن المصارف والصناعيين بلغوا حدود اليأس بسبب الاحتكاكات الدائمة بين الميليشيات والجيش السوري . هناك مصانع دُمّرت كلياً مرتين في غضون سنتين . والخسائر الحاليّة في العام ١٩٧٨ أضيفت الى الخسائر القديمة في العام ١٩٧٦ والتي لم تُعوَّض بعد . والصناعيون الذين وظّفوا رؤوس أموال جديدة يرتعدون خوفاً من أن تدمّر مصانعهم من جديد ، ومن أن تُحرق وتُنهب . إن القطاع الخاص ، وهو العمود الفقري لاقتصادنا ، على عتبة الانهيار . فمصرف لبنان لا يستطيع متابعة إصدار النقد كأنه مطبعة ، بدون أن تكون لديه تغطية . التضخّم المالي يتصاعد تصاعداً مذهلاً ، ومستوى الحياة العامة يهبط . وقد فقد رأس المال ثقته بنا . يجب أن يكون المرء مجنوناً ليوظّف بعد اليوم ، ليرة لبنانية واحدة في لبنان » .

ولم يكتف الرئيس بهذا القدر من البحث مع بيار الجميّل بل دعاه الى التنبه الى اعمال الميليشيات ، وقال له : « ما معنى ان نرفع علماً كتائبيا وصورة بشير الجميّل على حاجز اخلاه السوريون تلقائيا ؟ ان الميليشيات تتصرف كما لو انها هزمت القوات السورية وهذا ليس الواقع . ان التحديات المستمرة التي توجهها الميليشيات الى جيش الاسد هي تحديات مجانية وعديمة الفائدة . اما كميل شمعون فيرتكب خطأ فادحاً . فاذا ما استمر في لعب دور البطل المضاد لسوريا فهذا سيؤدي الى تطويل مدة بقاء السوريين في لبنان » .

وأخيراً كاشف الياس سركيس رئيس الكتائب بالعداء المتزايد الذي يبديه الكتائبيون تجاهه وتجاه رئاسة الجمهورية ، وقال محتداً : « باطلاقهم خمس قذائف على القصر الجمهوري لم يرتكب رجالك اعتداء عليّ بل خطيئة بحق لبنان » . فأجابه بيار الجميّل دون تردد : « ليس كتائبياً كل من يطلق النار على القصر الجمهوري » . خرج الرئيس من هذا الاجتماع متعباً ومتألماً . واعترف لي بأنه يخال نفسه رجلاً بلا مبادرات « ورهينة الجميع وسجينهم بدون أي قدرة على التأثير بمجرى الأحداث » .

والحقيقة ان استقالة الرئيس ثم قراره بالعودة عنها لم يغيرا شيئاً في مجرى الاحداث . وبقيت كل الوعود السياسية بلا نتيجة ، وعلى الاخص الوعود الاميركية . وبعد حصوله على موافقة الولايات المتحدة الأميركية الصريحة أرسل الرئيس ، في ٣١ تموز ١٩٧٨ ، كتيبة من الجيش اللبناني الى الجنوب . فأوقفتها ميليشيات سعد حداد في كوكبا . وقد أضافت هذه الحادثة برهاناً جديداً الى مدى غموض السياسة الأميركية وارتباكها .

في ٧ آب ، اعلم السفير الاميركي باركر الحكومة اللبنانية بالاخفاق النهائي لكل المحاولات التي جرت لدى اسرائيل لحملها على قبول نشر الجيش اللبناني في الجنوب . واحس الياس سركيس انه امام الباب المسدود . فالجيش لا يستطيع ان يتراجع ، ولا ان يتقدم . دمشق تقترح عليه ارسال تعزيزات جديدة واستعمال القوة ، في حين ان الولايات المتحدة « تحذره » من اللجوء الى أية خطوة من هذا النوع لانها ستؤدي ، حسب واشنطن ، الى « كارثة على الجنوب وعلى سوريا » .

واعتذر منه السفير الأميركي لأنه لم يعد قادراً على عمل شيء ، على الرغم من أن ارسال الجيش اللبناني قد تمَّ بناء على نصائحه وبرعايته . وقد قدم باركر استقالته من منصبه لأنه لم يحصل على أي تفسير مقنع لعجز ادارته المزعوم عن التأثير على رجل كسعد حداد . ووصف الرئيس معاناة السفير الأميركي بقوله : « لقد أدرك باركر أن رؤساءه سخروا به ، لكنه نفّذ بكل دقة ما تلقى من أوامر وأوامر مضادة بالرغم عنه . إنه شريف وإنساني ورجل يحترم نفسه ويتمتع بشعور مرهف بالكرامة الشخصية » .

وما لبث الرئيس ان تخطى مشكلة كوكبا وأقر بان لبنانه قد مات واعترف بشجاعة متناهية ان مشروعه السياسي قد فشل ، وقال : « انا اعترف بصوت مرتفع بأني فشلت ، نعم فشلت . لم يقبل أحد بأن يقدم لي أقلّ مساعدة . الولايات المتحدة التي وعدتني بكل شيء لم تعمل شيئاً . إني مقتنع في أعماقي بأن كل جهودنا باطلة ، وبأن الاوضاع ستنفجر من جديد . ربما كان هذا البلد يحتاج الى رئيس غيري ، رئيس يجازف ، رئيس يعرف كيف يحل العقدة اللبنانية ، فيختار بين أن يحالف سوريا ويواجه الجبهة اللبنانية ، أو يتحالف مع الجبهة ويطرد الجيش السوري . أنا شخصياً لا أقدر أن أفعل هذا ولا ذاك . ربما يحتاج الوضع الى رئيس عسكري أو مغامر ! » .

٤ ـ هدنة قصيرة

بدا الوضع وكأنه محمّد . خيّبت الولايات المتحدة أمل الرئيس سركيس . وأفقدته قوات الأمم المتحدة صوابه . فأميركا لم تتمكن من تهدئة بيروت . وقوات الأمم المتحدة عجزت عن الانتشار . أما اسرائيل فتسيطر على جنوب لبنان . فيما تشرف سوريا على البقية الباقية من البلاد .

في ١٠ آب ١٩٧٨ ، نقل جوني عبده الى الرئيس بحضور أحمد الحاج وكابي لحود وأنا ، ان هيئة أركان قوات الامم المتحدة بكامل عددها جاءت تعتذر من الجيش اللبناني عن اخفاقها المفضوح في جنوب لبنان . وقد روى هؤلاء خلاصة محادثاتهم مع قادة اسرائيل العسكريين ، وشهدوا إن الاسرائيليين متصلبون الى أقصى حدّ . فرفائيل إيتان ، رئيس اركان الجيش الاسرائيلي ، عرض عليهم نظرية مدهشة مفادها ان اسرائيل لا تستطيع التأثير على سعد حداد الا في حال تطابق وجهات نظرها مع الولايات المتحدة الأميركية . وجاهر القائد الاسرائيلي بأنه كلما ضغطت واشنطن على تل أبيب تضاءل ضغط الدولة العبرية على سعد حداد . بكلمة أوضح يرفض إيتان الضغط الأميركي ويهدد بتحريك سعد حداد في كل مرة يحشره فيها الأميركيون .

واضاف رئيس المخابرات اللبنانية ان قيادة قوات الامم المتحدة العاملة في الجنوب اضحت مقتنعة تماماً بأن الجنرال ايتان يعارض انتشار الجيش اللبناني في الجنوب لسببين : من جهة لأن الكتيبة المرسلة مؤلفة من أكثرية شيعيّة ، أي منحازة الى سوريا بحسب رأيه ، ومن جهة أخرى لأن اسرائيل لا تستطيع التخلي عن سعد حداد . وكان ايتان في غاية الصراحة عندما قال لمسؤولي الامم المتحدة : « اذا تخلينا عن سعد حداد لما قبل أحد بعد اليوم إن في لبنان أو في الشرق الاوسط أن يحالفنا » . ولاحظ جوني عبده « ان اسرائيل لن تتخلى عن الحزام الامني في الجنوب . لان دولة سعد حداد تشكل بالنسبة لها أفضل وسيلة لتهديد استقرار لبنان وسوريا معاً » .

وأورد لنا جوني عبده أربعة شروط سرية وضعتها اسرائيل لكي تسمح بانتشار الجيش اللبناني في منطقة الحدود :

١ ــ ان يعيّن سعد حداد قائداً عسكرياً للقطاع الشرقي في الجنوب . ولا تقبل بأي قائد سواه في المنطقة المسيحية من الجنوب .

٢ — ان يخضع الجيش الذي سيدخل الى تبنين عبر مرجعيون لعملية تدقيق بالهويات ، ويحتفظ سعد حداد بصلاحية رفض دخول بعض العناصر المشبوهة بنظره .

٣ — ان لا تجهز الوحدة من الجيش اللبناني الداخلة الى الجنوب بالاسلحة الثقيلة ولا بالمدرعات ولا بالمدفعية . ويقتصر تسليحها على السلاح الفردي .

٤ — ان تدخل الكتيبة اللبنانية مرة واحدة عبر مرجعيون . وبالتالي لا تعتمد طريق مرجعيون خطاً تموينياً أو ممراً لوجستياً .

وختم عبده تقريره مشيراً الى ان قوات الامم المتحدة تفتقر الى معرفة الوضع السياسي . واخبرنا ان رئيس اركان قوات الامم المتحدة ، الجنرال الفرنسي كوك ، اقترح عقد اجتماع بين منير طربيه ورفائيل ايتان ، رئيسي الاركان اللبناني والاسرائيلي . طبعاً وافقت اسرائيل على الفور ، ورفض لبنان هذا الاقتراح بلا تردد . وكان الجنرال الفرنسي يظن انه يحسن التصرف ويحشر اسرائيل ولكنه حشر لبنان . وقد شرح عبده لكوك ان اجتماعاً كهذا من شأنه ان يفسر بانه «كمب دافيد لبناني» . فبدت على القائد الفرنسي الدهشة ، واعتذر .

في ضوء هذه المعلومات طلب الرئيس من فؤاد بطرس مراجعة الولايات المتحدة علّها تحاول ايجاد مخرج من مأزق الجنوب . فكان الجواب سلبياً مرة اخرى . وقد أطلع السفير الاميركي ، في ١٤ آب ، وزير الخارجية اللبناني على نتائج المحادثات التي جرت بين الملحق العسكري الاميركي في تل أبيب وهيئة الاركان الاسرائيلية ، ولاسيما مع رفائيل ايتان . وقد اقتصرت المهمة الأميركية على نقل الطرح الاسرائيلي دون تعليق . ففهم فؤاد بطرس ان واشنطن قد أعطت موافقتها الضمنية على النقاط الثماني كما نقلها اليه الديبلوماسي الأميركي .

١ — لا تمانع دولة اسرائيل بصورة مبدئية في انتشار الجيش اللبناني في كل جنوب لبنان .

٢ — لا تستطيع الحكومة الاسرائيلية التعهد بالزام الميليشيات المسيحية بوقف اطلاق النار ، ولا تستطيع منعها من الدفاع عن نفسها . وجل ما تستطيعه تل أبيب هو التدخل لدى الميليشيات لتتوقف عن اطلاق النار على الكتيبة اللبنانية المحاصرة في كوكبا .

٣ — لا تنصح هيئة الاركان الاسرائيلية الجيش اللبناني بالتقدم نحو القطاع المسيحي ، فالميليشيات مصممة عملياً على منعه من دخول هذا القطاع ، بل حتى الوصول اليه .

٤ — اذا قرر لبنان نقل الكتيبة العسكرية بالطوافات ، فاسرائيل ليست مسؤولة عن امنها الجوي . فالاسرائيليون يتعهدون بعدم اطلاق النار عليها ، ولكنهم لا يستطيعون ان يضمنوا امتناع قوات حداد عن قصف هذه الطوافات .

٥ — يلاحظ العسكريون الاسرائيليون انه لا يكفي اقناع سعد حداد وضباطه بانتشار الجيش اللبناني في الجنوب ليتم هذا الانتشار بدون صعوبة . فهؤلاء الضباط لا يسيطرون كلياً على المنطقة كلها وعلى الميليشيات كلها . وترى اسرائيل ان بعض هذه الميليشيات يتلقى الاوامر مباشرة من بيروت . فاذا اصدر حزب الكتائب لرجاله امراً باطلاق النار ، فحداد ومعاونه سامي الشدياق لا يستطيعان منعهم .

٦ — تسترعي هيئة الاركان الاسرائيلية الانتباه الى وضع القرويين الذين قطعوا كل الجسور مع السلطة اللبنانية والمسلمين والعرب . وبفضل تعاملهم مع اسرائيل ما زالوا على قيد الحياة . والخيار المطروح أمامهم هو واحد من اثنين : اما القتال ليبقوا احياءً ، واما النزوح فيصبحون لاجئين . وكل حل ثالث غير وارد لانه يعني عودة الاتصال بالمسلمين والعرب وهم يائسون من امكانية التفاهم معهم . هؤلاء القرويون اللبنانيون ، يناهز عددهم اثنين وثلاثين ألفاً ، وهم سينتقلون فوراً الى اسرائيل لدى دخول الجيش اللبناني الى منطقة الحدود ، خوفاً من أن تقبض السلطات اللبنانية عليهم . فيتحولون الى لاجئين جدد في اسرائيل ويكوّنون ضغطاً ديموغرافياً لا تستطيع تل أبيب تحمله .

٧ — يتصرف الجيش اللبناني تصرفات متناقضة ، فهو يطلب مساعدة الجيش الاسرائيلي لتسهيل انتشار وحداته في الجنوب ، ويرفض ، في الوقت نفسه ، ان يلتقي رئيسا الاركان في الجيشين .

٨ — أخيراً ، يذكر المسؤولون العسكريون الاسرائيليون الولايات المتحدة بأن تل أبيب قبلت بدخول الجيش السوري لبنان بشرط أن لا تتجاوز قوات دمشق الخط الأحمر . وعلى كل حال فان دمشق تعرف بدقة كلّية هذا الخط ، ولن تتجاوزه حسب رأي اسرائيل .

ليس في هذه الرسالة اي مجال للتفسير والتأويل . اسرائيل ترفض انتشار الجيش اللبناني في جنوب لبنان . الولايات المتحدة تتبنى هذا الموقف الاسرائيلي ، وإن بصورة غير مباشرة . منظمة الأمم المتحدة عاجزة أكثر منها في أي وقت مضى . وبقي على الرئيس سركيس أن يفهم أن الهدنة التي أحدثتها استقالته سريعة العطب وعابرة ، وان عليه ان يسحب جيشه من الجنوب .

حاول الرئيس اللبناني حفظ ماء الوجه بدعوة مجلس الأمن الدولي الى الاجتماع . أراد تقديم شكوى ضد اسرائيل وإن تكن شكلية . فأشار فؤاد بطرس إلى أن الإدارة الاميركية تعارض كل خطوة من هذا القبيل ، وتعتبرها « عديمة الجدوى وحتى ضارة » . ولكن الياس سركيس تمسك بوجهة نظره ، وأصر على رأيه القائل ان سحب الجيش اللبناني من الجنوب بدون الاحتجاج لدى الامم المتحدة يوازي التنازل الضمني عن حقوق لبنان الوطنية في جنوبه . فعلى الشرعية ان تحفظ حقوق لبنان في

المستقبل ، وهذه الخطوة تبدو ضرورية بهذا الشأن . من جهة أخرى أشار الرئيس الى أنه لا يقدر بعد اليوم على « تبرير » سعد حداد أو ايجاد أسباب تخفيفية له في الاحوال الاستثنائية السائدة في الجنوب . لقد ارتكب حداد خطأ فادحاً اذ أطلق النار على الجيش اللبناني . قبل هذا العمل ، ما كان رئيس الدولة يستطيع من الناحية المعنوية طرده من الجيش ، لان سعد حداد كان يقاوم الفلسطينيين على رأس الف وخمسماية مقاتل مسيحي ولم يكن رئيس الجمهورية قادراً على عزله من منصبه قبل تأمين حماية القرويين اللبنانيين ، أي قبل دخول الجيش اللبناني إلى الجنوب . هذا المنطق كان مرفوضاً من منظمة التحرير الفلسطينية وسوريا وسليم الحص . أما الآن فان الرئيس يرى من حقه لا بل من واجبه أن يُدين حداد . لان اعتداءه على الجيش الوطني جعله ، في نظره ، متمرداً . وأضاف الرئيس قوله : « في العام ١٩٧٥ ، أرسل سليمان فرنجية الضابطين حداد والشدياق للدفاع عن القطاع المسيحي ، وكانا ينفذان طبعاً أوامر قيادتهما العسكرية ، ويؤلفان جيشا شرعياً ، له الصفة الشرعية . منذ ١٩٧٧ ، لم يعودا يطيعان القيادة ، ولا يتلقيان الأوامر من بيروت ، فاصبحا يؤلفان جيشا واقعياً وفاعلاً ، له صفة الأمر الواقع . وبعد عملية كوكبا أصبحا خارجين على القانون ، وقضيتهما هي الآن من اختصاص القضاء » .

على الرغم من نصيحة الأميركيين وتحفظ فؤاد بطرس ، قرّ رأي الرئيس على توجيه احتجاج الى الامم المتحدة من غير ان يطلب دعوة مجلس الامن الى الانعقاد . ولاحظ الرئيس ، في ١٩ آب ، بكثير من المرارة والالم بحضور فؤاد بطرس وجوني عبده وانا ما يلي : « لقد أقحمنا الاميركيون في ورطة كبيرة وتركونا . ان لبنان آخذ بالتلاشي والزوال . إنه يحتضر . أود القيام بعمل ما ، أياً كان هذا العمل ، قبل أن يموت وطني . الجميع يحاولون الاجهاز عليه ، وسأحاول مرة أخرى أن أنقذه ، حتى لو أزعجت العالم كلّه . ان خطر الانفجار في الجنوب هو اشد خطورة على المنطقة كلها منه على لبنان . ولا ادري اذا ما كان حل مأساتنا لا يمر بانفجار شامل » .

لم يوافق فؤاد بطرس على موقف الرئيس بحجة انه يعرض البلاد الى مغامرة عسكرية ونصحه باتخاذ جانب الروية والحذر ، فرد عليه الرئيس قائلاً : « انا حذر جداً ، لا بل انا مفرط بالروية والحذر . لقد حان الوقت للقيام بعمل ما . اكثر مما حدث لن يحدث . فالوضع لا يمكن أن يكون مأساوياً اكثر مما هو عليه الآن » . ولكن الوزير القوي التأثير سيعرف كيف يحمل الرئيس على التخلّي عن القرارات التي لا تعجبه .

واجرى الرئيس امامنا تحليلاً ينم عن وعي تام لكل الوضع الذي يحيط به ، فقال : « عليّ أن احمل شريعة الأقوى . هناك قوتان مهيمنتان : سوريا والجبهة اللبنانية ، والدولة هي الأقل قوة بين المتنازعين . يجب ان تكون السلطة بيد زعماء أقوياء وشعبيين . لوكنا في ديمقراطية لاطائفية ، لوجب أن

يكون بشير الجميّل رئيسا للجمهورية ، وداني شمعون رئيسا للحكومة . فهما يشعران بانهما منتصران . وبالحقيقة ، فان الفلسطينيين الذين كانوا بالأمس يحتلون الجبل اللبناني قد اسكتوا وانسحبوا الى مخيماتهم . وكمال جنبلاط ، خصم الجبهة اللبنانية الأول اصبح تحت التراب . إن لبنان يحتاج الى مجنون يحكمه . ولا يكفي أن يكون المرء عاقلاً ليحكم بلداً مريضاً » .

لم تدم الهدنة مدة طويلة . إلا أنها أتاحت للرئيس فرصة حضور حفلة تنصيب البابا الجديد يوحنا بولس الاول ، في ٤ ايلول ، وعاد من رحلته الى روما اكثر ايماناً بالكنيسة وتأثيرها في المجتمع وفي حياة البشر . وعلى الرغم من انه ليس ممارساً للطقوس الدينية فقد شده الجو الروحي السائد في الفاتيكان الى الاعتراف وتناول القربان .

روى لي الياس سركيس لقاءَه يوحنا بولس الأول وقد شدد امام رئيس الكنيسة الكاثوليكية على ضرورة انقاذ التعايش الاسلامي المسيحي في لبنان الذي يستطيع في نظره ضمان بقاء الوجود المسيحي في الشرق . وقد قال للبابا : « لا أريد أن يتحول لبنان الى مسألة شرقية جديدة . اريد ان يكون لبنان أرض سلام وميناء حرية وفاتيكان سياسي ، اذا جاز القول » .

وعد البابا الرئيس بمفاتحة ولتر مونديل ، نائب الرئيس الاميركي والحاضر حفلة التتويج ، بالمشكلة اللبنانية . فوجه الى جيمي كارتر رسالة شخصية لحثه على الاهتمام بوضع لبنان بمناسبة لقاءات كمب دافيد القريبة الأجل . وبعد انتهاء مقابلته البابا بفترة وجيزة جاءَه الكردينال اغوستينو كاسارولي ليخبره بان الحبر الأعظم قد تحدث عن لبنان مع مونديل . وقد علق الرئيس على مبادرة البابا بقوله : « كم كان ستالين مخطئاً عندما ربط نفوذ البابا بعدد المدرعات التي يملكها الفاتيكان ! » .

تأثر الرئيس تأثراً عميقاً بتواضع الكرادلة الذين لم يترددوا لحظة في الخضوع أمام البابا لما تمَّ انتخابه . وتمنى لو أن الزعماء اللبنانيين يعملون بوحي هذا النموذج . وتأفف من موقف القادة السياسيين الذين ما ان انتخبوه حتى راحوا يتمردون على سلطته . وانهى حديثه عن زيارته القصيرة الى روما قائلاً : « كنت سعيداً بوجودي في خارج القصر الجمهوري . أمضيت أحلى سهرة مع حراسي في مطعم ايطالي . تنقلنا بسيارة عادية ، بلا علم ، وبلا حاشية ، وبلا مرافقين . وبعد العشاء شربنا بيرة في حانة صغيرة . كنت سعيداً حقاً ألهو لهوَ تلميذ في عطلة ، أو سجين فارّ من سجنه » .

لم يكن الرئيس يدرك وهو يحدثنا ان ما ينتظره سيكون اشد هولاً من السجن . انه سيواجه كابوساً حقيقياً . فالهدنة بين الميليشيات المسيحية والجيش السوري صارت تخرق يومياً ، ثم انهارت كلياً في الاشرفية .

٥ ـ الأشرفيّة تحترق

قد يتذكر المؤرخون في المستقبل أن ايلول ١٩٧٨ هو شهر اتفاق كمب دافيد ، لكن اللبنانيين لن ينسوا بسهولة انه شهر اختفاء الإمام موسى الصدر وانفجار الأشرفية .

وقف الياس سركيس عاجزاً امام عملية اختفاء الامام ، وهو يعتقد ان القذافي اذا اراد التجاوب مع أحد فانه سيلبي بهذا الشأن نداءات حافظ الأسد وهواري بو مدين أكثر مما سيسمع له . أما فيما يختص بمفاوضات كمب دافيد فقد فضل الرئيس التريث لمعرفة النتائج . لكنه سرعان ما غرق في التشاؤم . وقال لي يوم توقيع الاتفاق بالذات في ١٧ أيلول : « نجاح كمب دافيد كاخفاقه سيكونان وخيمي العواقب على لبنان » .

وفي ١٨ أيلول تلقى نصوص الاتفاق مشفوعة برسالة شخصية من الرئيس كارتر الذي أبرز فوائد كمب دافيد وجوانبها الإيجابية . وأصرّ الرئيس الأميركي على القول بان في الاتفاق هذا تمهيداً لحل قضية اللاجئين الفلسطينيين الذين سيكون لهم حق تقرير المصير ، واختيار ممثليهم ، واقامة كيان فلسطيني . لكن الرئيس بدا مشككاً كثير الارتياب ، وهو يقول لي : « لا تذكر الرسالة الأميركية المسألة اللبنانية ، ولا المسألة الفلسطينية في لبنان . مع أني وجهت الى الرئيس كارتر رسالة قلت له فيها أن لا حل للمسألة اللبنانية الا بإيجاد حل لمسألة الخمسماية ألف فلسطيني المقيمين على أرض لبنان . ولكن ما فتيء كارتر يفكر بشكل مختلف . يخامرني شعور بأن كمب ديفيد ليس إلا التحقيق النهائي ، على أيدي الأميركيين ، لوعد بلفور(*) . ليس في هذه الاتفاقات حلّ لأزمة الشرق الأوسط ، بل فيها قيام محور استراتيجي جديد بين القاهرة ، وتل أبيب ، وواشنطن » . واكتفى الرئيس بقراءة رسالة سيد البيت الأبيض ثم قال : « هذا كله لا يُنبيء بشيء حسن . إني متعب وذاهب للنوم . غداً سأجد متّسعاً من الوقت للاطلاّع على نصوص كمب ديفيد » .

ولكن مشكلات الرئيس الحقيقية كانت تتمحور حول ضرورة تدارك انهيار الهدنة الراهنة . وفي هذا السبيل ، قام الرئيس اللبناني بمحاولة أخيرة في اتجاه دمشق ، فأرسل ، في ٦ ايلول ، سامي

(*) تعهدت الحكومة البريطانية بموجب وعد بلفور المعلن في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ بأن تقيم وطناً للشعب اليهودي في فلسطين .

الخطيب وجوني عبده الى دمشق لافهام السوريين بوضوح أن الانتشار الحالي لجيشهم في المناطق المسيحية يثير منازعات مستمرّة ، وأن التجديد المقبل لمهمة قوات الردع العربية لا يمكن أن يتمّ بدون التفكير بانتشار آخر . وليس هناك وزير مسيحي واحد يجرؤ على قبول التجديد لقوات الردع بدون أن يكون هذا التجديد مشروطاً باعادة الانتشار المقترحة . وقال الرئيس لموفديه : « تقوم خطتي على تجميع الجيش السوري تدريجياً في بعض النقاط الاستراتيجية ، واحلال الجيش اللبناني تدريجياً أيضاً محله على الحواجز وفي الاتصال بالمواطنين . وسيقوم الجيش اللبناني ، بمهمة قوات الأمن الداخلي . أما الجيش السوري فيكون قوة تدخل ، يقدّم مساندته للجيش اللبناني إذا دعت الحاجة » . وبعبارة أوضح ، فان الرئيس سركيس يتمنّى سحب القوات السورية من المناطق المسيحية منعاً للانفجار .

دافع الموفدان اللبنانيان في دمشق بكثير من الذكاء والحنكة عن الخطة اللبنانية . لكن حكمت الشهابي ، رئيس الأركان السورية ، لم يقتنع ، وقال : « يجب أن ترمي كل خطة الى هدفين : إضعاف المتعاملين مع اسرائيل ، وتحقيق الوفاق الوطني . والحال أن خطة الرئيس سركيس لا تخدم هذين الهدفين : فانسحاب الجيش السوري ، ولو جزئياً ، يقوّي كميل شمعون وبشير الجميّل ، بينما انتشار الجيش اللبناني ولو تدريجياً ، يثير ردّة فعل إسلامية تعرقل مسيرة الوفاق الوطني » .

واضاف القائد السوري ، وهو هادىء وحازم : « لا تخطئوا في تأويل الموقف السوري . فتعاملنا مع أحزاب اليسار ، والقوى الاسلامية والمقاومة الفلسطينية لا يدل على اتجاه يساري أو شيوعي لدينا . سياستنا ترمي الى منع هذه القوى من التحالف مع مصر والعراق . فنحن لا يمكننا ان نتساهل مع المتعاملين مع اسرائيل ، ونقهر الذين يساندون مصر والعراق . فهل يجوز ان نلقي القبض على أحمد الخطيب ونضعه في السجن في حين يبقى سمير الأشقر وابراهيم طنوس المسؤولان عن عملية الفياضية يسرحان ويمرحان بحرية ؟ سكتنا عن مسألة الفياضية إكراماً للرئيس سركيس ، وكان من المفروض ان ندمر الثكنة أو أن تحكموا بالاعدام على المسؤولين عن هذا الحادث المجرم . ولكن لم يحدث هذا ولا ذاك ، إن هذا الاستهتار لا يخدم قضية الجيش اللبناني . كيف تريدون اعادة تنظيم هذا الجيش وفي صفوفه واحد مثل سعد حداد أو سامي الشدياق ؟ ماذا تريدون أن تقدّم لكم سوريا أكثر من دم أبنائها ؟ لا يمرّ يوم بدون ان يسقط قتيل من القوات السورية المرابطة في لبنان . وفي كل يوم مأتم في قرية سورية . ماذا نقول لهؤلاء الناس ؟ حين يسقط جندي على جبهة الجولان ، في مواجهة اسرائيل ، تكون القضية واضحة ، نتحملها ويتحملها الشعب معنا . ولكن كيف نفسرّ سقوط مئتين أو ثلاثمائة جندي قتيل في لبنان ؟ فمن اجل أي قضية ؟ وفوق ذلك تريدون أن تقبل دمشق التجديد المشروط لقوات الردع العربية ، وانسحاب القوات السورية تدريجياً من المناطق المسيحية ؟ » . وكان من شأن هذا الرفض السوري ان يفتح طريق الصدام .

* * *

تصاعدت المناوشات ، واستؤنف تبادل القصف المدفعي بين ميليشيات الجبهة اللبنانية والقوات السورية ابتداءً من ٧ أيلول . فوجه الرئيس سركيس نداءً اخيراً الى الولايات المتحدة الأميركية بواسطة والتر تيلور كلوفيريوس ، أحد المسؤولين في وزارة الخارجية الأميركية لشؤون الشرق الاوسط ، الذي كان يزور لبنان ، وقال له : « الحكومة الأميركية هي المسؤولة الأولى عن هذا الوضع . وعدتموني بالمساعدة وما وفيتم بوعدكم . طلبت إليكم التدخّل لدى اسرائيل لوقف إرسال الأسلحة الى الميليشيات المسيحية ، ولدى سوريا ، عن طريق المملكة العربية السعودية ، لوقف القصف . ولكنكم في ما يختص بالنقطة الأولى لم تتمكنوا من منع اسرائيل عن متابعة إرسال الأسلحة ، بما فيها من أسلحة أميركية ، الى الميليشيات المسيحية ، فخالفتم بذلك الشروط التي تضعونها انتم لتزويد اسرائيل بالسلاح . وكانت النتيجة أن الاتحاد السوفياتي زاد مساعداته العسكرية للمنظمات الفلسطينية ، وتصلّب في موقفه منّي . أما في ما يختص بالنقطة الثانية ، فقد عجزتم عن التأثير على سوريا ، بل أكثر من ذلك ، فقد تبنّت المملكة العربية السعودية الطرح السوري ضد الجبهة اللبنانية ، بدلاً من أن تكون محامية عن الجبهة لدى سوريا » . ثم كرّر طلبه بأن تتدخل الولايات المتحدة الأميركية لدى تل أبيب ودمشق لاجتناب انفجار مسيحي — سوري قريب ، لكن نداء الاستغاثة هذا بقي بلا جواب .

حاول الرئيس أن يبرّر نفسه ، وان يشرح للمقربين منه موقفه من الجبهة اللبنانية ، ومنظمة التحرير الفلسطينية ، وسوريا . وذكر انه منذ بداية عهده نشأ خلاف بينه وبين زعماء الجبهة اللبنانية الذين أصرّوا على تطبيق اتفاقية القاهرة قبل بدء أي حوار وطني . وفيما بعد ، أثار هؤلاء الزعماء جدلاً شائكاً ومعقداً هو موضوع إقامة نظام فدرالي في لبنان ، وموضوع التعدّدية الثقافية . وأخيراً راحوا يعلنون أنهم لا يجدون محاوراً مسلماً مؤهلاً للبحث معهم في هذه المشاكل . واعاد للاذهان ان الوفاق لا يتم بالقوة والاكراه ولا في تكديس الشروط المسبقة ، إنما هو ينبثق من التقاء الارادات . وليس من الضروري الحصول على إجماع ، بل لا مفر من التوصل الى أكثرية مزدوجة : اكثرية المسيحيين وأكثرية المسلمين واضاف : « انا أحتاج الى هذه الأكثرية المركبة لأحكم . هذا ما لا تريد الجبهة ان تفهمه » .

تطرق الرئيس بعدئذٍ الى موضوع العلاقات مع المنظمات الفلسطينية ، فأشار الى انها كانت حسنة في بادىء الأمر . ولكن الفلسطينيين اخذوا يتقلبون ، يلفّون ويدورون وما كانوا يريدون تطبيق اتفاقية القاهرة . كان ياسر عرفات ، كل مرة ، يُعطي موافقته ثم يتهرّب من تنفيذ التدابير المقررة فيلجأ الى كل الذرائع ، يدعي تارةً ضرورة مسايرة جبهة الرفض الفلسطينية ، ويزعم طوراً أن وفاة كمال جنبلاط قد طرحت كل المسائل من جديد على بساط البحث ، أو يذهب الى أن انتخاب بيغن رئيساً للحكومة الاسرائيلية أو غزو الجنوب قد قلبا كل المعطيات . وكان عرفات يجد في كل محاولة يقوم بها حليفاً عربياً يؤيده ويدافع عنه . كان يلعب دائماً على التناقضات العربية العديدة . وينهي الرئيس

حديثه بشرح علاقته بالفلسطينيين فيقول : « أدركت أخيراً ، أن مناقشة كل اتفاق جديد مع المنظمات الفلسطينية باتت عديمة الجدوى . فمنظمة التحرير لا تفي بأي وعد من وعودها » .

بقيت العلاقات مع سوريا . وقد تطرّق إليها الرئيس سركيس بدون أقلّ مسايرة أو مجاملة ، فلاحظ ان علاقاته بدمشق لم تعد حسنة . في بادىء الامر ، كان الاسد يصر ، لدى تأليف قوة الردع العربية ، على أن يسلمه قيادتها شخصياً وحصراً . وكان الرئيس السوري يؤكد ، بدون أي لبس ، أن قيادة قوة الردع منوطة برئيس الجمهورية دون سواه . ثم ربط الرئيس السوري استمرار وجود هذه القوات في لبنان بقرار السلطات الشرعية في البلاد ، وهذا القول في منتهى الابهام والغموض . واليوم ، يعلن الأسد أن انسحاب القوات السورية منوط بالحكومة اللبنانية ، أي بسليم الحص والوزراء المسلمين الذين لن يطلبوا أبداً انسحاباً من هذا النوع . هذا كله يعني ان حافظ الاسد لم يعد يثق بالياس سركيس الذي علق قائلاً : « اني افهم منطق المسؤولين السوريين ، فهم غاضبون لاني لم أستسلم قط أمامهم . وعلى الرغم من وجود ثلاثين ألف جندي سوري ، رفضت أن أوقّع مع دمشق أي معاهدة من أي نوع كان . لكنهم ينسون أني كنت بالفعل لائقاً وشريفاً معهم . إني صديق ، لا أعمد الى المناورات أو الى الدسائس . كنت دائماً صريحاً بدون أقلّ مداهنة أو تلوّن . لم أكن قط الى جانبهم بلا قيد ولكن لم انقلب عليهم أبداً » .

صباح ٢٢ ايلول ١٩٧٨ ، سجل الرئيس ، لمناسبة الذكرى الثانية لتسلمه صلاحياته الدستورية ، خطاباً متلفزاً ومذاعاً بالراديو موجهاً الى الأمة . وقد أعلن هذا الخطاب التمديد لقوات الردع وخطة امنية لاعادة انتشار القوات السورية على الأرض . فلم يأبه لموقف الجبهة اللبنانية المعارض للتمديد ، ولا لرغبة سوريا التي لا تريد اعادة نشر جيشها . فلم ينصع لا للجبهة اللبنانية ولا لسوريا . ومساء طلب تغيير مكان جهاز التلفزة ، ونقله الى مقر امين من قصر بعبدا . وقد قال لمرافقه بشيء من السخر : « انتبه ، ضع التلفزيون في مكان آمن ، لانه في نهاية خطابي سينهال علينا القصف من كل الجهات » . ولم يكن مخطئاً في قوله . فقد سقطت قنابل عدة على القصر منذ فراغه من القاء كلمته . لقد بدأ الانفجار .

من ٢٣ ايلول الى ٦ تشرين الاول ، قصفت القوات السورية الاشرفية ، والضاحية الشرقية من العاصمة ، والمتن ، وكسروان ، بعنف وكثافة بالغين . انصبّ طوفان من الحديد والنار على المناطق المسيحية ، ولكن الاشرفية كانت مسرحاً للمبارزة الأشدّ فتكاً بالمدفعية والصواريخ ، ولاشتباكات القوات الخاصة السورية بالميليشيات المسيحية . وقد بلغت المعارك حداً من القسوة والشراسة لم تبلغه من قبل ، فامست الأشرفية جحيماً ، ولكن المقاومة اللبنانية لم تتراجع .

ولم يوفّر أحد القصر الجمهوري، فتساقطت عليه القنابل من كل صوب، وأصبحت الطرق الى بعبدا خطرة. فنقل الرئيس مكاتبه وسريره الى الطبقة السفلى من مقره، وحولها الى ملجأ كيفما كان الأمر. وكان هذا الملجأ يتألف من ردهة واسعة عارية، ومن غرفتين تؤديان الى المطبخ، فضلاً عن حمام واحد. في هذا المكان كانت تفوح رائحة الطعام والغاز الخانقة. وجهاز التهوية القديم وشبه المعطل يرسل ضجة مزعجة شبيهة بضجيج محركات الطائرات المروحيّة التي استعملت في الحرب العالمية الثانية. وكان من الضروري ان تصرخ بصوت عالٍ ليسمع محدثك، لدرجة أن الضجة التي تحدثها فوهة جهاز التهوية كانت تصمّ الآذان أكثر من القنابل التي تنفجر في الاماكن المجاورة. لا ماء ولا كهرباء، والطعام ما لبث، هو أيضاً أن نفد، والتلفون معطل في أغلب الأحيان. وهكذا أمسى الرئيس سركيس، في اكثر الاوقات منقطعاً عن العالم وحتى عن عاصمته. وقد اقام اثني عشر يوماً في هذا المكان المزعج. وفيه استقبل السفراء والوزراء والسياسيين والاصدقاء الذين جازفوا بالمجيء لزيارته.

في هذا الملجأ كان الرئيس فيلسوفاً هادئاً وصافي الذهن، لم يفقد رباطة جأشة. ولكنه كان يغرق أحياناً في الصمت والتشاؤم. كان يكرر بلا ملل حديثه عن أسس سياسته مؤكداً أنه لن يغير شيئاً من قناعاته على الرغم من كل الضغوط السياسية والعسكرية التي تمارس عليه. وقد أكّد قائلاً مرات عديدة: «موضوع استقالتي غير وارد. يجب أن يغتالوني إذا أرادوا التخلّص مني». وكان يدرك عمق المأزق الذي هو فيه، فيقول متألماً: «لم تبقَ لي خطة أُنفّذها، ولا أرى حلاً في المدى المنظور. اني في طريق مسدودة». بالحقيقة، كان يأسف أصلاً على شيء واحد، وهو: غياب جيش قادر على المجابهة. وكان يتذكر قول شهاب: «ان وجود الجيش يكلّف غالياً، امّا فقدانه يكلف أغلى».

ان الرئيس عاجز بلا جيش. وهو يراهن على تدخل أميركي لوقف المعارك. وفي الواقع، اقترح جيمي كارتر، في ٢٨ أيلول، عقد مؤتمر دولي لحل الازمة اللبنانية، على أن تشترك في هذا المؤتمر سوريا، والمملكة العربية السعودية، ومصر، واسرائيل، وفرنسا، والولايات المتحدة الاميركية. فرفضت سوريا فوراً هذا العرض وكثفت عملها العسكري.

دعا الرئيس سركيس، في ٢ تشرين الأول، في نداء الى الأمة، الى خطة لاعادة انتشار قوات الردع العربية، وتأليف حكومة اتحاد وطني، فرفضت دمشق دعوته وزادت من كثافة النيران. وفي الاسبوع الأول من تشرين الأول، أخذ العياء والقلق يعصران قلب الرئيس. فبدا منهوك القوى أكثر فأكثر. وأمسى لا يتكلم إلا نادراً، ويعاني آلاماً مبرّحة في رأسه وحلقه وكليتيه. وقد أدهشه الهيجان السوري فراح يردّد:. «لو لم يبقَ سوى عشرة كتائبيين في الأشرفية، لاضطر الجيش السوري أن يدمر المدينة كلها ليدخلها. فهل هذا معقول؟».

في ٤ تشرين الأول استطاع الرئيس اللبناني الاتصال برئيس الدولة السورية الذي كان في برلين ، وكان الحديث جافاً . قال الرئيس لنظيره السوري : « ليس في العالم دولة ترضى بما يحدث . أريد جواباً بشأن الخطة الأمنية واعادة انتشار قوات الردع ، وأريد قبل ذلك وقف إطلاق النار فوراً » . أجابه حافظ الأسد بهدوء : « إننا ندرس الخطة الأمنية ، ونودّ أن نعرف رأي الأطراف المختلفة » . فاستشاط سركيس غيظاً وقال : « انا رئيس الدولة والمحاور الوحيد المؤهل للتكلم باسم لبنان . لا أقبل أن تتعاملوا مع أحد سواي » . فحاول الاسد ان يهدئه بقوله له : « من غير الطبيعي ، يا اخ الياس ، أن نتطرق لهذه الأمور بالتلفون . سأكون بعد يومين في دمشق ، فاهلاً وسهلاً بك لنبحث الوضع من كل جوانبه » .

في ٦ تشرين الأول اتصل عبد الحليم خدام بالرئيس ليقول له : « وصل الرئيس الأسد في هذه الدقيقة الى دمشق . وهو مستعدّ لاستقبالك في أي وقت ، وإن نكن جميعاً متعبين جداً بعد رحلتنا الطويلة الى المانيا الشرقية والاتحاد السوفياتي » . أجابه الرئيس : «كل دقيقة ثمينة ، لأنها تعني دقيقة من وقف إطلاق النار أكثر وقتيلاً أقل . أُفضل أن أتوجّه الى دمشق فوراً » .

صورة الرئيس يغادر قصره لا تنسى ! مشهد أبعد من الواقع وأغرب من الخيال . حلق الرئيس لحيته التي أرخاها منذ بضعة ايام بماء معدني مخزون لحميته الغذائية بسبب نقص المياه . وكان الظلام يسود كل الغرف لانقطاع التيار الكهربائي . فأعد الرئيس حقائبه على اضواء الشموع التي كانت ترسم على الجدران ظلالاً لها أشكال مجنونة ومخيفة . ولم يفه أحد بكلمة . فالصمت شامل مرهق ، وفي البعيد كان قصف الأشرفية يهدر كأنه موسيقى سريالية تحيّي الرئيس الذاهب الى المجهول .

على باب القصر ، تجمع رجال الحرس الجمهوري بسرعة فكانوا أشبه بميليشيا منهم بوحدة نظامية من الجيش : وجوه غير محلوقة اللحي ، ضباط يرتدون قمصاناً عسكرية وبنطلونات مدنية ، علم ممزق ومنكّس ، فيما القصر خراب ، والأثاث مقلوب ، وزجاج النوافذ محطم ، والجدران مهدّمة ، والأشجار مجندلة ، والاقذار تغطي الأرض والمياه تغمر المدخل .

وقد روى الرئيس فيما بعد أنه لما غادر القصر في ذلك النهار ، لم يكن واثقاً بأنه سيعود اليه . وخُيِّل إليه أن الجنود الذين يحيّونه لدى رحيله يودعونه الوداع الأخير ، وانه خارج من كابوس ليدخل مغامرة . كان يحذر الجميع . يشك بأن السوريين ، كالميليشيات ، يريدون الاعتداء على حياته . وعلى كلٍّ فقد قُصفت طريق القصر لدى مرور موكبه . وتساقطت القنابل على مدرج المطار بعد اقلاع طائرته بثوان معدودة . وفكّر فؤاد بطرس باحتمال احتجازهم جميعاً في دمشق وزجهم في السجن . وقد غذّى عبد الحليم خدام الخوف من هذا الاحتمال .

والحقيقة انه ما أن وصل الوفد اللبناني الى دمشق حتى إختلى الرئيسان مدة طويلة . وفي هذه الاثناء مكث اعضاء الوفد الآخرون في مقر وزارة الخارجية السورية . وبعد تبادل آراء وجيز ، طرح جوني عبده على عبد الحليم خدام سؤالاً محرجاً حول الاخبار التي يرددها مراقبون عديدون في لبنان ومفادها أنه في أثناء المحادثات التي استغرقت سبع ساعات بين الرئيسين المصري والسوري قبل زيارة القدس أعطى حافظ الأسد موافقته سراً على مبدإ هذه الزيارة . عندها كرر وزير الخارجية السورية معارضة بلاده العنيفة لزيارة القدس ، ولم يجد لديه جواباً أفضل من أن يروي للوفد اللبناني المذهول كيف ارتأى مسؤولو دمشق ... اغتيال أنور السادات ، فقال : « لم نصدق في البدء ان السادات سيقوم بزيارته الى القدس . وخطر لنا ان حاكم مصر يناور ، وأن أقواله مخصّصة للاستهلاك بين العرب . ولكن الرئيس الأسد ما عتم أن أخبرنا بأن السادات عازم حقاً على الذهاب الى القدس . فاجتمعت القيادة السورية بغياب رئيس الدولة ، ونظرت بإجماع الحاضرين في احتمال اغتيال السادات ، واستُعرضت خطط عديدة لوضع الترتيبات العملية واخراج تفاصيلها ، ومنها أنه يمكن قتل السادات لدى خروجه من القصر الرئاسي ، أو في المطار ، على يد فلسطيني متحمس . وفكّرنا حتى باسقاط طائرة الرئيس المصري لدى اقلاعها في المدى الجوي السوري أو... العراقي . كان موقفي الشخصي أنه يجب قتل السادات ، أو على الأقلّ احتجازه وابقاؤه سجيناً . فقانون العقوبات السوري ينص بالفعل على معاقبة كل مواطن يقيم أي علاقة مع اسرائيل . إلا أن الرئيس الأسد وحده عارض مشروع اغتيال السادات . وذكّرنا بضرورة احترام القواعد والاصول في العلاقات بين الدول » . وصمت خدام برهة ثم قال : « لو اننا قتلنا السادات أو سجناه لكان مجرى الامور غير ما هو الآن » . وتلا هذا القول صمت ثقيل ، قبل أن يجازف بطرس باطلاق الكلمات التالية : « أتدري ، يا زميلي العزيز ، أنه من حسن الحظ أن يوجد رجال كحافظ الأسد ؟ انه ، ولا ريب ، بوليصة ضمان على الحياة ! » .

اما المحادثات الجارية بين سركيس والأسد فكانت هي الاخرى حامية . لم يغفل الرئيس اللبناني ، من جهته ، اثارة موضوع قصف قصر بعبدا على يد الجيش السوري . فاستشاط الرئيس السوري غضباً ، واستدعى على الفور حكمت الشهابي الذي نفى معرفته بما حدث ، وأنكر كل مسؤولية تتعلق بقواته . وقد أسفرت هذه المحادثات الاستثنائية عن وقفٍ لإطلاق النار بدأ تنفيذه في ٧ تشرين الأول . وغادر الياس سركيس دمشق ليقوم بجولة قادته الى عدد من البلدان العربية . وفي أثناء جولته هذه اتفق مع محدثيه على اجتماع يعقده وزراء خارجية البلدان المشتركة في قوات الردع العربية . وبدأ مؤتمر بيت الدين في بدء الحقبة الثالثة والأخيرة من عهده .

الجـزء الثـالث

المخـرَج

ولج الياس سركيس الفصل الأخير من ولايته والتطلعات مرهقة . وبدا في عام ١٩٧٩ محكوماً عليه بان يحمل العبء ذاته على الطريق نفسها للوصول الى الحل ذاته أو اللاحل ذاته . وقد تلقى من الولايات المتحدة الأميركية تشجيعاً على المثابرة في اعادة العلاقة مع حافظ الأسد ففعل ، على الرغم من ارتيابه في الوصول الى نتيجة ايجابية . الا ان انقلاباً حدث في عام ١٩٨٠ ، فقد برز لاعب جديد راح يطرح مشروعاً غير عادي . ولمع نجم ذو قوة جاذبة اسمه بشير الجميّل الذي سيحول معطيات اللعبة ويقلب الافكار الراهنة قلباً كاملاً . وهكذا سينتقل الرئيس سركيس في الطور الأخير من عهده من مرحلة الانطلاقات الصغيرة الى مرحلة المفاجآت الكبيرة .

الفصل الاول

استراتيجية النملة

تميزت سنة ١٩٧٩ كنهاية عام ١٩٧٨ بالاعتداءات والقصف والمجابهات المسلحة . وقد نجا على التوالي أمين الجميل وبيار الجميل من محاولتي اغتيال في ١٣ أيار و ٦ حزيران ١٩٧٩ . وسقط قتيلين كل من علي سلامة الذي يلقبه الموساد « بالأمير الأحمر » وزهير محسن ، قائد قوات الصاعقة الموالية لدمشق ، الأول في ٢٢ كانون الثاني في بيروت ، والآخر في ٢٥ تموز في بلدة كان . وما انفكت الغارات والاعتداءات الاسرائيلية الثأرية ، براً وجواً وبحراً تتصاعد حتى شملت تقريباً كل المناطق والمدن اللبنانية . وأخيراً ، لم يقتصر تفاقم المجابهات على اعداء اليوم كالاسرائيليين من جهة ومنظمة التحرير الفلسطينية وقوات الردع من جهة أخرى ، بل تجاوزهم الى حلفاء الأمس كالشيعة ضد الفلسطينيين ، والكتائب ضد الشمعونيين .

وفي الخارج ازدادت الاضطرابات المذهبية في سوريا بين الحكم القائم والاخوان المسلمين ، وفي العراق أطاح صدام حسين بأحمد حسن البكر ، وفي ايران انتصر الخميني على الشاه .

أما الياس سركيس ، فكان يطبق ، في تلك الأثناء ، خطة اسماها « استراتيجية النملة » . فقد عقد هدنة بيت الدين بين سوريا والجبهة اللبنانية برعاية المملكة العربية السعودية ، وتضامن مع جبهة الصمود والتصدي في بغداد ، وزار باريس من غير أن يتوقع نتائج كبيرة من تلك الزيارة . ثم عاد يحسن العلاقة مع دمشق راجياً أن يحقق بعض التقدّم ، ونشط لعقد قمة عربية غايتها انقاذ الجنوب المهدد بالانفجار . وأخيراً ، بذل قصارى جهده للتقريب بين دمشق وحزب الكتائب ، تمهيداً للوفاق الوطني بين اللبنانيين . وقد بدت كل هذه الخطوات رتيبة ومملة تنتظر من يقلب الطاولة رأساً على عقب .

١ ـ النَّفَسُ الثاني في بَيْت الدّين

أدّت مائة يوم من المعارك الدامية والعنيفة الى القطيعة التامة بين الجبهة اللبنانية وسوريا ، ورسّخت في قلوب المسيحيين الحقد على الجيش السوري . وفي هذا المناخ وصل الرئيس سركيس الى دمشق في ٦ تشرين الأول ١٩٧٨ كما أسلفنا . ثم قام بجولة عربية قادته تباعاً الى المملكة العربية السعودية ، ودولة الامارات المتحدة ، وقطر ، والكويت ، والاردن ، ثم دمشق في طريق عودته .

وكانت غاية الرئيس سركيس من تلك الجولة دعوة الدول المشتركة في قوات الردع العربية الى مؤتمر قمة . وقد لخّص خطته بسحب القوات السورية فوراً من المناطق المسيحية واحلال الجيش اللبناني محلها تدرنجياً وتأليف حكومة اتحاد وطني والدعوة الى عقد مؤتمر عربي . فعارضت سوريا هذه الخطة ، ورفضت كل المقترحات المتعلقة باقرار خطة أمنية ، رغبة منها في الحؤول دون انتشار الجيش اللبناني ، واستبعدت تأليف حكومة اتحاد وطني لاقصاء الكتائب عن الاشتراك فيها . وعارضت أيضاً عقد مؤتمر قمة عربي ، ولم تقبل ، بعد إصرار سركيس ، إلا بمؤتمر وزراء خارجية البلدان المشتركة في قوات الردع . فعُقد هذا المؤتمر بين ١٥ و١٧ تشرين الأول في بيت الدين ، وهي قرية في الشوف تبعد عن بيروت مسافة ٤٥ كيلومتراً بنى فيها الامير بشير شهاب الثاني ، في اوائل القرن التاسع عشر ، قصراً أصبح فيما بعد مقراً صيفياً لرؤساء الجمهورية اللبنانية .

في ١٨ تشرين الأول روى الرئيس سركيس لجوني عبده ولي ما جرى في المؤتمر . قبل الافتتاح ، كان الرئيس يعرف طروحات كل فريق . فدمشق ، مدعومة بالدول العربية الأخرى ، كانت تدعو الى عقد اتفاق سياسي يسبق وقف اطلاق النار . وكان هذا الموقف يبدو ، للوهلة الأولى ، منطقياً ، إلا أنه يكشف عن مناورة ترمي الى عزل الكتائب والى ارغام الجبهة اللبنانية على اصدار بلاغ بقطع علاقاتها مع اسرائيل ، لأن كل اتفاق سياسي سينص بطبيعة الحال على تأييد دور قوات الردع العربية ، وادانة كل تعامل مع اسرائيل . أما موقف الجبهة اللبنانية فعبّر عنه بكل وضوح بشير الجميل الذي أصرّ على انسحاب الجيش السوري فوراً من لبنان قبل الموافقة على أي اتفاق لوقف اطلاق النار . أما الرئيس فكانت له رؤيا أُخرى وقراءة مختلفة للاحداث . كان يعتبر وقف إطلاق النار ضرورياً لكل اتفاق سياسي ، خلافا للموقفين السوري والجبهوي . وكان يرى أيضاً ان انسحاب القوات السورية ، ولو جزئياً ، من المناطق المسيحية يكفي لوقف اطلاق النار . وكان يتّكل على نفوذ المملكة العربية السعودية وتأثيرها لتليين الموقف السوري .

عند افتتاح المؤتمر ، ارتجل الرئيس خطاباً أوضح فيه أن إعادة بسط السيادة اللبنانية على أرض لبنان كلها هو هدف أساسي . وأقترح اختصار الوقت المخصص للاجتماعات العامة للتمكن من مناقشة الامور بشكل ثنائي مناقشةً دقيقة وعميقة . ثم رفع الجلسة وراح يجتمع تباعاً برؤساء الوفود . فتبيّن له ، على الفور ، أن موقف المملكة العربية السعودية شبيه بموقف سوريا بالنسبة الى رفض سحب القوات السورية من المناطق المسيحية ونشر الجيش اللبناني عوضاً عنها . أكّد لعبد الحليم خدّام وسعود الفيصل مجتمعين أن هذا الموقف يعني استمرار المجابهات والمعارك ، لأن القتال لن يتوقف ما دامت القوات السورية في الاشرفية وجوارها . وأوضح لهما : « أن إطالة مدة المؤتمر تصبح عديمة الجدوى ، ومن الأفضل اختتامه فوراً ، اذا كانا ينويان الثبات على موقفهما » .

فيما بعد ، اجتمع بالوزير السعودي وحده الذي راح يصرّ على أن سوريا محقة في اتخاذ الموقف الذي اتخذته ، وهو يرمي الى عقد اتفاق سياسي شامل بين المتصارعين على الساحة اللبنانية ، والى انتشار الجيش اللبناني الى جانب الجيش السوري وليس كبديل عن الجيش السوري . فذكره سركيس بأن السعوديين يبشّرون دائماً بالاعتدال ، ويدعون الى التضامن بين العرب ، وقد جاؤوا الى هذا المؤتمر لمساعدة لبنان على الوصول الى حلّ أزمته وايجاد تسوية مقبولة . واستحلف الوزير السعودي ان يعمل على وقف التدهور الأمني مما يساعد على استعادة الأنفاس ، ويفسح في المجال لانهاء الخلافات السياسية . ومما قاله لسعود الفيصل : « اقنعوا السوريين بقبول سحب قواتهم من الأشرفية فيكون لنا بعدئذٍ مجال رحب لايجاد الحلول الملائمة لكل المشكلات . ولكم أن تجدوا المخارج التي ترونها مناسبة وضرورية لتتمكن دمشق من الانسحاب جزئياً ، بدون المساس بكرامة جيشها . فالمهم ان يتم هذا الانسحاب مهما يكن الثمن » . فوعد سعود الفيصل بان يجتمع على الفور بنظيره السوري . وفي ساعة متأخرة من الليل ، اعتبر فؤاد بطرس الوضع مسدوداً ، لأن السوريين ثبتوا على تصلبهم حتى أمسى يعتقد انه من الأوفق تعليق اعمال المؤتمر .

ويروي الرئيس لجوني عبده ولي انه فوجىء في اليوم التالي بسعود الفيصل يعلمه ان خدّام قد وافق على اقتراح يقضي بان تحل قوات سعودية وسودانية محلّ الجيش السوري في الاشرفية ، الا انه لم يقبل بانتشار الجيش اللبناني . وقد اشترط الوزير السوري صدور اعلان من الجبهة اللبنانية بقبول هذه الخطة . فما كان من الرئيس الا ان طلب من الوزير السعودي ان يصطحبه الى قصر بعبدا حيث استدعى زعماء الجبهة .

ضم اجتماع بعبدا كلا من بيار الجميّل ، وأمين الجميّل ، وداني شمعون ، ولم يحضر كميل شمعون ولا بشير الجميل . فعرض سركيس على الحاضرين « بكل موضوعية ، وبشيء من البرودة » ، النتائج التي توصل اليها وقال معلقاً : « لم أكن راغباً في ان يقبل زعماء الجبهة هذه العروض بدون ان

يكونوا مقتنعين بها ليسايروني أو ليسهلوا مهمتي . تركت لهم أن يختاروا بين قبول الحل المقترح أو متابعة القتال » .

ويشير الرئيس الى انه بعد أخذ ورد طويلين وافق بيار الجميل. أما أمين الجميل ، فكان منذ البداية راغباً في كل حلّ من شأنه أن يوقف المعارك . وفي نهاية المطاف ، تلفن داني شمعون الى أبيه الذي أجاب بأنه، مبدئياً ، ضد وقف اطلاق النار ما دام الجيش السوري لم ينسحب . ولكن ، اذا انسحب هذا الجيش من الأشرفية فبالطبع انه لن يمنعه ، ولن يطلق النار على الجنود السعوديين والسودانيين « لأنهم أخوان وأصدقاء ».فاعتبر الياس سركيس جواب كميل شمعون قبولاً ضمنياً بالحل الذي قبله بيار الجميّل صراحة . مما سمح له بمتابعة مؤتمر بيت الدين .

ابتداءً من ذلك الحين ، حاول الرئيس أن يحقق مكاسب اضافية ، فبذل قصارى جهده ليحصل من دمشق على قبولها بانتشار الجيش اللبناني تدريجياً على مجمل الأراضي اللبنانية . فقال لخدّام : « تراهنون على ان الميليشيات المسيحية ستطلق النار على القوات السعودية والسودانية . وسيكون هذا ، بالنسبة اليكم ، البرهان القاطع على أنكم لستم سبب المواجهة . لكن رهانكم هذا سيمنى بالاخفاق. وأستطيع ان أؤكد لكم أن الميليشيات لن تطلق رصاصة واحدة على الجنود السعوديين والسودانيين لعلمها بأن هؤلاء سينسحبون فوراً ، فتعود القوات السورية وتحل محلهم . وإني أتوقع ، خلافاً لوجهة نظركم ، أن تتفاهم الميليشيات مع السعوديين والسودانيين . وفي مثل هذه الحال يصبح من الأفضل للسلطات السورية أن تسهّل انتشار الجيش اللبناني بدل الميليشيات على الأقل في بيروت وضواحيها » . ولكن خدام رفض هذا الاقتراح ، فانهى الرئيس أعمال المؤتمر في ١٧ تشرين الأول ١٩٧٨ .

توقف الرئيس عن سرد ما حدث في ايام بيت الدين الثلاثة . ودعانا ، جوني عبده وانا ، الى زيارة القصر . وكان مرتاحاً تبدو عليه ملامح الثقة . وقد اثنى على ما في ذلك اليوم الخريفي من جمال ، وراح يصف الطبيعة الرائعة . وأبدى أسفه لعجزه عن البقاء مدة طويلة في قصر بيت الدين لأسباب أمنية . ولمسنا فيه ميلاً الى البوح بما في نفسه ، والى اطلاعنا على الانطباعات التي يحملها من جولته العربية الأخيرة . وراح يروي لنا كيف قبل حافظ الأسد باقتراحه الرامي الى توسيع قوات الردع لتشمل بلداناً عربية أخرى . ولكنه سرعان ما لاحظ سركيس أن ليس بين الدول العربية واحدة تجرؤ على المجيء الى لبنان بدون موافقة مسبقة من الرئيس السوري . فهو قادر والحالة هذه على تشجيع من يريد والتهويل على من لا يريد . وقد منع الأسد عملياً كل مشاركة غير سورية في قوات الردع . ومن ناحية أخرى ، « دعت » الحكومة السورية ، في أثناء وجوده في دمشق ، شخصيات الحركة الوطنية

والتجمع الاسلامي لتستشيرها في شأن الحل المطروح على بساط البحث . وتمتم سركيس قائلاً : « كانت هذه طريقة لافهامي ، من طرف خفي ، أني لست وحدي ممثل لبنان . وقد استأت من هذا التصرف الى أقصى حد ، ولكني تظاهرت بالتجاهل » . هاتان الحادثتان تدلان على أن العلاقة بين سركيس والأسد قد فترت .

قدّر الرئيس أن جوني عبده وأنا قد وعينا مدى حرج العلاقات اللبنانية — السورية ، فلم يخفِ عنا ارتيابه في نيات دمشق ، وقال : « عندما اضطررت أن أغادر قصر بعبدا لبدء جولتي العربية في الظروف المأساوية التي تعرفان اطلقت النار على موكبي من قبل ميليشيات كميل شمعون وأيضاً من قبل القوات السورية ، فنجوت باعجوبة . قد يكون السوريون يبحثون عن رئيس اكثر ليونة مني . فانا ، في الواقع ، العقبة الأخيرة الحائلة دون سحق القوات المسيحية . فسوريا تفتش عن رئيس لبناني يأمرها أو على الأقل يخولها ان تصفي الميليشيات » .

انتقل الرئيس الى الحديث عن زيارته لعمان في ١١ تشرين الأول . وقد تأثر بشخصية العاهل الأردني : « ان الملك رجل متزن وموضوعي . لا يتسرع ولا يتحمس ، بل يدرس المسائل بعقل بارد وبعيداً عن الانفعال . وهو يعلم ما يريد وكيف يحصل على ما يريد . وهكذا استطاع إنشاء دولة قوية واقامة حكم مستقر . وقد وافق مبدئياً على ارسال قوات أردنية والاشتراك في قوة الردع العربية ، إلا انه ارتأى تأجيل جوابه النهائي الى وقت لاحق . وأكد لي أنه إذا ساهم في قوات الردع العربية لن يرسل بضعة جنود ، بل كتيبة تستطيع الاشراف على منطقة بكاملها » . كما نصح حسين سركيس ان يتحلى بالصبر في علاقاته مع سوريا ، وقال له : « الله يساعدكم في علاقاتكم مع دمشق ، لأن التعامل مع السوريين هو في منتهى الصعوبة » . وفي الواقع ، لم يرسل الملك حسين جندياً أردنياً واحداً ، لأن منظمة التحرير الفلسطينية عارضت هذا المشروع ، وسوريا نصحت بالعدول عنه ، والسعودية لم تشجع على تنفيذه .

غادرنا والرئيس بيت الدين مساءً عائدين الى بعبدا . وفي طريقه زار أمه في بلدة الشبانية مسقط رأسه . وما كاد يدخل البيت الذي رأى فيه النور للمرة الأولى ، حتى أبصر صورته معلقة على أحد جدران ردهة الاستقبال ، فامر بانزالها مثيراً دهشة الجميع ، ثم همس قائلاً : « ليستحق المرء ان تُعلّق صورته في صدر الدار يجب ان يكون قد نجح . فانزلوا هذه الصورة في الوقت الحاضر ! » .

* * *

الياس سركيس يعلم ، اكثر من أي شخص آخر ، أنه لم ينجح في بيت الدين بالوصول الى

حلّ . كل ما استطاعه هو الحصول على برهة تنفس . ففي ٢٠ تشرين الأول ١٩٧٨ ، حلّ الجنود السعوديون من قوات الردع محلّ الجنود السوريين في الأشرفية وجوارها .

وبغية التمهيد لنشر الجيش اللبناني عمد الرئيس الى طرح فكرة تعديل قانون الجيش استباقاً لكل المزايدات واسقاطاً لكل الذرائع . لكنه كان يعارض كل تعديل يمس صلاحية قائد الجيش المعين تقليدياً من ضمن الطائفة المارونية . كما كانت الجبهة اللبنانية ترفض كل ما من شأنه « أسلمة » لبنان .

في اجتماع عقد في ١٠ كانون الأول ١٩٧٨ ، بحضور فؤاد بطرس وجوني عبده وانا ، طرح الرئيس الخلفية السياسية التي ينطوي عليها تعديل قانون الجيش . واعلن انه لن ينشر أي قانون تفرضه سوريا وتقترع عليه اكثرية « شبه اسلامية » في مجلس النواب . فالاسلام اللبناني ، في نظره ، يشعر الآن بأنه قوي لأن منظمة التحرير الفلسطينية تدعمه ، فضلاً عن دعم دمشق التي قطعت علاقاتها بالجبهة اللبنانية . فالمسلمون يحاولون تسجيل مكاسب لهم وفرض تنازلات على المسيحيين ، وغاية المسلمين تعديل ميزان القوى التقليدي في داخل الجيش بحيث يصبح قائده مسلماً . وأضاف الرئيس : « ان المسلمين لا يهدفون الى الحدّ من صلاحيات قائد الجيش ، بل يريدون تغيير مذهبه الديني بحيث لا يبقى مارونياً . هذا كل ما في الأمر : فاذا قبلت بأن لا يكون قائد الجيش مارونياً ، فان المسلمين يقبلون بالقانون الحالي للجيش بدون أي تعديل ، وإذا اصررت على بقاء التقليد الراهن فالمسلمون يصرون على المطالبة بالحدّ من صلاحياته . لقد اقترحت ، شخصياً ، معادلة أخرى مفادها : اذا قبل المسلمون بتخويل رئيس الجمهورية سلطة إعلان حالة الطوارىء دونما الحاجة الى موافقة مجلس الوزراء فاني أُوافق على ان يكون قائد الجيش مسلماً » .

المناورات لا تنطلي على الياس سركيس الذي كان مصمماً على التمسك بخط أحمر لن يتخطاه أبداً ويقضي بعدم التنازل أمام كل المطالب المدعومة من الخارج . فهو يشارك الجبهة اللبنانية في تخوفاتها لكنه يخشى من تهورها . لهذه الغاية عقد مع زعمائها اجتماعاً مطولاً شرح لهم فيه أن العرب جميعاً متضامنون مع سوريا ضد المسيحيين ، ونصحهم بأن لا يخدعوا نفوسهم وأن لا يضيعوا في الأحلام والأوهام .

وفي الاتجاه ذاته ، باشر الرئيس ، بعد مؤتمر بيت الدين ، عقد سلسلة اجتماعات مع داني شمعون ، وخصوصاً مع أمين الجميل الذي تميّز ، في أثناء المعارك الأخيرة ، بمواقف هادئة ومعتدلة تنمّ عن روح واقعية ومسؤولة . وقد تسلّم في داخل حزب الكتائب مركزاً قيادياً فعين رئيساً « للجنة الطوارىء » التي عهد اليها بتنظيم الأوضاع في داخل الحزب وفي داخل المناطق المسيحية أيضاً . وكان

عليه ان يواجه تياراً مضاداً للسوريين ولسركيس يغذيه أخوه بشير . وقد شكا الشيخ أمين ، في أثناء محادثاته المتعدّدة مع الرئيس ، من أنه يُبحر ضد التيار بدون أيّة مساعدة من السلطة اللبنانية وأي تفهم من الدولة السورية . فوعده سركيس بالسعي للتقريب بين الكتائبيين والسوريين عن طريقه .

وبالفعل بذل رئيس الجمهورية الجهود المكثفة عبر موفدين عديدين تمهيداً لزيارة رسمية يقوم بها الزعيم الكتائبي الشاب الى دمشق . وقد أصرّ أمين الجميل على ان يستقبله حافظ الأسد شخصياً ، فجاء جواب دمشق مبهماً ، اذ رحب عبد الحليم خدّام مبدئياً بفكرة هذه الزيارة ، ولكنه اقترح ان تبقى سرية ، واعتبر ان مقابلة الرئيس السوري تقرر لاحقاً . فرفض الشيخ أمين الذهاب الى دمشق على هذه الاسس . ولكن الرئيس اللبناني لم يقنط فعلل الأمل باثارة هذا الموضوع مع الأسد في قمة بغداد .

٢ - سائحٌ أسيءَ فهمه

للمرة الأولى في تاريخ القمم العربية ، غابت مصر عن القمة المنعقدة في بغداد بين ٢ و ٥ تشرين الثاني ١٩٧٨ . بل أكثر من ذلك ، فقد عُقد هذا المؤتمر لإدانة مصر بعد توقيع اتفاق كمب ديفيد . إلا أن العرب ظلّوا ، كما هي عادتهم ، منقسمين . فالمعتدلون منهم ساروا تحت راية المملكة العربية السعودية والمغرب محاولين تأجيل عقد هذه القمة ، أو في حال انعقادها تفادي كل قرار يُدين مصر . أما عرب الصمود والتصدي فحاولوا ، بقيادة سوريا ، وبكل وسيلة ممكنة ، الوصول الى فرض عقوبات على مصر .

وقد اطلعني عبد الحليم خدّام في ١٥ تشرين الثاني أي بعد عشرة أيام من انتهاء القمة على « الخطة البارعة » التي اتبعها حافظ الأسد لبلوغ اهدافه . فاخبرني أن الرئيس السوري كان موافقاً ، منذ اللحظة الأولى ، على الاشتراك في مؤتمر قمة بغداد ، على الرغم من النزاع الناشب بينه وبين حكام العراق منذ عشرة أعوام . « غير أنه ظلّ يُبدي تحفظات حتى قبلت المملكة العربية السعودية والمغرب ان يشتركا ، ظناً منهما ان سوريا لن تشترك ! » وفي تلك الأثناء كان الرئيس الأسد يُعد للمؤتمر مفاجأة أخرى : المصالحة المدهشة وغير المتوقعة مع العراق . وضاعف الزخم الى درجة انه وقع ، قبل انعقاد القمة ، في ٢٦ تشرين الأول ، ميثاق العمل القومي المشترك بين سوريا والعراق . وفي نظر الرئيس السوري تُعتبر هذه المصالحة هي « الرد الاستراتيجي » على كمب دافيد وفي الوقت ذاته تعويضاً عن خروج مصر من الصف العربي .

وروى لي خدام واقعة ثانية تدل على مدى براعة اسلوب الأسد ودهائه . فقد اقترحت المملكة العربية السعودية ، في بدء المؤتمر ، إرسال وفد يمثل القمة الى القاهرة . وكان السعوديون يظنون أنهم يحرجون بذلك موقف الرئيس السوري ، إذ يطلبون أن يضم الوفد عضواً يمثل سوريا . وكم كانت دهشة الجميع كبيرة لما قبل الرئيس الأسد فوراً هذا الاقتراح ، وعيّن احمد اسكندر أحمد ، وزير الإعلام ، عضواً في ذلك الوفد . ويلاحظ خدام قائلاً : «كان هذا الاختيار على جانب كبير من الحصافة والفطنة ، لأن السادات يكره كل الكره شخصين في سوريا : أنا وأحمد اسكندر احمد . واذا كان هناك أمل بنسبة واحد بالمئة بأن يستقبل السادات الوفد ، فان وجود ممثل سوريا كان كفيلاً بالقضاء على هذا الأمل كلياً » .

ويتابع خدام تعليقه بان الرئيس السوري كان يعلم ان البادرة السعودية غير ملائمة وعديمة الجدوى لكنه قبلها ليقينه بان الرفض سيأتي من السادات ، ويحول هذا الرفض وكأنه « صفعة مصرية للملكة العربية السعودية » . ولا ريب في أن أخفاق هذه المحاولة أضعف التيار المؤيد لمصر في داخل القمة ، وأفسح في المجال لاتخاذ القرار بطرد القاهرة من جامعة الدول العربية .

ولم يكن رأي الرئيس سركيس يختلف كثيراً عن رأي عبد الحليم خدام في ما يختص بقمة بغداد ، وكان قد قال لي في ٨ تشرين الثاني ، أي بعد ثلاثة أيام من اختتام المؤتمر ، واصفاً هذه القمة بانها « نصر حقيقي للأسد » ، وقد جرت في جو المصالحة السورية — العراقية . وكانت « شهر عسل بين دمشق وبغداد » ، فاتيح للرئيس السوري التدخل في كل حين ، واذا به ، من الوجهة العملية ، يتولى ادارة المناقشات ويسيطر على القرارات . وعرف الأسد كيف يكون معتدلاً وداعياً الى الاعتدال في بعض الأحيان ، وعنيفاً ومتوعداً اذا دعت الحاجة الى التهديد . مثال ذلك انه رافع لتكون ادانة اتفاق كمب دافيد معتدلة في نصها . فدافع عن توصية تنص على « عدم الموافقة » على هذا الاتفاق بدل نص يطالب « بادانة الاتفاق » . ومن جهة أخرى ، عمد الى التهديد في مواجهة التيار السعودي — المغربي الرامي الى تفادي طرد مصر من جامعة الدول العربية . وقد حسم الموضوع عندما القى كلمة حازمة كان خلالها ينظر من الفينة الى الفينة باتجاه ولي العهد السعودي الأمير فهد . ومما قاله : « هذه مسألة حياة أو موت ، لا مجال فيها للمواقف المتوسطة أو الحيادية . من ليس معنا هو ضدنا . نحن في حالة حرب مع اسرائيل ، والسادات تحالف مع العدو . من غير المقبول اطلاقاً ان نتحدث عن وحدة الصف العربي مع حليف اسرائيل . اذا كنا لا نقاتل جميعاً عدونا فسيقاتل بعضنا بعضنا الآخر ، وظلم ذوي القربى اشد مضاضة . من غير الطبيعي ان يعيش بعضنا في الازدهار والاستقرار والرغد فيما بعضنا الآخر يعاني أهوال الاضطراب والتوتر والحرب . اما أن نكون حلفاء ومتضامنين في السراء والضراء ، أو أن نكون متخاصمين . ليس بيننا حد وسط : اما اخوة واما اعداء . كلمة من هنا وكلمة من هناك ، من دولة كبرى هنا أو دولة أخرى كبرى هناك ، لا يمكن أن تجعلنا نتراجع عن المواقف المبدئية والنضالية . انا اتكلم الآن كسوري متاح له ان يستعيد ارض الجولان ولكن على حساب قضية فلسطين . اني ارفض بكل تأكيد لان الجولان اصلاً ذهبت واحتلت من اجل فلسطين ، وقد تحتل سوريا بكاملها من اجل فلسطين وسأبقى متمسكاً بالقضية الاساس . بعضكم ليس لديه أرض محتلة وبالتالي لا ثمن يأخذه مقابل الموافقة على كمب دافيد ، أو على الاقل لا ثمن ذو طابع وطني يأخذه مقابل هذه الموافقة . ومع ذلك تقولون لا لقضية فلسطين ولا للنضال من أجل تحرير الأرض العربية المحتلة والحفاظ على الكرامة العربية تحت عنوان وحدة الصف ووحدة الموقف . اذا كان أحد يظن ان هذه المسألة تخضع للاصوات والعدد فهو واهم . القضايا المصيرية لا تخضع للاصوات والعدد . فلو طرح علينا لنصوت هل نحن عرب أم لا وقالت الاكثرية لا ، فماذا يعني قول هذه الاكثرية ؟ بطبيعة الحال لا شيء . لان انتماءنا العربي أمر غير خاضع لاكثرية أو اقلية . هذه قضية

اساس غير قابلة للتصويت والمناقشة . وكذلك قضية الاحتلال الصهيوني ليست قابلة للمناقشة وليست خاضعة للتصويت » . بعد هذه المداخلة تبدلت الاجواء واتجهت القمة الى اتخاذ قرار بطرد مصر من الجامعة العربية .

اعطى الرئيس اللبناني مثلاً آخر على تصرف حافظ الأسد فاخبرنا انه في اثناء الاجتماع المخصص لدرس المساعدات الاقتصادية التي تقدمها البلدان النفطية لدول المواجهة ، حاولت المملكة العربية السعودية تقليل مساهمتها متذرعة بعجز في ميزانيتها قدره خمسة عشر مليار دولار ، فلم يناقش الرئيس السوري الامر ، بل غادر القاعة وهو يقول : « تعرف سوريا كيف تتدبر حاجاتها بوسائلها الخاصة . لا نريد أموالاً ، بل مواقف ... » . فارسل اليه فهد فوراً سعود الفيصل ليؤكد له ان السعودية ستبادر الى سد حاجات سوريا الاقتصادية بلا تأخر .

في رأي الرئيس اللبناني كان الأسد يسعى الى هدفين : انتصار سياسي ضد السادات ، ومساعدة اقتصادية لسوريا . وقد نجح على هذين الصعيدين . فمن الوجهة السياسية طُردت مصر من الجامعة العربية ، ونُقل مقر هذه الجامعة الى خارج القاهرة ، ومن الوجهة الاقتصادية حصل على مساعدة مهمة لا تقل إلا قليلاً عن ملياري دولار . وقد عززت هذه القمة شعوره بان « السعودية لا تريد معارضة سوريا ولا تستطيعها . فالأسد هو الأقوى . انه يجيد المناورة البارعة في كل اتجاه » .

ثم لخص لي الرئيس سركيس خطته في القمة . فاعلمني انه قرر منذ البدء ان يتخذ موقف الانتظار . وكان مستعداً للتنسيق مع المملكة العربية السعودية من غير ان يصطدم بسوريا . واعتبر ان على لبنان ان يبقى دائماً في الجانب المعتدل . وليس هذا الاعتدال خياراً سياسياً ، بل هو ضرورة منبثقة من توازنه الداخلي . وقد اتيح له ان يكون متفرجاً في المرحلة الاولى من هذا المؤتمر لان المسألة اللبنانية لم تكن في جدول الاعمال ، وجل ما كان يهمه أن يتم اتفاق بين العرب سواء أكان على حدٍّ أدنى أو اقصى . فالمهم بالنسبة اليه هو ان تنجح تلك القمة ، فلا يخرج العرب من المؤتمر بخلاف جديد ينعكس سلباً على لبنان ويحصل حكماً في لبنان . وفي ظن الرئيس ان كل اتفاق بين العرب حسن لانه يؤدي الى تخفيف التوتر في لبنان ، كما أن كل خلاف لا يمكن ان يكون إلا سيّئاً لأنه يؤدي الى منازعات في داخل لبنان . بهذا المنطق يكون من الأفضل للبنان أن يتصالح الأردن مع منظمة التحرير الفلسطينية ، وان تنسّق المملكة العربية السعودية مع سوريا . ويفصل الرئيس في هذا الموضوع قائلاً : « لو أخفقت القمة لكانت كارثة ، لأن اختيار السعودية ضد سوريا ، أو سوريا ضد السعودية هو ، في كلا الحالين ، مضر بلبنان » . وعندما سيحين وقت قطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر ، بعد انتهاء مؤتمر بغداد ، وتنفيذاً لمقرراته سيقول الرئيس اللبناني لفؤاد بطرس : « يجب أن لا يكون لبنان الأول ولا الأخير في قطع العلاقات مع مصر . بل يجب أن نكون في الوسط ، في وسط الجماعة » .

أما خلال قمة بغداد فلزم الرئيس الصمت حتى تبيّن له أن اتفاقاً عربياً بدأ يلوح . عندئذ أثار المسألة اللبنانية ، وحذّر من توطين الفلسطينيين في لبنان . ولاحظ أن التوطين لا يحل المشكلة الفلسطينية بل يخلق حتماً مشكلة لبنانية . وشدّد على أن الازمة اللبنانية تضر بالقضية الفلسطينية وترهق نشاط العرب . واستطرد الرئيس قائلاً لي : « عندما اقترحت القمة انشاء صندوق خاصّ لمساعدة لبنان ، استرعيت الانتباه الى أن هذا القرار قد اتُخذ مرتين من قبل ، واني أرجو أن تكون المرة الثالثة هي الثابتة » . لكن لن تكون المرة الثالثة بأفضل من سابقاتها .

لم يجتمع الرئيس سركيس بالرئيس الأسد خلال قمة بغداد . فقد ساد جو من « الصداقة الباردة » على علاقة الرجلين . على الرغم من هذا الجو غير المشجع ، حاول الرئيس ، بواسطة محمد الخولي ، تأمين مقابلة بين أمين الجميل وحافظ الأسد . لكن الرئيس السوري استأخر اعطاء الجواب الى ما بعد استشارة سليمان فرنجية . لذا عاد الرئيس اللبناني من قمة بغداد في حالة من الشك ، وأنهى حديثه معي قائلاً : « آمل أن يصير المنتصر في بغداد رحيماً تجاه لبنان » .

* * *

بدأ الرئيس سركيس ، فور عودته من بغداد ، يستعد لزيارة باريس . فالرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان جدد الدعوة الموجهة اليه عن طريق رئيس الحكومة ريمون بار ، في مناسبة تتويج البابا يوحنا بولس الثاني . وقد اقترح السيد بار أن يقوم الرئيس بزيارة باريس في ٢٢ تشرين الثاني ، فاعتذر الياس سركيس ملاحظاً أن العيد الوطني اللبناني يقع في هذا التاريخ ، فأبدى ريمون بار دهشته من أن الخارجية الفرنسية لم تنتبه الى هذا الأمر ، وحُـدد موعد الزيارة في ٢٧ تشرين الثاني ، على أن تستمر الى اليوم الأول من كانون الأول ١٩٧٨ .

أعد الرئيس بدقة المواضيع التي ينوي اثارتها وفي طليعتها خطر توطين الفلسطينيين وأضرار التدخل الاسرائيلي وضرورة الحفاظ على التعايش بين المسلمين والمسيحيين. وقرر أن لا يطرح صيغة الفدرالية كحل بـل يكتفي بالكلام عن « اللامركزية الانمائية » . وختم الرئيس عرضه قائلاً : « أعتقد أن فرنسا ، بالتعاون مع الفاتيكان ، تستطيع أن تؤثر على المسيحيين لانتهاج سبيل الحكمة ولاجتناب كل تعامل مع اسرائيل . وفي وسع باريس أن تتدخل أيضاً لدى المملكة العربية السعودية للتأثير على سوريا لمصلحة لبنان . ومن الراهن أني لن أطلب أي تدخل عسكري ، لأن فرنسا لن ترسل الينا جندياً واحداً ، ولن أُشجع أية سياسة فرنسية ترمي الى جمع المتنازعين حول طاولة مستديرة ، لأن دمشق ستعتبر مبادرة كهذهِ موجّهة ضدها » .

عند عودته لم يعطِ الرئيس تفاصيل اضافية عن محادثاته في باريس ، وأخبرني باختصار كلي أنه عرض على مسمع الرئيس الفرنسي صورة متكاملة ووافية عن الوضع اللبناني ، فما كان من فاليري جيسكار ديستان إلا أن سأله وكأنه لم يعِ كل عرضه : « ماذا ينتظر لبنان من فرنسا ؟ » فأجابه سركيس : « لبنان يشبه رجلاً محطماً على الأرض ، تنزف الدماء من كل أطراف جسده ، وهو يحتاج الى كل شيء . عليكم أنتم ، أن تقرروا ما تستطيعون عمله لأجله » . واستطرد سركيس معلقاً أمامي: « أن فاليري جيسكار ديستان لم يقدّر هذا الجواب حق قدره . وكان يعتقد أني سأقدم شكوى على سوريا وأن أطلب اليه القيام بأعمال مثيرة واستعراضية . وأظنه يتصورني رجلاً لا يعرف ماذا يريد » . والواقع أن همّ سركيس تركز على اجتناب كل سوء فهم بشأن هذه الزيارة . وكان يخشى أن تفسرها سوريا أنها بداية تدويل المسألة اللبنانية أو أنها دعوى موجهة ضد السياسة السورية في لبنان .

وعرض لي فؤاد بطرس أهم الأجوبة الفرنسية حول الطروحات اللبنانية ، فأطلعني على أن الحكومة الفرنسية وعدت ببذل أقصى الجهود لدى مختلف الفئات اللبنانية من غير أن يبرز تحركها السياسي الى العلن ، وبالطبع من غير أن تتدخل عسكرياً . وتعتبر فرنسا أن الأزمة اللبنانية يجب أن تحل في الاطار العربي . واذ تتفهم احتمال قيام بعض المناوشات العسكرية المحدودة بسبب الخلاف القائم بين قوات الردع العربية وبعض الفئات اللبنانية ، فانها تعارض بقوة كل حلّ عسكري ، وتعتقد أن وقف اطلاق النار الحالي يجب أن يُوطَّد ويُعزَّز بكل الوسائل . ولا تعقل العودة الى المعارك التي شهدها لبنان أخيراً .

يضيف بطرس أن الفرنسيين قدروا موقف الحكم المضاد للتقسيم حق قدره ، وشجعوه على انتهاج طريق التعايش المسيحي ــ الاسلامي، وأعربوا عن عزمهم التام على التنسيق بينهم وبين الفاتيكان والولايات المتحدة الأميركية لدعوة المسيحيين الى التحلي بروح الواقعية ، ولتحذيرهم من الأوهام التي تغذيها اسرائيل في عقولهم . وأخيراً ، أكدوا له بكل وضوح وصراحة « ان سوريا هي القوة الوحيدة الجاهزة للعمل في لبنان » ، وأن فرنسا لا تريد أن تحل محل دمشق بأي شكل كان . واسترعوا انتباهه الى أن ارتياب المسيحيين بالنيات السورية هو أمر « مبالغ فيه » . وزعموا أن لديهم « تأكيدات قاطعة » بأن سوريا لا تنوي الهيمنة على لبنان أو اقتطاع أقسام منه وضمها الى بلادها . ويبدو أن الرئيس الأسد قد تعهد ، في أثناء زيارته لفرنسا في شهر آب ١٩٧٦ ، بسحب قواته من الأراضي اللبنانية اذا طلب الرئيس اللبناني اليه ذلك . والفرنسيون مجمعون على اعتبار الرئيس السوري رجلاً « متزناً ومعتدلاً » وسياسته « ضمانة لاستمرار وجود لبنان » .

إن الموقف الفرنسي حيال حافظ الأسد كان يشجع سوريا على احكام قبضتها على لبنان . ومهما يكن الأمر فقد أسمع الرئيس الأسد وفداً من عائلات زغرتا كلاماً مفاده أن فرنسا اليوم ، ولاسيما حكومة فاليري جيسكار ديستان ، لم تعد تهتم بلبنان كما كانت من قبل . وقد روى الرئيس السوري ، في هذا الصدد ، أنه في أثناء زيارته لباريس عام ١٩٧٦ ، سأله فاليري جيسكار ديستان اذا ما كان المسيحيون اللبنانيون يتكلّمون باللغة العربية ، فأجابه الأسد : « لو لم يكن المسيحيون اللبنانيون عرباً ، فلماذا تتحمل سوريا كل هذه الأخطار للدفاع عنهم ؟ » .

٣ ـ سوريا دائماً وأبداً !

في أوائل العام ١٩٧٦ جمّدت دمشق كل الحلول . ولاحظ الرئيس اللبناني أن المصداقية السورية ما تزال كبيرة على الصعيدين العربي والدولي . فالولايات المتحدة الأميركية تشجعه على إحياء علاقات حارة بينه وبين حافظ الأسد ، والدول الكبرى تتصرف كما لو كان لبنان منطقة نفوذ سورية . لذا قرر سركيس أن يعود الى سلوك طريق دمشق .

ففي ٢٦ نيسان ، حمل سامي الخطيب الى المسؤولين السوريين ورقة عمل وضعها فؤاد بطرس وقد بقيت سرية . وهي الوثيقة الخطية الأولى التي تضمنت أول تصور رسمي لخطوط الحل العريضة . وقد تعمد فؤاد بطرس صياغتها على شيء من الغموض وعلى شاكلة جدول أعمال يتناول مقدمة وأربعة مواضيع ، مما يفسح للرئيس سركيس في مجال التوسع والاجتهاد في محادثاته المرتقبة مع الرئيس الأسد . وهذا هو نص ورقة العمل :

« ان المعاهدة المصرية — الاسرائيلية ومقررات مؤتمر بغداد وما تشهده المنطقة من تطورات ومستجدات ، كل ذلك خلق وضعاً سياسياً جديداً ينبغي اعتماده في أساس العمل والتعامل في سعينا الى تحقيق المصلحة العربية بصورة عامة ومصلحة سوريا ومصلحة لبنان في هذه المرحلة التاريخية الدقيقة .

« ومن المسلم به أن هذه المصالح لا تصان في جو تسوده الاضطرابات وتحتدم فيه الأزمات ، كما هي الحال على الساحة اللبنانية ، مع ما يجرّه كل ذلك من ذيول لا يستفيد منها الا العدو الاسرائيلي .

« إن مصلحتنا جميعاً هي في تطويق احتمالات وقوع انفجار وذلك بمعالجة الأسباب وتعطيل فاعليتها .

« واذا كان لا بد من خلق جو من الهدوء والاستقرار في الحقلين الأمني والسياسي ، فلبلوغ هذا الهدف ، ينبغي معالجة المواضيع بالتفاهم والتنسيق بين السلطتين السورية واللبنانية .

« أولاً : الوفاق السياسي وتنقية الأجواء : إن تنقية الأجواء شرط ضروري لتحقيق الوفاق . ومن شروطه أيضاً الشمولية التي تفترض معالجة مختلف الأمور من مختلف زواياها .

* الزاوية اللبنانية — السورية : يجب توطيد التفاهم وتعميقه بين الحكمين . ومن خلال هذا التفاهم يصار الى تنقية الأجواء بالنسبة الى الفئات الرئيسية في البلاد . ولا بد أيضاً من أن تحدد بوضوح نقاط أساسية يتفق عليها وذلك تحاشياً لكل انتكاس في المستقبل .

* الزاوية اللبنانية — اللبنانية : يجب تحقيق الوفاق اللبناني — اللبناني بنتيجة تنسيق لبناني — سوري تتولى السلطة اللبنانية تنفيذه العملي .

* الزاوية اللبنانية — الفلسطينية : يجب تحقيق الوفاق والتفاهم بين السلطة اللبنانية والمقاومة الفلسطينية على أن تتولى السلطة اللبنانية التنفيذ العملي نتيجة للتنسيق مع السلطة السورية .

وغني عن القول أن الحلول الواردة في البندين ٢ و ٣ أعلاه مرتبطة بالبند ١ وهي بمثابة تتويج لما يتضمنه من حلول .

« ثانياً : الحكومة : يجب تأليف حكومة سياسية موسعة . فأما أن تشكل بعد حصول التفاهم على الخطوط الكبرى للوفاق فيكون مجيئها بمثابة دفع لانجاز هذا الوفاق ولبلورته فيتحقق في ظلها . واما أن تأتي الحكومة بعد انجاز الوفاق نهائياً فتؤلف على هذا الأساس وتكون بمثابة تكريس لمرحلة جديدة ايجابية .

وسواء على صعيد الوفاق ، أم على صعيد الحكومة ، يجب أن تقوم الأمور على مبادئ واضحة ، تتناول بصورة خاصة النظام والخط السياسي العام والخيارات الرئيسية ومستقبل العلاقات بين سوريا ولبنان .

« ثالثاً : الجيش وتنفيذ قانون الدفاع الجديد : يدخل هذا الموضوع في إطار المبادئ التي يجب أن يقوم عليها الوفاق .

فقانون الجيش أصبح أمراً راهناً، ولا بد من أخذه بعين الاعتبار . والحكومة — أي حكومة — ملزمة بتنفيذه . لكن هذا التنفيذ يستلزم وضع سياسة أمنية شاملة على أساس توسيع مسؤوليات الجيش الأمنية وشموليتها ، وقد يستلزم بالتالي دراسات خاصة تجريها لجان عسكرية .

ولا بد من الأخذ بعين الاعتبار ما يقوم على الساحة اللبنانية من قوى غير حكومية ، بما فيها المنظمات الفدائية ، وضبط تحركاتها ، مع ما يستتبعه ذلك من اجراءات وتنظيمات .

« رابعاً : الجنوب وما يتصل به : يرتدي هذا الموضوع أهمية كبرى ويصعب فصله كلياً عن المواضيع

الأخرى ولاسيما بالنظر الى التحديات الاسرائيلية المستمرة بشكل مباشر أو غير مباشر وتجاه التحركات المختلفة في الجنوب .

وفي أي حال ، لا بد من وضع تصوّر لما ينبغي اجراؤه في حال انسحبت قوات الطوارئ الدولية لسبب من الأسباب » .

لم تنطلِ تكتية فؤاد بطرس على عبد الحليم خدام الذي أبدى حيال هذه الوثيقة ردة فعل سلبية ، فقال مخاطباً سامي الخطيب : « هذه ورقة عمل مبهمة ، لا تنطوي على أية رؤيا شاملة ، ولا تقترح أية خطة تنفيذ . وبالنسبة إلينا ، نحن في سوريا ، لا نعتبر هذا الأسلوب مرضياً ولا مقبولاً ، يهمنا أن نعلم بكل دقة الموقف اللبناني حيال ثلاث نقاط . الأولى : ما هي الوسائل العملية التي يقترحها لبنان ليوطّد حالة الأمن ؟ والثانية : ما هو المفهوم اللبناني للعلاقات المميزة مع سوريا ؟ والثالثة : ما هي أسس الوفاق الوطني ؟ » .

ولكن الرئيس السوري كان أقلّ سلبية من وزير خارجيته . فاعتبر الوثيقة بداية للمفاوضات ، وأوعز الى عبد الحليم خدام بالذهاب الى بيروت لمحادثة الرئيس اللبناني .

وصل خدام الى بعبدا في ٢ أيار ١٩٧٩ ، وباشر يوماً طويلاً من المباحثات مع المسؤولين اللبنانيين . وفي مساء ذلك اليوم عرض الرئيس أمام فكتور خوري ورينه معوض وجوني عبده وأنا مجمل المفاوضات . وقد تعمد سركيس ، كما روى لنا ، البدء بموضوع الارتياب السوري تجاه شخصه . فقال مخاطباً خدام : « إني رجل اتزان وتوازن . وقد حان الوقت لتدركوا هذا الملمح من طبعي . إني أُؤمن بلبنان التعايش الاسلامي — المسيحي . هذا هو خياري الأساسي . لأ أقبل أن أفرط بالمسلمين لمصلحة المسيحيين ، ولا بالمسيحيين لمصلحة المسلمين . لن أجرّد المسيحيين من سلاحهم ما دام الفلسطينيون مسلحين . وعملاً بسياسة الاتزان والتوازن هذه لن أبتعد عن سوريا . ولكني لن أتنازل لها عن أكثر مما يجب ، ولن أعطيها أقل مما تستحق . لست من الذين يقفون يوماً مع سوريا ويوماً ضدها . اني ثابت في عهودي ولا أُحب المزايدات في الصداقات . اذا كنتم في سوريا لا تشاطرونني هذه الاقتناعات ، فسيكون التعاون صعباً بيننا » . فردّ الوزير السوري مؤكداً لسركيس أن الأسد يثق به ثقة مطلقة ، وأن دمشق ستتابع تأييده « بكل ما لديها من وسائل » .

بعد هذه المقدمة تطرق الرئيس الى موضوع الجنوب شارحاً أن أمن لبنان من أمن الجنوب . وأمن الجنوب منوط بضبط المقاومة الفلسطينية . وضبط المقاومة الفلسطينية مسؤولية سورية . وقال لخدام : « إما أن تضبط الفلسطينيين في الداخل وعلى الحدود . أو أن يعلن العرب مجتمعين الحرب

فنجتاح منطقة سعد حداد ونصطدم باسرائيل . وكل حل آخر غير مقبول » . ولم يتردد الرئيس في اظهار ميله واقتناعه . فبالنظر الى الأوضاع العربية الراهنة والتوازنات الاستراتيجية فان تجميد العمليات الفلسطينية انطلاقاً من الجنوب يشكل بنظره السبيل الوحيد لتفادي اجتياح الجنوب وتحاشي ضربة اسرائيلية قاضية للمنظمات الفلسطينية فيه . ولفت نظر سوريا الى أن اسرائيل تفتش عن ذريعة للانقضاض على الجنوب ولا يجوز تقديم هذه الذريعة على طبق من ذهب . وذكر أن اسرائيل تعمل لتقسيم لبنان عن طريق التفجير الداخلي . وختم تحليله لخدام قائلاً : «كل انفجار يخدم مصلحة اسرائيل وكل تهدئة تفشل أهدافها . أمنوا الاستقرار في لبنان فتفشلوا المخطط الاسرائيلي في المنطقة » .

رد الوزير السوري سائلاً : « هل أفهم أنك تريد ، يا فخامة الرئيس ، أن نقبل تحدّيات بشير الجميل ونسكت على استفزازاته بدون أن نعمل شيئاً ؟ »

فأجاب الرئيس : « الحرب تقوّي المتطرفين ، والسلام يخدم المعتدلين . كلما قصفتم المناطق المسيحية اشتد تعلّق السكان ببشير الجميل . وكل قنبلة تسقط على الأشرفية تعزّز زعامة بشير ، خلافاً لما تظنون . فالناس كلهم معتدلون في حالة الهدوء وكلهم متطرفون في حالة القصف » .

ولكن خدام لم يقتنع ، بل عمد الى التهديد فقال : «كن مطمئناً ، يا فخامة الرئيس ، فلن نضرب الأشرفية بعد اليوم ، بل سنعمل شيئاً آخر ، وبوسائل أخرى ، وفي مكان آخر . ويمكن أن نوجّه ضرباتنا الى الرئتين أو القلب وكلها موجعة ، فليس ضرب الرأس وحده قتّال . بعد اليوم سنترك عشرين ألف فلسطيني ولبناني مسلح يقاتلون العشرين ألف من القوات اللبنانية » .

لم يؤثر هذا التهديد بالرئيس سركيس الذي حافظ على هدوء أعصابه وأجاب : «كنت أُفضّل ألاّ أسمع كلاماً كهذا . ومن المؤسف أن تحور سياسة حافظ الأسد على هذا النحو . فالرئيس السوري رجل تاريخي ، صاحب أهم القرارات في العقد الذي نعيش . إنه رجل حرب تشرين ورجل التدخل العسكري في لبنان لوقف حمام الدم . فهل من المعقول أن يذهب تاركاً وراءه عشرين ألف فلسطيني في صراع مسلح ضد عشرين ألف مسيحي ؟ حرام عليكم أن تضيعوا القرارات الكبيرة التي اتخذها رئيسكم . وحرام أن تقضوا على المبادرة السورية فتصير لا شيء أو تنقلب الى عكس أهدافها الأصلية . لا تتذرعوا بأقوال بشير الجميل فتدمروا لبنان ، فلو أردت أن أتصرف تصرفاً انفعالياً ، لقطعت علاقاتي بكل الفلسطينيين وبأصدقائكم في الحركة الوطنية بالنظر الى التجني الشنيع الذي يكيلونه لي ، ولكان الوضع قد خرب » .

عندئذ غيّر الوزير السوري لهجته والموضوع ، وحاول أن يعرف موقف الرئيس اللبناني من

الوفاق الوطني ، فأجابه الرئيس سركيس : « لن أتطرق الى موضوع الوفاق قبل حل مسألة الجنوب . لا معنى للحديث عن الوفاق ما دام الجنوب في حالة حرب . ان طلقة كاتيوشا واحدة على اسرائيل تجعل الناس ينسون الوفاق ومشكلاته . إني لا أُطالب الفلسطينيين بالعدول عن الكفاح المسلّح ، ولكني أُميّز بين الكاتيوشا تُطلق من الجنوب والقنبلة تنفجر في القدس . فالكاتيوشا تستطيع ، في أحسن الحالات ، أن تجرح اسرائيلياً ، وكأنها حادث سير بسيط . ولكن القنبلة التي تنفجر في القدس تزعزع إيمان الاسرائيليين ، إنها المقاومة الحقيقية . والواقع ، إذا استمرت منظمة التحرير في العمل على الوتيرة الحالية انطلاقاً من الجنوب فإن ذلك سيؤدي الى نشوب حرب بين سوريا واسرائيل ، وهي حرب تكون الدولة العبرية قد اختارت توقيتها . وستستغلّ تل أبيب تصرفات الفلسطينيين لتحتل الجنوب فيضطر ياسر عرفات الى البحث عن ملجأ له في مكان آخر » .

لم يكتفِ الوزير السوري بهذا الجواب ، فأعاد الكرة ، سائلاً عن الوفاق : « لنفترض ، يا فخامة الرئيس ، ان مسألة الجنوب قد سُوِّيَتْ . في مثل هذه الحال كيف ترى الوفاق بين اللبنانيين ؟ ان لبنان يشبه سيارة تحطمت وأصبحت تحتاج الى اصلاح كلّي وشامل : المحرك ، الهيكل ، والكوابح . يجب اصلاح كل شيء ، ويمكن اصلاحها قطعة قطعة » . أجاب الرئيس اللبناني : « الجنوب هو الكابح . وكل سيارة تسير بلا كابح ستتدهور حتماً من جديد » .

حيال اصرار خدام تبسط الرئيس في ايراد المبادئ الاساسية للوفاق ، وهي المبادئ التي ستعرف فيما بعد باسم « المسلمات الأربعة عشر » بعد أن ضمنها الياس سركيس في خطاب سيوجهه الى الأمة في العام المقبل . أما في الوقت الحاضر فقد حرص خدام على التشديد في مسألة التعامل مع اسرائيل وعلى اعتبار ادانة المتعاملين مبدأ له أولوية مطلقة في نظر دمشق . فما كان من الرئيس الا أن أبدى رأيه صريحاً بهذا الشأن فقال : « إني أدين ، شخصياً ، كل تعامل مع اسرائيل وأضمن تنفيذ القوانين اللبنانية التي تعاقب المتعاملين . ولكن ، لنكن صريحين وواقعيين ، فاذا كنت تريد ، بهذه الصيغة الحكم على كميل شمعون ، وبيار الجميل ، وبشير الجميل ، فهذا يعني أنك لا تريد الوفاق لأنه لا وفاق بدون الجبهة اللبنانية . فكل وفاق بدون الجبهة يوازي وفاقاً بدون المسيحيين ، أعني وفاقاً بين المسلمين ، وهذا هو التقسيم » .

ثم تطرق الوزير السوري الى العلاقات اللبنانية — الفلسطينية . فكان جواب الرئيس سركيس في غاية الدقة والصراحة ، فقال : « يقتضي الزام الفلسطينيين بتنفيذ الاتفاقات المعقودة مع لبنان واحترام القوانين اللبنانية واني لا أعلق آمالاً كبيرة على عقد قمة عربية موسعة لمعالجة الموضوع الفلسطيني في لبنان ، وأفضل الدعوة الى قمة عربية مصغرة تقرر وقف العمليات الفلسطينية . فأجابه خدام

بوضوح : « لا القمم الموسعة ولا القمم المصغرة تفيد شيئاً . يمكن ايجاد المعالجة من خلال تنسيق مثلث بين لبنان وسوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية » .

أخيراً طرح خدام النقطة المحورية المتعلقة بالعلاقات اللبنانية — السورية . فسأل الرئيس ان يشرح له ورقة العمل اللبنانية المرسلة مع سامي الخطيب وبالأخص البند المتعلق « بالعلاقات المميزة » بين لبنان وسوريا . فاكتفى الرئيس اللبناني بتقديم جواب غامض لأنه يفضل بحث هذا الموضوع مع حافظ الاسد شخصياً فأجاب : « عندما سألني الرئيس الفرنسي جيسكار ديستان هذا السؤال عينه ، في اثناء زيارتي لباريس ، اجبته بأن الرئيس الأسد نفسه قد حدد هذا المفهوم عندما قال لي : يجب أن نعمل أقصى ما يعمل بين دولتين سيدتين ومستقلتين . من هذا المنطلق أدعو شخصياً الى تنمية علاقات وثيقة بين بلدينا على مختلف الصعدان ، وفي إطار استقلال كلٍّ منهما . وبالنسبة اليَّ فاني أرى أن العلاقات مع سوريا تتقدّم كل ما عداها من العلاقات مع البلدان الأخرى . على الصعيد السياسي ، مثلاً ، يمر الوفاق اللبناني — اللبناني ، والتفاهم اللبناني — الفلسطيني حتماً عن طريق الاتفاق اللبناني — السوري . وعلى الصعيد الاقتصادي ، يجب تعميق مفهوم التكامل بغية الوصول الى سياسة منسقة . ولا أعتقد أن هناك شيئاً يمكن عمله على الصعيد الثقافي بالنظر الى الفوارق الثقافية والفكرية بين بلدينا . في المقابل ، يتوجب على لبنان أن يضمن أمن سوريا ، وأن ينسّق عمله على مستوى المعلومات . واني اقترح تأليف لجنة سياسية عسكرية دائمة لهذه الغاية » .

اجاب عبد الحليم خدام : « ليس في سوريا من يساوره أدنى شك بأنك رجل التفاهم مع دمشق . ولكننا نشك بأن المؤسسات والأجهزة التابعة للدولة اللبنانية تطبق توجيهاتك بدءاً بجوني عبده . وفي بيتك حصان طرواده اميركي يعمل ضد سوريا » . وكان خدام يلمح الى فؤاد بطرس .

انتفض الرئيس صارخاً بوجه خدام : « أنت ظالم ، فجوني عبده يطيع توجيهاتي وهو يتمتع بثقتي كاملة . خلينا نتفاهم بدقة على معنى العلاقات المميزة . انها تعني ، في نظري ، الحد الأقصى من التكامل ، والتضامن ، والتعاون ، والتفاهم . ولكنها لا تعني بأي شكل تدخّل سوريا في شؤون لبنان الداخلية . اني أرفض كل ضغط لتعيين هذا أو اقالة ذاك . لا تخلط بين العلاقات المميّزة والتدخل في الشؤون الداخلية » .

على أثر هذا الاجتماع ، اتفق الجانبان على عقد مؤتمر قمة بين سركيس والأسد . واعتبر الرئيس اللبناني في ختام هذا الحوار الطويل ، أن موقف خدّام كان أقرب الى الايجابية ، لأنه كان « أقل استفزازاً مما هو عليه عادة » .

* * *

انعقدت قمة سركيس — الأسد من ١٣ الى ١٤ أيار ١٩٧٩ في دمشق . ورافقت هذا اللقاء ثلاثة أحداث : الدعوة التي وجهها قبل اسبوع مناحيم بيغين الى الرئيس اللبناني لتوقيع اتفاقية سلام مع اسرائيل ، محاولة الاغتيال التي تعرض لها أمين الجميل صبيحة يوم سفر الياس سركيس ، ونشوب اشتباكات عنيفة بين حزبي الكتائب والوطنيين الأحرار خلال انعقاد هذه القمة . عند عودة الرئيس اللبناني أخبرني أن السوريين لم يتطرقوا الى موضوع الدعوة الاسرائيلية ، لكنهم استفسروا طويلاً عن هوية مرتكبي محاولة الاغتيال ، وأبدوا قلقهم من تصاعد القتال بين الميليشيات خوفاً من انتصار بشير الجميل على الشمعونيين .

خصص الرئيسان الاجتماع الأول لتبادل الآراء في الاوضاع العامة في الشرق الأوسط . وكان حافظ الأسد مهتماً للاطلاع على تقويم الياس سركيس للموقف الاميركي . فصارحه الرئيس اللبناني قائلاً : « للاميركيين خطان أحمران هما اسرائيل والنفط وليس فلسطين ، وأصبح لهم خط أحمر ثالث هو الاتفاقية المصرية — الاسرائيلية التي لا يسمحون باسقاطها . وكانت الادارة الأميركية تعتقد أن الأردن ، مدعوماً في ذلك من المملكة العربية السعودية ، سينضم الى اتفاق كمب ديفيد . ولكنك عبأت ببراعتك كل العرب ضد هذا الاتفاق . وأنت الآن تواجه وحدك السياسة الأميركية . إنك العقبة الأساسية أمام المشروع الأميركي للشرق الأوسط . وإذا كان الأميركيون يتحملون الآن معارضتك ، فهذا لا يعني أنهم يستطيعون تحمّل موقفك إلى ما لا نهاية . إنك تصبح خطراً عليهم ابتداءً من حد معين ، وعندئذٍ تكون أنت في خطر . لو كنت في مكانك لكنت في منتهى الحذر واليقظة . فمن الوجهة المنطقية ستكون عرضة لمحاولات اغتيال تتوخّاك شخصياً ، وسيعاني نظامك اضطرابات داخلية ، وقد يتعرض جيشك لهجمات ، إنْ من جنوب لبنان أو في الجولان . كان يعتقد كثيرون أن الوصول الى حل معك أنت أسهل منه مع الفلسطينيين ، ولكن تبيّن أنك أكثر تشدداً من كل الفلسطينيين مجتمعين . بناء على ذلك ، أمسى الحل معك أصعب . فأنت تعقد أزمة الشرق الاوسط المعقدة أصلاً » . وأعرب سركيس عن استعداده للقيام بعمل لدى الاميركيين لصالح الأسد . فشكره هذا وقال له : « لا أثق بالأميركيين . أما أنت ، فابقَ على علاقات حسنة معهم . ولنرَ » . استخلص الرئيس من هذه المباحثة الأولى أمرين اثنين . أولاً : أن سوريا لا تريد قطع الجسور بينها وبين الولايات المتحدة الأميركية . ثانياً : أن دمشق لا تتكل كلياً وحصراً على موسكو .

وتطرق الرئيسان في الاجتماعات التالية للأوضاع في داخل لبنان ، وللحل المحتمل للأزمة ، وللجنوب وسعد حداد . وأخذ الأسد على سركيس كونه لا يقبض على الوضع الداخلي بيد من حديد ، « ولا يفصل نهائياً في القضايا العالقة » . ردّ الرئيس اللبناني قائلاً : « ليس في العالم حكمان يختلفان بعضهما عن بعض كحكمي في لبنان وحكمك في سوريا . أنت رئيس يتمتع بأوفر سلطان وبصلاحيات لا محدودة . تكفي اشارة منك ليحصل التنفيذ فوراً . كلمة واحدة تقولها تتحوّل سياسة دولة . أما أنا فلا

أملك سلطة ولا دولة . سلطتي على الحضيض ، ودولتي في داخلها دويلات عديدة هي أقوى منها . إني أُمثّل نوعاً من الرمز اسمه الشرعية » .

أبدى حافظ الأسد بعض التفهم للظروف الصعبة التي يواجهها الحكم اللبناني وكرر تأييده لالياس سركيس . ثم انتقل الرئيسان لبحث « ورقة العمل » فأصر سركيس على ضرورة تجريد الفلسطينيين من السلاح ، أو على الأقل ، تجميد نشاطهم في الجنوب وقال للأسد : « أعلم انك لم تعد مستعداً منذ زيارة السادات للقدس لكبح جماح منظمة التحرير الفلسطينية ، بل العكس هو الصحيح ، فإنك تقدم لها كل دعم ومساعدة . ولكنك تعلم ايضاً ان التركيبة اللبنانية سريعة العطب وان تبدل موقفك أثر على الفسيفساء الطائفية . على كل حال ، لا أعتقد ان هناك حلاً عسكرياً للمسألة اللبنانية ، وحده الحل السياسي هو الطريق الى تسوية الأزمة » .

أيد الرئيس السوري كلام الياس سركيس وأضاف : « معك حق تماماً . يجب أن يصل اللبنانيون الى صيغة تفاهم ووفاق فيما بينهم . ولن يكون هناك أمن بدون وفاق . فالوفاق الوطني هو المفتاح لكل حل . وتأليف حكومة وفاق هو اداة هذا الحل » .

واتجهت المناقشة بعدئذٍ الى مسألة الجنوب ووضع سعد حداد ، فأكد الرئيس سركيس لنظيره السوري موقفه قائلاً : « لمعالجة مسألة الجنوب كان لي واحد من أمرين : التعامل مع اسرائيل ، أو الاتكال على الولايات المتحدة الاميركية ، فاخترت الثاني بلا تردد ، وقد مارست الادارة الاميركية ضغوطاً كبيرة على اسرائيل لتمنعها من احتلال الجنوب . وإني أعرف معرفة تامة محدودية وحدود هذا الضغط ، وأعرف أيضاً أن الولايات المتحدة ، إذا خيّرت بين لبنان واسرائيل ، فانها تختار الدولة العبرية . لهذا السبب أطلب إلى الولايات المتحدة أعمالاً لا تضرّ بمصالحها الاستراتيجية في الشرق الأوسط ، اني لا أطلب من الأميركيين إلاّ ما يقدرون عليه » .

اقترح الرئيس الأسد إرسال الجيش اللبناني الى قطاع الحدود الذي يحتله سعد حداد ، وبرّر اقتراحه هذا قائلاً : « اذا أرسلنا جيشاً عربياً الى الحدود ، فهذا يعني الحرب بيننا وبين اسرائيل . وإذا أرسلت الجيش السوري ، فالحرب واقعة ايضاً . وحده لبنان يستطيع ارسال جيش بدون التعرض حتماً لخطر الحرب . لا ريب في أن عملاً كهذا لا يخلو من المغامرة ، ولكنها مغامرة جديرة بأن تجرب » .

أجاب الرئيس سركيس : « ليس لي حق في التلاعب بحياة الناس على سبيل التجربة . وعلى كلٍّ ، فان اتفاق الهدنة يحدد عدد الجنود الذين يجوز ارسالهم الى الحدود بألف وخمسماية نفر يحملون

الأسلحة الخفيفة فقط . وهذه الوحدة لا تستطيع بسلاحها الخفيف تسوية مشكلة الأمن في الجنوب . فيجب أولاً سحب الفلسطينيين المسلحين ، وتجميد عمليات الفدائيين ، ومن ثمّ تنفيذ قرارات منظمة الأمم المتحدة » .

أقرّ الرئيس الأسد بالمنطق اللبناني وقال : « إذا كنت لا تريد إرسال الجيش الى الجنوب ، فالحلّ الوحيد هو الحل الدبلوماسي أي بواسطة انتشار قوات الطوارئ الدولية . أما أنا ، فسأطلب إلى ياسر عرفات ، لا أن يجمد عملياته العسكرية انطلاقاً من الجنوب ، بل أن يخففها » .

وفي أثناء المحادثات ، أخذت الطروحات اللبنانية والسورية تتعارض وتتناقض أكثر فأكثر ، واتضح الخلاف بشأن سعد حداد ، وبشير الجميل ، وسليمان فرنجية . فالرئيس سركيس أصرّ على ضرورة استئناف الحوار السوري — الكتائبي في حين أن الرئيس الأسد تحفظ في جوابه فلم تسفر القمة عن نتائج ملموسة ، وجل ما توصل اليه الرئيسان رسم خطوط بعض التوجهات . سيستمر الياس سركيس بحماية الجنوب بالوسائل الديبلوماسية ، ويسعى الى تأليف حكومة وفاق وطني ، إذا أمكن . أما حافظ الأسد فسيبذل بعض الجهد لدى ياسر عرفات لتخفيف العمليات العسكرية انطلاقاً من الجنوب وسينصح سليمان فرنجية بأن يشترك في حكومة تضم وزراء يمثلون الكتائب اللبنانية . الحصيلة كانت هزيلة .

ويلاحظ سركيس أن الاجتماعات استمرت ممتازة وحارّة ما دامت تتناول المبادئ العامة . إلا أنها ما لبثت أن اتخذت مجرى آخر منذ أن تطرق المتفاوضون الى الأمور الميدانية وتطبيقها العملي . فقد أصبح الجو عندئذ ثقيلاً ، وفي أغلب الأحيان متوتراً . وأحسّ الرئيس السوري في النهاية بأن ضيفه متضايق ومنزعج ، فحاول تشديد عزيمته بقوله : « لا تخشَ شيئاً ، واعتبر أن الورقة السورية في يدك » .

نقطة وحيدة ايجابية في هذه المفاوضات السلبية هي عودة الحرارة في العلاقات الشخصية بين الرئيسين اللبناني والسوري . وبدأ سركيس يفكر من جديد في الطريق الفضلى لنقل هذه الحرارة المتجددة الى العلاقات الباردة بين الكتائب وسوريا . ولكن الجنوب راح يضغط على الاحداث والأعصاب فهو مرشح للتمزيق .



٤ ـ الجنوب المُمَزّق

أصبح جنوب لبنان أرضاً محروقة . اسرائيل تقصف هناك الفلسطينيين بلا هوادة . والمنظمات الفلسطينية تتحدى الجيش الاسرائيلي بلا توقف . المدنيون يغادرون أراضيهم ، والمهجّرون يتكدسون ضغطاً ديموغرافياً لا سابقة له في المدن والعاصمة . ويعتقد الياس سركيس ان اسرائيل ليست وحدها مسؤولة عن مأساة الجنوب ، وان جانباً من هذه المسؤولية يقع على منظمة التحرير الفلسطينية . وقد طلب أن يمارس العرب ضغطهم على المنظمة لسحبها من الجنوب ، أو على الأقل لوقف كل العمليات العسكرية انطلاقاً من الجنوب . وبذل جهداً مكثفاً للدعوة الى مؤتمر قمة عربي يُعقد خصوصاً لبحث هذه المسألة . وأرسل لهذه الغاية موفدين عديدين ، ولاسيما رينه معوض ، الى الملوك والرؤساء العرب . والحقيقة أنه لم يكن بين المسؤولين العرب واحد يريد حقاً التورط في موحلة الجنوب . تقبّل مبدئياً الرئيس الأسد الاقتراح اللبناني تقبلاً حسناً ، ولكنه أوعز بإعداد مسبق ودقيق لهذه القمة ، على أساس وثيقة عمل يضعها لبنان ، واقترح أن يعقد هذا المؤتمر في الرياض .

ولكن سرعان ما تبين أن المملكة العربية السعودية تشكك بالنيات التي يخفيها الحكم اللبناني وتعارض فكرة الدعوة الى هذا المؤتمر . فقد وجّه سعود الفيصل ، وزير الخارجية السعودي ، الى نظيره اللبناني ، في تشرين الثاني ١٩٧٩ ، مذكرة تضمنت الأسئلة الغريبة التالية :

« ١ ـــ هل يريد الرئيس سركيس الدعوة الى عقد قمة عربية لينضم الى معاهدة كمب ديفيد ؟

« ٢ ـــ هل يعتبر الرئيس سركيس هذه القمة بمثابة مواجهة مع الفلسطينيين ؟

« ٣ ـــ هل ان قرار الدعوة الى عقد هذه القمة ناجم عن ضغط المتطرفين المسيحيين ؟ »

فرد وزير الخارجية اللبناني على هذه الأسئلة كما يلي :

« ١ ـــ يعتبر الرئيس سركيس نفسه من المجموعة العربية ومن صميمها . كما يعتبر كمب ديفيد خروجاً عن هذه المجموعة وعن مصالحها ، وتخلياً عن الموقف العربي المشترك ، ومساً بالمصالح العربية . وهو يفضل الاستقالة على الانحياز الى كمب ديفيد .

« ٢ — يعتبر الرئيس سركيس بقاء القضية الفلسطينية على ما هي عليه ضارّاً بلبنان ، وعدم حل هذه المسألة يطيل الازمة التي تستنزف لبنان وتفقده الاستقرار . ويبغي الحكم اللبناني ، من خلال عقد القمة العربية ، توجيه العمل الفلسطيني الى الطريق السويّ لاحراز بعض النجاح ، اعتقاداً منه ان كل نجاح فلسطيني يُترجم ، ليس الى نجاح عربي فحسب ، بل على الأخص الى نجاح لبناني ، لانه بمثابة مدخل الى استقرار لبنان .

« ٣ — يشعر الرئيس سركيس — وهو ماروني — شعوراً لبنانياً .وهو يدرك ان لا قيامة للبنان الا بزوال الاسباب التي حمل من اجلها المسيحيون السلاح . وهو يعمل لازالة الحجج لدى جميع الفرقاء لحمل السلاح دفاعاً عن نفوسهم . ولم يخضع لأي ضغط داخلي أو خارجي . ويريد ان يكون حكماً على هذا الصعيد » .

واضاف فؤاد بطرس ، ختاماً لهذا الرد على الأسئلة السعودية : « اننا نؤكد هذا النهج ونضمن ان استراتيجية الرئيس سركيس السياسية ستبقى على خطها هذا الى نهاية ولايته » .

وحيال التحفظات العربية ، باشر الرئيس سركيس مفاوضات مع قادة منظمة التحرير الفلسطينية ، فاجتمع مرات عديدة بأبو اياد إعداداً للقاء ياسر عرفات . ويستفاد من كلام أبو اياد ان عرفات كان متردداً في مقابلة الرئيس اللبناني لانه يحفظ ذكريات غير مشجعة عن المفاوضات التي جرت عام ١٩٧٦ . فالرئيس سركيس تشبث آنذاك بتفسير دقيق جداً لاتفاقية القاهرة . وهو تفسير لا يجيز لكل ألف من اللاجئين الفلسطينيين إلا اقتناء ٣ الى ٧ بنادق كلاشينكوف في المخيمات الفلسطينية دون سواها من الاسلحة الأخرى ويضيف أبو اياد قائلاً للرئيس سركيس : « منذ تلك الفترة يتحاشى أبو عمار مقابلتك لأنه ما زال يعيش هاجس الثلاثة والسبعة بالألف الذي دوخته بها ، كما أنه يتخوف من زيارة القصر الجمهوري ، فيغتاله أحد رجال الحرس » . ردّ الرئيس على أبو أياد بقوله : « لا أدري هل السبب الأول ذو قيمة ، أما السبب الثاني فغير مقبول قطعاً . واذا كان من واجبكم أن تجدوا الذرائع ، فليس من واجبي أن أصدقكم » .

وكانت الحقيقة غير ذلك تماماً : فياسر عرفات كان يحاول ، منذ ستة اشهر ، تأخير لقائه بالياس سركيس ، لعلمه بان الرئيس اللبناني سيطلب اليه ، بمنطق لا غبار عليه ، ان يجمّد عملياته في الجنوب ، فيما استراتيجية منظمة التحرير تقوم على متابعة العمليات العسكرية ضد الدولة العبرية لارغامها على مضاعفة غاراتها على القرى اللبنانية والمدنيين الابرياء . وقد أثارت هذه العمليات الحربية الاسرائيلية استياء الرأي العام الدولي ، واحرجت موقف الولايات المتحدة الأميركية حيال اصدقائها العرب ، وأكسبت منظمة التحرير الفلسطينية مزيداً من العطف . بل اكثر من ذلك ، فقد اكسبها

الضرب الاسرائيلي اعتراف بعض الدول الاوروبية بها . ولكن ما ان بدا للقائد الفلسطيني ان الغزو الاسرائيلي لجنوب لبنان أصبح مرجّحاً حتى وافق بدافع من مهارته التكتية على أن يلتقي الياس سركيس في ٢٤ أيلول ١٩٧٩ .

وفي اليوم التالي ، اطلعني الرئيس على فحوى محادثاته مع ياسر عرفات . وقد تعمد منذ بدء اللقاء اتخاذ موقف لطيف وحازم تجاه الزعيم الفلسطيني . فشرح لأبو عمار انه لا يريد اطالة المناقشة بلا فائدة ، ولا الدخول في التفاصيل المزعجة ، كما في الماضي ، بل يُريد لفت نظره الى نقطتين اساسيتين : الأولى خلاصتها أن القضية الفلسطينية بلغت اليوم حجماً عالمياً ، وان منظمة التحرير تبوأت مركزاً معترفاً به دولياً . ولئن برعت اسرائيل في غزو العقل الأوروبي والأميركي عن طريق اظهار نفسها في مظهر المعتدى عليه ، فقد بدأت منظمة التحرير تسجل نقاط نجاح في الرأي العام الأوروبي ، وحتى في الرأي العام الأميركي ، الذي اكتشف ان الضحية الحقيقية هم الفلسطينيون ، وهذا الرأي العام يتضامن دائماً مع الضحية . واضاف الرئيس موجهاً كلامه الى أبو عمار : « ولكني احذركم من خطر اكيد . فاذا ثابرتم على التصرف في لبنان بمثل ما به تتصرفون ، فانكم ستتخذون صورة المعتدي على اللبنانيين ، بدلاً من صورة المعتدى عليهم من قبل الاسرائيليين » .

أما النقطة الثانية التي أثارها الرئيس فتتعلق بتصرفات المنظمات الفلسطينية في الجنوب التي ستقود الى كارثة لا ريب فيها . وقال الرئيس مخاطباً أبو عمار : « الاستياء منكم لم يعد مقتصراً على المسيحيين الذين تدعون أنهم انعزاليون ، بل تعداهم الى الشيعة أصدقائكم ، وربما وصل غداً الى السنيين حلفائكم . اذا تابعتم مسيرتكم على هذه الطريق ، ستواجهون خلال بضعة اسابيع ثورة شيعية ستمتد الى بيروت . وستجر الحركة الشيعية وراءها ، عاجلاً أو آجلاً ، ثورة مماثلة عند السنيين... صدقوني اذا قلت لكم ان الناس ما عادوا يطيقونكم » . وبرر سركيس طلبه بوقف العمليات العسكرية من الجنوب وبادخال الجيش اللبناني اليه بقوله : « لنكن صريحين . اذا كنتم تريدون التقسيم ، تابعوا مسيرتكم على الطريق التي تسيرون عليها الآن ، لانكم ستصلون الى ما تريدون بكل تأكيد . واذا كنتم تريدون الجنوب عوضاً عن فلسطين ، فتابعوا تصرفاتكم المعهودة ، وهي توصلكم الى هذا الحلّ . وفي هذين الحالين ، وداعاً ايتها القضية الفلسطينية ، ووداعاً يا فلسطين . واريد ان اكون اكثر صراحةً أيضاً : اذا كنتم تريدون الجنوب فلديكم الوسائل اللازمة لبلوغ أربكم ، ولا استطيع منعكم من الوصول اليه . انكم في الجنوب ، وانكم تحكمونه فعلاً . مصير الجنوب منوط كلياً بكم . وانتم مسؤولون عن فقدانه . اعتقد ان على منظمة التحرير الفلسطينية ان تتبنّى استراتيجية عسكرية جديدة . فالكفاح المسلّح بلغ الحد الأقصى من مكاسبه الممكنة على المستوى الدولي . وقد

بلغت عملياتكم العسكرية انطلاقاً من الجنوب عتبة خطرة . وكما قررتم فيما مضى التوقف عن عمليات خطف الطائرات ، يجب عليكم اليوم ان توقفوا عمليات الفدائيين انطلاقاً من لبنان » .

اجاب ياسر عرفات بانه لا يعارض انتشار الجيش اللبناني في الجنوب . ولكن جيش لبنان العربي ، مدعوماً من سوريا ، هو الذي يرفض هذا الانتشار . وابدى الزعيم الفلسطيني تحفظاً كبيراً نحو دمشق وحماسة مدهشة نحو مصر والولايات المتحدة الاميركية . وروى الرئيس انه حاول تبرير موقفه الواثق بالادارة الأميركية بقوله لعرفات : « لو كان الاتحاد السوفياتي يستطيع حل مشكلتي لاقتربت منه . ولكن المشكلة هي اسرائيل ، والولايات المتحدة وحدها تستطيع التأثير على الدولة العبرية . ولهذا السبب اتابع مفاوضات مستمرة مع أميركا » . فابتسم الزعيم الفلسطيني وأجاب بشيء من الحسرة : « آه ! ليتني استطيع أن اعمل مثلك ! » .

وهكذا لم تسفر المحادثات عن أي اتفاق نهائي . واقصى ما وافق عليه ياسر عرفات هو درس امكان نقل العناصر الفلسطينية من المناطق التي تشرف عليها قوات الطوارىء الدولية ، ومن صور والنبطية . وفي نهاية هذه المحادثات ، تألفت لجنة من سامي الخطيب ، وجوني عبده ، وأبو أياد لدرس امكانيات تنفيذ قرارات هذا اللقاء . وقد عقدت هذه اللجنة اجتماعات عديدة من غير ان تصل الى نتيجة . فلا منظمة التحرير الفلسطينية ولا الحركة الوطنية مستعدة لتسهيل دخول الجيش اللبناني الى الجنوب . والعرب رفضوا عقد مؤتمر قمة مخصص للجنوب ، لا بل رفضوا حتى تقريب موعد مؤتمر القمة العربي العاشر المقرر عقده في تونس بين ٢٠ و٢٢ تشرين الثاني ١٩٧٩ .

* * *

قمة تونس ستكون « قمة الياس سركيس » . ففيها أظهر الرئيس اللبناني على رؤوس الاشهاد ، وللمرة الأولى « استقلالية القرار اللبناني » . وطرح دون مواربة مبدأ الانسحاب التام لكل القوات الفلسطينية من مناطق الحدود . وبهذا الموقف واجه عرفات واتهم منظمة التحرير الفلسطينية بنشر الفوضى في لبنان عامة ، والجنوب خاصة ، ورفض التسوية التي اقترحها حافظ الأسد ، وتمسك ، حتى النهاية ، بتحفظاته على مقررات القمة ، لأنها قبلت « بالأمر الواقع الفلسطيني » في المناطق التي تشرف عليها قوات الطوارئ الدولية . وطالب بوضع استراتيجية عربية مشتركة لانقاذ الجنوب : « فأما المواجهة العسكرية على كل الجبهات العربية ، أو الهدنة على هذه الجبهات » ، في نظره لا يستطيع لبنان ، بأي حال ، تحمل حرب الاستنزاف وحده ضد اسرائيل ، وهي حرب تهدد أرضه ووجوده . وأخيراً حذر الرئيس اللبناني الدول العربية من هجوم اسرائيلي ممكن قد يشق الطريق الى حرب اقليمية .

في هذا المؤتمر لم يتردد الرئيس السوري، ولأول مرة، في الاقدام على نقد ذاتي في لقائه مع الرئيس اللبناني . فأخبرني الياس سركيس أن حافظ الأسد صارحه بقوله : « لم أكن أستطيع وحدي تنفيذ مقررات الرياض والقاهرة في الوقت الذي كانت تعارض فيه الدول العربية الأخرى الثلاث الممثلة في اللجنة الرباعية كل عمل في اتجاه هذا التنفيذ . لقد ارتكبنا خطأً عام ١٩٧٦ ، لما قبلنا بتأليف هذه اللجنة . أنا شخصياً لم أكن متحمساً لها . فلولاها لتمكنت بالاتفاق معك من تحقيق أهداف المبادرة السورية ووضع حد نهائي للأزمة في لبنان . أضف الى ذلك أنه لم يعد من حسن التصرف الاصطدام بالمنظمات الفلسطينية بعد زيارة السادات للقدس وبعد التوقيع على اتفاقية كمب ديفيد . ليس من المعقول أن أضرب البندقية الفلسطينية ، ما دامت اتفاقية كمب ديفيد تهدد مستقبلنا » .

ثم حاول حافظ الأسد التأثير على الياس سركيس لتخفيف حدة التحفظات اللبنانية على مقررات قمة تونس . وقد اقترح الرئيس السوري أن تنسحب منظمة التحرير الفلسطينية من الجنوب ، بشرط أن تعيّن الحكومة اللبنانية لها مكاناً لاقامة فدائييها . فرفض الرئيس سركيس هذا الاقتراح لأنه لا يريد أن يعطي الفلسطينيين « أي حق جديد » ، ولا عقد أية « اتفاقية قاهرة جديدة » . وأضاف الرئيس مخاطباً الأسد : « من غير المجدي أن تستمر في ضغطك عليّ مدة أطول . قرروا ما ترونه مناسباً وأنا أضع عليه التحفظات التي أراها مناسبة » .

وروى الرئيس سركيس أن المواجهة الأقسى كانت مع الفلسطينيين . فعند وصول الوفد اللبناني الى مطار تونس نظّم ياسر عرفات تظاهرة ضد الياس سركيس وخلق أبو عمار جواً محموماً ، فعلق الرئيس أمامي قائلاً : « ان أبو عمار ممثل مسرحي كبير . في وجه السعودية لعب ورقة البترول ، ووضع عرب الخليج أمام قرارين اثنين : إما أن تبقى منظمة التحرير في جنوب لبنان في مواجهة اسرائيل ، أو أن يستعمل العرب سلاح النفط لارغام الولايات المتحدة الأميركية على الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية . فوقفت الدول العربية كلها الى جانب منظمة التحرير ضد لبنان . كنت وحيداً في وجه الجميع ، إلا أني كنت مصمماً على المقاومة مهما يكن الثمن » .

وخاطب الرئيس القيادات العربية في المؤتمر بصراحة قائلاً لهم : « انكم جميعاً مع منظمة التحرير الفلسطينية ما دامت في لبنان . افتحوا لها حدودكم وبلدانكم ، فنكون نحن أول من يقتدي بكم . لو كانت منظمة التحرير تستطيع أن تُنزل باسرائيل نصف الأضرار التي تُنزلها بلبنان لانتهت المشكلة الفلسطينية من زمان » . وقد تضايق الفلسطينيون حتى الغيظ الشديد من موقفه هذا . وخشي عرفات انقلاباً في الموقف السوري ، وهو القليل الثقة بحافظ الأسد ، فركز هجومه على سركيس متجنباً التطرق الى السادات . وقال لي الرئيس اللبناني : « تبادر الى ذهني ، في لحظة ما ، أن الفلسطينيين لن

يُحجموا عن الاعتداء على حياتي . ولكن هذه الفكرة لم تزعزع عزيمتي . قلت في نفسي : هذا هو قدري » .

وهكذا وصل اللبنانيون الى مؤتمر القمة مدعين وشاكين ، فخرجوا منه مدعى عليهم ومتهمين . وكان الرئيس مقتنعاً بأنه اذا لم يعمل العرب شيئاً لانقاذ الجنوب ، فلبنان سائر الى التقسيم لا محال . وهو يرى السيناريو المحتمل بوضوح : تصعيد ، فحرب ، فاحتلال ، فتوطين ، فتقسيم . وبغية كسر هذا المسلسل الرهيب عمل الرئيس جاهداً للتقريب بين الكتائب وسوريا .

٥ ـ تقارب بَينَ الكَتائِب وَدِمشق ؟

في ١٢ نيسان ١٩٨٠ أطلق حزب الكتائب سراح خمسة وخمسين معتقلاً سورياً من عسكريين ومدنيين . وفي ١٧ من الشهر نفسه أطلقت السلطات السورية سراح ستة عشر أسيراً من المقاتلين الكتائبيين . وكان تبادل المعتقلين هذا نتيجة مسار طويل بدأ بالتقارب بين الياس سركيس وبشير الجميل من جهة ، وبالتفاوض بين حزب الكتائب وسوريا من جهة أخرى .

حرص الشيخ بيار الجميل على دفع ابنه بشير الى التفاهم مع الياس سركيس . ونشط جوزف سعاده ، أمين عام حزب الكتائب ، بوحي من ضميره الوطني وحسّه الحزبي ، لوضع حد للنزاع القائم بين ما يسميه « بشرعية سركيس وسلطة بشير » بغية توحيد الطاقات لمواجهة أعداء لبنان . كما عقد كل من ماديس اسود ، شقيقة بشير ، وجوزف أبو خليل ، رئيس تحرير جريدة « العمل » الكتائبية والمستشار القوي التأثير في حزب الكتائب ، سلسلة اجتماعات تمهيدية مع الياس سركيس ، بحضور فاروق أبي اللمع ، المدير العام للأمن العام ، أسفرت عن لقاء تمَّ بين رئيس الجمهورية والقائد العام للقوات اللبنانية .

كشف لي بشير الجميل ، في ١٣ أيلول ١٩٧٩ عن انطباعاته المتعلقة بلقاء الرئيس اللبناني ، فقال : « كان الرئيس لطيفاً ورحب بي ترحيباً حاراً ، على الرغم من الحملة القاسية التي أشنها بحقه . شرحت له بادئ ذي بدء اني ما جئت أطلب اليه خدمة ، ولا وظيفة ، ولا مساعدة مالية . ثم تحدثنا في كل شيء . وحرصت على أن أكرر أمامه مواقفي المعلنة ، ليدرك اني لا أتكلم بلغتين . وقد تأكد له تماماً أنه لا يستطيع أن يحتويني . قال لي : أنا أيضاً أقاوم على طريقتي ، مثلك وحتى بمقدار مقاومتك . الفارق بيننا أنك تستطيع التنفيس من كربك ، تستطيع أن تقول أو أن تعمل ما تريد ، أما أنا فلا أستطيع ولا يجوز لي ذلك . أنت تلعب الدور الاحلى » .

وطلب بشير الى الرئيس التوسط بينه وبين الولايات المتحدة الأميركية لانهاء النزاع المفتوح بينهما . فواشنطن تعامل بشير على أنه مهيج ورئيس عصابة . وحتى البعض في الادارة الأميركية ينظر اليه كارهابي ويقولون فيه انه « كارلوس لبنان ولكنه معروف بينما كارلوس الآخر مجهول » . ووعد رئيس الدولة « بتبييض صفحة » بشير لدى الاميركان وطلب منه في المقابل وقف حملته على الجيش اللبناني . فما كان من بشير إلا أن طرح على سركيس السؤال التالي : « ما الفارق بين الجيش الذي كان موجوداً

عام ١٩٧٥ والذي انهار والجيش الذي تعمل على بنائه الآن ؟ » أجاب الرئيس : « لا فارق » . فقال بشير : « دعني اذن ، يا فخامة الرئيس ، أفكّر قبل أن أعدك » .

وفيما كان بشير يروي لي لقاءه مع الياس سركيس أبدى لي رأيه الحاسم في موضوع الجيش ، فقال لي : « لا أستطيع المشاركة في تكوين جيش على طراز جيش ١٩٧٥ ، لأنه سينقسم من جديد عند الهزة الأولى ، فنضطر الى التضحية بأربعة آلاف شهيد ، شأننا هذه المرة ! ومن ناحية أخرى ، فان جيشاً كهذا سينقلب علينا ويكون معادياً لنا لأنه لا يؤمن ولا يستطيع أن يؤمن بقضيتنا . وأشك كثيراً بأن دولة قائمة على صيغة ١٩٤٣ تستطيع أن تحمل القضية اللبنانية وتتحملها . وعلى كلٍّ ، لا أريد قطع علاقاتي بالرئيس سركيس . وسأقبل كل ما يستطيع الحكم تقديمه لي ، ولكن بدون أي مقابل من جهتي . اذا استطاع الرئيس تجميل صورتي لدى الاميركيين سأكون رابحاً ، وإلا فلا أخسر شيئاً » .

ولم يفاتحني الرئيس بلقائه مع بشير الجميل إلا بعد مضي شهر ، في ١٧ تشرين الأول ١٩٧٩ ، فقال لي : « أشعر بتعاطف كبير مع بشير ، وأكِنّ له في قرارة نفسي بعض الاعجاب . وأعتقد ان استعادته ممكنة . في أثناء تحدثنا أحسست أنه تأثر بعض الشيء بالملاحظات التي أبديتها . اني عازم على متابعة اتصالاتي به . وكلفت جوني عبده تنسيق المسائل معه وتعميقها . لن أطلب الى بشير تغيير موقفه ، لأنه لا يريد ذلك ، ولا يستطيع ، وربما لا يجوز أن يغيّر » .

وبالواقع ، قام جوني عبده ، ابتداء من العام ١٩٨٠ ، بدور حاسم في تحقيق التفاهم بين الرئيس وبشير . وسرعان ما أصبح عبده ، وهو أصغر الفريق الحاكم سناً ، الرجل القوي والمسموع الكلمة في جمهورية سركيس . وقد استحق هذه المنزلة بفضل مواهبه . عيّنه الرئيس ، بناء على توصية فؤاد بطرس وغابي لحود ، رئيساً لمكتب الاستخبارات في الجيش اللبناني . وشغل عملياً مهمة المستشار الشخصي للرئيس في شؤون الأمن القومي . وقد نجح ، منذ تعيينه ، في بلوغ هدفين : ادخال ضباط مسلمين الى قيادة الجيش التي كانت مسيحية كلياً على أثر حرب السنتين ١٩٧٥ و ١٩٧٦ ، وانشاء جيش جديد مختلط مسلم — مسيحي .

وكان على جوني عبده اتخاذ أقصى الحيطة لانجاح الهدف الأول . والتجربة الأولى كانت في تعيين منير طربيه ، وهو من أصل درزي ، رئيساً للأركان . فقد طلب من قائد الجيش مرافقة رئيس الأركان الجديد في اليوم الأول خوفاً أن يشتمه أو حتى أن يضربه أحد الجنود المتعصبين . ودفع علاوة اضافية الى الحاجب ليقف على بابه . وهدّد عمال التلفون بأشد العقاب اذا امتنعوا عن الرد على نداءاته . ولكن الهدف الثاني القاضي ببناء جيش مختلط كان أكثر دقة . فكبار ضباط الأركان كانوا

يطالبون بجيش مسيحي . فبدأ عبده يجعل مكتب الاستخبارات مختلطاً ، ثم رأى من المناسب أن تقوم على حماية وزارة الدفاع مجموعة مختلطة من الجنود . فألّف الفوج المعروف باسم « المكافحة » .

وعوضاً عن أن يكتفي بالتحدث عن خيار توحيد الجيش ، فضّل أن يقدم نموذجاً عملياً لهذا التوحيد . فأوعز باقامة مخيمات تنشئة جديدة للضباط والجنود ، سماها « مخيمات الالفة » . وكرس السنة الأولى من تسلمه صلاحياته لحبك شبكة استخباراته بدءاً من الصفر ، وانشاء قوته الذاتية ، وتوفير الادوات الفاعلة والمؤثرة . وقد لاحظ جوني عبده : « أن الجيش اللبناني أحبط محاولات عديدة لتفكيكه قام بها المتنازعون على الساحة اللبنانية . وقد بقي متماسكاً بفضل وطنية الضباط المسيحيين والمسلمين على السواء . لقد راهنت على الوجدان الوطني في جيشنا وربحت الرهان » .

إن شخصية جوني عبده جذابة . فهو ذكي ، زاخر بالحيوية ، شجاع ، وأمين . حريص على القيام بالواجب ، يعمل ليل نهار ، دون ملل ودون أن يفقد ابتسامته وروح النكتة لديه . بقي نظيفاً وشريفاً في قيامه بعمل هو بطبيعته وسخ وفي أوساط موبوءة . وبفضل نزاهته وكفاءته أُسندت اليه أصعب المهمات وأكثرها حساسية : حمل الجبهة اللبنانية بكل أحزابها وتياراتها على مساندة سركيس ، واجتذاب الحركة الوطنية على الرغم مما فيها من ارتباطات خارجية وتناقضات ، وشرح قضية لبنان تارة للمسلمين اللبنانيين ، وطوراً لدمشق ، وأحياناً لواشنطن . وقد نجح خاصة في التقريب بين الياس سركيس وبشير الجميل ، وتقريب هذا من الولايات المتحدة الأميركية .

وفي منزله المليء دوماً بالناس والحركة ، عُقدت الاجتماعات الأوفر سرية بين مختلف المتنازعين . وهكذا رأينا تحت سقفه بشير الجميل ، والسفير الأميركي جون غونتردين ، ووليد جنبلاط ، ومحمد غانم رئيس الاستخبارات السورية في لبنان ، وهاني الحسن ، مستشار ياسر عرفات الشخصي ، وكثيرين غيرهم . وكانت آراؤه السياسية تدور حول ثابتتين اثنتين : لا يمكن ضمان الاستقرار في لبنان بدون جيش لبناني قوي ، ولا ضمان السيادة اللبنانية بدون الولايات المتحدة الأميركية . وفي نظره تقوم اسرائيل بلعبة خطيرة على لبنان والمسيحيين ، والرد الوحيد عليها هو التفاهم بين الياس سركيس وبشير الجميل والجمع بين حكمة الأول وديناميكية الثاني . أما حلمه الداخلي فكان أن يعمل في ظل بشير الجميل كما نشط في ظل الياس سركيس .

ساعد التقارب بين رئيس الجمهورية وقائد القوات اللبنانية ، في ايلول ١٩٧٩ ، على استئناف المفاوضات المقطوعة منذ أيار ١٩٧٨ بين دمشق والكتائب اللبنانية . وكان بيار الجميّل ، يصحبه بشير ، قد قام بآخر زيارة للعاصمة السورية في أول أيار ١٩٧٨ . وقد حلّت المجابهات بعدئذٍ محل المفاوضات في العلاقات الكتائبية — السورية .

وحيال كثرة المؤشرات المتناقضة الايجابية والسلبية الواردة من دمشق (*) قررت قيادة حزب الكتائب أن أقوم بزيارة العاصمة السورية ، وحُدِّد موعد قيامي بها في ٢٣ شباط ١٩٨٠ . وقد طلب اليّ بيار الجميل أن أُصر على أن تسود « روح النزاهة والاستقامة » العلاقات السورية — الكتائبية الجديدة . وأفهمني أمين الجميل أن « لا مشكلة شخصية » بينه وبين دمشق . وأخيراً كلفني بشير الجميل نقل الرسالة التالية : « نرفض كل وجود سوري عسكري في لبنان . ونرفض عقد معاهدة أمنية بين البلدين . ونريد ، في مقابل ذلك ، أن نقيم مع سوريا علاقات حسن جوار ، واذا دعت الحاجة الى اعتبار سوريا الدولة الأكثر رعاية » .

في الحقيقة كانت مهمتي تمهيدية واستكشافية . وقررت ان ابدأ المفاوضات بسؤال واحد اطرحه على عبد الحليم خدام ، وهو : « هل ان سوريا مستعدة لاستئناف الحوار مع حزب الكتائب؟ » . لم يتردد وزير الخارجية السوري في إعطائي جواباً مسهباً ، فقال : « لم نغلق الباب قط في وجه أحد . نحن نريد حلاً سياسياً للأزمة اللبنانية ، أي اننا نريد الحوار مع الجميع . لسنا في لبنان لنشجع حلاً عسكرياً ، بل العكس هو الصحيح . فاننا نعمل على احباط هذا الحل ، كل حلّ يقوم على غالب ومغلوب هو حلٌّ مشؤوم . اننا ندفع الجميع الى حلّ سياسي ينجم عن التفاوض والتوازن . لذلك يبدو الحوار مع حزب الكتائب أمراً طبيعياً » .

وعلى اثر هذا الردّ الايجابي من قبل خدام ، نقلت اليه رسائل بيار وأمين وبشير الجميل ، فرحب بالرسالتين الاوليين ، وقال ، في مايختص بالثالثة : « ليطمئن بشير . إن سوريا لا تحاول ان تحصل من لبنان على أية معاهدة من أي نوع . اننا نتحدى أي مسؤول لبناني ان يزعم أن مسؤولاً سورياً طلب اليه عقد معاهدة ما مع لبنان . تريد سوريا ان يكون لبنان دولة قوية تضمن امنها ، وتضمن بالتالي أمن سوريا » .

ثم انتقل الوزير السوري الى استطراد هو ، في الحقيقة ، صلب رسالته الاساسية الى الزعماء الكتائبيين ، فقال لي : « يجب اقفال الملف الاسرائيلي . اعملوا حسابكم انطلاقاً من واقع ثابت هو ان سوريا واسرائيل لا تستطيعان الالتقاء تحت مظلة واحدة . اقطعوا علاقاتكم مع اسرائيل ، ولا تراهنوا على الدولة العبرية التي تريد عاجلاً تدمير صيغة التعايش اللبناني ، وآجلاً تدمير لبنان برمته لأنه

(*) نقل المحامي اللبناني جورج جبر عن عبد الحليم خدام حديثاً أكد له فيه أن سوريا مستعدة للحوار إنْ مع الجبهة اللبنانية جملةً ، أو مع كل من الأحزاب التي تؤلفها ، وحتى مع المجلس الحربي الكتائبي الذي يتولّى قيادته بشير الجميل ، فاعتبر هذا الموقف ايجابياً . ولكن ، في المقابل دمر الجيش السوري في ١٥ شباط ١٩٨٠ بلدة قنات ، وقصف قرى أخرى عديدة مسيحية في شمال لبنان مما خلق اقتناعاً بأن سوريا ما زالت سلبية .

منافس اقتصادي لها. اذا كان بيار الجميل لبنانياً حقاً، فعليه أن يتصدى لاتفاق كمب ديفيد أكثر مما يتصدى له حافظ الأسد. فهذا الاتفاق يعني توطين الفلسطينيين في لبنان. وليس من مصلحتكم ان تواجهوا مشروع توطين الفلسطينيين بمشروع تقسيم لبنان. فاذا استولى الفلسطينيون على جزء من لبنان، فانهم سيستدعون الفلسطينيين الآخرين من مختلف اقطار العالم العربي. وسيأتي هؤلاء بكل تأكيد، لانهم يفضلون العيش في لبنان وفي ظل سلطة فلسطينية، على ان يبقوا في أي بلد آخر. وعاجلاً أو آجلاً، سيحاول الفلسطينيون الاستيلاء على القسم الآخر من بلدكم. قل لبشير من قبلي انه لن يحصل على شيء من اسرائيل، فهي لا تستطيع، في احسن الحالات، إلا ان تجعله قائداً عسكرياً كبيراً. سوريا وحدها تقدر ان تضمن له ان يصبح قائداً سياسياً كبيراً. فليختر ما يشاء!».

توسعتُ في شرح وجهة النظر الكتائبية، وذكّرت بمخاوف اللبنانيين، ولا سيما المسيحيين، حيال سياسة دمشق. وانهيت حديثي قائلاً: «تذكروا دائماً ان بشير الجميل سيبتعد عن التجربة الاسرائيلية بقدر ما تقترب سوريا منه».

في هذه المرحلة من محادثاتنا المستمرة منذ أربع ساعات، اقترح عليّ عبد الحليم خدام ان نعقد اجتماعاً آخر في المساء، بعد ان يكون قد اطلع الرئيس الأسد على فحوى حديثنا. ولكن جوني عبده اخبرني من بيروت ان الطفلة مايا، بنت بشير الجميل، سقطت في ذلك الصباح نفسه ضحية انفجار سيارة ملغومة. فقررت عندئذٍ ان اعود فوراً الى بيروت. وقد اضطرب خدام لدى اطلاعه على هذا الخبر، وحاول ان يحزر نتائج هذا الاعتداء، ومدى تأثيره في نفسية بشير. وربط هذا العمل بمسيرة التقارب السوري — الكتائبي، فقال لي: «اخشى ما أخشاه أن تكون اسرائيل وراء هذا العمل البربري. كلما ارتسم في الجو تقارب بين سوريا وحزب الكتائب، عمدت اسرائيل الى احباطه». والحقيقة ان ايلي حبيقة، رئيس شعبة الاستخبارات في القوات اللبنانية، سيكتشف لاحقاً أن منظمة فتح الفلسطينية هي التي دبرت العملية(*).

لم تزعزع المأساة عزيمة بشير الجميّل الذي شجعني على تكثيف اتصالاتي بدمشق، وقال لي: «نحن أحرار كالهواء. نعمل بحسب مصلحتنا. اني مستعد ان اذهب مع سوريا الى البعد الذي تتطلبه قضيتنا». اما الياس سركيس، فقد حمله الانفتاح الكتائبي — السوري على الاعلان، في ٥ آذار

(*) في ايلول ١٩٨٢، ألقت أجهزة الاستخبارات في القوات اللبنانية القبض على مرتكبي هذه الجريمة، فاذا هم ثلاثة لبنانيين، نزيه شعيا، وجوزف كازازيان، وميلاد موسى، وكانوا عملاء لمنظمة فتح.

١٩٨٠ ، عن المسلمات الاربع عشرة للوفاق . كما ظهر مؤشر ايجابي آخر وهو ان القوات السورية انسحبت ، في ٦ آذار ، من مناطق بيروت المسيحية وضواحيها .

ان ملف المشكلات بين دمشق والمسيحيين ، ولا سيما بينها وبين حزب الكتائب اللبنانية هو ملفّ ضخم . وحجم الخلاف بين الجانبين كبير ومتشعب : وجود الفلسطينيين ، الوجود العسكري السوري ، انتشار الجيش اللبناني ، العلاقات مع الحركة الوطنية وسليمان فرنجية . وعلى الرغم من كون هذه المسائل كلها من النوع السياسي فان جوهر المشكلة يتجاوز السياسة ويعود الى عوامل نفسية ويرتبط بسوء تفاهم تاريخي . فالحذر يكاد يكون كلياً بين الجانبين . ولهذا السبب اقترحت ، في اثناء زيارتي السرية الثانية الى دمشق ، في ٢ نيسان ١٩٨٠ ، خطة للتفاوض من نقطتين : تأليف وفد كتائبي يأتي علناً ورسمياً الى دمشق للبحث في العلاقات الكتائبية — السورية وتطبيعها ، واطلاق سراح المعتقلين من الجانبين كدليل حسّي على استعادة الثقة المفقودة . فقبل خدام ان يستقبل رسمياً ، في السابع من الشهر نفسه ، وفداً كتائبياً مؤلفاً من جورج سعاده ، وهو نائب البترون وعضو المكتب السياسي ، ومني . وبالتالي أعيد فتح طريق دمشق . وقد قام الوفد الكتائبي بتقديم مذكرة لخصت جملة المواقف الكتائبية التي بحثتها سابقاً مع الوزير خدام . وتشدد هذه المذكرة على النقاط التالية :

١ — رفض التوطين الفلسطيني وضرورة اخضاع كل الفلسطينيين المقيمين في لبنان لسيادة الدولة اللبنانية وقوانينها .

٢ — سحب الجيش السوري تدريجياً ، وإحلال الجيش اللبناني محلّه بموجب برنامج زمني يجري التفاوض بشأنه مع السلطات اللبنانية .

٣ — اقامة علاقات خاصة بين لبنان وسوريا ، بدون عقد معاهدة أمنية .

٤ — الموافقة على فكرة عروبة لبنان بشرط ألاّ تكون مقدمة لأسلمة البلاد .

٥ — تطبيع العلاقات الكتائبية — السورية . وضمان أمن سوريا في المناطق الخاضعة للاشراف الكتائبي .

واقترح الوفد الكتائبي . فضلاً عن ذلك . ثلاثة اعمال فورية : تجميد الوضع في شمال لبنان كي تتاح لسوريا الفرصة الكافية لايجاد مخرج للنزاع القائم بين الكتائب وسليمان فرنجية . وقف الحملات الاعلامية وقد خفّت تدريجياً . اطلاق سراح المعتقلين وقد تحقق بعد أيام قليلة .

قبل عبد الحليم خدام فوراً المقترحات الثلاثة ولكنه أصرّ على مزيد من الشرح في ما يختص بمسألة فرنجية . فقال : « ليست علاقاتنا مع سليمان فرنجية من النوع العاطفي فقط . في حرب تشرين

عام ١٩٧٣ ، كان الطيران الاسرائيلي يمنع وصول شحنة من الدبابات التي كنا بحاجة اليها الى مرافئنا . وكنت اعرف نزيه البزري[*] ، فطلبت اليه ان يتصل برئيس الحكومة اللبنانية الذي كان آنذاك تقي الدين الصلح ، للسماح لنا بانزال الدبابات في ميناء طرابلس . فتهرب الصلح من هذا الموضوع . وعندئذٍ اتصل البزري بسليمان فرنجية ، وأطلعه على طلبنا ، فوافق فرنجية فوراً وأجاب : لتعتبر سوريا مرفأ طرابلس مرفأً سوريًّا حتى نهاية الحرب » . وأضاف خدام قائلاً : « ان الرئيس الأسد لن ينسى ابداً هذه البادرة الكريمة . واذا طلب فرنجية نصف الجيش السوري فرئيسنا مستعد لان يرسله اليه » .

ثم رد الوزير السوري على موقفنا نقطة نقطة على الوجه التالي :

١ — ان كمب دافيد قد كرس نهائياً توطين الفلسطينيين . وهذه خيانة لا تغتفر ! من جهة أخرى ، يجب انشاء لجنة « عقّال » تضم ممثلين عن لبنان ، وسوريا ، ومنظمة التحرير الفلسطينية ، لتنظيم الوجود الفلسطيني في لبنان .

٢ — على الجيش السوري ان ينسحب من لبنان لأن دوره هو الدفاع بصورة أولية عن الأرض السورية . إلا ان الولايات المتحدة الأميركية تعتبر ان لبنان لم يصبح قادراً بعد على حكم نفسه بنفسه . فما كدنا نعلن رغبتنا في سحب وحداتنا من بيروت ، في ٣ شباط الماضي ، حتى هرع السفير الأميركي اليّ مضطرباً ليسألني ، والقلق بادٍ على وجهه : « الى أين انتم ذاهبون ؟ » .

٣ — في ما يختص بعقد معاهدة أمنية لم نتقدم بأي طلب ، ولن نرفض أي عرض . نحن قوميون عرب . نستطيع قبول الحد الأقصى ، كما نستطيع الاكتفاء بالحد الأدنى . لقد اقترح الرئيس فرنجية علينا عام ١٩٧٦ معاهدة دفاع مشترك تتيح لنا التدخل في لبنان ، فتدخلنا بدون ان نطالب بشيء . ولمّح الرئيس شمعون ، عام ١٩٧٧ ، الى فكرة اتحاد فدرالي يضم سوريا والاردن ولبنان ، فلم يلقَ منا أي جواب . وعرضت علينا الولايات المتحدة الأميركية الاردن ولبنان ، في مقابل ذهابنا الى مؤتمر جنيف بدون منظمة التحرير الفلسطينية ، فرفضنا عرضها . وحتى الآن ، لم يتقدم الرئيس سركيس بأي شيء في هذا الصدد ، ونحن لا نطالبه بشيء .

٤ — من الراهن انه لا بد من التمييز بين العروبة والاسلام ، حتى المملكة العربية السعودية تريد نفسها عربية أولاً . اما نحن ، فاننا ، من حيث العقيدة ، قوميون عرب ، ومبادئنا

(*) نائب صيدا ووزير سابق .

البعثية تقول بالعلمنة . اننا ننتقد النظام اللبناني لأنه طائفي ، ونتحمل حقد المسلمين المتزمتين كالاخوان المسلمين لاننا عروبيون لا اسلاميون .

٥ — شرطنا الوحيد لاقامة أفضل العلاقات مع حزب الكتائب هو ان يوقف هذا الحزب تعامله مع اسرائيل . قولوا لبشير الجميّل اننا لا نضمر له حقداً ولا ضغينة . مشكلتكم ليست معنا ، بل مع اسرائيل .

وبعد عدة أسابيع ، دُهش فؤاد بطرس من التقدم الكبير الذي أحرزته المفاوضات الكتائبية السورية ، فقال لي : « لم يعد خدام يرى في لبنان غير حزب الكتائب . وفي داخل هذا الحزب ، لا يرى غير بشير الجميل » . وقد استمر هذا التقارب حتى كانون الأول ١٩٨٠ ، تاريخ بدء عملية زحلة التي ستشكل في نهاية عهد الياس سركيس احدى المفاجآت الخمس التي لا تصدق .

الفصل الثاني

حدوث ما لا يُصدّق

منذ قمة تونس ، لم يعد الياس سركيس يتردّد في ابداء آرائه بوضوح وصراحة . لقد تغيرت لهجته ، وتبدّلت لغته . انه الآن يتكلم أكثر ، وبلا تحفظ . اصبح أوفر ثقة بنفسه ، واكثر اطمئناناً الى المستقبل . ففي وجه الجبهة اللبنانية ، يتباهى بانه هو أيضاً مقاوِم ، على طريقته ، لأنه لم يتنازل عن أي شيء لأحد . ويلوم الحركة الوطنية على ارتباطها بالفلسطينيين والسوريين . ويذكر منظمة التحرير الفلسطينية بتجاوزاتها وتعدياتها . ويواجه سوريا باستقلالية القرار اللبناني والرفض المسيحي . ويرسم للولايات المتحدة الاميركية لوحة قاتمة عن تصرفاتها الغامضة . لم يعد يخشى المغامرة ولا المفاجآت التي ما لبثت ان أخذت تتوالى .

وجاءَت اولى هذه المفاجآت في ٧ تموز ١٩٨٠ عندما استطاع بشير الجميّل ان يسيطر على كل المنطقة المسيحية . وفي ٢ نيسان ١٩٨١ شنت سوريا هجوماً ضارياً على زحله جرَّ وراءَه ذيولاً لم تكن في الحسبان . واجتاحت اسرائيل لبنان ، في ٦ حزيران ١٩٨٢ ، ودخل ارييل شارون بيروت مثيراً دهشة العالم اجمع . وحصلت مفاجأة المفاجآت ، في ٢٣ آب ١٩٨٢ ، اذ انتخب بشير الجميّل رئيساً للجمهورية . وكان اخيراً ١٤ ايلول ١٩٨٢ موعداً جديداً مع السلام المفقود باغتيال الرئيس المنتخب .



١ ـ بشير سيّد في منطقته (٧ تمّوز ١٩٨٠)

في بداية عام ١٩٨٠ كان الياس سركيس يتخوف من مدى التدهور في العلاقات بين حزبي الكتائب والوطنيين الأحرار. والواقع ان المواجهة بين هذين التنظيمين اصبحت دامية وراحت تتصاعد يوماً بعد يوم. ففي الشهور الاثني عشر الأخيرة لم يقلّ عدد الضحايا من الجانبين عن مائة قتيل، سقطوا في معارك هامشية بين تنظيمات الجبهة اللبنانية. فانتشرت الفوضى وفُقد الامن في المناطق المسيحية واستولى اليأس على السكان. وبذل كميل شمعون وبيار الجميل عدة محاولات لضبط الفلتان وشكّلا في أيار ١٩٨٠ لجنة مشتركة من أهم القياديين في الحزبين؛ اذ ضمت من الجانب الكتائبي: أمين وبشير الجميّل، وجورج سعاده، وادمون رزق، وسمير اسحق، وجوزف أبو خليل وانا، ومن جانب الوطنيين الاحرار: داني شمعون، ومارون حلو، ونبيل كرم، وشارل غسطين، وكميل مكرزل، وسيريل بسترس، ونهاد شلحط.

وفي اثناء جلسة استثنائية عُقدت في ٥ أيار ١٩٨٠ بحضور بعض اعضاء من المكتب السياسي الكتائبي، شرح بشير الجميل الأوضاع الراهنة بمنطق فظ وواع في آن معاً، فقال: «ان داني شمعون هو الآن فريسة هاجسين: الحزب الواحد، والاغتيال. وهو يتهمني باني أهيئ للأول وأُعدّ للثاني. أما انا فهمي الوحيد هو المحافظة على معنويات الشعب لان الايمان بالمقاومة اللبنانية بدأ يتداعى ويكاد يسقط. وفي وسعنا ان نتصور ثلاثة حلول. الاول ان ندع كميل شمعون وبيار الجميّل يعالجان هذا الوضع، أي القبول بالاهتراء الحاضر. والثاني يقوم على ان نرضخ لمطالب الوطنيين الاحرار، وهذا يعني التخلي عن مسؤولياتنا. أما الثالث فيؤدي الى حسم الخلاف بالقوة، أي اهدن جديدة. اني ارفض الاهتراء، ولا اقبل الاستقالة، ولا اريد اهدن جديدة، مع العلم ان خطة احتلال الصفرا(*) جاهزة. واعلل الأمل بان أجد حلاً رابعاً يُجنّبني التمزّق في داخل الفريق المسيحي».

ارتكب محازبو الشمعونيين، في ٢ و٣ تموز، خطأً مشؤوماً، إذ دمروا مقر حزب الكتائب في وادي شحرور، في قضاء بعبدا، وقتلوا وجرحوا عدداً لا يستهان به من الكتائبيين. وكانت هذه الحادثة بمثابة الشرارة الحارقة. فعقد المكتب السياسي الكتائبي اجتماعاً استثنائياً في ٥ تموز لهذه

(*) قرية تقع على ساحل كسروان وتعتبر منطقة نفوذ لحزب الوطنيين الاحرار وفيها يُقيم داني شمعون شخصياً.

الغاية . وقد ساد الاجتماع جو يطالب بضرورة الرد بالمثل . ولكن لم يُتّخذ أي قرار قطعي . فاخذ بشير الجميّل على عاتقه مسؤولية القيام بعملية واسعة النطاق . فامر معاونيه بتنفيذ خطة الصفرا التي أطلق عليها اسم « لينا » وحُدد تاريخها في ٧ تموز .

استغرقت العملية بضع ساعات . هاجم الكتائبيون كل مقرّات الوطنيين الاحرار وثكناتهم في الاشرفية ، والمتن ، وكسروان ، وجبيل . واطبقت قوات بشير الجميّل على كل المحاور وعلى كامل أسلحة الوطنيين الاحرار الذين قاوموا في البداية ثم استسلموا تباعاً . وقد سقط من جراء هذه العملية عشرات القتلى والجرحى وتشتت محازبو كميل شمعون وسادت في اوساطهم موجة من الذعر والذهول .

وكعادته في أثناء العمليات العسكرية أوقف بشير كل الاتصالات ، فلم يعد يرد على أحد ، وحتى على والده . وما ان انتهت العملية العسكرية بنجاح حتى دعا بعد الظهر اللجنة المشتركة بين الحزبين للاجتماع بحضور كميل شمعون وبيار الجميّل في دير مار انطونيوس في السوديكو . ولم يشترك أمين الجميّل وداني شمعون في هذا اللقاء . ورافق بيار الجميّل كميل شمعون من منزل هذا الاخير الى مكان الاجتماع . وكان الجو متوتراً يشبه جو الانقلابات ، أو الحرب الاهلية . فالشوارع والأزقة خالية خاوية ، والميليشيات الكتائبية منتشرة في كل مكان ، والرعب بادٍ على الوجوه ، والمستقبل مبهم . وكأن كل شيء يمكن ان يحصل . وقد قال لي بيار الجميّل فيما بعد : «كنت اتخوف من اللحظة الأولى التي سالتقي فيها كميل شمعون . ولكن ، ما ان رأيته حتى فهمت اننا نستطيع اجتناب الأسوأ » .

بدأ الاجتماع في جوٍّ مكهرب الى حد قصيّ . وكان كميل شمعون في حيرة وضياع كأنه لم يدرك بعد حقيقة ما حدث ، لأن الاتصالات بين مراكز حزب الوطنيين الاحرار كانت قد قطعت . وقد أبدى قلقه على حياة ولديه داني ودوري ، وعلى مصير احفاده . فالأسد الهرم احس بانتهاء ملكه ، ولكنه ظل محافظاً على جلاله . تولّى رئاسة الاجتماع ، وقال : « الحوادث مؤسفة وخطيرة . ولا نعرف بعد مداها وحجمها . كل نزاع فيما بيننا شديد الضرر على قضيتنا . لا اميّز بين الكتائبيين والوطنيين الاحرار . كل ما يضعف هؤلاء ينعكس حتماً على اولئك . فهذه المعارك تجيء في غير اوانها . وفي وقت يطوقنا فيه اعداؤنا السوريون والفلسطينيون . يجب ان يتوقف القتال . وان نحدّ من الخسائر » .

بدا شمعون كأنه تلقى الضربة وارتضاها . فما هدد الكتائبيين بفك تحالفه معهم . ولا طالب بعقوبات ضد الفاعلين . وحيال هذه اللهجة المعتدلة والداعية الى الاعتدال . انحنى بشير الجميّل عليّ وقال لي : «كميل شمعون رجل دولة عظيم . يعرف ان ينتصر كما يعرف ان يخسر . لقد تبيّن ان حساباتي صحيحة . لقد ربحنا الدقّ » .

وتناول بيار الجميّل الحديث ، فتكلم مطولاً ووصف الوضع بأنه خطير للغاية . ونوه « بروح الحكمة والوطنية التي يتحلى بها الرئيس شمعون » واشار انه لو عمل كميل شمعون على غرار سليمان فرنجية لكانت الكارثة ، وأضاف : « يجب أن تقوم بين داني وبشير العلاقات نفسها القائمة بين الرئيس شمعون وبيني . الخلاف بين داني وبشير كارثة على قضيتنا . ولكن الضربة القاضية ان ينشأ خلاف بين كميل شمعون وبيار الجميّل ... » .

عندها اقترح مسؤولان كبيران في حزب الوطنيين الاحرار هما مارون حلو ونبيل كرم حلّ ميليشيات حزبهما ، فأجاب بيار الجميل : « لا أقبل بأن ينسحب حزب الوطنيين الأحرار من الميدان ، تاركاً عبء المقاومة على الكتائبيين وحدهم . ارفض ان يذهب كلٌّ منّا في سبيله ... فالزعران كالحنش والزغلول(*) لا يجوز ان ينتصروا على كميل شمعون وبيار الجميّل ، ولا ان يفرّقوا بين الكتائب والوطنيين الاحرار . عندي فكرة أفضل من ذلك . فاني اقترح توحيد الحزبين ، ويكون كميل شمعون رئيساً ، وانا اميناً عاماً » .

أجاب كميل شمعون : « ليس اقتراحك عمليا ، يا شيخ بيار . فحزبك قائم منذ أربعة وأربعين عاماً ، وأنت رئيسه . ولن يقبل الكتائبيون برئيس آخر ، حتى لو كان اسمه كميل شمعون » . فألحّ الشيخ بيار على شمعون قائلاً : « إقبل أنت اقتراحي ، وأنا أتكفل باقناع المكتب السياسي في الكتائب . سأكون أميناً عاماً مطلق الصلاحيات ، وستكون أنت رئيس شرف » . فانتفض كميل شمعون ، ولكن بيار أكمل حديثه موضحاً : « أفهم برئاسة الشرف أن تهتم بالمسائل الكبيرة ، وأن تُلقي الباقي عليّ ! » .

لم يتدخل بشير الجميل في الحديث ، تاركاً لأبيه مهمة تسوية الأمور . وفيما بعد ، في ٩ تشرين الثاني ١٩٨٠ ، سجل ملاحظاته تمهيداً لوضع مذكراته ، فعدّد الأسباب البعيدة والقريبة التي حملته على تنفيذ عملية ٧ تموز . وقد قال في هذا الصدد : « كان يفترض بالقوات اللبنانية أن تكون قوات توحيد منذ العام ١٩٧٧ ، فلم تستطع أن تكون إلا جسماً تنسيقياً . لقد أخفقنا في استيعاب كل الميليشيات وهضمها في جسم واحد متجانس الأجزاء ، موحَّد الجوهر . كان يجب أن تتم عملية ٧ تموز قبل ثلاث سنوات . ففي غياب قيادة موحدة كان لا مفرّ من الاحتكاكات . وكلما كانت الكتائب تطالب بحسم هذا الموضوع ، كانت تتألف لجنة تحقيق . وكان كميل شمعون يتدخل ، فلا يتخذ أي

(*) لقبان لمسؤولَيْن في حزب الوطنيين الاحرار .

قرار بفرض أي عقوبة . فبدأ المواطنون يعيشون منذ سنة تحت وطأة كابوس رهيب ، ورصيد المقاومة اللبنانية راح يتأذى ويتناقص . وفي نهاية العام ١٩٧٩ أوقفت في اللحظة الأخيرة عملية عسكرية شبيهة بما حدث في ٧ تموز . واستنجد الرئيس شمعون والشيخ بيار بالجيش اللبناني ، فما تمكنت من منع انتشاره ، وقبلت به وفي قلبي غصة . ودخل الجيش دخول المنتصر . وتصرف بكبرياء ، وحتى بشراسة أحياناً . فانتقل التوتر من عين الرمانة الى الصفرا ، ثم الى الحدث . وكان داني يراهن كل مرة على التفاهم بين أبيه والشيخ بيار . وكان يتكل أيضاً على التواطؤ مع بعض الضباط في الجيش اللبناني . وكنت أشك بالشعبة الثانية . وأظنها غذت الخلافات وتعاطت بشكل مشبوه مع زعران حزب الوطنيين الأحرار . ولما حدثت الصدامات في الأشرفية في شهر أيار وحزيران ، اعتبرت أن الأمر قد وصل الى الخط الأحمر واتخذت قراري . كنت أنتظر فقط الفرصة المؤاتية ، فجاءت عملية وادي شحرور لتعجل الأحداث » .

وشدّد بشير الجميل على أنه أنذر الوطنيين الأحرار علانية في خطاب القاه في ٢٧ حزيران ١٩٨٠ في جونيه . وقد أطلق في هذه المناسبة ، شعاره المشهور : « تعددية سياسية ووحدة عسكرية » . وأصرّ ، من ناحية أخرى ، على ضرورة توحيد الميليشيات « وإلا جاء مجنون يوحدّها بالقوة » على حد قوله . إلا أن هذا « المجنون » قد أجاد القيام بعمليته على الوجه الأكمل . ليس هذا بجنون عسكري بل انها براعة سياسية كبيرة .

قال لي بشير الجميل صباح ٧ تموز : « أُعِدّت العملية إعداداً عسكرياً حسناً . وقد شدّدت على أمرين اعتبرهما مفتاحين للنجاح وهما : المفاجأة لاجتناب كثرة القتلى ، وحماية كميل وداني شمعون حماية تامة . وفي هذا السبيل صدر الأمر بأن لا تُنفذ العملية إلا بعد خروج داني من الصفرا » .

ومساء السابع من تموز قدم داني شمعون استقالته من حزب الوطنيين الأحرار وغادر المناطق المسيحية بعد أن باشر حملة شديدة على الكتائب . ثم عقد اتصالات مع خصوم بشير الجميل اللبنانيين والفلسطينيين والسوريين وانتقد موقف أبيه التوفيقي واعتبر أن « مجزرة ٧ تموز » هي اهانة شخصية موجهة اليه .

داني شمعون كبشير الجميل هو الأصغر في العيلة والمفضل لدى أبيه . ورث عن كميل شمعون لياقة المظهر : طويل القامة ، جميل المحيا ، أشقر الشعر ، أزرق العينين ، وذو مشية رياضية . تعلو شفتيه ابتسامة دائمة ويتمتع بجاذبية أكيدة .

فرض نفسه ، في بداية حرب السنتين ، بشجاعة ومهارة . أسس ميليشيا أطلق عليها اسم

« النمور » تيمناً بلقب أبيه « النمر » . خطط عام ١٩٧٦ معركة تل الزعتر ضد الفلسطينيين وخاضها بنجاح . حرص على تقريب والده من الياس سركيس منذ ١٩٧٧ وعمل على فتح خطوط الاتصال مع سوريا . يتمتع بعلاقات كثيرة في الخارج وتربطه بالملك حسين عاهل الأردن روابط وثيقة .

تلقى تربية انكلو — ساكسونية وهو يميل الى انجاز الأفعال أكثر من الغوص في الأفكار . يتجنب الجدل الايديولوجي والمقابلات الصحافية . يتكلم قليلاً ولكنه إن فعل تقدم بالحلول العملية والحسية . لا يملك نظرة سياسية شمولية لكنه لا تنقصه التطلعات التجددية . فهو يتميز بروح « لا طائفية » . ويحيط نفسه بمجموعة من الشباب تنتمي الى مختلف الطوائف من درزية وشيعية وسنية . ينادي بتخطي الطائفية عن طريق التنمية الاقتصادية والاجتماعية . وكان عبد الحليم خدام لا يخفي تفضيله لداني على بشير فيردد مازحاً : « يجب تسمية الأول داني الجميل والثاني بشير شمعون ! » .

في اليوم التالي للسابع من تموز عقد اجتماع آخر ضم مسؤولين من الكتائب والوطنيين الأحرار بغية تطويق ذيول ما حدث . وقد بدا كميل شمعون مذعناً ، ولكنه ظل على جانب جذّاب من صفاء الرؤيا . تحدث عن حزب الوطنيين الأحرار وكأنه ليس حزبه ، وعن الكتائب كأنها الحزب الحاكم . وتوجه بحديثه الى بشير الجميل بكثير من المودة والهدوء . فهمس بشير في أذني وهو يشير برأسه الى شمعون : « لقد احترمته دائماً . أما اليوم فاني معجب به ! » .

* * *

من لم يعش هذه اللحظات وتلك المعاناة لن يفهم معنى « حركة ٧ تموز » وأبعادها . لقد أرادها بشير الجميل عملية « تنظيف داخلية » غايتها توحيد البندقية اللبنانية ودفع المقاومة باتجاه التحرير . لكن البعض رأى فيها بداية « هيمنة الحزب الواحد » ، وخشي البعض الآخر قيام « دولة مسيحية » . والجميع كانوا يرهبون صعود بشير بتلك القوة التي لا تقاوَم . وحده الرئيس سركيس كان في حيرة . قال لي في ١٤ تموز ١٩٨٠ : « لا أدري هل الكتائب على حق ، وهل الوطنيون الأحرار على خطأ . ولكني أعلم اني أشعر بانعطاف كبير على داني من جهة ، ولا أريد افساد علاقاتي الجديدة ببشير من جهة أخرى . اني في موقف غير ملائم للتدخل في الخلاف الناشب بين الحزبين . وقد تُفسّر وساطتي على انها تدخل في شؤون الجبهة اللبنانية الداخلية . إلا اني ، من ناحية أخرى ، لا أستطيع البقاء بلا حراك . فالشعب يعتبرني مسؤولاً . يجب أن أُحوِّل الانتباه ، وأحاول تأليف حكومة فعاليات » . وفي ١٦ تموز قبل الرئيس سركيس الاستقالة التي قدمتها حكومة الحص في ٧ حزيران .

اعتبر بشير الجميل هذا القرار مناورة ترمي الى اعطاء الوطنيين الأحرار تعويضات على حسابه . فسادت العلاقات بين سركيس وبشير سحابة من التوتر . وكان أن خُطف شارل رزق ، صديق الرئيس

الشخصي ، في ٢٢ تموز في الأشرفية ، وأُطلق سراحه في اليوم نفسه . ودخل الجيش في ١٠ و ١١ أيلول الى مقرين كتائبيين في الحدث وضاحية بيروت الجنوبية . وشاهدت عين الرمانة في ٣١ تشرين الأول صداماً بين الجيش اللبناني والقوات اللبنانية التي أجبرته على الانسحاب .

ولكن الرئيس سركيس لم يقطع علاقاته ببشير الجميل . وكان يجيب محرضيه على بشير ومشروعه الرامي الى الحلول محلّ الدولة : « تحدثونني عن دولة بشير ، وتنسون دولة عرفات » . وفضلاً عن ذلك ، شجع سركيس جوني عبده على أن يحافظ على علاقات طيبة مع بشير ، مهما تكن المتاعب والصعوبات . وقد عمّق عبده اتصالاته بزاهي البستاني المستشار الأقرب الى بشير الجميل . ويتميز هذا المستشار العامل بجد وصمت بالوفاء ، وبُعد النظر ، والفعالية . وكان لهذا « الثنائي » ، جوني — زاهي ، الفضل في انقاذ التفاهم مرات عديدة بين رئيس الدولة وقائد القوات اللبنانية .

وقد عادت نوعاً ما المياه الى مجاريها بعد تعيين سليم الجاهل ، وهو بشيري في الصميم ، وزيراً في حكومة شفيق الوزان التي تألفت في ٢٥ تشرين الأول ١٩٨٠ لتخلف حكومة الحص . ولم يكن تأليف هذه الحكومة الجديدة بالشيء اليسير . وكانت سوريا قد اقترحت رئيساً للوزراء واحداً من ثلاثة أسماء : رشيد كرامي ، مالك سلام وسليم الحص . ولكن سركيس كلف شخصاً رابعاً هو تقي الدين الصلح الذي اعتذر في ٩ آب عن انجاز هذه المهمة بسبب المعارضة السورية . فما كان من الرئيس الا أن اختار شفيق الوزان الذي قبل المهمة على الرغم من الحملة السورية عليه . بقي أن تنال هذه الحكومة الجديدة الثقة البرلمانية . وعمدت دمشق الى تشكيل أكثرية نيابية تعارض هذه الحكومة . وسعى وسطاء عديدون لتليين العقدة السورية دونما جدوى . وكان الرئيس يعلم تمام العلم أنه يقتضي ايجاد ثمن ما لتبديل موقف دمشق . فقد ردّ على طلب سامي الخطيب العائد من دمشق والذي يبغي مقابلته لاطلاعه على « بعض الايجابية » التي ظهرت في الموقف السوري ، قائلاً بمرارة واقعية : « المهم انك ذهبت الى دمشق وحافظت على الاتصال بالمسؤولين السوريين . أنا أعرف الجواب سلفاً فهو سلبي حتماً . فاذهب واسترح ولا داعي لأن تراني بهذا الشأن » .

وهكذا انتظر الرئيس الوقت المناسب لرفع الفيتو السوري عن حكومة الوزان . وقد سنحت الفرصة بسبب النزاع الحاد الذي نشب بين سوريا والأردن حول الدعوة الى عقد مؤتمر قمة في عمان . فقد وقفت دمشق بشراسة ضد انعقاد هذه القمة وبذلت كل جهد لافشالها . فاتصل حافظ الأسد بالياس سركيس طالباً منه استقبال موفده الشخصي ، حكمت الشهابي ، الذي وصل الى قصر بعبدا في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٨٠ . وأبلغ الشهابي الرئيس اللبناني رغبة الرئيس السوري بأن يقاطع لبنان قمة عمان . واسترسل الموفد الرئاسي في شرح سلبيات هذا المؤتمر والايجابيات التي يكسبها لبنان من عدم حضوره . فقاطعه الياس سركيس قائلاً : « لا تسعَ لاقناعي . الحجة الوحيدة المقنعة أن الرئيس الأسد

لن يحضر هذه القمة . أنا متضامن معه » . وأصيب الشهابي ببعض الذهول ، وقبل مغادرته القصر قال له سركيس : « قل للرئيس الأسد من قبلي أنه لا يجوز أن تستمر الأزمة الحكومية أكثر » . وبعد أيام معدودة تبدلت لهجة الأكثرية النيابية المعارضة واستطاعت حكومة الوزان أن تنال الثقة بأغلبية كبيرة . وهكذا قدر للرئيس أن يربح حكومة يتمسك بها مقابل عدم حضور مؤتمر لا فائدة للبنان منه .

* * *

بعد الغيمة العابرة في العلاقات بين الياس سركيس وبشير الجميل التقى الرجلان في ٢ تشرين الثاني ١٩٨٠ . وجرت خلال هذا الاجتماع مكاشفة في غاية من الاهمية . فقد طرح رجل المسيحيين القوي سؤالاً واضحاً على رئيس الدولة . قال له : « هل تعتبر صيغة **١٩٤٣** قابلة للحياة ؟» أجاب الرئيس : « هذا أمر مستحيل » . فاقتنع بشير بامكانية التفاهم مع الرئيس وقررا على هذا الأساس ان يؤلفا مع معاونيهما مجموعة عمل لدرس صيغة المستقبل والاستراتيجية المقبلة .

والحقيقة ان التنسيق بين مقاومة مسلحة وسلطة دستورية في بلد واحد ليس من الامور الدارجة والمألوفة . فمن حيث المبدأ ، كل مقاومة مسلحة تستولي على السلطة بالقوة ، وكل سلطة دستورية تقاتل هذه المقاومة بكل ما لديها من وسائل . وهذه التجربة قل نظيرها وهي تستهوي وتثير الى أقصى حد ، خاصة وان لا شيء يجمع بين الرجل المحافظ الذي هو الياس سركيس ، وبين المقاتل المتمرد الذي هو بشير الجميّل . وقد عمد بشير ، اثر هذا اللقاء ، الى عقد سلسلة اجتماعات ضمت شخصيات سياسية ودينية قريبة من المقاومة ، ليقيس مدى التأثير الذي يمكن ان يحدثه تفاهمه الجديد مع السلطة .

وبناء على طلب بشير الجميل وضعتُ ورقة عمل جرت مناقشتها واعتمادها في ١٣ تشرين الثاني ١٩٨٠ كوثيقة سياسية ومرجع لكثير من المواقف . وقد استوقفت بشير فكرة التكامل بين الدولة والمقاومة وجاء في هذا الصدد ما حرفيته : « ان المقاومة المسيحية ارتفعت بأزمة لبنان الى مستوى القضية . على الرغم من كل اخطائها استطاعت المقاومة المسيحية ان تخلق جيلاً يحمل بندقية من اجل قضية . كما استطاعت ان تحافظ على الحرية ولو في رقعة صغيرة من لبنان . لقد اصبحت القضية اللبنانية مرتبطة بشكل مصيري بالمقاومة المسيحية . ولكن المقاومة المسيحية لا تستطيع ان تحافظ على كل لبنان . المقاومة المسيحية ضرورية لبقاء لبنان المسيحي لكنها غير كافية لتحرير لبنان باكمله . فاذا بقيت المقاومة المسيحية وحدها فهي سائرة نحو اقامة وطن مسيحي يخدم رغماً عنها مشاريع التقسيم والتوطين . أما اذا تطورت المقاومة المسيحية فاصبحت مقاومة لبنانية فبمقدورها ان تحرر كل لبنان وتعيد اليه سيادته ووحدته . وهنا يبرز دور الشرعية التاريخي . فالمطلوب قرار تاريخي تتخذه الشرعية بتبني المقاومة

المسيحية وتحويلها الى مقاومة لبنانية . انه اخطر واصعب قرار يتخذه الحكم . لانه يفترض شرطاً مسبقاً وهو اقدام الشرعية على تغيير ذاتها ، طابعاً وطبيعة ، كي تستطيع تغيير ذات المقاومة ، نوعاً وتوجهاً ... مطلوب من الشرعية ان تتحول الى شرعية اخرى ذات طابع ثوري كي تستطيع تحويل المقاومة المسيحية الى مقاومة لبنانية ... من هنا تبرز ضرورة وضع خطة استراتيجية قائمة على ثلاثة خيارات رئيسية : إما مبادرة من الشرعية بدعم من المقاومة اللبنانية ، واما مبادرة من المقاومة اللبنانية بدعم من الشرعية ، واما مبادرة من المقاومة بدون الشرعية أو ضدها ... » .

وفي اثناء مناقشة ورقة العمل هذه لخص شارل مالك المناقشات وطرحها في صيغة موفقة كالآتي : « هدف المقاومة هو تحويل الشرعية الحالية الى شرعية اخرى عن طريق الشرعية وبوسائل شرعية » . وهكذا بدأت تنجلي فكرة ترشيح بشير الجميّل لرئاسة الجمهورية . بقي ان نأمل بظروف مؤاتية ، وأن تحظى بموافقة الياس سركيس .

وعقد اجتماع عمل في ١٤ تشرين الثاني ١٩٨٠ ، إلا أنه لم يكن حاسماً . وقد عرض فيه بشير الجميّل محتوى ورقة العمل عرضاً شاملاً . فوافق الرئيس على التوجه العام لكنه تحفظ حول الاقتراحات التنفيذية قائلاً لبشير : « باختصار انك تعرض عليّ اختيار احد امرين : اما ان تقوم بانقلاب عسكري بموافقتي ، أو ان اقوم بانقلاب سياسي بمساندتك . ليس عرضك هذا بسيطاً ، ولا هو سهل التحقيق . اعطني وقتاً للتفكير ، ولدرس الامكانات الراهنة قبل اتخاذ قراري » .

ادرك بشير الجميّل اتساع الهوّة التي تفصله عن الياس سركيس ، فختم الحديث بلهجة بين بين : « بقليل من الحكمة من جانبكم ، يا فخامة الرئيس ، وقليل من الجنون من جانبنا ستسير الأمور على ما يرام » . فردّ جوني عبده على بشير بشيء من النزق قائلاً : « ما نحتاج اليه ، يا شيخ بشير ، هو العكس : قليل من الجنون عندنا ، وقليل من الحكمة من جانبكم » .

لن يُعطي الرئيس أي ردّ على خطة بشير الجميّل ، وبشير لن يطلب اليه ذلك . وبقدر ما كانت حركة ٧ تموز تبدو ناجحة ، بقدر ما كان رئيس الدولة راغباً في معاضدة بشير الجميّل . وقد طلب الرئيس من جوني عبده العمل على تطبيع العلاقات بين بشير والولايات المتحدة الأميركية ، وفتح الطريق لحوار مع وليد جنبلاط .

سبر جوني عبده ، في بادىء الامر ، نية وليد جنبلاط واستعداده . فتبين له ان هذا يود الاجتماع ببشير ، ولكنه لا يُقدم عليه بسبب الضغط السوري . فتم الاتفاق على تأليف لجنة مختلطة مهمتها إعداد مشروع سري للبنان الجديد . ضمّت هذه اللجنة جوزف أبو خليل وزاهي البستاني ،

وانطوان نجم ، مفكّر ملتزم ، من جانب بشير الجميل ، وسمير فرنجية ، ورياض تقي الدين من جانب وليد جنبلاط . وقد لعب سمير فرنجية دوراً بالغ الأهمية لاقناع وليد جنبلاط بضرورة عقد ميثاق سياسي مع بشير الجميل . وعقدت هذه اللجنة خمسة اجتماعات بين ٢٨ تشرين الثاني و ٣٠ كانون الأول ١٩٨٠ ، في منزل جوني عبده .

منذ الاجتماع الأول حدد جوني عبده موقف الياس سركيس بقوله : « يعتبر الرئيس ان بشير الجميل ووليد جنبلاط هما عمادان مهمان للبنان ، وكل تفاهم بينهما يؤدي الى اطلاق ارادة وطنية حيّة ومتجددة . الرئيس يعلمكم انه يوافق مسبقاً على كل حلّ يرتضيه الفريقان » .

في ٢٦ كانون الأول ١٩٨٠ قدم ممثلو بشير الجميل برنامج عمل غايته « تحرير الوطن من الغرباء ، واسترداد السيادة ، وتغيير الذهنية السياسية السائدة » . اما الوسيلة لبلوغ هذه الاهداف فهي « مبادرة تقوم بها الشرعية بتعاون وتضامن كلّيين من وليد جنبلاط وبشير الجميّل » . كما قدم سمير فرنجيه بدوره ، في ٣٠ كانون الأول ١٩٨٠ ، « خطة انقاذ وطني » قائمة على تعاون مثلث بين الدولة ووليد وبشير . وقد تبين خلال المناقشات ان الاهداف متقاربة والوسائل غير متباعدة لكن المفاوضات اصطدمت بعجز وليد جنبلاط عن اتخاذ قرار .

اما تطبيع العلاقات بين بشير الجميل والولايات المتحدة الاميركية ، فقد اسفر عن نجاح تامّ . وانتقل الأميركيون في علاقاتهم مع بشير من العداوة المعلنة الى الدعم الأكيد . وكانت الادارة الأميركية قبلاً تحظّر بصورة خفية على سفرائها في لبنان ان يجتمعوا ببشير الجميل . ولكن حركة ٧ تموز فرضت بشير الجميل محاوراً رئيساً . التقى السفير الأميركي جون غنتر دين بشير الجميّل في أواخر العام ١٩٨٠ على مائدة جوني عبده الذي اعد العدة لانجاح هذا اللقاء . وقد روى لي بشير تفاصيل الاجتماع فلاحظ ان السفير الأميركي سرعان ما انتقل من موقف المتحفظ الى موقف المشجع وراح يحذره من التعامل مع اسرائيل مستعملاً حججاً مقنعة ومباشرة قائلاً له : « احذر الاسرائيليين ، فهم اناس لا يعجبهم العجب . تستطيع اعطاءهم كل شيء ، ولكنهم يجدون دائماً شيئاً اضافياً يطالبون به ، هل لديك ، يا شيخ بشير ، طائرات تقدمها لهم ؟ نحن لدينا طائرات ، ونحن نقدم لهم أفضل النماذج منها ، ومع ذلك فهم غير راضين . لا تتكل على اسرائيل ، بل اعتمد على نفسك » .

خلال الغداء ، بدا السفير دين مرتبكا بعض الشيء بسبب محاولة الاغتيال التي تعرض لها في آب الفائت وكان يظن أن اسرائيل هي المحرضة عليها . وما لبث بشير ان فاتح السفير بالرسالة التي يريد ابلاغها لواشنطن . وقال له : « نريد ان نكون جزءاً من الاستراتيجية الأميركية في الشرق الأوسط .

ونريد التعاون مع العالم الحر . ونريد ، مع الشرعية ، ان نصبح نحن الشرعية ، بوسائل شرعية . فهل توافقون على ذلك ؟ » رحب السفير بكلام بشير . ولكنه شدد على ضرورة بقاء لبنان جزءاً لا يتجزأ من العالم العربي . وعرض عليه خدمات الولايات المتحدة الاميركية لتحسين علاقاته بالبلدان العربية المعتدلة . وركز على اهمية استمرار الانسجام التام مع الشرعية . وقال : « سنوافق على كل عمل يراه الرئيس سركيس ملائماً » .

لقد سجلّ هذا اللقاء منعطفاً حاسماً ليس بالنسبة الى مستقبل قائد القوات اللبنانية فحسب ، بل بالنسبة الى تبدل السياسة الأميركية في لبنان . ان « مجنون » ٧ تموز بالتعاون مع « عاقل » بعبدا بدأ مسيرة الالف ميل التي سيقطعها بسرعة غير متوقعة .

٢ ـ الهجمة السوريّة على زحلة (٢ نيسان ١٩٨١)

شهد لبنان ، في نهاية العام ١٩٨٠ ، مجابهة بين القوات اللبنانية والجيش السوري في زحلة . حوصرت المدينة طوال أسبوع ، من ٢٠ الى ٢٦ كانون الأول . لفت بولس نعمان نظر السفير الفرنسي في لبنان ، لوي دي لامار ، الى خطورة الوضع وحثه على التدخل وانقاذ « أهم مدينة مسيحية في الشرق الأوسط » . وتحركت الحكومة الفرنسية بقوة لدى دمشق لوقف القصف فوراً . ووجّهت الولايات المتحدة الأميركية نداء مطالبة بوقف اطلاق النار . وأرسل الرئيس سركيس سامي الخطيب الى دمشق للغاية نفسها . وأعلنت الجبهة اللبنانية « ان الاحتلال السوري يجب أن ينتهي » . ووجّه بشير الجميل مذكرة الى الأمم المتحدة مطالباً باستبدال القوات السورية ، في زحلة ، بمراقبين دوليين .

على أثر هذه التدخلات ، عاد الهدوء الهش الى زحلة ، وزار فؤاد بطرس دمشق في ٢ شباط ١٩٨١ ، كما التقى نظيره السوري في شتوره في ٢٦ من الشهر نفسه ، لإعداد قمة سركيس — الأسد المنوي عقدها في ١٠ و ١١ آذار ١٩٨١ .

لم يكن الرئيس يتوقع نتائج حاسمة من لقائه مع حافظ الأسد . لكنه كان يشعر وكأنه سيكون الاجتماع الأخير قبل نهاية ولايته في ٢٣ أيلول ١٩٨٢ . لذا قرر الرئيس التطرق لموضوع الانتخابات الرئاسية المقبلة والافصاح للرئيس السوري عن اقتناعه الحميم . ففي رأيه « لا يمكن المجيء برئيس جمهورية ضد ارادة المسيحيين ، ولا ضد سوريا » . لذلك يودّ أن يدعو الرئيس السوري الى استئناف حواره مع حزب الكتائب .

وقد قرأ الرئيس بهذه المناسبة على مسمعي تقريراً أرسله سفيرنا لدى الفاتيكان ، انطوان فتال ، في موضوع اللقاء الذي جرى بين يوحنا بولس الثاني وجيمي كارتر في حزيران ١٩٨٠ . يؤكد هذا التقرير أن البابا لم يجد أقل صعوبة في التطرق الى موضوع لبنان مع الرئيس كارتر « لأن الأميركيين ، بحسب تأكيد أوساط الفاتيكان ، بدوا لبنانيين أكثر منا » . ويضيف التقرير أن الكردينال اغوستينو كاسارولي ، وزير الشؤون الخارجية في الفاتيكان ، سأل نظيره الأميركي ادموند موسكي عما اذا كانت الولايات المتحدة الأميركية تستطيع القيام بعمل ما لدى دمشق لتخفيف معاناة لبنان . فأجاب موسكي : « بما أن سوريا لم تجزم أمرها بعد في خيارها بين الشرق والغرب ، فاننا مضطرون الى مداراتها » .

وعلّق الرئيس على هذا التقرير فأشار الى أنه قبل زيارة السادات للقدس ، تدخلت سوريا في لبنان لاحتواء منظمة التحرير الفلسطينية ، وتسهيل عقد مؤتمر جنيف ، وقد فعلت ذلك بموافقة الولايات المتحدة الأميركية الضمنية أو اللاحقة . ولكن بعد كمب ديفيد ، وخصوصاً بعد دخول رونالد ريغان الى البيت الأبيض في بداية ١٩٨١ أمست الولايات المتحدة الأميركية أشد حزماً مع سوريا . لذا يود الرئيس تجنب البحث مع الأسد في لقائهما المقبل في مشكلات الشرق الأوسط وحصر البحث في موضوع لبنان . ويضيف الرئيس قائلاً : « اني أشعر أكثر فأكثر بأننا في معسكرين متقابلين . أنا مع الأميركيين ، والأسد ينحاز أكثر فأكثر الى السوفياتيين . وأكثر من ذلك ، فان سوريا أصبحت أكثر فلسطينية من منظمة التحرير وهي على وشك أن تصبح الحليفة الوحيدة للاتحاد السوفياتي في هذه المنطقة من العالم » .

دعا الرئيس سركيس ، في ١٢ آذار ١٩٨١ ، بعد عودته من دمشق بيوم واحد ، فؤاد بطرس ، وجوني عبده وأنا ، الى تناول الغداء على مائدته . فأثنى وزير الخارجية على موقف رئيس الجمهورية الحازم وقال : « اعترف بان الرئيس كان ، هذه المرة ، قاطعاً كحد السيف . قال كل شيء بلا لف ودوران حتى اني لم أجد ما أضيفه الى أقواله » .

وأخبرنا الرئيس سركيس أنه رسم أمام الرئيس السوري لوحة شاملة للأوضاع المأساوية السائدة في لبنان الشمالي والجنوب مروراً ببيروت . فذكّر بأن الجنوب يفرغ من سكانه ، وأن حوالي ثمانية قتلى يسقطون يومياً في بيروت الغربية ، وأن القصف مستمر على وسط المدينة منذ ست سنوات . ثم شدّد على ثلاث حقائق ، فقال لنظيره السوري : « ان التصرفات الفلسطينية في الجنوب ينتج عنها تدمير لبنان ، سواء أكان ذلك عن حسن نية أو عن سوء نية . وان سوريا تعرقل التفاهم بين اللبنانيين ، سواء أكان ذلك صواباً أو خطأ . وأخيراً ، ليس هناك حلّ في خارج التفاهم السوري — الكتائبي » .

ولاحظ الرئيس سركيس أن أجوبة الأسد بقيت غامضة . فقد اعترف الرئيس السوري « بأن الأوضاع ليست هيّنة ، وبأن الوصول الى حلّ ليس بسيطاً » . وقال ان ليس لديه « أي اعتراض على التحدث مع أي كان » ، وفوّض الرئيس سركيس بترتيب الحوار السوري — الكتائبي على الشكل الذي يطيب له . وأخيراً أكّد أن له ، هو أيضاً ، « تحفظات » على الموقف الفلسطيني .

ولم تفت الرئيس اللبناني مفاتحة حافظ الأسد بأن انتخاب رئيس الجمهورية اللبنانية المقبل لا يمكن أن يتم بدون اتفاق سوري — كتائبي . ولفت انتباهه الى أن صورته المميزة على المسرح الدولي بدأت تتأثر سلباً ، وأن سوريا على وشك أن تُعتبر قوة احتلال . فلم يرد الأسد على ملاحظات سركيس ، واستعاض عن كل جواب بابتسامة تحمل كل المعاني .

* * *

لم يدّع الرئيس اللبناني انه استطاع ، في دمشق ، حلحلة الأوضاع ، إلا أنه لم يكن يظن لحظة بامكانية حدوث مفاجأة ٢ نيسان . في هذا اليوم فتح الجيش السوري نيرانه على بيروت وزحلة ، فاذا هما جحيم . انهمرت القذائف على الأحياء السكنية في المنطقة المسيحية من بيروت ، حاصدة في ساعة واحدة من الزمان خمسين قتيلاً وأكثر من مائة وخمسين جريحاً . واستؤنفت معركة زحلة . فطُوِّقت المدينة من جديد ، وراحت وحدات من القوات الخاصة في الجيش السوري تتأهب لدخولها .

في اليوم التالي اتصل الياس سركيس بحافظ الأسد وطلب منه استقبال موفده الخاص الياس الهراوي ، وهو زحلي ونائب المدينة ووزير الأشغال وفيما بعد سيبذل جهداً بارزاً في أثناء أزمة زحلة الطويلة والمعقدة . وكان الأسد صريحاً لدرجة القساوة مع الموفد الرئاسي فقال له : « لن ينهزم الجيش السوري أمام الميليشيات . وما دامت الجبهة اللبنانية تعامل السوريين والفلسطينيين على قدم المساواة ، وتعتبرنا محتلين ، فلن أُسهِّل دخول الجيش اللبناني الى أي مكان ، ولن أتجاوب في أي شيء ما لم تتراجع الجبهة اللبنانية عن موقفها . لقد وقعنا مع الاتحاد السوفياتي معاهدة صداقة وتعاون ، ولكننا أبقينا على قناة اتصال بالولايات المتحدة الأميركية ... ما معنى هذا الضجيج الاعلامي وهذه الحملة الديبلوماسية المحمومة ؟ لا تخدعوا نفوسكم . وتذكروا أنه في الدقيقة التي تبدأ فيها الدوائر الديبلوماسية بتدبيج برقيات الشجب والاحتجاج ولحين الفراغ منها نكون قد وجدنا ما يكفي من الوقت لقصف ألف قنبلة على زحلة ! » .

من الواضح والحال هذه أن المواجهة مرشحة للاتساع والتصاعد . فقد شهدت خطوط التماس في بيروت صداماً بين الجيش اللبناني من جهة والجيش السوري وجيش التحرير الفلسطيني من جهة أخرى . فالحكم اللبناني ، بخوضه أُولى معاركه العسكرية ، فرض نفسه على المراجع العربية والدولية على أنه اللاعب الرئيس على الحلبة . في ٦ نيسان ، وللمرة الثانية في ثلاثة أيام ، اتصل الرئيس سركيس بنظيره السوري . ففاجأ الأسد سركيس بأن احتج لديه لأن « الجيش اللبناني يقصف الجيش السوري » . فما كان من الرئيس اللبناني إلا أن اختصر الحديث واقترح أن يأتي عبد الحليم خدام الى بيروت . فوصل الوزير السوري الى بعبدا في اليوم التالي . خلال الاجتماع أبلغ سركيس خدام ماهيّة الموقف اللبناني القاضي ، أولاً : بوقف القصف فوراً ، تقيداً بالأمر الذي أصدره الرئيس اللبناني ، في ٢ نيسان ، بوصفه قائداً عاماً لقوات الردع العربية . وثانياً : بانسحاب جيش التحرير الفلسطيني من خط التماس في بيروت ، وانتشار الجيش اللبناني في مكانه . وثالثاً : بارسال الجيش اللبناني الى زحلة .

دافع خدام بشدة كعادته ، عن الموقف السوري ، وربط حوادث زحلة بـ « مؤامرة دبرتها اسرائيل بمساندة الولايات المتحدة وتواطؤ بشير الجميل » . وقد شرح لي جوني عبده ، طرح الوزير

السوري كالآتي : البقاع منطقة أمن بالنسبة الى دمشق ، .وزحلة هي « شوكة في الخاصرة السورية » ، ان انسحاب الميليشيات من زحلة هو شرط إلزامي لوقف اطلاق النار ، لأن هذه الميليشيات هي « سبب المجابهة الحالية » . وطالب خدام فضلاً عن ذلك ، بأن يسيطر الجيش السوري على التلال المطلّة على زحلة وعلى قمم صنين الاستراتيجية المشرفة على البقاع . وقبل ارسال رجال الدرك الى داخل زحلة واستثناء الجيش اللبناني الذي يستطيع مستقبلاً أن ينتشر في حال تحقيق بعض الشروط ،وفي طليعتها أن يوضع بأمرة قيادة قوات الردع العربية ، أي بأمرة سورية . كما أشار خدام الى أن الحوار مع بشير الجميل يجب أن يسبقه اعلان بقطع كل تعامل مع اسرائيل .

حول النقطة الأخيرة لاحظ عبده أن خدام ترك « الباب مفتوحاً » بالنسبة لبشير الجميل عندما قال في حديثه مع الرئيس سركيس : « نحن لا يهمنا أن نهزم بشير في زحلة ، ولكننا نرفض أن يتراجع جيشنا أمام الميليشيات الكتائبية . فليهدأ بشير قليلاً » . وكان خدام مهتماً بمعرفة موقف بشير وطلب من الرئيس سركيس استكشاف رأيه قبل الاجتماع به .

وكان الرئيس اللبناني يعرف موقف بشير . فقد اجتمع به في ساعة متأخرة من يوم ٢ نيسان ، وأوضح بشير لسركيس موقفه بجلاء كلي قائلاً : « إن قصف بيروت هو عملية إلهاء.. فهدف سوريا هو احتلال زحلة . سنقاوم وندافع عن السكان . اذا سقطت المدينة سقطت معها المقاومة اللبنانية كلها . لا نستطيع القبول بدامور جديدة . ولن أرضى بأن أُحيي في المستقبل ، في الأشرفية ، ذكرى سقوط زحلة في كل ٢ نيسان ، كما نحتفل بذكرى سقوط الدامور منذ العام ١٩٧٦ . لا ريب في أن وضعنا العسكري حرج ، وحتى مأساوي . لكننا عازمون على المضي في المقاومة حتى النهاية . فساعة الحقيقة تقترب . ولن نقبل بأن نكون طعماً للمدافع . لا يقتصر الأمر ، بالنسبة الينا ، على انقاذ زحلة ، بل يتعداها الى لبنان كله . واذا كان لا بد من اعادة النظر في مجرى الأمور اعادة دراماتيكية وجوهرية ، فليكن ذلك الآن وفوراً . ألا ليت الشرعية تستطيع أن تتولى قيادة مقاومتنا ! » . اذن فبشير يطلب من الرئيس اعلان موقف علني من دمشق .

تأثر الرئيس سركيس بنداء بشير ، إلا أنه فضل التريث ريثما يتشاور مع الولايات المتحدة الأميركية التي أوفدت موريس دريبر ، ممثل وزير الخارجية الجديد الكسندر هيغ . وقد أوضح دريبر للرئيس أن الادارة الأميركية الجديدة لم تجد بعد متسعاً من الوقت لتحديد تصور عام للوضع اللبناني لأنه لم يمض على تسلم الرئيس رونالد ريغان مهاته أكثر من ثلاثة أشهر . أما فيما يتعلق بالأحداث الجارية فقد اعتبر دريبر أن جيش التحرير الفلسطيني قد فتح النار في بيروت « بدون مبرر » ، لكن القوات اللبنانية « دغدغت » الجيش السوري في زحلة . وأكد أن وزارة الخارجية لا تشجع لجوء لبنان

الى مجلس الأمن الدولي ، لأن الاتحاد السوفياتي سيمارس حتماً حق النقض ضد كل قرار يمس بسوريا . وتميل الولايات المتحدة الى الاعتقاد أن دمشق قد شنت معركة زحلة من منطق « الدفاع عن أمنها » . ولا تستبعد الادارة الأميركية احتمال تدخل اسرائيل لكنها ترى أنه في حال حصوله لن يتعدى منطقة الجنوب ، لأنه ليس من الواضح هل المعاهدة السورية — السوفياتية تشمل البقاع أو لا تشمله . وعلى كل حال ، فان اسرائيل لا تعتبر معركة زحلة سبباً كافياً لإعلان الحرب . ومن غير الوارد ، بالنسبة الى الدولة العبرية « أن تشن حرباً على سوريا ما دام الأمن الاسرائيلي غير معني وغير مهدّد » .

من جهة أخرى دعا السفير الأميركي دين بشير الجميل صراحة الى أن يبرهن عن « ضبط للنفس ومرونة » . كما طلبت الادارة الأميركية مباشرة وبواسطة فرنسا أن تعمل دمشق على التوصل الى « وقف حقيقي لاطلاق النار » فالاهتمام الأميركي كان ينصب على وقف المعارك مهما كان الثمن . وقد راح دريبر يخفف من وقع تصريحات وزير خارجيته هيغ الذي وصف أعمال سوريا بأنها « وحشية » ونصح الرئيس اللبناني بالمثابرة على الاتصال بدمشق .

وفي ٨ نيسان ، سلّم السفير دين الرئيس سركيس رسالة سرية مؤرخة في ٧ ومرسلة من وزارة الخارجية والبنتاغون معاً ، بصورة توجيهات الى السفير الأميركي في بيروت . وهذه أول وثيقة من هذا النوع تصدر عن الادارة الأميركية الجديدة . وبالنظر الى اهميتها واهمية الاشارة الى الموارنة والتي تعني بشير الجميل دون تسميته فقد ارتأينا نقلها بحرفيتها التالية : « من رأي الولايات المتحدة الأميركية أن المعارك الجارية حالياً يجب أن تتوقف فوراً وذلك لأسباب انسانية وسياسية في الوقت نفسه ، ولخير جميع اللبنانيين . اننا معنيون الى مدى بعيد بالآلام الناجمة عن أشخاص في منتهى الوقاحة لا يبالون بالخسائر البشرية .

« ما زلنا نعتقد ان أمن الطوائف اللبنانية ، المسيحية والاسلامية ، ورفاهيتها اللذين تعلق عليهما الحكومة الأميركية أهمية كبيرة ، يمكن توفيرهما من خلال مساندة قوية وحقيقية تُمنح للحكومة اللبنانية وللجهود التي تبذلها لتعالج الازمة الحالية في لبنان بوصفه بلداً حراً ، ومستقلاً ، وديمقراطياً .

« نأمل ان تدرس كل الاطراف والفئات ، وبكل عناية ، مختلف الامكانات التي تستطيع وضعها في خدمة الحكومة اللبنانية للمساهمة في وفاق وطني يقوّي سيادة السلطة المركزية وفعاليتها . وبالنسبة الى زحلة نعتقد ان الوضع قابل الحلحلة في المدينة بفضل انتشار الجيش اللبناني فيها ، وسحب كل العناصر المسلحة الاخرى منها .

« ان الولايات المتحدة الأميركية تؤيد لبنان ، واستقلاله ، وسلامة اراضيه ، وسلطاته

الشرعية ، وتعارض التقسيم الذي تعتبره خطراً على رفاهية كل الطوائف اللبنانية ، وعلى الاستقرار في المنطقة .

« وسنوجه افعالنا ومواقفنا بموجب هذه المبادىء وبموجب تقديرنا لاعمال مختلف الاطراف المشتركة في المعارك ونياتها . ويجب ان تُعطى الاولوية لوقف القتال فوراً ، وللتعاون مع الرئيس سركيس في الجهود التي يبذلها ليعالج الازمة في كل تفرعاتها الداخلية والخارجية .

« بلغوا اننا أشعرنا بوضوح السوريين والآخرين بموقفنا . وعبرنا عن شجبنا قصف المدنيين الابرياء في زحلة وبيروت . ونبّهنا بشدة الجهات المتقابلة في النزاع الى الامتناع عن القيام بأي عمل عسكري من شأنه ان يكون ذريعة لمثل هذا القصف أو سبباً له .

« أشيروا بوضوح الى اننا نعتبر ان للطوائف المسيحية ، ولا سيما الموارنة ، دوراً سياسياً مهماً في اطار تعاونها مع السلطات اللبنانية لتأليف مجتمع تعدّدي امتن يضمن حقوق كل المواطنين والمقيمين وواجباتهم .

« أصرّوا دائماً على واقع كوننا نرفض الرأي القائل بالحل العسكري لمشاكل لبنان ولا نقبله ابداً . اننا لا نعتبر وجود السوريين والقوات الاخرى غير اللبنانية وضعاً دائماً . ولا نعتبر الميليشيات الخاصة أيضاً رداً ملائماً لحاجات لبنان وسكانه .

« ساهمنا في مساعدة وحدات الجيش اللبناني بالعتاد والتدريب . ونعتقد انه يتعين على الجيش ان يتدخل ، إنْ في زحلة ، أو في الجنوب ، وان يكون هدفه نشر سلطة الحكومة اللبنانية والحد من التوتّر .

« نرجو ان تنقلوا الينا وجهة نظر محاوريكم بشأن الشروط التي يعتبرونها ضرورية لانهاء المواجهات المأساوية القائمة حالياً ، والتي تُعرِّض للخطر كل الجهود التي تبذلها الحكومة اللبنانية لتبني لبنانَ موحداً ومستقلاً بكل معنى الكلمة .

« وفي عملكم هذا ، تستطيعون الاشارة الى أننا اكتشفنا ، في أثناء اتصالاتنا الواسعة مع مختلف المراجع حول هذه الأزمة ، قلقاً عميقاً بل ضجراً وعياءً سببهما استمرار الأطراف اللبنانية من كل جانب ، في اتباع سياسة أنانية تناقض استقرار البلاد ورفاهية الشعب اللبناني .

« نعتقد انه من الاهمية بمكان ان تبرهن الطائفة المارونية عن ضبط للنفس ومرونة كبيرين ، وهي التي قامت تاريخياً بدور سياسي في تكوين لبنان واستقلاله . وعليها ان تقدم الدعم للسلطات الدستورية في هذه المرحلة الحرجة » .

ومما اثار استغرابنا ودهشتنا ان ياسر عرفات نصح هو الآخر « بضبط النفس والمرونة »، وان يكن لاسباب مختلفة . فقد ارسل في ٨ نيسان الى الكتائب اللبنانية ، موفداً خاصاً لا يريد الافصاح عن اسمه ، لينقل الموقف الفلسطيني كما يراه أبو عمار الذي يعتبر ان دمشق تحاول « إحداث انفجار في لبنان » وان منظمته ، من جهتها ، تريد ان تبقى « على الحياد » لان حرب لبنان قد أضرت بالقضية الفلسطينية . ويضيف ياسر عرفات انه يدرك تمام الادراك أن سوريا تفرض « شروطاً تعجيزية » لا يمكن القبول بها لوقف اطلاق النار . لكنه ينصح بشير الجميل « بكسب الوقت » عن طريق ضبط النفس واظهار قدر كبير من المرونة . ويشير أبو عمار الى أن موقف الاتحاد السوفياتي يدعم سوريا « مائة بالمائة » ولكنه يود هو أن يعرف منا موقف الولايات المتحدة الأميركية وبالتالي موقف اسرائيل . وفي ظل استتباب فترة من الهدوء يعد القائد الفلسطيني بالسعي لدى الرؤساء العرب « علّه يمهد الطريق لزيارات تقوم بها وفود من حزب الكتائب في العواصم العربية » لشرح موقفهم في وجه سوريا .

ولا يخفي ياسر عرفات الدوافع التي تحركه لاتخاذ هذا الموقف المفاجىء فانه يعتبر « ان الجيش السوري باقٍ في لبنان ، لا ليقاتل الكتائب اللبنانية ، أو ليدافع عن الحركة الوطنية ، بل ليسيطر على منظمة التحرير الفلسطينية ، ولاسيما على فتح » . ويختم القائد الفلسطيني رسالته قائلاً : « ان العلاقات السورية — الفلسطينية سيّئة . وتقوم سياسة منظمة التحرير حالياً على عزل النظام السوري في قلب العالم العربي » .

استمر الهجوم السوري باتجاه التلال المشرفة على زحلة بالرغم من كل المساعي الديبلوماسية . وحيال المقاومة البطولية التي ابدتها القوات اللبنانية ، قامت الوحدات السورية ، في ١٠ نيسان ، بعمليات محوقلة بالطوافات فاتمّت احكام قبضتها على الطرق التي توصل زحلة بجبل لبنان . وليلة ١٠ — ١١ نيسان اتخذ بشير الجميّل قراراً مأساوياً . فقد جاءه فؤاد أبو ناضر ، رئيس الشعبة الثالثة في القوات اللبنانية آنذاك ، ليخبره أن الطريق الأخيرة من طرق التموين ستقطع بعد بضع ساعات . فاذا انسحب المقاتلون قبل قطع الطريق ، انهارت المقاومة في داخل المدينة . واذا بقوا في اماكنهم ، فلا يمكن تموينهم لا بالرجال ولا بالعتاد .

فما كان من بشير الا ان قرر مخاطبة المقاتلين المحاصرين في زحلة بواسطة جهاز اللاسلكي . وكان موقف في ذروة الجلالة . وكان بشير يمتلك كل طاقاته في هذه الدقائق المثيرة . وقد توفق في ايجاد اللهجة

اللازمة والكلمة المؤثرة فقال لهم : « ايها الرفاق امامكم ساعة واحدة لتتخذوا قراراً تاريخياً . فاما ان تظلوا في زحلة ، أو أن تغادروها ، لان الطريق ما تزال مفتوحة لبضع ساعات فقط . اذا غادرتم زحلة ، حافظتم ، ولا ريب ، على حياتكم ، ولكن سقوط المدينة يصبح حقيقة اكيدة . وهذه تشكل نهاية ملحمة المقاومة . واذا بقيتم ، ستجدون نفوسكم بلا ذخيرة ، بلا دواء ، بلا خبز ، وربما بلا ماء . وستكون مهمتكم تنظيم المقاومة الداخلية ، والدفاع عن هويّة البقاع اللبنانية ، وهوّية لبنان المسيحية . فتعطون معنى لحربنا طوال ست سنوات . اني أُفوّض اليكم كل الصلاحيات لتقرروا ما ترونه مناسباً . لا أريد أن أتفلسف من بعيد . ان مكاني هو الى جانبكم في زحلة وكنت أود أن أكون معكم ، لاني ، بين الموت بقذيفة عشوائية في بيروت ، والموت حاملاً سلاحي في زحلة ، افضّل ان اموت في المعركة . اذا قررتم ان تبقوا ، فاعلموا شيئاً واحداً وهو : ان الابطال يموتون ولا يستسلمون » . بعد هذه المكالمة قرر المقاتلون جميعاً ، بدون استثناء ، البقاء في زحلة .

* * *

لاحظ الرئيس سركيس في ٢١ نيسان ان بلدين عربيين فقط ، هما الجزائر والكويت ، اظهرا شيئاً من الاهتمام بحوادث لبنان ، اما المملكة العربية السعودية فانها « متحفظة » أو تحتفظ لنفسها بدور آخر . واعلمني رئيس الدولة ان سفير الكويت في بيروت عرض عليه ، باسم حكومته ، دعوة جامعة الدول العربية الى الانعقاد ، أو عقد مؤتمر مصالحة وطنية في الكويت يحضره كل الاطراف المتنازعة في لبنان . ولكن الرئيس رفض العرضين ، لان دعوة الجامعة تعني ان لبنان يتقدم بشكوى ضد سوريا ، ومؤتمر المصالحة لن يثمر عن أي شيء . واختار الرئيس أن يعالج الوضع مع دمشق فبعث برسالة مستعجلة الى الرئيس الأسد ليوفد الى بيروت عبد الحليم خدام لبدء الحوار مع الجبهة اللبنانية ولرفع الحصار كلياً عن زحلة .

واعلن زعماء الجبهة اللبنانية ، في ١٤ نيسان ، استعدادهم للحوار مع سوريا . وبعد ثلاثة أيام دخلت شاحنة تحمل طحيناً الى زحلة واضعة حداً جزئياً للحصار الغذائي المفروض منذ اسبوعين . ولكن المدينة ظلّت مطوقة . وبدأ منذ ذلك الحين هجوم سوري كبير على مرتفعات صنين ، وخصوصاً على المنطقة المعروفة باسم « الغرفة الفرنسية » . واستعملت القوات الخاصة السورية طوافات في هجومها على القوات اللبنانية ، وتمكنت ، في ٢٥ نيسان ، من احتلال هذه المواقع الاستراتيجية . في ٢٦ أوفد الياس سركيس فؤاد بطرس الى دمشق . وفي ٢٧ ، أعلم السفير الاميركي جون غنتر دين الرئيس سركيس ان وزير الخارجية الأميركية ، الكسندر هيغ ، وجه الى الاتحاد السوفياتي ، وسوريا ، والمملكة العربية السعودية الرسالة التالية : « مارسنا ضغوطاً على اسرائيل لمنعها من التدخل في زحلة بهدف المحافظة على الوضع الراهن . ونلاحظ ان سوريا آخذة بتغيير هذا الوضع الراهن عبر عملياتها

الاخيرة . وهذا التغيير يناقض المصالح الاميركية » . وفي ٢٨ نيسان ، وصل خدام الى قصر بعبدا وبدأ محادثاته مع كميل شمعون وبيار الجميّل .

لكن العد العكسي للأزمة لم يكن قد بدأ بعد . ففي الوقت الذي كان خدام يباشر فيه مشاوراته في بيروت ، قصف سلاح الطيران الاسرائيلي المواقع السورية الجديدة على القمم ، وأسقط طوافتين. فتلبدت الاجواء واضطربت الخواطر ، وجرت مشاورات مستعجلة بين الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي . وردت سوريا ، في ٢٩ ، بنشر قواعد صواريخ « سام ٦ » و « سام ٢ » في البقاع . فاعتبرت اسرائيل هذه البادرة السورية « خرقاً جديداً للوضع الراهن في لبنان » ، وهدّدت علناً باللجوء الى عملية عسكرية لتدمير هذه الصواريخ اذا لم تسرع سوريا في سحبها . واعلن ألكسندر هيغ تأليف مجموعة عمل أميركية مهمتها ان تتابع « دقيقة فدقيقة » الأوضاع في لبنان . فبرميل البارود اللبناني امسى يهدد العالم الذي حبس انفاسه . وتحولت « ازمة زحلة » الى « ازمة صواريخ سام » .

في ٧ أيار ١٩٨١ ، وصل فيليب حبيب ، الموفد الخاص للرئيس الأميركي ريغن ، الى بيروت حاملاً رسالة خطية الى الرئيس اللبناني تتعلق بنزع فتيل ازمة الصواريخ بين سوريا واسرائيل . في ٨ أيار مساءً أطلعنا الرئيس ، فؤاد بطرس وجوني عبده وأنا ، على مضمون محادثاته مع حبيب ، فقال : «كان فيليب حبيب يتكلم قليلاً ، يريد خاصة ان يستمع ويفهم . ويحرص على ان يسجل بعناية كل المقترحات العملية . وقد بدا لي انه مطلع ، بالتفصيل ، على الاوضاع ، ويعرف موضوعه معرفة عميقة » . وقد عرض حبيب على الرئيس سركيس هدف مهمته وهي العمل بسرعة لوقف تدهور الوضع ولتجميد المواجهة بين اسرائيل وسوريا . فالادارة الأميركية تعتقد أن كل حرب اسرائيلية — سورية قد تجرّ الى مواجهة بين الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفياتي . لذلك تجري اتصالات ديبلوماسية على مستوى رفيع بين الدولتين .

وقد ردّ الرئيس على طرح فيليب حبيب بقوله : « لا يستطيع لبنان ان يمنع الجيش السوري من الدفاع عن نفسه بالطرق التي يراها ضرورية لأمنه وسلامته . من جهة أخرى ، لا يريد لبنان ان يكون دولة مواجهة مع اسرائيل . ولا بد من ممارسة ضغط مزدوج : باتجاه اسرائيل لوضع حدّ لغاراتها على جنوب لبنان ، وباتجاه سوريا ، عن طريق الاتحاد السوفياتي ، لوقف قصفها المناطق اللبنانية . نحن نرى ان الجيش اللبناني قادر على مراقبة تلال زحلة وقمم صنين ، وعلى الانتشار على خطوط التماس في بيروت . وبهذه الطريقة يُنزع فتيل ازمة الصواريخ » .

ولاحظ الرئيس بدهشة في ختام عرضه ان يكون هم الموفد الأميركي الوحيد منصباً على تجميد

ازمة الصواريخ غير آبه بايجاد حل للازمة اللبنانية بمجملها . وقد أوضح له الموفد الاميركي انه لم يأتِ لايجاد حل لازمة الشرق الاوسط أو للبنان بل لحل مشكلة « التلال والقمم » وازمة الصواريخ .

وفي هذه المناسبة ، كشف السفير الاميركي دين للرئيس سركيس عن ان اسرائيل كادت مرتين ان تدمر قواعد الصواريخ السورية . مرةً في ١ أيار ، وقد اعاقتها الاحوال الجوية ، ومرة أخرى في ٤ أيار ، وقد صرفها عن عزمها قرار ارسال فيليب حبيب الى المنطقة .

والحقيقة ان فيليب حبيب نجح في تفادي اخطار مواجهة عسكرية مباشرة ، وفي تجميد ازمة الصواريخ ، لما قررت الحكومة الاسرائيلية في ١٧ أيار الافساح في المجال للمساعي الديبلوماسية بايجاد حل « بدون تحديد مهلة معينة » . وحصل حبيب ، فضلاً عن ذلك ، على مساهمة المملكة العربية السعودية في الجهود المبذولة لتسوية ازمة زحلة خاصةً ، وازمة لبنان عامةً . وقد بعثت السعودية النشاط من جديد في اللجنة الرباعية العربية ، ولكن الحرب التي أمكن اجتنابها في نيسان ١٩٨١ ، ما لبثت ان انفجرت في حزيران ١٩٨٢ .

٣ _ بانتظار" ما لا أدري ..." (٦ حزيران ١٩٨٢)

بين ازمة زحلة في منتصف ١٩٨١ والاجتياح الاسرائيلي في منتصف ١٩٨٢ مرت فترة رمادية حاول خلالها الرئيس اللبناني تفادي الوقوع في الاعظم والاسوأ . وكان الرئيس يحذر من التدخل الاسرائيلي الذي يراه واقعاً بسبب التعاطف الأميركي والعجز العربي . فالولايات المتحدة الأميركية ملتزمة باسرائيل مما يشجع حكومة بيغن على القيام بمغامرة في لبنان . والعرب عاجزون عن حل ازمة لبنان وجنوبه مما يعطي الذريعة اللازمة للدولة العبرية لانجاز ما تريد : الدعم الأميركي لاسرائيل هو المظلة الواقية والعجز العربي هو الثغرة المفتوحة .

وافضى اليّ الرئيس سركيس في جلسة تفكير في ٥ حزيران ١٩٨١ بوجهات نظره ، ومشاغله ، ورؤاه المستقبلية فقال : « ان الاميركان هم السبب وعليهم ان يكونوا الحل . كانت خطة كيسنجر ترمي اساساً الى توطين الفلسطينيين في لبنان . لكنه واجه قوتين رافضتين : منظمة التحرير الفلسطينية والكتائب اللبنانية . لقد عارض الفلسطينيون هذه الخطة لانهم كانوا يريدون فلسطين ، وعارضها الكتائبيون لأنهم كانوا يخشون ان يخسروا لبنان . وفكر كيسنجر ان الطريقة الفضلى لانجاح خطته تقوم على إضعاف الكتائبي بالفلسطيني ، والفلسطيني بالكتائبي . والحقيقة ان كيسنجر كان يعتقد انه يستطيع حلّ مشكلة الشرق الاوسط بتخريب الاستقرار في لبنان . وآمل ان يتخذ الرئيس ريغن موقفاً معاكساً ، أي ان يعتبر استقرار لبنان الشرط اللازم لتسوية ازمة الشرق الأوسط » .

وارتسمت علامات الغيظ والغضب على ملامح رئيس الدولة ، عندما تذكر تصريحات مناحيم بيغن التي اطلقها في ٣ حزيران والتي اكد فيها انه التقى وفداً من مسيحيي لبنان ، في آب ١٩٧٨ ، وانه اعطاهم الضمانة بان اسرائيل ستتدخل اذا هاجم الطيران السوري مواقعهم . وصَاح الرئيس بصوت يتجلّى فيه الحزم : « لا يجوز مطلقاً ، لا يجوز ابداً ، ابداً ، ان يتورط المسيحيون مع اسرائيل ضد سوريا . فهذا التورط يهدد وجود جميع المسيحيين في لبنان وفي الشرق الاوسط . ففي حال التورط مع اسرائيل سيشن العرب علينا حرباً صليبية مضادة ، خاصة وان الموجة الخمينية قد جعلت المسلمين اشد تعصباً منهم في أي وقت مضى . لا يجوز اللعب بالنار . فحرب الشرق الاوسط لم تعد حرباً على الأرض وبين الرجال . انها صراع الآلهة : موسى وتوراته ، ومحمد وقرآنه ، وبينهما المسيح وانجيله . وخلاصة القول اننا عرب ، شئنا أم أبينا . لا ريب في اننا عرب نختلف عن العرب الآخرين ، ولكننا عرب على كل حال » .

وأطلعني الرئيس على انه يحاول الوصول الى حل عن الطريقين المتوفرين لديه : اللجنة العربية الرباعية ومهمة فيليب حبيب . لذا دعا هذه اللجنة للاجتماع في ٦ حزيران ١٩٨١ في بيت الدين . وقد ضم الاجتماع وزراء خارجية سوريا والسعودية والكويت ، والأمين العام لجامعة الدول العربية ، برئاسة رئيس الدولة اللبنانية ، يحيط به رئيس الحكومة شفيق الوزان ، ووزير الخارجية فؤاد بطرس . وكانت المعارك تُغطّي عملياً كل لبنان : تبادل القصف المدفعي بين قطاعي بيروت ، العودة الى دك مدينة زحله ، هيجان اسرائيلي في الجنوب ، وتوتر متزايد في طرابلس .

بدأ اجتماع بيت الدين الأول بمفاجأة اعدها بعناية عبد الحليم خدام الذي وزّع على الحاضرين محضر محادثة جرت ، في ٥ أيار ١٩٨١ ، بين بشير الجميّل ومحمد الخولي . وزعم خدام ان بشير الجميّل أعرب عن رغبته في « أن يجد صيغة لبنانية جديدة تتفادى تجدد المذابح بين المسيحيين والمسلمين كل عشرين سنة ، وانه يود الاستيلاء على جزء من لبنان يبني عليه كياناً مسيحياً بالاتفاق مع اسرائيل ، تاركاً الاجزاء الأخرى للبنانيين الآخرين » . وبناءً على هذا المحضر رفض خدام كل لقاء مع بشير الجميّل قبل ان يصدر بشير بياناً يعلن فيه « قطع علاقاته باسرائيل » .

كان الرئيس سركيس يعرف مضمون لقاءات بشير والخولي . فرفض التفسير الذي اعطاه الوزير السوري . وقد جاءت هذه الاجتماعات بناء على الحاح سركيس ببدء الحوار بين دمشق وبشير الجميّل . وبالفعل عقد محمد الخولي ، في ٢٧ و ٣٠ نيسان ، اجتماعين مع بشير الجميّل في قصر الرئاسة في بعبدا . وفي هذين الاجتماعين ، نقل الخولي الى بشير « رغبة الرئيس الأسد في تبني موقف جديد نحوه » . فاجاب قائد القوات اللبنانية بانه في « وارد البحث عن حليف . وهذا الحليف لا يمكن ان يكون إلا سوريا أو اسرائيل ، والاتحاد السوفياتي أو الولايات المتحدة الأميركية » . ثم شرح للخولي تطلعاته المستقبلية . واصر على عزمه باقامة « نظام سياسي جديد لا يرتكز على الحكم برأسين » . وعقد الاجتماع الثالث في ٥ أيار ، في منزل جوني عبده . وفي هذا الاجتماع ، اقترح بشير الجميّل خطة عملية لتسوية الازمة اللبنانية . تتألف هذه الخطة من خمس نقاط : احلال الجيش اللبناني مكان أي قوى مسلحة أخرى من جزين في الجنوب الى زغرتا في الشمال مروراً بزحلة وبيروت وضواحيها . الاعتراف بالقوات اللبنانية كأداة أمنية الى ان يصبح الجيش اللبناني المؤسسة التي توحي بالاطمئنان الكامل لكل اللبنانيين . بسط سيادة الدولة اللبنانية وسلطتها تدريجاً على كل اراضي الوطن وبالتالي انسحاب الجيش السوري ، منع أي وجود فلسطيني مسلح في العاصمة وضواحيها وفي سائر المدن والاماكن السكنية وحصر هذا الوجود في اطار جغرافي معين لا يتعداه . اتخاذ مختلف الاجراءات والترتيبات الآيلة الى منع تحول الاراضي اللبنانية الى مصدر خطر من أي نوع كان يهدد أمن سوريا .

ولازالة كل التباس . تحدث وزيرا السعودية والكويت . سعود الفيصل وصباح الأحمد

الصباح ، بغياب نظيرهما السوري ، مع بشير الجميّل الذي لم يتردّد في إطلاع محاوريه على جوهر المفاوضات التي جرت بينه وبين الخولي . ففنّد « التأويل المغرض » الذي تعمّدته سوريا لتشويه اقواله . واعلن استعداده لإعلان قطعه العلاقة مع اسرائيل اذا حصل على « ضمانات » تؤكد ان الازمة اللبنانية ستُحلّ نهائياً . أصرّ سعود الفيصل على ضرورة ادانة اسرائيل قبل كل مفاوضة . فرفض الزعيم اللبناني ذلك . واذا بالمأزق مُـحْكَم .

اقترح الرئيس سركيس عندئذٍ ان يسلمه بشير الجميّل رسالة خطية يعلن فيها « قطع العلاقات » مع اسرائيل ، ويقدم العرب ، في الوقت نفسه « الضمانات » المطلوبة . وعلى هذا أرجأت اللجنة الرباعية اجتماعها بعد ان « اخذت علماً بتعهد كل الفرقاء باحترام وقف اطلاق النار على كل الأراضي اللبنانية » ؛ وحدد اجتماع تمهيدي في ٢٣ حزيران في جدة ، في السعودية ، على ان يليه اجتماع آخر في ٤ تموز في بيت الدين . وهيأ فؤاد بطرس ، استعداداً لاجتماع جدّة ، وثيقة عمل لعرضها على المؤتمرين . وقد عُرفت هذه الوثيقة بعدئذٍ باسم « ورقة العمل اللبنانية » ، بعد ان وافق عليها رئيس الحكومة شفيق الوزان .

وتنطوي هذه الوثيقة على ثلاث نقاط أساسية : قطع العلاقات مع اسرائيل ، وتطبيق اتفاقية القاهرة ، ووجود الجيش السوري في لبنان . ففي ما يختص بالنقطة الأولى ، ترفض الوثيقة كل انواع « التعاون والتعامل مع العدو الاسرائيلي » . وفي النقطة الثانية تدعو الوثيقة الفلسطينيين الى ان يطبقوا « تماماً وبكل دقة » اتفاقية القاهرة وقرارات الأمم المتحدة المتعلقة بلبنان . وفي النقطة الثالثة « ان ينتشر الجيش اللبناني على مراحل » ، وان ينسحب الجيش السوري قبل أول آب ١٩٨٢ ، بطريقة تدريجية ومبرمجة . وقد استولت الدهشة على الياس سركيس لما قبل الوزان هذه الوثيقة ، بعد أن أدخل عليها بعض التعديلات الطفيفة .

ولم يكتم الرئيس اعجابه بشجاعة الوزان عندما اطلعني في اوائل تموز ١٩٨١ على ما حدث ، فقال : « لقد ادهشني الوزان ، كدت لا أُصدّق عينيّ . وقد اردت التأكد من انه يدرك معنى موافقته ، فاسترعيت انتباهه الى ان هذه الوثيقة تعني طلباً رسمياً بسحب الجيش السوري من لبنان قبل أول آب ١٩٨٢ . فاجابني ، وفي صوته كل معاني التصميم والحزم : قرأت بعناية وفهمت جيداً . واني موافق » . انها المرة الأولى ، منذ العام ١٩٧٦ ، التي يوافق فيها رئيس حكومة على مبدإ انسحاب الجيش السوري . وهكذا امست الارادة الوطنية موحّدة في وجه الفلسطينيين والسوريين . ولشفيق الوزان ، في هذا الشأن فضل كبير .

لم يكن احد يتوقع ان يكون شفيق الوزان قادراً على اتخاذ مثل هذا القرار . فهو متحدّر من

اسرة سنيّة عادية ، مرشح غير ناجح في الانتخابات النيابية الأخيرة عام ١٩٧٢ ، ورئيس المجلس السني الأعلى وهو اسم دون مسمى يتألف من جهاز لا سلطة له ولا تأثير . ولم يكن الوزان يتميّز بشيء خاص عن سواه ، لما عينه الرئيس سركيس في تشرين الأول ١٩٨٠ رئيساً للحكومة . ولكن الوزان عرف بانفتاحه واخلاقه الأنيسة وروح الكرامة والوفاء فيه ان يرتفع الى مستوى مسؤولياته التاريخية ، ومستوى الظروف الاستثنائية التي يجتازها لبنان . لقد صنعت المسؤولية الرجل .

منذ اللحظة الأُولى تصرف الوزان على نقيض الحص . فاظهر انه حاسب بارع كرشيد كرامي ، ومقدام كصائب سلام . في محادثة معه في ٣ تشرين الثاني ١٩٨٠ قال لي : « لا اريد ان اميل الى اليمين ، ولا الى اليسار . أريد ان اكون في الوسط تماماً . لا اتصور دوري في رئاسة الحكومة وكأني الرأس الثاني في الحكم الذي يواجه رئيس الجمهورية ، بل العكس هو الصحيح . فاني اريد ان اتضامن مع رئيس الدولة . اني اضع نفسي في داخل الشرعية . فامثل الشرعية ، لا بل اصبح الشرعية . بالاتفاق مع رئيس الجمهورية نمثل كل لبنان . اني سأصمد مع الرئيس سركيس ، ومن ضمن الشرعية » .

والرئيس اللبناني صمد مع الوزان وشاركه هذا الشعور بالمسؤولية المشتركة . وكان الياس سركيس يثني تكراراً على الوزان ، قائلاً : « انه رجل شريف ومستقيم . اني اتفاهم معه جيداً . هذا لا يعني ان ليس بيننا بعض الاختلافات في وجهات النظر ، إلا اننا نحاول دائماً ، وبطيبة خاطر ، ان نجد موقفاً مشتركاً بدون حساسيات أو عقد من قِبله أو من قِبلي . لقد اقنعته مراراً عديدة ، وسايرت آراءه مراراً أيضاً . وتفاهمنا هو ثمرة تفهّم متبادل . انه حريص على مفهوم الكرامة الوطنية وعزة النفس . ويدافع بقوة عما يعتبره مصالح المسلمين المشروعة . وقد عرف ان يحصل لابناء دينه بلباقته وايجابيته على كثير من المكاسب التي كنت ارفض اعطاءها لسليم الحص . لوكان الوزان على رأس الحكومة منذ بدء ولايتي لحققنا تقدماً كبيراً ، ولما كانت الاوضاع سيّئة كما هي الآن » .

عرض فؤاد بطرس « ورقة العمل اللبنانية » على اعمال لجنة المتابعة العربية في اجتماع جدة . وبعد اسبوع ، رُفع الحصار عن زحلة في ٣٠ حزيران ١٩٨١ ، وخرج منها خمسة وتسعون مقاتلاً بسلاحهم الفردي ، ودخلتها قوى الأمن الداخلي . وهكذا بدت ازمة زحلة في حكم المحلولة ، مما حمل بشير الجميّل على ان يسلّم الرئيس سركيس ، في ٦ تموز ، رسالة بشأن قطع العلاقات مع اسرائيل . إلا ان عبد الحليم خدام اعتبر هذه الرسالة غيركافية في الاجتماع الذي عقدته اللجنة الرباعية في ٢٥ تموز . فسياسة سوريا تقوم على جعل العرب يغوصون في موضوع اسرائيل الشائك والمتشابك بحيث تصبح المملكة العربية السعودية سجينة المنطق السوري . وتعتبر دمشق ان حل مسألة لبنان هو من اختصاصها دون سواها وبالشروط التي تراها ملائمة . لذا بذلت اقصى الجهود للحؤول دون مناقشة

« ورقة العمل اللبنانية » في اللجنة الرباعية . فراحت الجلسات تتوالى ، ولكن عبثاً . وقد بدا واضحاً ان الحل العربي للازمة اللبنانية اصبح محكوماً عليه بالعجز والسقوط . مما جعل الياس سركيس يقول لي شاكياً : « ان العرب عاجزون عن إحلال السلام في لبنان وعن شن الحرب على اسرائيل . انا شخصياً لم أعدْ انتظر شيئاً . ولكني لا أريد ان ييأس المسيحيون من العرب ، لانهم ، في مثل هذه الحال ، يعمدون الى البحث عن الحل الدولي الذي ينطوي على تدخل اسرائيلي . ان الورقة الأخيرة الباقية لي هي الأميركيون » .

بالفعل كان فيليب حبيب حاضراً . فبعد نجاحه في نزع فتيل ازمة الصواريخ بين سوريا واسرائيل استطاع ، في ٢٤ تموز ١٩٨١ ، ان يفرض وقف اطلاق النار بين اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية ، اثر الغارة الجوية الاسرائيلية العنيفة على حي الفاكهاني في بيروت . وقد افاد الرئيس من اتساع حدة التوتر السياسي والعسكري على الساحة اللبنانية ليفاتح فيليب حبيب في ٢٢ تموز ١٩٨١ بما يجول في خاطره . فكان له حديث صريح ومباشر وقاسٍ مع المبعوث الأميركي ، فقال له : « انصحك بوحي روح الصداقة القائمة بيننا ، ان لا تعود الى لبنان ، إن لم تكن حاملاً خطة حلّ للأزمة اللبنانية . أنت تعلم كم اقدرك ، وأي احترام لك في نفسي . ولكني قد لا استقبلك اذا عدت مرةً اخرى لتحل ، على الأرض اللبنانية ، مشكلات الآخرين . لبنان يتعذب منذ سبع سنوات ، وانتم تتفرجون عليه . ولكن لا تكاد حادثة بسيطة تقع مع اسرائيل حتى تهرولون لمعالجتها ، ولا تغادرون المنطقة قبل حلّها . تأتون الينا فقط حين يكون الامر متعلقاً بتسوية نزاع بين اسرائيل وسوريا في البقاع ، أو بين اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية في الجنوب . اما اذا كان هذا الامر متعلقاً بالمسألة اللبنانية ، فانكم تكتفون بتوجيه رسالة أو نشر بلاغ في الصحف » .

وفي ١٧ تشرين الأول ، استقبل الرئيس سركيس موريس دريبر ، مساعد وزير الخارجية الأميركية ، الذي كان يحمل رسالة من الكسندر هيغ متعلقة بمرحلة ما بعد السادات ، اذ ان الرئيس المصري كان قد اغتيل عن يد جماعة من الاخوان المسلمين في ٦ تشرين الأول ١٩٨١ . وقد اكد دريبر لسركيس ان الولايات المتحدة تبذل قصارى جهدها لتضمن استقرار مصر بعد ذهاب السادات ، وهي تأسف لتصرفات القذافي الذي يهدد السودان . فروى الرئيس لجوني عبده ولي انه اثناء استماعه للكلام الأميركي كان يقول في نفسه : « يا للوقاحة يحدثونني عن اهتمامهم باستقرار مصر والسودان ، كأن لبنان خالٍ من المشكلات ! » .

وردّ الرئيس اللبناني بلغة ديبلوماسية على دريبر مردداً ما كان قاله لفيليب حبيب بشأن قلّة اكتراث الولايات المتحدة بالشأن اللبناني . ثم توسع في شرح « الصورة البشعة » التي تظهر بها الولايات المتحدة الأميركية في داخل العالم العربي ، وقال له : «كفوا عن التصرف كما لو كانت اسرائيل ،

واسرائيل وحدها ، تهمكم في الشرق الاوسط . فاعلموا اذن ان اسرائيل لن تقبل ابداً أي شكل من اشكال التسوية مع الفلسطينيين وستلجأ يوماً الى استعمال القوة حتى تتلاشى الفكرة الفلسطينية كلياً . فالحل بالنسبة لاسرائيل هو الحرب . واذا لم تنتهجوا سياسة اخرى فان الاتحاد السوفياتي سيهيمن من جديد على المنطقة ، فسقوط التسوية الأميركية سيفتح الباب امام مغامرة اسرائيلية غير محسوبة » .

وكان من الطبيعي ان ينتقل الحديث مع الرئيس من مهمة دريبر الى عملية اغتيال انور السادات . فافضى الرئيس إلينا بانطباعاته وقال : « لما بلغني نبأ الاغتيال لم أدهش . في عقلي الباطن كنت اتوقع هذا الحدث . ولكن ادهشتني هوية القتلة . كنت اتوقع هذا العمل عن يد السوفيات ، فجاء على يد الاخوان المسلمين . والحقيقة ان كل الاسباب كانت متوافرة للسوفياتيين لاغتيال السادات ، فهو لم يستغنِ عن خدمات سبعة عشر ألفاً من الخبراء الروس فحسب ، بل طردهم طرداً . ولم يكتفِ بالغاء معاهدة الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفياتي ، بل مزقها وحتى داسها . كنت افهم ان يُقتل من اجل كمب ديفيد ، ولكني لا افهم ان يكون ذلك لسبب تعصب ديني . في حياته قد أخر السلام اللبناني ، وبموته يُخشى ان يجرنا الى الحرب ! » .

لم تنفع صيحات التحذير التي ارسلها الرئيس اللبناني باتجاه الولايات المتحدة الأميركية التي ثابرت على دعمها لاسرائيل ، غير مكترثة بالعرب الذين بدوا منقسمين على ذاتهم اكثر منهم في أي وقت مضى . وكان آخر مواضيع الخلاف فيما بينهم المشروع الذي اطلقه الأمير فهد والذي عرف باسمه . فقد اعلن الأمير السعودي في ٧ آب ١٩٨١ عن سبعة مبادىء لتسوية أزمة الشرق الاوسط . فاثار مشروعه ردات فعل متفاوتة في العالم وانقسمت الدول العربية بين مؤيد ومتحفظ ومعارض بشدة .

في هذا الجو المحموم حضر الرئيس القمة العربية الثانية عشرة في ٢٥ كانون الأول ١٩٨١ في مدينة فاس بالمغرب . وقد أدّى غياب حافظ الأسد ، في اللحظة الأخيرة ، الى ارجاء الاجتماع الى موعد غير محدد . ومهما يكن الأمر ، فقد وعى الرئيس ان المسألة اللبنانية قد وضعت في ثلاجة الخلافات العربية . لكنه اغتنم فرصة وجوده في هذا المؤتمر الناقص ليطالب بوضع « استراتيجية عربية مشتركة » في جنوب لبنان . فوافقت القمة ، رفعاً للعتب ، على « انشاء لجنة مصغّرة لدرس ورقة العمل اللبنانية » .

* * *

في بدء العام ١٩٨٢ ، بدا الوضع في لبنان وكأنه في مأزق خانق . لا شيء في المستقبل المنظور : لا حل عربي ، على الرغم من اجتماعات اللجنة العربية ، ولا حل أميركي على الرغم من جولات فيليب حبيب المتواترة . ان نهاية ولاية الياس سركيس اخذت تقترب . وهاجس الفراغ يكبر

ويشتد . وبانت المواجهة الاسرائيلية — الفلسطينية في الجنوب وكأنها وشيكة الوقوع وبالغة الخطورة . وحاول الرئيس الخروج من عنق الزجاجة فأرسل فؤاد بطرس يلح على القيادة السورية لاستئناف الحوار الذي انقطع مع الكتائب بعد ازمة زحلة . وقد اسفرت هذه المساعي الحثيثة عن زيارة غير معلنة قام بها وفد كتائبي مؤلف من جورج سعادة وجوزف أبو خليل ومني لدمشق في ٢٦ نيسان ١٩٨٢ . لكن المباحثات الكتائبية السورية بدت طويلة وصعبة .

ولم يعد الرئيس سركيس يؤمن بشيء . ففي ٥ أيار ١٩٨٢ أسرّ اليّ بانطباعاته فقال : « لا أرى حلاً للأزمة اللبنانية ، لا هذه السنة ، ولا السنة المقبلة ؛ ولا حتى بعد خمس سنوات . بيغن يعتقد بالحل العسكري لتسوية المشكلة الفلسطينية . وهو مدعوم بجيش قوي الى اقصى حد بقيادة ثنائي مرعب : شارون — ايتان . اني اعيش بلا أمل ، بانتظار ما لا ادري ... » . وهذا الذي « لا يدريه » الرئيس سركيس حدث بعد شهر . على اثر محاولة اغتيال سفير اسرائيل في لندن ، في ٤ حزيران ١٩٨٢ ، فاجتاح الجيش الاسرائيلي لبنان في ٦ حزيران . ولم تكن المفاجأة في الاجتياح وحده ، بل في ضخامته واتساعه وتفاعلاته التي لا تصدق .

ازاء الهجوم الاسرائيلي كان الرئيس قلقاً اكثر منه مُفاجأً . المعلومات التي توافرت لديه منذ بداية العام قد أعدته نفسياً لمواجهة هذا الاحتمال . لكنه لم يكن يعول عليه لا بل كان يتوجس منه شراً . لم يصب بالذهول الذي عمَّ الاوساط الاسلامية ولم تدغدغه نشوة الخلاص التي ارتسمت في الاوساط المسيحية . حافظ على هدوئه وجلاله . وأنكب على متابعة تقدم المجتاح .

خمن في البداية ان ما يحدث هو تكرار « لعملية الليطاني » ، عام ١٩٧٨ ، التي أدت الى احتلال جنوب لبنان . فهو مقتنع في قرارة نفسه ان اسرائيل تريد ، مهما كلف الأمر ، تدمير كامل البنية التحتية للمنظمات الفلسطينية لحماية أمن الجليل . لكنه كان يتخوف من قيام الدولة العبرية بتوريط المسيحيين في حربها ضد الفلسطينيين والسوريين . فحرص ، منذ الساعات الاولى للاجتياح ، على تحذير بشير الجميّل من خطورة الانزلاق في الدوامة الاسرائيلية ، وقال له : « لا يجوز ان تتلطخ يد المسيحي بدم الفلسطيني في معركة الى جانب اليهودي » . وكان جواب بشير إيجابياً ومطمئناً لدرجة جعلت الرئيس يردد امام سامعيه : « لقد نضج بشير بسرعة لم اكن اتصورها » .

راهن الرئيس في بادىء الامر على ان اسرائيل لـن تصطدم بالجيش السوري بسبب معاهدة الصداقة والتعاون التي تربط دمشق بموسكو . ولم يكن احد يجزم في حينه اذا كانت المعاهدة لا تشمل الجيش السوري الموجود في لبنان . وقد خيل للرئيس انه بمقدور سوريا ، في كل حال ، فتح النار على

جبهة الجولان لتضع المعاهدة موضع التنفيذ بصورة أكيدة . كان الياس سركيس يبالغ في تقدير أهمية هذه المعاهدة فيقول : « لن يترك الاتحاد السوفياتي حليفه الرئيس في المنطقة ينهار . فاذا هزمت سوريا لن يجرؤ احد ، خلال السنوات العشر المقبلة ، ان يمد يده الى موسكو . ان الاتحاد السوفياتي لا يستطيع ان يبقى بلا حركة يتفرج على اندحار الجيش السوري » .

وما لبث الرئيس ان غيّر رأيه عندما اطلع على الحادثة التي حصلت في مجلس الوزراء الاسرائيلي . يروى ان بيغن تلقى برقية عاجلة من موسكو وهو مجتمع مع حكومته فأصفر لونه لانه كان يخشى « انذاراً سوفياتياً » يطلب فيه وقف اطلاق النار فوراً . ولكن ما ان قرأ نص البرقية حتى راح يضحك بملء فمه : فالاتحاد السوفياتي قدم « احتجاجاً شديد اللهجة » بسبب قصف اسرائيل ... السفارة السوفياتية في بيروت !

اما فيما يختص بالدول العربية فتخيلها الرئيس جميعاً عاجزة عن التأثير ، باستثناء مصر . ويقول في هذا الصدد : « وحدها مصر — اذا شاءَت — قادرة على وقف الاجتياح الاسرائيلي فيما لو هددت باعادة النظر في اتفاقيات كمب دافيد » . في الواقع ، لم يحرك العرب ساكناً واكتفوا بالكلام الطيب والتمنيات الحارة في الوقت الذي كان الجيش الاسرائيلي يسحق الفلسطينيين ويضرب السوريين ويتقدم بسرعة مذهلة . فوصل اريل شارون ، في ١٣ حزيران ، الى مشارف بيروت ودخل منطقة بعبدا ، وتمادى في الغطرسة الى حد انه استولى على سرايا بعبدا الحكومي ، وهو مركز محافظة جبل لبنان ، والمتاخم للقصر الجمهوري .

تجاه هذا الوضع الاستثنائي لم يكن الرئيس يملك الا وسائل محدودة وكان يتصرف بشكل يمكن وصفه بالكلاسيكي . دعا سفراء الدول الكبرى المعتمدين في بيروت ، طلب عقد مجلس الأمن التابع للامم المتحدة ، استصدر القرارين الدوليين رقم ٥٠٨ و ٥٠٩ اللذين يدعوان اسرائيل الى وقف اطلاق النار وانسحابها الفوري من الأراضي اللبنانية المحتلة . كما ألف برئاسته « هيئة انقاذ وطني » تضم ستة اعضاء : شفيق الوزان ، فؤاد بطرس ، بشير الجميّل ، وليد جنبلاط ، نبيه بري ، رئيس حركة أمل الشيعية ، ونصري المعلوف ممثلاً عن حزب الوطنيين الأحرار .

كان يدرك سلفاً محدودية هذه الخطوات ، ويعرف ان الولايات المتحدة الأميركية وحدها قادرة على ممارسة الضغوط الفاعلة على اسرائيل . وقد قال لفيليب حبيب امام مشهد بيروت تلتهب : « عاصمتي تحترق ومواطني يقتلون . لم تعد مسألة حسابات سياسية انها قضية حياة أو موت » . وعمل الرئيس جاهداً على وقف القتال ، وعلى التقليل من الخسائر البشرية والمادية ، وكان يأسف لغياب جيش لبناني يدافع عن الوطن ، أو على الاقل يحمي القصر الرئاسي .

وتسربت عدة اشاعات مجنونة الى سمع الياس سركيس . احداها تفيد ان مناحيم بيغن يتأهب لزيارة بيروت والطلب من الرئيس التوقيع على معاهدة سلام مع اسرائيل . وكانت ردة فعل رئيس الجمهورية حاسمة : « فليعتقلني ولكن لن أوقع » . كما وردت معلومات ان اريبل شارون قد يصل الى القصر الرئاسي ويطلب الاجتماع به . فنصحه بعضهم ان يغادر منطقة بعبدا فيتحاشى مواجهة اعمال الكيد والتحدي . فرفض ترك مقره واشرف على انجاز خطة لمنع شارون من الوصول اليه ، وقال لي : « اعطيت الأوامر ان توضع كل الآليات في عرض الطريق المؤدية الى القصر ، وان يفترش الحرس الجمهوري الأرض ، وان يتوجه جوني عبده للقاء شارون على المدخل الخارجي ليعلمه بان رئيس الجمهورية لا يرغب في مقابلته ... لا استطيع جبه اسرائيل الا بمقاومة سلبية . واذا قرر الدخول عنوة فليفعل ذلك على اجسادنا ... » . لم يَحدث أي من هذه الاحتمالات ، بل حدثت مفاجآت أخرى لم تكن لتخطر على بال .

٤ ـ زهـوة خلاص (٢٣ آب ١٩٨٢)

في ٢٣ آب ١٩٨٢ حدث ما لا يصدق : انتخب بشير الجميّل رئيسا للجمهورية اللبنانية . ولعب الياس سركيس دوراً كبيراً في فوزه . وكان سركيس ما انفك يردد ، منذ عام ١٩٨٠ ، على مسمع الأميركيين والعرب والسوريين والفلسطينيين واللبنانيين قوله : « لا حل بدون بشير » . وقد اعترف بشير الجميّل مرات عديدة « بأنه غير مدين برئاسته لا للولايات المتحدة الأميركية ، ولا للملكة العربية السعودية ، بل لشخصين اثنين هما أبوه والياس سركيس » .

بدأت مسيرة بشير اللامعة والمذهلة الى رئاسة الجمهورية في ٧ تموز ١٩٨٠ ، لما استطاع الاشراف على المناطق المسيحية وبسط الأمن عليها . فأنشأ منطقة مستقرة في بلد تجتاحه الحرب . وحول الميليشيات المبعثرة والمتنازعة الى جيش منظم ومتماسك . ولم يعدْ ينظر اليه على أنه عنصر شغب وفوضى ، بل بالعكس ، لقد أصبح عامل استقرار . أثبت للعالم كله ، وخصوصاً للبنانيين ، مسيحيين ومسلمين ، انه ليس رئيس عصابة ، بل رجل دولة .

ثم اكد ، خلال مشكلة زحلة ، ان تسوية ازمة لبنان يجب ان تسبق حل ازمة الشرق الاوسط . واصبحت القضية اللبنانية ، بفضله ، تحتل مركز الاولوية على الصعيد الدولي ، واذا بها احدى المشاغل الاساسية في ادارة رونالد ريغن . وهكذا اثبت ان الحكم اللبناني الضعيف مصدر اضطراب ، وان الحكم القوي وحده يضمن أمن بلدان المنطقة . وصار بشير يرمز الى الدولة القوية والمستقرة ، عملاً بنصيحة فيليب حبيب الذي قال لالفريد ماضي ، رئيس مكتب القوات اللبنانية في واشنطن : « لو لم تكونوا اقوياء لما تناقشنا معكم لا انا ولا سواي . كونوا اقوياء والبقية تأتي » .

والواقع ان الـ « الشقي » استحال بطلاً . وحدث في شخصيته تحول خارق . من تلميذ مجتهد نوعا ولكنه وسط ، يحكي قليلاً ولا يجيد اللغة العربية ، برز خطيب بليغ ومفوه يبرع في اطلاق الافكار الصافية والشعارات اللاعة . ومن الجامعي الخجول والمتردد ، خرج رئيس واثق بنفسه ، يوحي بالقوة ، والحزم ، والانتصار . والشاب المحافظ والتقليدي ، في العشرين من العمر ، اصبح في الثلاثين يقود ثورة مسلحة ، وينشر روح التجدد والتغيير . لا شيء فيه كان يدعو الى التوقع انه سيكون ذلك المثال ، وذلك الشهيد . لم يكن راهباً بلا دير ، بل كان رجلاً مؤمناً بقضيته . وقد قال فيه كميل شمعون : « بشير رجل مؤمن كأبيه ، ولكنه ترك الانجيل جانباً » .

منذ البداية ، لم تنقصه الوسائل ولم تعوزه الصداقات لما قرر باكراً ان يعمل في السياسة في ظل أب واسع النفوذ . ولم يحتج الى وقت طويل ليصبح شخصاً آخر ، غير ابن الرئيس الأعلى للكتائب . فسرعان ما فرض نفسه فرضا . فأثار التأييد المطلق بين اتباعه والعداء المطبق لدى خصومه .

وضع نزعته البراغماتية في خدمة حلم بلا نهاية ، وطموح بلا حدود . يعرف كيف يُليّن العقائد والطقوس ليصون الايمان . يميز بوضوح بين الجوهري والهامشي ، بين الاستراتيجية والتكتية ، بين المطلوب والمرغوب ، وبين الاهم والمهم . شجاع في الفكر والعمل ، يمشي في طليعة قواته ، ويصارح شعبه بالحقائق مهما كانت مرة وموجعة . يتحدث لغة مباشرة ومبسطة دون لف أو دوران . وقد علمه تجرده ان يتحمل الكثير من الحرمان وان يبذل الكثير من التضحية .

انه نموذج يتجاوز الوضع اللبناني . كل مرة تنهار فيها الانظمة ، وتهتز الحقائق ، وتتزعزع الدول ، وتتفكك الجيوش ، وتتساقط الاهوال على امة ، يبرز فجأة رجل يفرض نفسه بافكار بسيطة وفضائل اولية . هكذا فعل بشير . اعاد الروح الى الشعب والحياة الى الوطن . انه يتصرف بنفحة ديغولية كرجل صاحب دعوة ورسالة . يؤمن بنفسه ، وبحظه ، وبالعناية الآلهية . يعلم ان عليه المضي حتى النهاية مهما يكن الثمن ، ووحيداً اذا دعت الحاجة ، وفي الطليعة في كل حال ، ليلبي نداء التاريخ والوطن . فكان لقاء بين رجل وقضية .

لا يعرف التعب ولا الملل ، دائم الحضور والحركة ، اظهر مهارة في التنظيم وطاقات في التنفيذ . وكان يحلو له ان يردد : « اني معتاد ان احلم ، وأن احقق أيضاً احلامي » . لم يكن يكتفي بطرح الافكار الرئيسة وباعطاء التوجيهات العامة ، بل كان يدخل في التفاصيل الدقيقة ويحب التغلب على المشكلات الواقعية . وقد تحلى بالصفة الرئيسة للنجاح في السياسة ، الا وهي الارادة . بفضلها جعل المستحيل ممكنا .

تكتيكي منظم واستراتيجي ملهم ، عرف كيف يزيح من طريقه المنافسين ، وكيف يدير المناطق المسيحية بيد من حديد . يحترم الفعالية ويوظفها للنجاح . يتمتع بسحر خفي ينبعث من جسده : اسمر ، قوي العضل ، شديد القبضة ، ذقنه مرتفعة ، ونظرته حادة وثاقبة « تغتصب » الرجال والافكار . ولكنه رجل حساس أيضاً : لفتة تخجله وعبارة تملأه بهجة . يملك القدرة على الابتسامة وزرع الفرح في القلوب .

رجل فعل واقدام ، لن يرتاح الا ميتا . لقد نظر الى الحياة حركة متجددة ، ومشروعاً مستمراً . واذا حدث له ان يتراجع ، فما ذلك الا ليقفز الى ابعد . لا يستطيع العيش في المألوف

والمعتاد ، ولا يحقق نفسه الا عبر التصادم ، والمأساة ، والاستثنائي . حبه المغامرة ، ميله الى المشاغبة ، صراحته ، عناده ، مبادراته ، كلها مزايا تزعج محيطه المحافظ والبرجوازي وتقلق بال اعدائه واصحابه في آن . وقد انتهى به المطاف الى فرض نهجه ونسقه على القوات اللبنانية ، وعلى حزب الكتائب ، وعلى الدولة .

يفكر وينفذ مع فريق عمله لكنه يقرر وحده . يحب العمل الجماعي ويسمع آراء الجماعة لكنه قادر على اتخاذ القرارات المفاجئة وغير المحسوبة ، والتكلم احيانا بنبرة نبي . يأمر وينهي بعفوية . فهو حازم لدرجة الاستبداد ولكن بلطف يصل الى حد الوداعة . لا يصرخ ولا يشتم ولا يهدد كما يليق بالكبار : انه تهذيب الاقوياء . يحترم الغير ويفرض احترامه على الغير . تتأجج فيه غريزة الحكم ويشده دائماً الاندفاع الى النصر . تكتسب الكلمات الاكثر استعمالاً كالامن والحرية والمساواة مصداقية جديدة ما ان ينطق بها . يصدقه الشعب ، ويكفيه ان يطلق فكرة ليتلقفها الناس ويتبنوها ، لا بل يتصورون وكأنها قد انجزت أو بحكم المنجزة . يشجع رجاله ومعاونيه على قول الحقيقة والتحلي بالصراحة ، ويريدهم أن ينتجوا ويبتكروا ويبدعوا ويتجاوزوا مواهبهم وذاتهم . يعرف كقائد سياسي كيف يحصل من كل واحد على افضل ما عنده . كما يعرف ، كقائد عسكري ، ان يحول الكلمة الى سلاح ضارب .

حياته مزروعة بالمجازفات والمغامرات والنجاحات . وحيث يعتبر المتروّون عملا ما مستحيلا ، يهجم هو بجسارة . وحيث يغوص المتعقلون في الحسابات يعمل هو بثقة العبقري . في حين كان الياس سركيس والاميركان وكثيرون سواهم يفكرون أن الجيش السوري لن يخرج ابدا من الاشرفية بالقوة ، كان بشير الجميّل يعتقد ان حرب العصابات هي الوسيلة الوحيدة الكفيلة باخراجه . وكان هو على صواب . ولما قال له مرة السفير الاميركي روبير ديلون انه كان كبير الحظ في زحلة ، اجابه بشير « لا شأن للحظ فهذه سياسة » . بفضل تشدده اللامهاود الذي كان يحسبه التقليديون خطأ فادحاً ، فتح امام لبنان باب الخلاص .

لا نظير له ولا مثيل في التاريخ اللبناني الفقير بالرجال . لم يكن بشير الجميّل يبحث عن معنى الاحداث ، بل كان يعطيها المعنى الذي يريد . وبدلاً من ان يتصور الازمة اللبنانية حدثا طارئاً كما اعتبرها وسيعتبرها كثيرون ، واجهها هو على انها منعطف تاريخي سيتغير بعده لبنان نظاماً وعقلية ومؤسسات . نظر الى المناوشات العسكرية وكأنها حرب حقيقية ، ورفع المسألة اللبنانية الى مستوى ازمة عالمية . حوّل العمل الى رمز والرمز الى مشروع ، فاسقط الاقنعة عن وجوه طبقة من السياسيين المتحجرين والمهترئين . شخصه كاسلوب ، وحضوره كمثال ، كانا بحد ذاتهما يكفيان لفضح محترفي السياسة والمتاجرين بها . ولم يكن مشروعه لتحرير لبنان مقتصرا على اخراج غير اللبنانيين منه ، بل كان يتعداه الى انقاذ الشعب من السياسيين والسماسرة والنفعيين والمستغلين واللامبالين والمهملين

والمتواطئين ، ومن كل الذين ساعدوا أو ساهموا ، عن قصد أو عن غير قصد ، في انهيار الدولة والوطن . وقد انتقد بشير هذه « الذهنية السياسية » السائدة بعنف ، ودعا الى التمرد والثورة عليها ، لا بل الى الاقتصاص منها ، فدعا الى انشاء محكمة سياسية تكون بمثابة « نورمبرغ لبنانية » .

هذه المثالية قربته من الناس العاديين فصار مثالا للشعب . بشعبيته الكتائبية استطاع السيطرة على حزب الكتائب بدون أن ينصاع للهرمية الادارية وبدون ان يمر بالوسائط الحزبية . وشعبيته المسيحية سمحت له ان يخلع كميل شمعون الذي لا يقهر . وشعبيته اللبنانية اكسبته الشارع الاسلامي ، في أيام معدودة ، وقبل ان يؤيده الزعماء السنيّون . طبعه الشعبي جعل الشعب يحبه ، يحلم معه ، يعبده ويجله . ولكنه هو أيضاً كان يميل الى الشعب ويحترمه . اليف الطبع ، سهل المعاشرة ، نادراً ما كان يرتدي بدلة رسمية أو يعقد ربطة عنق ، فهو يرتاح الى الزي الرياضي أو البدلة العسكرية . في سيارته التي كان يقودها بنفسه كان يرد دائما ، والابتسامة تغمر وجهه ، على الذين يزدحمون للسلام عليه . وقال لي يوما : « الشعب هو رأسمالي » . وقد ازداد فيه هذا الميل الشعبي بعد انتخابه لرئاسة الجمهورية . ففي ٢٥ آب ، وفي اثناء أول اجتماع عمل ، كرس فسحة كبيرة من الوقت ليشرح لحرسه الذين خصصوا لمرافقته في تنقلاته ، انه يحظر عليهم تحظيراً جازماً ان يدفعوا عنه الاشخاص ، أو ان يمنعوهم من الدنو منه لمصافحته . واضاف قائلاً : « لا تخافوا ، الشعب طيب ، انه حمايتي الحقيقية » .

في اثناء حملته الرئاسية ، ولدى خروجنا من اجتماع احس فيه انه سجل نقاطا ايجابية . قال لي بشيء من براءة الطفل : « حقا اني ظاهرة فذة ! » . وهذا صحيح . لقد كان ظاهرة فذة . أدرك انه قبل كل شيء ، رجل لا كالآخرين ، وان عليه ان يتميز بعمل غير مألوف ولا سابقة له . حرص ، في العام ١٩٨٢، على انماء طابع الفرادة فيه ، فاذا به معبود الجماهير ، واذا « بالبشيرية » تتحول الى ظاهرة وطنية .

على الرغم من انه لم يكن يحمل برنامجا دقيقا ومفصلا فقد غزا اللبنانيين وحاز على ثقتهم . فاصبح قلب الوطن الممزق وضميره . ولا ريب ان تطرفه اعجب الجميع . ولن يدري احد كيف كان سينتقل من دور البطل الى دور الرئيس . كان فيه مزيج من صفات الرئيس والبطل . ولدى وفاته نسي اكثرية الناس الرئيس وتذكروا صورة البطل ، والبعض الآخر نسي حتى البطل ولم يعودوا يرون فيه الا صورة قديس . لقد كرس ذاته لضمان مصير لبنان ومصير المسيحيين فيه ، واصبح يرمز الى تحرير الأرض بالمقاومة المسلحة . انه يجسد بعد اليوم حلم وطن حي يتقدم في ظل حاكم قوي يتبع سياسة طاهرة وصارمة . في حياته حوّل حلمه الى حقيقة ، وفي مماته حوّل حكايته الى اسطورة .

* * *

بدأت المسيرة التي قادت بشير الى رئاسة الجمهورية في اجتماع عُقد في ١٤ ايلول ١٩٨١ مع الرئيس سركيس . وكانت تلك المرة الأولى التي يُطرح فيها موضوع الرئاسة على بساط البحث . وقد قال الرئيس : « لن أقبل ، في أي حال ، تجديد ولايتي ست سنوات ، ولا حتى تمديدها سنتين . في ٢٣ ايلول ساغادر القصر الجمهوري . فهل فكّرتم بهذا الاستحقاق ؟ » .

أجاب بشير الجميّل : « نعم . اننا نترقب هذا الاستحقاق ، ولكننا لا ننظر إليه من زاوية اختيار رجل ، بل من زاوية الوصول الى حل . ثمة ثلاثة اصناف من المرشحين : الاول هو سليمان فرنجية ، أعني بابراك كارمال السوريين ، والثاني من اولئك الذين لا لون لهم ، ولا رائحة ، ولا طعم ، وهم عديدون. انه صنف الخبثاء الذين يفركون الايدي امام الجميع فيوهمون المسلمين بانهم موارنة متنورون ، ويوهمون المسيحيين بأنهم يهزأون بالمسلمين . وهذا هو الصنف الأسوأ بين المرشحين . والثالث هو الرجل القوي القادر على فرض الحل اللبناني للازمة ، بعد اخفاق الحلول الأخرى » . وافق الرئيس على تحليل بشير وهو يعلم علم اليقين الهدف الذي يتوخاه محاوره .

بعد شهرين ، في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٨١ ، وفي مناسبة الذكرى السنوية الخامسة والاربعين لتأسيس حزب الكتائب ، عرض بشير الجميّل مبادرة لحل الازمة اللبنانية . وقد اعتُبر هذا الخطاب على انه برنامج رئاسي . وفي ١٢ كانون الثاني ١٩٨٢ ، في اثناء اجتماع موسّع ، قرر فريق بشير الجميّل ترشيح القائد العام للقوات اللبنانية لرئاسة الجمهورية . وفي نهاية هذا الاجتماع سألني بشير : « ما هي نسبة حظي بالفوز في الوقت الحاضر؟ » اجبته : « عشرة بالمائة » . قال : «ضع خطة للعمل اللازم ليقفز حظي الى خمسين في المائة في حزيران المقبل » .

كانت الخطوة الأُولى في تلك الخطة تقوم على توحيد الجبهة المسيحية حول هذا الترشيح . وفي هذا السبيل طرح الأباتي بولس نعمان ترشيح بشير الجميّل على اعضاء الجبهة اللبنانية في اجتماع لها في ٥ أيار ١٩٨٢ . ومما قاله : « يعيش الموارنة منذ اربعماية سنة في القهر ، ويعيش اللبنانيون منذ سبع سنوات في الخوف والحرب . لا خلاص إلا عبر سلطة مسيحية قوية يقودها رجل قوي . هذا الرجل موجود . وما هو إلا بشير . كل رئيس منتخب سواه سيحاول في الدرجة الاولى قهره وحلّ القوات اللبنانية . وهذه كارثة . ضمانتنا الوحيدة أن يصير بشير الجميّل رئيساً للجمهورية ». وبعد موافقة الجبهة اللبنانية المبدئية ايّد كميل شمعون ، مع شيء من التردد والتحفظ ، هذا الترشيح . ثم تبنى المكتب السياسي الكتائبي بالاجماع في اجتماعه الذي عُقد في ٢٦ أيار ١٩٨٢ الموقف عينه وأُرجئ اعلان هذا القرار الى وقت لاحق ، نزولاً عند رغبة بشير الجميل الذي كان يحاول معالجة النفور الاسلامي في الداخل والعداء العربي في الخارج .

باشر المرشح اتصالات مباشرة مع منظمة التحرير الفلسطينية ودمشق . اجتمع مرات عديدة في شهري شباط وآذار ١٩٨٢ مع أبو الزعيم ، ممثل ياسر عرفات ، ومحمد غانم ، رئيس مكتب الاستخبارات العسكرية في الجيش السوري في لبنان . وارسل موفدين خاصين في نيسان وأيار الى العواصم العربية : القاهرة ، الرياض ، بغداد وعمان .

وبدا لموفدي بشير ان العرب جميعاً متنكرون لترشيحه . فمنظمة التحرير الفلسطينية والمملكة العربية السعودية لم تعلنا مرشحها المحتمل . مصر والعراق يميلان الى ريمون اده . والاردن متحفظ . أما الولايات المتحدة الأميركية وفرنسا فكانتا تعتقدان ان تمديد ولاية الياس سركيس ربما يكون « الحل الارجح والافضل عملياً » .

غير ان دخول الجيش الاسرائيلي الى بيروت جاء يقلب الحسابات ، ويعطي الحملة الرئاسية معنى آخر وبعداً آخر . في وضع عادي كان فوز بشير أمراً صعباً . أما الوضع الاستثنائي فقد أبرز هذا الرجل الاستثنائي .

بعد الغزو الاسرائيلي باسبوع وصل فيليب حبيب آتياً من دمشق . وبدأ على الفور اتصالات مكثفة قدم على اثرها اقتراحه الذي عرف لاحقاً « بخطة حبيب » . وتقضي هذه الخطة بوقف اطلاق النار ، رحيل كل قادة منظمة التحرير الفلسطينية وعناصرها من بيروت ، قبول وجود المنظمة السياسي في لبنان ويفضل ان يكون في خارج العاصمة ، تولي الجيش اللبناني الاشراف على بيروت الغربية وجمع الاسلحة فيها ، خروج السوريين مع التأكيد « ان غاية السياسة الأميركية هي الوصول الى تسوية تضع حداً نهائياً لكل وجود عسكري غريب في لبنان ، أكان فلسطينياً أو سورياً أو اسرائيلياً » .

وكانت هذه المقترحات موضوع مفاوضات صعبة ومعقدة مع منظمة التحرير الفلسطينية ، بوساطة شفيق الوزان وصائب سلام . وقد شهدت هذه المفاوضات مرحلتين : مرحلة قبول مبدإ الخروج من بيروت ، ومرحلة الاتفاق على شروط هذا الخروج . ولم يكن قبول الفلسطينين المبدئي بالرحيل أمراً سهلاً .

وفي هذا الصدد ، أوفد الرئيس سركيس جوني عبده ، فالتقى ياسر عرفات مرتين ، في ١٩ و ٢١ حزيران . وقد لاحظ عبده في لقائه الاول ان ياسر عرفات لم يكن مطلعاً اطلاعاً دقيقاً على مضمون المقترحات الاميركية . كان يعتقد ان المطلوب هو اخراج العناصر المسلحة في منظمة التحرير بدون قادتهم . ولما شرح له عبده حقيقة الاقتراحات انتفض سعد صايل (أبو الوليد) ، رئيس العمليات العسكرية في المنظمة ، صائحاً : « لن نخرج من بيروت الا جثثاً هامدة . هل نقبل بالاستسلام

لنحافظ فقط على حياتنا ؟ وما معنى الدماء المسفوحة منذ ثمانية عشر عاماً ؟» القرار الفلسطيني لم يكن بعد ناضجاً .

أما في الاجتماع الثاني فلمس جوني عبده تطوراً في ذهن ياسر عرفات ، ولكن تحفظات معاونيه العسكريين كانت بمثابة عقبة حقيقية . ولم يُتخذ ، في النهاية ، قرار اخلاء بيروت إلا لما ادرك الفلسطينيون ان القرار الاسرائيلي لا عودة عنه ، وان قدرة اللبنانيين على الاحتمال قد تلاشت كلياً .

في ٢٠ حزيران حدّد الرئيس سركيس امامي الخطوات السياسية التي ينوي تحقيقها قبل نهاية ولايته ، وقال : « يهمني قبل ٢٣ ايلول ان انجح في عمليتين دقيقتين : انقاذ بيروت ، وضمان انتخاب بشير . يجب انقاذ بيروت مهما يكن الثمن ، ويجب على الاخص تفادي الغرق في حمّام دم . اني اتكل على بشير الجميّل اتكالاً كبيراً كيلا يساند الاسرائيليين ضد الفلسطينيين المحاصرين ، فيحفظ للمستقبل كل امكانات المصالحة بين المسلمين والمسيحيين . ولا ريب في ان خروج المقاتلين الفلسطينيين هو الشرط الضروري لانقاذ العاصمة . وساتصرف بطريقة تجعل بشير يساهم في انقاذ بيروت ، ويصير يتحسس مشاعر المسلمين وتتلون مواقفه ، بعد اليوم ، باللون الاسلامي . الرئيس الوحيد القادر على توحيد لبنان هو بشير . وعليه ، طلبت الى الولايات المتحدة ان تدعمه . وسألتمس أيضاً تأييد الملك فهد ، عاهل السعودية(*) ، لمناسبة عقد القمة العربية قريباً في الطائف » .

ولكن بشير هو الذي سيذهب الى الطائف في أول تموز . والواقع ان المفاوضات مع ياسر عرفات اصطدمت بعدة عقبات . أما العقبة الاساسية فتمثلت برفض الفلسطينيين اخلاء بيروت ومغادرة لبنان بدون ابقاء « وجود عسكري رمزي على الأقل » . وليّن فيليب حبيب الموقف الأميركي ، وقبل فكرة الوجود العسكري الرمزي لمنظمة التحرير الفلسطينية ، كما وافق على انتقال المقاتلين الفلسطينيين الخارجين من بيروت بصورة موقته الى الشمال أو البقاع قبل مغادرتهم لبنان نهائياً . ولكن الرئيس سركيس ظل صامداً في موقفه ، لا يتزحزح ولا يهاود .

عندها أوعز حبيب الى السعودية بدعوة بشير الجميّل الى زيارتها لمناقشته في هذا الموضوع . فالأميركيون اعتقدوا عن خطأ ان بشير وحده يجرؤ على التجاوب مع المطالب الفلسطينية والتعديلات المقترحة على خطة حبيب . بناء عليه وجه اليه سعود الفيصل ، في ٣٠ حزيران ، دعوة رسمية لزيارة الطائف باسم اللجنة الوزارية العربية التي تضم ممثلين عن الجزائر ، والسعودية ، والكويت ، ولبنان ،

(*) في ١٣ حزيران ١٩٨٢ توفي الملك خالد ، فخلفه فهد .

وسوريا ، ومنظمة التحرير الفلسطينية . وقد نظم الأميركيون سفر قائد القوات اللبنانية بدقة تامة . فنقلته طوافة من سلاح الجو الأميركي من جونيه الى قبرص ، حيث كانت تنتظره طائرة سعودية خاصة لتحمله الى الطائف .

اجتمع بشير ، فور وصوله ، بسعود الفيصل ، بحضور الوزير الكويتي عبد العزيز حسين ، والامين العام لجامعة الدول العربية الشاذلي القليبي . وبعد تبادل كلمات المجاملة ، دخل بشير في صلب الموضوع ، فقال : «كانت لي طفلة ، فقُتلت في هذه الحرب . أود ان لا يموت اطفال لبنان بعد اليوم . لست سياسياً ولا ديبلوماسياً . وسأتكلم بلغة واضحة وصريحة ، من الممكن ان تجرح ، ولكن اقبلوني كما أنا . لن اتحدث عن الماضي . ساكتفي بالنظر الى الحاضر . في لبنان حالياً ستون ألف جندي اسرائيلي ، وثلاثون ألف عسكري سوري ، وستماية ألف لاجئ فلسطيني . واني اطلب اليكم ، باسمي وباسم الرئيس سركيس ،ان تساعدونا لاخراج كل القوات المسلحة غير اللبنانية من كل الأراضي اللبنانية . اني مستعد ان اجد معكم مخرجاً مشرفاً للفلسطينيين . ولكني أود ان يُعفى لبنان من كل التزاماته نحو المشكلة الفلسطينية لمدة عشرة اعوام . لقد عانى لبنان عذاباً لم يعرفه أي بلد عربي آخر . ضحّى بكل شيء ولم يعد يملك شيئاً . ان ياسر عرفات يناور . يريد ان يكسب وقتاً . يعتقد قادر على استهلاك الجيش الاسرائيلي كما فعل بالجيش السوري ، وكما سبق له ان فعل أيضاً بالجيش اللبناني . انه يطلب ، ليغادر بيروت ، ان يُبقي في لبنان وجوداً عسكرياً رمزياً مؤلفاً من ثلاثماية عنصر مسلح ، هذا الموضوع غير وارد . لا نريد وجوداً فلسطينياً مسلحاً مهما يكن رمزياً . اليوم ثلاثماية ، غداً سيصبحون ثلاثة آلاف وأكثر . ان الجيش اللبناني ، في حالته الحاضرة ، لا يستطيع مواجهة ثلاثماية ، ولا ثلاثين ولا حتى ثلاثة عناصر مسلحة . انه لأعجز من ان ينظم حركة السير . في ضوء هذا الواقع اقترح ان يغادر كل الفلسطينيين المسلحين لبنان بدون استثناء . فيما بعد ، وبعد قيام سلطة لبنانية قوية ، قد تعيد الحكومة اللبنانية النظر في موقفها هذا . اما الآن فالمخرج الوحيد الصحيح والمقبول هو رحيل كل المسلحين الفلسطينيين من كل لبنان ، وإلا هاجمت اسرائيل اماكن الفلسطينيين الجديدة ، ودمرّت مناطق لبنانية أُخرى . فاذا دخل بيغن بيروت لن يبقى بلد اسمه لبنان . ساعدونا على التحرر من الوجود العسكري الاسرائيلي والفلسطيني والسوري » .

شدّد سعود الفيصل على التحذير من الخطر الاسرائيلي الذي يهدد لبنان والبلدان العربية . وأصرّ على ان اسرائيل تريد نشر الفوضى في الدول العربية وتدمير الشخصية الفلسطينية . وفي رأيه ان العرب عملوا دائماً لاعادة السيادة اللبنانية وحماية القضية الفلسطينية . وأضاف موجهاً كلامه الى بشير الجميّل : « نريد ان ننقذ ماء وجه منظمة التحرير . ونحن ندرك أيضاً مخاوفك . ولكن الموضوع بالنسبة لنا مطروح من زاوية أخرى . فاسرائيل تحاول اكراه لبنان على ان يدفع لها ثمن الانسحاب الفلسطيني . كما تحاول في الوقت نفسه نقل المشكلة الفلسطينية الى العالم العربي لتحويلها مشكلةً عربية » .

وبقي بشير الجميّل على موقفه لا يتزحزح ، فاجتمع به سعود الفيصل للمرة الثانية عند الساعة الرابعة صباحاً . وكان العرب يظنون ان ترشيح بشير لرئاسة الجمهورية سيجعله أوفر تساهلاً واكثر ليونة . ولكن بشير فضل ان يخسر الرئاسة ويربح قضيته . وأفهم الجميع انه يريد ان يكون رئيساً بلا تنازلات وبلا مجاملات ، والا فلا يريد الرئاسة .

بعد أقل من شهر بقليل ، في ٢٧ تموز ، استدعاني الرئيس سركيس الى منزله الخاص ، وأجرى معي حساب النواب المؤيدين لبشير ، فثبت له ان الاكثرية المطلقة مضمونة لكن ينقص تسعة أو عشرة اصوات لتأمين النصاب القانوني المطلوب ، أي ثلثي عدد النواب (*) فقال لي : « مشكلة بشير هي السنّة . لقد تحدثت شخصياً مع زعمائهم واحداً واحداً : صائب سلام ، شفيق الوزان ، تقي الدين الصلح . كلهم ضد بشير ويقترحون عليّ تجديد ولايتي أو على الأقل تمديدها . اجبتهم بانه يجب عليهم ان يعملوا حساباتهم استناداً الى معطيين نهائيين : لا تجديد ولا تمديد لولايتي ، ولا تراجع من قبل بشير . أيدوا مرشحاً آخر اذا شئتم ، ولكن لا تقاطعوا الانتخابات الرئاسية . ان معارضة بشير ظاهرة ديمقراطية . أما المقاطعة فلا تمس بشير ، بل النظام اللبناني . وقد تفسدون كل شيء وتسببون تقسيم لبنان » .

بعدها اكد لي الرئيس ان السعودية وحدها تستطيع التأثير في موقف السنيين اللبنانيين . ولكن ياسر عرفات كان يضع كل ثقله الذي زادته مأساة بيروت وهجاً لمنع السعوديين من تأييد بشير الجميّل . وقد استطاع ان يعطل كل تأييد سعودي بحيث ان الزعماء السنيين ، وفي طليعتهم صائب سلام ، لم يكتفوا فقط بمعارضة بشير بل قاطعوا الانتخابات .

وأفضى اليّ الرئيس في هذا الاجتماع بانه عين عمداً جوني عبده في الوفد اللبناني الذاهب الى جدة لحضور جلسات اللجنة الوزارية المصغرة التابعة للجامعة العربية والتي ستبدأ اعمالها في اليوم التالي أي في ٢٨ تموز . وحمّله رسالة الى عبد الحليم خدام تتعلق بالانتخابات الرئاسية . وافصح الرئيس عن غايته قائلاً : « أودّ ان تعلم دمشق رسمياً اني اؤيد ترشيح بشير . واريد أيضاً ان أبين لسوريا ان مصلحتها مؤمنة في حال دعمها هذا الترشيح . وسيعرف جوني كيف يجد اللهجة المؤاتية والبراهين اللازمة . طلبت إليه ان يصر على امرين : من جهة ان كل عهد يقطعه بشير للرئيس السوري

(*) تنص المادة ٤٩ من الدستور اللبناني على ما يلي : « ينتخب رئيس الجمهورية بالاقتراع السري بغالبية الثلثين من مجلس النواب في الدورة الأولى ويكتفي بالغالبية المطلقة في دورات الاقتراع التي تلي . وتدوم رئاسته ست سنوات . ولا تجوز اعادة انتخابه الا بعد ست سنوات لانتهاء مدة ولايته . ولا يجوز انتخاب احد لرئاسة الجمهورية ما لم يكن حائزاً على الشروط التي تؤهله للنيابة » .

سيُحترم ، ومن جهة ثانية ان رجلاً كبشير الجميّل سيكون وحده قادراً على تطبيع العلاقات الخاصة بين سوريا ولبنان » .

أما بالنسبة لموقف الشيعة ، فبدا الرئيس أوفر اطمئناناً وقال لي : «كامل الأسعد هو المفتاح . في وسع بشير الجميّل ان يتابع حملته وان يأمل بالفوز ما دام الشيعة مستمرين في تأييده . من الممكن كسب الانتخابات بالنواب المسيحيين والشيعة ، ولكن تصبح الطريق مغلقة تماماً اذا انضم الشيعة الى السنّة في معارضة بشير . اشركوا كامل الأسعد بكل قراراتكم ، فهو خبير في هذه الأمور اكثر من أي شخص آخر » .

وفي الواقع ، كان أول زعيم مسلم تجرأ على تأييد ترشيح بشير الجميّل علانية هو كامل الأسعد ، رئيس مجلس النواب ، واحد كبار زعماء الطائفة الشيعية . انه الرجل الذي انقذ مرتين استمرار الدولة ووحدة لبنان . المرة الاولى في أيار ١٩٧٦ ، لما أمّن انتخاب الياس سركيس رئيساً للجمهورية ، على الرغم من تهديدات منظمة التحرير الفلسطينية وضغوطاتها . والمرة الثانية لما أيّد ترشيح بشير الجميّل . وقد علل الزعيم الشيعي موقفه الداعم لبشير قائلاً : « لقد اخترت الرجل الذي يستطيع حل الازمة اللبنانية وانقاذ الجنوب » . فاثبت الاسعد انه يتميز بحاسة سياسية حادة وبحس وطني أكيد .

اذن ، لم تكن مشكلة بشير الجميّل الحصول على آكثرية اصوات النواب ، بل ضمان اكتمال النصاب . وقد ركزت المقاطعة السنيّة جهدها للحؤول دون عقد جلسة مجلس النواب . وبدأ السباق على الاصوات محموماً لتأمين النصاب الدستوري ، أي اثنين وستين نائباً ، في جو يسوده الهلع والمأساة . اسرائيل تقصف بشراسة ، والفلسطينيون يلفون ويدورون ، واللبنانيون يقاسون الامرين ، والفوضى تعم كل القطاعات وكل الناس ، والحرب تبدو وكأنها بدون نهاية ، اذ اعلن اثنا عشر وقفاً لاطلاق لنار في مدة شهرين . وفي ١٨ آب ، في منزل صائب سلام ، قرر تجمع الشخصيات السنية وممثلو الحركة الوطنية مقاطعة الانتخابات الرئاسية حتى يتفق المسلمون والمسيحيون على مرشح آخر غير بشير الجميّل . وفي ١٩ آب ، ارجئت الانتخابات الرئاسية الى ٢٣ آب « لاسباب امنية » . ولكن الحقيقة هي ان عدد النواب لاكمال النصاب لم يكن متوفراً ، وكان ينقص ثلاثة أو أربعة . وحبس لبنان انفاسه ...

أخيراً ، وبعد خمس ساعات من الترقب الخانق اكتمل النصاب يوم الاثنين ٢٣ آب ، فانفجر لبنان فرحاً . لقد اجتاز الوطن التجربة . ولمعت في الأفق بارقة خلاص . اثنان وستون رجلاً سجلوا بموقف وطني وشجاع منعطفاً في تاريخ لبنان . ولكن فضلاً خاصاً يعود الى أربعة منهم ، وهم : رينه معوض ، فؤاد غصن ، سالم عبد النور ، وفؤاد الطحيني . والحقيقة ان الاثنين الاولين وهما

من الشمال أيدا بشير الجميّل على الرغم من معارضة سليمان فرنجية العنيدة . أما سالم عبد النور وفؤاد الطحيني ، وهما عضوان في جبهة النضال الوطني ، وهي كتلة برلمانية موالية لحزب وليد جنبلاط ، فعادا خصيصاً من أوروبا للاشتراك في الانتخابات على الرغم من كل التهديدات والضغوط التي مورست عليهما . وقد ألهب الغيظ صدور رجال وليد جنبلاط ، فأحرقوا منزلي هذين النائبين ومنازل نواب آخرين اشتركوا في الانتخابات الرئاسية .

في هذا الجو العابق بأمل انتهاء الحرب الطويلة وقيامة الوطن المحطم ، كان الياس سركيس ينعم بسعادة عميقة ، فقال لي بزهوة طاهرة : « انها المعجزة . كلّ الآلام والعذابات التي عانيتها طوال ست سنوات وجدت الآن معنى لها . من كان يصدق : بشير الجميّل رئيس للجمهورية ، وياسر عرفات على وشك مغادرة بيروت . الله كبير . لقد نجا لبنان » .



٥ ـ مَوت القَائِد وَولادة الأسطورَة (١٤ أيلول ١٩٨٢)

منذ انتخاب بشير الجميّل ، جدّد الياس سركيس شبابه . فعاش جوًّا من الحبور العارم . انه يمزح ، يضحك ، ويقوم بزيارات خاصة امتنع عنها خلال ست سنوات . كما انتقل الى منزله الخاص على مقربة من القصر الجمهوري ، ولم يعد يذهب الى مقر الرئاسة إلا لحضور الاجتماعات الرسمية أو البروتوكولية . وأخذ يمضي القسم الأكبر من وقته قرب مسبحه الخاص محاطاً باصدقائه وابناء اخيه . لم يكن الرئيس في ما مضى من حياته ، متفائلاً كما هو اليوم . كل شيء بدا له ممكناً ، وفي متناول اليد .

وفي اليوم التالي للانتخابات ، في ٢٤ آب ، عمل الرئيس جردة ولايته . انه حكم الياس سركيس على الياس سركيس ، فقال لي : « اني سعيد ، لاني تمكنت من الوصول الى نهاية ولايتي . اسلافي كلهم انهوا مدة ولايتهم ، فلماذا لا اكون مثلهم ؟ كان عليّ ان اتابع ، ونجحت بالبقاء في سدة الرئاسة رغم الموانع والمعاكسات . لا ريب في ان العناية الالهية ساعدتني . عام ١٩٧٨ كدت استقيل ، ولكني ، من حسن الحظ لم افعل . لقد تعرضت لصدمات قوية ، إلا اني قاومت عوضاً عن ان استسلم . لم تحلّ الولايات المتحدة الاميركية مشكلة الجنوب ، ولا المسألة الفلسطينية . ولم تسهّل سوريا الوفاق الوطني ، ولا انتشار الجيش اللبناني . ياسر عرفات ألّب العالم العربي ضدي ولم يرغب ابداً في تنفيذ اتفاقية القاهرة . بشير الجميّل اتعبني كثيراً ، وقد تحمّلت منه ما لم أتحمّله من أي رجل آخر . أخيراً ، سمح وليد جنبلاط وحركته الوطنية لنفوسهم بان يشتموني ويشوهوا سمعتي . ولكني صمدت . كنت استمع الى الجميع ، ولا أُنفّذ إلا ما ينسجم مع خياراتي الأساسية » .

ثم تطرق الى هذه الخيارات قائلاً : « اخترت ، منذ البداية ، الولايات المتحدة الأميركية ، لا اسرائيل . كنت على يقين ان الحلّ — اذا كان هناك حلّ — سيأتي من الولايات المتحدة ، ومنها وحدها . من ناحية أخرى ، بقيت على تناغم مع العالم العربي ، مخصصاً سوريا بمعاملة مميزة . كان هدفي الحد من الخسائر التي قد يتسبب بها العرب . ومنذ بدء ولايتي حدّدت لنفسي هدفاً هو : انسحاب الفلسطينيين والسوريين . وها هم قد بدأوا يغادرون البلاد . أما الاحتلال الاسرائيلي ، فلا ريب عندي في ان بشير الجميّل سيعالجه ، وسيحمل الاسرائيليين أيضاً على الانسحاب باسرع مما يتصوره البعض . وفرحي كبير لاني ساهمت مباشرة في فوز بشير . منذ لقائنا الأول احسست ان تعاوننا سيكون مثمراً . كنت من الضعف بحيث لم اكن استطيع ان اتنازل . لم اكن قادراً على عقد تحالف مع

دولة ما ولا على اتخاذ قرار مجابهة ضد دولة أخرى . تجنبت القرارات المتسرعة والاعمال الاستعراضية . فلم اكن أُريد قتل الأمل ، ولا تسريع المآسي . طبعاً ، لم اعمل أو أقل ماكنت اريد . إلا اني لم اعمل أو أقل ما لا يجوز عمله أو قوله . قاومت صامتاً وهذا ليس بالشيء اليسير . لم أقم باعمال مثيرة للتمتع باحتلال العناوين الكبيرة في الصحف ، أو للحصول على تصفيق محيطي على حساب مصلحة البلاد العليا » .

توقف الرئيس هنيهة ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة الرضى وكأنه مرتاح لحصاد عهده . ثم ختم عرضه كما بدأه ، مطمئناً ومتفائلاً ، فقال : « بقي عليّ ان اسهر على تنفيذ خطة فيليب حبيب المتعلقة باخلاء بيروت . لقد بدأت عملية الاخلاء ، وسيغادر ياسر عرفات لبنان قريباً. وسيبني بشير دولة قوية . اني راضٍ ومرتاح الضمير » .

في ٣٠ آب ١٩٨٢ غادر ياسر عرفات بيروت متوجهاً الى أثينا . وكان الياس سركيس قد ارسل ، قبل ذلك بثلاثة أيام ، جوني عبده ، ليودع رئيس منظمة التحرير الفلسطينية قبل رحيله . ونقل عبده بحضوري ، في ٢٧ آب ، الى الرئيس اللبناني تفاصيل لقائه عرفات . وقد اشار الى انه كان يحمل ثلاث رسائل : واحدة من الرئيس سركيس ، وثانية من الرئيس المنتخب ، وثالثة من فيليب حبيب .

كانت رسالة الرئيس سركيس تعبيراً عن التعاطف والود . اجاب عليها الزعيم الفلسطيني بمرارة : « لقد تأخر الرئيس سركيس قليلاً . كنت أُفضِّل ان أتلقى رسالته لما كان الجحيم الاسرائيلي مفتوحاً علينا وعلى أطفال بيروت ، وعلى كل حال ، فاني اشكره » .

وكانت رسالة الرئيس بشير الجميّل تشير الى المستقبل ، وتطمئن رئيس منظمة التحرير على مصير الفلسطينيين المدنيين الذين امسوا في حماية « رئيس قوي » فرد أبو عمار بقوله : « لم نعد ننظر الى بشير الجميّل كما كنا ننظر إليه في ما مضى . فهو الآن رئيس مسؤول ، وعليه ان يتصرف على اساس هذا الواقع . ونعتبر انه مسؤول امام اللبنانيين ، والعرب ، والعالم اجمع ، عن امن الخمسماية ألف فلسطيني الموجودين في لبنان . قل له اني ، منذ العام ١٩٧٦ ، لم اقاتل اللبنانيين . غادرت الأردن بعد خوض معركة ضد الملك حسين . ولكني اغادر لبنان وانا اقاتل الاسرائيليين ! » .

اما رسالة فيليب حبيب فكانت تتعلق بكيفية رحيل رئيس منظمة التحرير عن بيروت . وقد

اكّد حبيب فيها انه يضمن لعرفات سلامته في اثناء سفره ، ويعرض عليه — اذا شاء — زوارق حربية أميركية تواكب سفينته . فرفض عرفات هذا العرض .

وكشف لنا جوني عبده ، في هذه المناسبة ، عن ان فيليب حبيب حاول التوسط بين اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية . وعرض في اثناء حصار بيروت ، بدء مفاوضات غير مباشرة وثلاثية بين منظمة التحرير ، واسرائيل ، والولايات المتحدة الاميركية . واقترح أن تُشغل الوفود الثلاثة « ثلاث طبقات من بناية واحدة » . فرفض بيغن هذا الاقتراح . وأوعز حبيب بخيار آخر ، وهو ان تُجرى المفاوضات في « ثلاث بنايات مختلفة » . ولكن مناحيم بيغين بقي مصراً على رفضه التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية ولو بصورة غير مباشرة .

وأطلعنا جوني عبده ، في هذا السياق ، على ان اتصالات في منتهى السرية قد جرت في بيروت بين موفد خاص عن الكسندر هيغ من جهة ، وياسر عرفات وخليل الوزير المعروف بأبو جهاد ، رئيس العمليات العسكرية في منظمة التحرير ، من جهة أُخرى . ولكي تعقد هذه الاجتماعات من غير معرفة سوريا واسرائيل كان يصل الموفد السري الأميركي الى بيروت خفيةً عن السفارة الأميركية وحتى عن العاملين في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية في لبنان . وكان هذا الموفد يلتقي ياسر عرفات وخليل الوزير وحدهما ، بدون ان يُعلما احداً من اعضاء منظمة التحرير . وكانت هذه الاتصالات التمهيدية على وشك الوصول الى نتيجة لما اجتاحت اسرائيل لبنان . وختم جوني عبده روايته قائلاً : « اني مقتنع بان احد الاهداف غير المعلنة للغزو الاسرائيلي هو افشال هذه الاتصالات الاميركية — الفلسطينية » .

لم يأتِ الياس سركيس على ذكر واحدة من ذكرياته مع ياسر عرفات . وهي ، على كل حال ، لم تكن كثيرة . فالاتصال بين الرجلين كان في منتهى الصعوبة ، ولم تنشأ بينهما أية علاقة خاصة ، لان الرجلين هما على طرفي نقيض . ففي حين يحلو لسركيس ان يردد انه لا يحب المناورات ، ولا الكذب ، ولا العنف . فان أبو عمار لم يتردد يوماً في ان يرد على شخص انتقده لانه يكذب ، فقال له : « انا اكذب ؟ اني اقتل من اجل قضيتي ! » .

بعضهم يجلونه وكثيرون يمقتونه فهو شخصية متعددة الوجوه والزوايا . لقد حلم دائماً بدولة فلسطينية يكون هو رئيسها ، وتكون القدس عاصمتها . وقد قال لي ذات يوم من عام ١٩٧٤ وقبيل دخول منظمته عضواً مراقباً في الامم المتحدة : « اما هذه الدولة واما لا شيء » . بالايمان ، وخصوصاً بالحديد ، حوّل منظمة التحرير من جمعية لا سلطة لها ولا وزن ، الى منظمة سياسية وعسكرية ضخمة ، تشغل مقعداً في الامم المتحدة ، وفي الوقت عينه ، تشكل مركز الثقل في الارهاب الدولي .

انه يحسن احاطة نفسه بأفضل مفكري العالم العربي وبأسوإ المرتزقة في العالم . وهو يملك القدرة على اجتذاب الاولين وروض الآخرين .

يعيش عرفات عيشة تقشف وحرمان ، على الرغم مما في حوزته من الملايين والمليارات . لا يدخن ولا يشرب الكحول ولا يعاشر النساء وهو لا ينفك عن نصح مساعديه بالزهد ، واكثرهم غارق في البذخ والترف حتى الاذنين . ويحاول ان يبرز صورة « الفلسطيني الفقير » ليس امعاناً منه في التمسك بفضيلة الفقر بل رغبة في كسب العطف والتأييد . انه يعنى بصورته السياسية عناية كبيرة ، ويعلق اهمية بالغة على الرأي العام ووسائل الإعلام . وله حس في كل ما يتعلق بالعلاقات العامة ، والدعاية ، والمواقف الاستعراضية .

يتميّز عرفات بالحركة والسرعة والقدرة على التكيُّف . انه شبكة معقدة ومتداخلة من المواصلات والاتصالات . يستطيع المجابهة حتى شفير الانتحار ، كما يستطيع المداورة والتهرب كالزئبق . يعرف كالسمكة كيف ينساب ، يندس ، يختفي ، أو يظهر على سطح الأحداث . فهذه الحركة الدائمة هي شرط لازم لبقائه على قيد الحياة . لا مسكن ثابت له ، يستعمل مكاتب عديدة ، يخل بمواعيده قصداً ، فيصل إما متأخراً أو قبل الاوان . لا ينام ثلاث ليالٍ متوالية في مكان واحد . يقطن عند الاصدقاء ، أو في السفارات العربية ، أو في سفارات البلدان الشرقية . وفي الازمات ، ينام في سيارته . وهو قادر على ان يُصدر بالحرارة نفسها امره لمساعدة يتيم أو لتصفية عدو . يحذق فن الاقناع بقدر ما يحترف فن الارهاب . وهو ينتقل من الواحد الى الآخر بلا تمهيد . هو تارة هادىء وطوراً منصاع واحياناً مهول وعنيف . يستطيع البكاء عند الطلب ، أو الانطلاق فجأة في غضب مصطنع . له طاقة الاستماع ، أو التظاهر بالاستماع ، ولاظهار الاهتمام يأخذ رؤوس اقلام بما يسمع ، ويدونها في دفتر صغير أحمر يحمله دائماً في جيبه ولا يعرف احد ماذا يفعل به . كما له خبرة في كيفية التعامل والضغط على كبار هذا العالم من ملوك ورؤوساء وامراء نفط الذين يدفعون له الاموال بلا حساب ، لاجتناب انفجار الارهاب الفلسطيني في ديارهم .

يتقلب ويتبدل مع المتغيرات والمستجدات ، وكثيراً ما يتخذ المواقف الغامضة أو المتناقضة . فحيناً يظهر بقناع الاعتدال ، واحياناً بوجه التطرف ، فهو رجل حرب ورجل سلام ، وحاضر دائماً للقتال وللتسويات ، وللعب الادوار المتباينة . قال لي عبد الحليم خدام عام ١٩٧٦ بشأنه ، وهو يضحك : « أبو عمار ليس الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني . انه ممثل فقط » .

لقد ارتضى ياسر عرفات هذا النهج كي يبقى . وقد اصبح اوسع الناس معرفة باحوال العالم العربي بسبب حياة التشرد التي عاشها . يعرف كل اسرار العرب ، وكل قادتهم ويحذرهم جميعاً . ما

زلت اتذكر قوله لي في اثناء حرب تشرين : « يجب ان اكون دائماً يقظاً : عيناً على العرب ، وأُخرى على اسرائيل » . ولكنه يميل طبيعياً الى مصر ويتخوّف غريزياً من سوريا . فمصر بالنسبة اليه حماية ، وسوريا وصاية . ينمي علاقات استراتيجية مع الاتحاد السوفياتي مع اعترافه بان مصلحته السياسية تقوده الى الولايات المتحدة الأميركية .

لما التقيته للمرة الاولى في عمان سنة ١٩٦٩ ، قال لي : « لبنان هو وطني الثاني » . والعرب جميعاً يرددون هذا القول بلا عياء . ولكن عرفات لم يعطه المعنى المجازي وكاد يطبقه فعلاً . فلبنان كان على وشك ان يصبح وطناً فلسطينياً ! لقد انغمس عرفات في الرمال المتحركة اللبنانية فغرق . وهو متشائم في اعماقه على الرغم من الابتسامة الدائمة التي يتعمد اظهارها على شاشات التلفزيون . قال لأبو حسن عام ١٩٧٧ في الوقت الذي كان الكثيرون يعتقدون ان الازمة شارفت على الحل : « لسنا في نهاية الازمة ، بل في أولها . ما جرى هو لا شيء بالنسبة الى ما سيأتي » . و « الختيار » كما يناديه رفاقه بدا في مطلع العام ١٩٨٢ دائم التجهّم . وكان على حق . فهو يتمتع بحاسة سابعة تنذره بدنو العاصفة أو الكارثة . إلا انه لم يتصوّر ، في اسوإ ساعات سويدائه ، انه سيضطر الى مغادرة بيروت بحسب الشروط التي املاها عليه أريبل شارون وفيليب حبيب .

اذا كان الرئيس سركيس لم يُلمّح بشيء عن عرفات ، فانه ، في مقابل ذلك ، راح يثني امام جوني عبده وامامي على فيليب حبيب . واعتبر ان خطة حبيب لاخراج المقاتلين الفلسطينيين من بيروت هي انجاز رائع في تاريخ الديبلوماسية العالمية . ومع ذلك ، لم تفت الرئيس ملاحظة بعض هفوات الديبلوماسي الاميركي . فروى لنا ، ان حبيب جاء يعلن له بلهجة الظافر ، في أول آب ، ان مصر وسوريا والأردن قبلت باستقبال المقاتلين الذين يغادرون بيروت . فحذره الرئيس سركيس من الاكثار في التفاؤل . ولفت نظره الى ان شروط القاهرة لاستضافة الفلسطينيين ستكون اصعب من شروط أبو عمار بالذات لان مصر بعد اتفاق كمب ديفيد ، تريد ان تظهر « فلسطينية اكثر من الفلسطينيين انفسهم » . وسوريا لا تستطيع استقبال الفلسطينيين المسلحين قبل اجراء تدقيق صارم عليهم ، « لأن عدداً كبيراً من مقاتلي فتح ينتمي الى الاخوان المسلمين » . اما الاردن ، فقد رضي باستقبال المقاتلين الذين لم تصدر بحقهم احكام « والواقع ان كل المقاتلين الفلسطينيين الموجودين في لبنان مطلوبون من العدالة الاردنية » .

لكن رد الرئيس لم يقنع فيليب حبيب الذي أجاب : « يا فخامة الرئيس ، لست ساذجاً بقدر ما تتصوّر . حصلت من الأمير حسن ، ولي عهد المملكة الاردنية ، على عفو يشمل كل الفدائيين الفلسطينيين الموجودين في لبنان » . فعلق الياس سركيس على الفور : « انت حقاً ساذج ، ولا

تعرف كفاية بعد الروح العربية . لا يكفي ان يعفو الأمير حسن عن الفلسطينيين ، بل يجب ان يصدقه الفلسطينيون ويثقوا به. انهم حذرون جداً ولن يسلموا نفوسهم للملك حسين لانهم لم ينسوا بعد ايلول الأسود . انك ما زلت ، يا صديقي فيليب ، تحتاج الى سنتين على الاقل لتفهم لبنان والعرب ولتستطيع ان تتقدم منا باقتراحات » .

وفاضت قريحة الرئيس سركيس ، فتذكر في جلستنا معه حادثة اخرى جرت مع فيليب حبيب . فقد جاءه هذا خلال شهر آب ١٩٨٢ ليقترح عليه ، تسهيلاً لاخلاء بيروت ، ان يخرج المسلحون الفلسطينيون على مرحلتين : ففي الاولى يغادرون بيروت الى طرابلس والبقاع ، ثم يخرجون من لبنان . واضاف حبيب بلهجة جادة : « على جوابك ، يا فخامة الرئيس ، تتوقف متابعة جهودي . اذا قبلتَ ، أُتابع ، واذا رفضت اتوقف عن تأدية مهمتي » . اجابه الرئيس دون تردد : « لست احمق ولا متواطئاً . إعلمْ ان الفلسطينيين اذا وصلوا الى طرابلس ، فلن يخرجوا منها إلا بالقوة . لقد دُمِّرت بيروت حتى الآن ، فلماذا تريدني ان أُساهم في تدمير طرابلس أو البقاع ؟ اني رئيس الجمهورية اللبنانية ، لا رئيس بيروت وحدها . طرابلس والبقاع جزء من الأرض اللبنانية ، على ما أعلم ! لقد اخطأت بالامس لما قلت لك انك تحتاج الى سنتين لتفهم لبنان . اني اسحب كلامي هذا ، لانك تحتاج الى اثنتي عشرة سنة ! » .

باستثناء هذه الهفوات الهامشية يجدر القول ان فيليب حبيب هو رجل يعرف كيف ينجح في مهمته بفضل طاقاته ومخيلته الخصبة . في رأي الياس سركيس ، ان فيليب حبيب « يتمتع بكل ذكاء كيسنجر ، عدا احتقاره للبنان » . فهو يشعر بشيء من الحنين الخفي يشده نحو وطن جدوده . لكن هذا الشعور لا يؤثر مطلقاً على تصرفه كديبلوماسي أميركي . ففيليب حبيب يعمل كأميركي مئة بالمئة في اسلوبه ، وفي طريقته بالتفكير ، وفي اتخاذ القرار . وصفه فؤاد بطرس بانه مزيج من « الشرقي والأميركي الا ان الأميركي فيه هو الغالب » . لكن شرقيته رغم محدوديتها اتاحت له ان ينمي حدسه فيقدر ان يمسك باحداث لبنان اكثر من أي أميركي آخر . انه يعلم ان اللبنانيين والعرب يتصورون ان الولايات المتحدة الاميركية تستطيع عمل كل شيء ، في كل مكان ، ودائماً . وخلافاً لزملائه الديبلوماسيين الذين يحاولون التقليل من قدرة النفوذ الاميركي ، يغذي فيليب حبيب اسطورة بلاده ، لانه يدرك اهمية الرموز والمعتقدات في الشرق . فصورة الولايات المتحدة الأميركية ، كقوة عظمى وعظيمة القدر ، هي احدى الوسائل التي يوظفها فيليب حبيب للضغط على الاطراف المتنازعة ولايجاد التسويات .

شريف ، أنوف ، وقاسٍ . يحب الظهور بمظهر القوة . ويود ان يتحدث عنه الناس على الرغم من انه لا يتحدث مع الصحافيين إلا نادراً . لا يفوته ان يبدي الملاحظات لمعاونيه جهاراً ليظهر سلطته

عليهم . لا يعترف باخطائه ، ويجد دائماً تفسيرات لهذه الاخطاء . يعيش على امجاد مفاوضاته حول فيتنام ، وقد لاحظ جوني عبده انه يصدف احياناً لحبيب ان يتكلم ، بدون انتباه ، عن « الحكومة الفيتنامية » وهو يقصد « اللبنانية » .

مفاوض ، حاذق ، دقيق ، وعملي ، يجيد الاستماع الى الغير ، وتسجيل الآراء ، واستخلاص الحلول . يحب التفاوض ، وإيجاد المخارج ، واقناع الناس . يسعده ان تُسند اليه مهمة ، وينطلق الى تأديتها بلا تردّد أو هوادة . اذا كان بعضهم يعتبر لبنان فسيفساء ، فهو ينظر الى الحل وكأنه « كلمات متقاطعة » يقتضي العثور عليها واحدة واحدة . فعندما وصل ، للمرة الاولى ، في تشرين الأول ١٩٧٩ ، للقيام بجولة في الشرق الاوسط ، لم يكن لديه حلّ ، لا للشرق الاوسط ، ولا للبنان ، ولا حتى لجنوب لبنان . وبقدر ما بدأت الادارة الأميركية تهتم بلبنان ، بقدر ما كان فيليب حبيب يزودها بالافكار والاقتراحات . انه يرى بان الحل اللبناني يجب ايجاده في الاطار العربي ، وعلى الأخص مع العرب المعتدلين ، وفي طليعتهم المملكة العربية السعودية .

يفاوض على البارد ، ولكنه لا ينجح إلا على الساخن بدليل انهُ لم يجد الحلول الا في ظل التوتر والتصادم : تجميد ازمة الصواريخ بين اسرائيل وسوريا في نيسان ١٩٨١ ، وقف اطلاق النار في تموز من العام ذاته بين اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية ، واجلاء المقاتلين الفلسطينيين عن بيروت في آب ١٩٨٢ . في اثناء الغزو الاسرائيلي قاد المفاوضات على وقع المعارك . وكان يدير العمليات السياسية مباشرة ، والعمليات العسكرية مداورة . وكلما كان يحس ان الفلسطينيين يطرحون مطالب غير مقبولة كان يوعز الى واشنطن بان تُرخي العنان لأرييل شارون . كان تصاعد الهجمات الاسرائيلية يتزامن مع تصاعد الشروط الفلسطينية ، والعكس صحيح . انه ديبلوماسي يؤمن بالقوة .

* * *

ما ان انتخب بشير الجميّل رئيساً حتى تسارعت الاحداث فاتخذت « نسقاً بشيرياً » . ففي ٢٥ آب ، نزلت الوحدات الأميركية ثم الفرنسية والايطالية التي تؤلف قوات الفصل المتعددة الجنسيات الى الأرض اللبنانية . وفي ٣٠ ، غادر ياسر عرفات بيروت الى أثينا . وفي أول أيلول صادف رحيل آخر موكب من الفلسطينيين والسوريين مع زيارة غسبار واينبرغر ، وزير الدفاع الأميركي ، الذي تحدث مع الرئيسين الياس سركيس وبشير الجميّل . وفي ٢ ايلول فُتح ممر السوديكو الذي يصل بين قطاعي بيروت ، وقد كان مقفلاً منذ آذار ١٩٨١ . وفي ٤ ، انتشر الجيش اللبناني في بيروت الغربية ، وكان قد غاب عنها منذ العام ١٩٧٣ . وفي ٩ ، دخل الجيش اللبناني مخيم برج البراجنة الفلسطيني ، وكان ذلك محظوراً ، منذ العام ١٩٦٩ ، بموجب اتفاقية القاهرة . وفي ١٠ ، رحلت قوة الفصل المتعددة الجنسيات

بعد أن أدّت مهمتها ، وفي ١١ ، فتحت بورصة بيروت ابوابها ، وباشرت نشاطها . وفي ١٣ ، عاد مرفأ بيروت الى العمل . كل ما كان لا يصدق أمس ، اصبح اليوم بديهياً .

أبدع بشير الجميّل ، في بضعة أيام ، قومية لبنانية جديدة . جمع حول قضيته شمل الشعب . كهرب الجماهير الاسلامية : انقلب من قائد رهيب يُخشى جانبه الى رئيس موثوق به ومحبوب. قادة الحركة الوطنية اختفوا أو انصاعوا . بعض المعارضين من الشيعة انساقوا انسياقاً وراء تيار « الشيخ بشير » الذي لا يقاوم . أما السنّة فأنهوا مقاطعتهم حينما التقى صائب سلام الرئيس المنتخب في قصر بعبدا يوم السبت ١١ ايلول ١٩٨٢ .

ما ان انهى بشير الجميّل لقاءَه صائب سلام حتى استدعاني وزاهي البستاني وجوني عبده الى منزل هذا الاخير في اليرزه . لم اكن اظن ان هذا الاجتماع سيكون بمثابة والوداع الأخير . والآراء التي طرحها هي بمثابة وصية سياسية .

ما ان اجتاز عتبة الباب حتى انتزع عقدة رقبته وهو يقول : « تصوروا اني كنت عاقداً كرافات وصائب سلام في زي رياضي . وقد لاحظ سلام هذه المفارقة ، ولم يُفتْهُ التعليق عليها ، قائلاً لي : انك تفقدنا صوابنا وتدوخنا فانت تارة بكرافات ، وطوراً بلا كرافات » .

جلسنا على الشرفة المطلّة على بيروت ، واخذ بشير راحته رافعاً قدميه الى إسكملة كانت امامه . ونظر إلينا قائلاً : « السلطة حلوة حين يعرف المرء ان يمارسها » . وكان الجو عارماً بالحبور والبهجة ، وجدول الاعمال مليئاً بالمواضيع المختلفة : محضر اجتماعه بصائب سلام ، تأليف حكومة العهد الاولى ، تعيين اعضاء فريق عمله ، تأدية اليمين الدستورية في ٢٣ ايلول وخطاب القسم .

روى لنا بشير ان صائب سلام ، في بداية لقائه به ، أراده ان يترأس طاولة الاجتماع ، فرفض . أصرّ سلام قائلاً : « أنت ، الآن ، رئيس الجمهورية » . اجابه الرئيس المنتخب : « أنا بشير » . فتأثر سلام بهذه البادرة وقال : « واحد يدعى بيار ، وآخر كميل ، وثالث ريمون . انت وحدك تحمل اسماً عربياً » !.

ثم بدأ النقاش وطال وتناول كل المواضيع . وقد أصرّ الزعيم السني على ان يطرح كل المسائل . تكلم طوال ساعتين . وكان بشير يستمع . وبعد الغداء على مائدة الرئيس سركيس ، استؤنفت المناقشة . فعرض بشير وجهة نظره في النقاط الرئيسة التي تحدث عنها محاوره .

وكان صائب سلام قد لاحظ ان « النظام اللبناني ليس رئاسياً ، بل هو حكم شورى » . فرد بشير قائلاً : « سأُطبق نصوص الدستور اللبناني . اني رئيس حريص على الديمقراطية والحريات . لي مبدآن اثنان في الحكم : النزاهة ، والكفاءة ، مهما تكن الطائفة أو يكن الانتماء السياسي . لقد برهن اللبناني على انه جدير بدولة أوفر تطوراً . يجب ان تكون الادارة العامة في خدمة المواطن ، والمواطن في خدمة الوطن . لهذا السبب ، لا بد من اعادة النظر دائماً في هيكلية الدولة وتجديدها ، بادخال الاساليب العلمية المتقدمة » .

عرض صائب سلام نفسه للقيام بوساطة بين الرئيس المنتخب ووليد جنبلاط بغية « احتواء هذا الأخير » . فأجاب بشير : « سادعم الارسلانيين ، ولن اتعامل مع وليد جنبلاط بوصفه رئيس الحركة الوطنية . ولن اتعاون مع هذا النوع من الاحزاب . فليترأس وليد المعارضة . أما انا فسأحكم بواسطة الاكثرية البرلمانية ، وساحترم كل معارضة في اطار القانون اللبناني » .

وفي ما يختص برفض المسلمين عقد معاهدة صلح مع اسرائيل ، كان بشير واضحاً وقاطعاً ، عندما قال : « انا اتعهد بانسحاب السوريين والفلسطينيين . وسأطلب الى رئيس الحكومة ان يتعهد بسحب الاسرائيليين . بيغن وشارون يطالبان ، في الوقت الحاضر ، بمعاهدة صلح ليسحبا قواتهما من لبنان . وعلى اللبنانيين ، وخصوصاً على السنّيين ، ان يقرروا الثمن الواجب دفعه لتحقيق هذا الانسحاب . لست رجل اسرائيل ، ولا رجل أية دولة أخرى . لست سوى رجل لبنان . اني اريده حراً ، سيداً ، ومستقلاً ، في حدود ١٠٤٥٢ كيلومتراً مربعاً » .

ومن البديهي ان تستحوذ السياسة الخارجية على حيّز واسع من البحث . وقد روى لنا بشير انه ابرز لسلام الخطوط الكبيرة لسياسته الخارجية ، فقال : « لا يجوز ان تكون علاقاتنا مع العالم العربي على حساب السيادة اللبنانية . ستتعاون ، بلا عقد وبلا حقد ، مع كل دولة عربية تحترم كرامتنا الوطنية ، واستقلالنا السياسي . اني ساباشر وبالافضلية اجراء المفاوضات مع سوريا ولكن على أسس جديدة . وربما يجب ان نعيد النظر في جوهر سياستنا الخارجية بمجملها . لم يعد من الجائز ان نتكل على الآخرين ليقرروا عوضاً عنا . علينا ان نحدد نحن اهدافنا ، وان نحمل الدول النافذة على تبنّي وجهة نظرنا . ولا يجوز انِ نبقى ، باسم الحياد ، بلا حلفاء . قد نحتاج الى حليف ، وبالضبط ، حليف قوي . وهذا الحليف في الوقت الحاضر هو الولايات المتحدة الأميركية . ساطلب الى الولايات المتحدة ان تقدم لنا الضمانات نفسها التي تقدمها لاسرائيل . ومتى اتفقنا مع الاميركيين نستطيع مواجهة أية أزمة ، في وجه أيٍ كان بما فيه اسرائيل بالذات . وعلينا ، من ناحية اخرى ، ان نتطور ونتقدم في مختلف الحقول ، لنتقرب من الغرب اكثر فلا نبقى من العالم الثالث » .

وختم بشير الجميّل عرضه حول هذا اللقاء قائلاً : « تطرقنا أيضاً الى مواضيع عديدة . وقد أوجزت لكم الاساس . أهمية هذا اللقاء هي في انه حدث . انها بداية حسنة . لن يقاطع صائب سلام جلسة تأدية القسم الدستوري » .

وانتقل بشير الى موضوع تأليف الحكومة الأولى في ولايته ، وقال : « أَود اطلاعكم على شيء يعرفه زاهي وحده . اضطررت الى وعد سليمان العلي بتعيينه رئيساً لأول حكومة اؤلفها في عهدي . هذا هو الوعد الوحيد الذي قطعته في اثناء حملتي الرئاسية . اعذروني على قيامي بهذا العمل بدون التشاور معكم . وعدت اذن سأفي بوعدي . اني الآن في الرابعة والثلاثين من العمر ، وأمامي مسيرة سياسية طويلة . لن أرضى بان يستطيع احد الادعاء باني لم أفِ بما وعدت ، ولو مرةً واحدة . الوعد دين . لذا سيكون سليمان العلي الرئيس المقبل للحكومة يبقى ان نبحث بالوزراء ... » .

ولكن بشير لم يتوقف طويلاً عند تأليف الحكومة ، فاكتفى باستعراض بعض الاسماء دون اتخاذ أي قرار نهائي ، وطلب من زاهي البستاني ان يجهز له مشروع حكومة مع عدة بدائل . ثم انتقل للبحث في فريق عمله ، فقال في هذا الصدد : « زاهي البستاني يبقى الى جانبي ، سيكون المدير العام لرئاسة الجمهورية ومنسّق مختلف النشاطات . جوني عبده سيكون المدير العام للأمن العام مع صلاحيات واسعة ، بصفة مستشاري في شؤون الامن القومي . « هورس » (فادي افرام) يُشغل وظيفة مستشار للشؤون العسكرية . « توتو » (انطوان بريدي) محافظ بيروت أو جبل لبنان . « نازو » (نازار نجاريان) المسؤول عن خدمة العلم العسكرية » .

وقادنا البحث بصورة طبيعية الى موضوع الادارة العامة والموظفين والمؤسسات والحكم . وطال النقاش وتشعب . فما كان من بشير الا ان ختم الحديث مشدداً على كل كلمة وكأنه يوحي لنا بانها هذه ارادته الأخيرة ، فقال : « الثورة الحقيقية تقوم على ايجاد البديل السياسي . فلا يمكن الحكم ، بعد اليوم ، برجالات ما قبل ١٩٧٥ وبصيغة ١٩٤٣ . لا ريب ان القوات اللبنانية تشكل نواة دينامية لهذا البديل . ولكنها لا تكفي وحدها . يجب نشر روح التجديد في كل طبقات المجتمع وفي كل الطوائف . اريد ان أَقلب كل المعطيات ، ولكن بصمت ، وبمرونة ، وبدون مشاهد استعراضية ومجانية . يجب ان يكون الجيش مثالاً يحتذى بالنسبة للمؤسسات الأخرى . يجب ان تكون كادرات الادارة شابة ومؤمنة وكفوءَة لكي نبني دولة قوية ، غير الدولة الحالية . لا أريد هذه الدولة التي لا تحمي احداً ، ولا يعترف بها احد ، ولا يحترمها أحد . وفي اعتقادي ان الدولة القوية هي الدولة القادرة على الدفاع عن هوية لبنان المسيحية وعلى ضمان المساواة بين جميع اللبنانيين . انا رئيس الدولة وقائد الامة . هذه هي الثورة الحقيقية . وبدون هذه الثورة لا تكون حرب لبنان نفعت بشيء » .

بلغت الساعة التاسعة والنصف مساءً ، والاجتماع مستمر منذ أربع ساعات ، قطعه بشير ليقول لنا : « سأذهب لاتناول العشاء مع رفقائي القدامى في الجامعة . علينا ان ننهي خطاب القسم ليوم ٢٣ أيلول . موعدنا المقبل سيكون يوم الثلثاء ... » وافقنا . ولكن في ذلك الثلثاء ١٤ ايلول كان موعد بشير مع الموت .



رجُل وحيـد

مساء عيد الميلاد ، عام ١٩٧٦ ، تذكر الرئيس الياس سركيس ، بفخر وتأثر ، مراحل حياته الصعبة ، فقال لي : « بدأت أشتغل في سن مبكرة في أدارة السكة الحديدية . كنت أعمل نهاراً وأدرس ليلا . ولم أكن أتمكن دائما من كسب ما أحتاج اليه . كنت أعود أحيانا متأخراً الى منزلي فلا أجد فيه ما آكله ، فأنام وبطني فارغ . أنطلقت من أسفل السلم الأجتماعي وبلغت منه القمة . قصتي جديرة بأن تعرف » . آمل أن يكتب الياس سركيس يوما سيرة حياته . أما انا فلا أعرف منها غير ما رواه لي عنها . أنها حكاية رجل وحيد .

أنه رئيس عصر مضى وجمهورية لم تعد موجودة . فشل في الوصول الى السلطة قبل الأوان في المرة الأولى ، ووصل اليها متأخراً في المرة الثانية . عندما قدم ترشيحه عام ١٩٧٠ أعتبر حديث السن في نظر « شيوخ » الطبقة السياسية آنذاك . وعام ١٩٧٦ ، أمسى « هرما » بدوره في نظر « فتيان » الحرب . أنطلق وحيداً في هذا الوجود ، وعانى في الحكم من العزلة ، ووحيداً عاد الى منزله ، وحيداً مع أفكاره وخياراته ، بلا محازبين ولا أتباع : وهكذا يعيش اليوم عيشة زاهد .

متحفظ الى درجة الحياء ، لا يقبل على الناس بسهولة ، ولا يتكلم الا قليلا ويبدو كأنه جاف أو في حالة جفاف . يكره الـ « أنا » ويمقت الغرور فلا ينخدع بنفسه ولا يخدعه الآخرون . يعرف ان يقدر الحوافز والروادع حق قدرها . حي الضمير ، كفوء ، يمج السطحية والتصنع ، الحماقة والمزاجية . توازنه الداخلي يسمح له بأن ينجح بدون ان يضيّع صوابه ، وان يخفق من غير ان يفقد اعصابه . يريد نفسه مكملا لمسيرة فؤاد شهاب . والشهابية ، في اعتباره ، ليست عقيدة ، بل هي خط سياسي يقوم على البرغماتية والمثابرة البعيدتين عن الآراء المسبقة والنظريات الجامدة . يحذر الوقوع في المواقف المتحجرة ويتحاشى الغرق في التنظير المائع . يقبل التساهل أحيانا في الشكليات ولكنه لا يساوم مطلقاً على الجوهر .

فيه مَيْل الى الأتزان إنْ في الأقوال أو في الأعمال ، وله شعور مرهف بنسبية كل شيء . مظهره الخارجي يوحي بالفتور والأهمال لكنه يخفي فكرا متنبها ودائم اليقظة . يراقب . يستمع . يسجل .

يسأل ، ويتكلم قليلاً . انه دائما حذر . يخشى ان يرتكب خطأ أو تسجل عليه هفوة . يعكس حديثه ما يواجه من ورطات خارجية وأحراجات وجدانية . ويحرص على أجتناب الأحكام القاطعة والصارمة التي لا رجوع عنها . لا ينجرف وراء المظاهر والهوس والأدعاء . فلا يغدق الوعود ، ولا يتفاخر بالعظمة ، ولا يحاول ان يدهش أو يبهر . لا يحب في السياسة التمثيل والممثلين والتمثيليات . أسر الي يوما بقوله : « ينتابني الأرتباك أمام التلفزيون والمذياع . وأراني أوفر قدرة على الأقناع في اللقاءات الخاصة أكثر من الاجتماعات العامة . أفضل العمل بلا ضجيج والشغل الكتوم » .

أنه نقيض الشخصية الشعبية ، والقائد الساحر ، والخطيب المفوه ، والممثل البارع . انه البساطة بالذات والأخلاص الكلي والتواضع العميق . انه رجل بلا قناع في حياة بلا ظلال . لم يعتبر ان تحقيق إطموحاته الذاتية يعفيه من أنجاز مهماته الوطنية . فلم يكتفِ من السلطة بالوصول والنفوذ ، بل كرس لها كل وقته وجهده وذاته . يداوم في الشغل ويدقق في كل الأعمال بعناية . يضحي بكل شيء في سبيل الامانة التي يحملها ، مهملاً صحته وعافيته الى حد التعرض للمرض بسبب القلق والأرهاق ، فأصبح جسده غريباً عنه ، وحتى عدوا له . حريص على ان يحكم بلا أحتيال ولا مخادعة . فتناسى حسنات الحسم ، وفوائد أخفاء النيات ، كما تناسى أهمية أقتحام القدر . آه كم هو مترفع ، لم تدوخه نشوة الحكم . ليس في داخله شيطان يحثه على السلطنة والتسلط ، فاذا به حمل وديع بين قطيع من الذئاب الكاسرة . وكم تذكر قول أحدهم انه « لا يمكن الحكم ببراءة » ، وكم كرر مؤكداً : « انا اريد ان أحكم ببراءة » .

هذا الأحتشام الطبيعي لا ينفي عزة النفس والأنفة . لقد واجه الأهواء والأحقاد والمهانة والتشنيع ، بسلاح اللامبالاة ، فترك انطباعاً بأن لا شيء يطاله . واجتهد في اخفاء حقيقة مشاعره مع انه مرهف الأحساس ، شديد الكبرياء . لقد عرف كيف يقبل التواري والانكفاء ، فيغيب عن الواجهة ، ويتحمل مظهراً لا يستحقه . وفي مثل هذه الحال كان يدخل الى أعماق نفسه ، ينطوي على ذاته ، يرفض الأمر الواقع ، يمارس الدفاع السلبي ، يعض على جرحه فلا يصرخ ولا ينصاع وهذا فعل النفوس الأبية والكبيرة . يؤلمه نكران الجميل في المقربين اليه ، ويزعجه سوء فهم الاصدقاء ، فيؤثر الصمت ، لا يعاتب ولا يفسر الى حد يبدو فيه متردداً وحائراً .

* * *

خيبات الياس سركيس معروفة . وهي ، نوعا ما ، ناتئة . ولكن نجاحاته خفية ، مع انها حقيقة راهنة . بطبعه ، وبحكم الضرورة ، فضل التوصل الى النتائج بدون دعاية على الدعاية بدون نتائج . وفي غمرة تسارع الاوضاع وغياب الرغبة في التباهي ، طمست الاحداث ما حقق هذا الرجل

من نجاحات سياسية ، وما يتحلى به من كفاءات مرموقة . لقد ورث ، عام ١٩٧٦ ، رئاسة بلا جمهورية ، وجمهورية بلا دولة ، ودولة بلا جيش ، وجيشاً ممزقاً وعاجزاً . وفي المقابل ، كان عليه ان يواجه الضربات الأسرائيلية المزعزعة لأستقرار لبنان ، ويقاوم التوسع الفلسطيني في أحتلال الأرض ، ويصدّ الهيمنة السورية على الأرادات ، ويتحمل تردد الولايات المتحدة الأميركية وعدم الأكتراث العالمي .

بكثير من الصبر والصمت أستطاع رد التحدي وراح يكدس بهدوء بعض المكاسب الهامشية التي أتاحتها بعض المناسبات المؤاتية ، ويغتنم بعض الأنفراجات النادرة ليحقق تقدما ولو قيد انملة. وفي ستة أعوام ولايته ، تمكن من رفع أرتهانات عديدة كانت تثقل كاهل لبنان . وهذه مكافأة له غير معروفة لصبره المقرون بالحكمة .

في المرتبة الأولى ، شهدت ولايته الغاء أتفاقية القاهرة : السبب الأول لحرب لبنان . وقد أصبحت هذه الأتفاقية باطلة في الجنوب ، بفضل القرارين ٤٢٥ و٤٢٦ اللذين أصدرهما مجلس الأمن الدولي عام ١٩٧٨ ، ثم ملغاة في كل لبنان ، على أثر قبول منظمة التحرير الفلسطينية بخطة فيليب حبيب عام ١٩٨٢ . وللمرة الأولى ، منذ العام ١٩٦٩ ، لم تعد « دولة » منظمة التحرير موجودة شرعا في لبنان : فلا عمل عسكري ، ولا نشاط سياسي ، ولا تسليح المخيمات ، ولا مقاتلين فلسطينيين على الأرض اللبنانية . في أيام سركيس الأخيرة ، أستعاد لبنان حقه المطلق في بسط سيادته على كل أرضه ، وفي تطبيق القانون اللبناني على كل الفلسطينيين . ومن الناحية العملية ، أنسحب المسلحون الفلسطينيون والقوات السورية من العاصمة اللبنانية ، وهذا كسب كبير لم يكن في الحسبان . ثم ان الجيش اللبناني أصبح يشرف أشرافا تاما على بيروت كلها .

والنجاح الثاني هو ان الرئيس سركيس وضع حداً لأنتداب قوة الردع العربية بقرار لبناني موحد شارك فيه المسلمون والمسيحيون . وقد أرسل لبنان رسمياً الى جامعة الدول العربية ، في حزيران ١٩٨١ ، وثيقة تنص على وجوب أنتشار الجيش اللبناني تدريجياً ، وبالتالي انسحاب القوات السورية قبل أول آب ١٩٨٢ . وللمرة الأولى ، منذ العام ١٩٧٦ ، لم تجدد الحكومة اللبنانية لقوة الردع العربية ، وأكثر من ذلك وضعت برنامجاً زمنياً للأنسحاب السوري . وبالفعل ، غادر السوريون قسما من جبل لبنان ومن بيروت ، على أثر الغزو الأسرائيلي .

لم يرث الياس سركيس من سلفه شيئاً ، ألا انه أورث خلفه بعض الشيء . ما أنهارت الدولة في عهده ، وما أنقطع الحوار على الرغم من كل التقلبات السلبية . فمثابرته ورفضه الأذعان أدّيا الى خلق أرادة وطنية موحدة ، ومعارضة جماعية شاملة لكل وجود عسكري غير لبناني في لبنان ، ونواة

جيش ومؤسسات . وعلى الأخص ، رفع القضية اللبنانية الى واجهة المسرح العالمي . ولا ريب في ان وجود القوة المتعددة الجنسيات المؤلفة من الأميركيين ، والفرنسيين ، والايطاليين ، والبريطانيين يؤكد تأكيداً ساطعاً التزام الغرب بالوقوف الى جانب لبنان . لقد خرج هذا البلد من سراديب النسيان .

هذه النجاحات مهمة ولو بقيت مطمورة . انها ليست حصيلة الصدف ، بل نتيجة سياسة الصبر والرفض والقضم التي مارسها الياس سركيس من خلال نظرة إستراتيجية واسعة . وتدور هذه الأستراتيجية حول محاور ثلاثة : الاتفاق مع الولايات المتحدة الأميركية ، والتفاهم مع سوريا ، والتعايش بين المسلمين والمسيحيين .

لم ينقطع رئيس الدولة اللبنانية عن ترديد قوله بأن الولايات المتحدة الأميركية هي دولة قوية في الحرب ، وضعيفة في السلم ، غير أنها في مطلق الأحوال هي الضامن لاستقلال لبنان ، وسلامة أراضيه ، ومستقبل المسيحيين فيه . انها لا تريد قيام اسرائيل الكبرى ، ولا سوريا الكبرى . ووحدها واشنطن تستطيع اقناع هذه وردع تلك عن مشروعيهما . فلبنان حليف طبيعي للولايات المتحدة الاميركية مع التوكيد انه لا يجوز له في أي حال ان يصبح تابعاً لها يدور في فلكها الى حد يحمله على قطع علاقاته بالأتحاد السوفياتي . وعلى أساس هذا الأعتبار حرص الياس سركيس على ان تنمي حكومته علاقاتها بواشنطن ، وعلى ان تنوع هذه العلاقات ، خصوصاً على صعيد التسلح ، من غير ان تنحاز علنا ورسميا الى المخططات الأميركية : كأتفاق كمب ديفيد ، أو مشروع ريغن ، أو أية مبادرة مستقبلية . ويعتبر الرئيس ان الأزمة اللبنانية يمكن ان تحل جزئيا بمساعدة الولايات المتحدة الاميركية ، الا انه يعتقد أيضاً ان كل حل شامل ونهائي يحتم مشاركة الأتحاد السوفياتي بمسيرة السلام في الشرق الأوسط .

أما بشأن العلاقات مع سوريا ، فيرى الياس سركيس ان كل تجاهل لدور دمشق يعني السير ضد مجرى التاريخ والجغرافيا . فأستقرار لبنان مرتبط الى حد كبير بدمشق . فهو يدعو الى أقامة علاقات متميزة مع سوريا ، في أطار احترام السيادة اللبنانية وخصوصيات كل من النظامين . وعلى كل حال ، لا يجوز ، في نظره ، ان يؤدي هذا التقارب بين البلدين الى قطع لبنان علاقاته مع الدول العربية الأخرى ، ولا سيما المملكة العربية السعودية ، بأنتظار عودة مصر الى المجموعة العربية . ثم لا يجوز ان يتحول لبنان الى دولة مواجهة مع اسرائيل .

ويؤمن الرئيس اللبناني بأنتماء لبنان العربي . ولما راحت الأحداث تثبت له شيئاً فشيئاً تعذر الوصول الى حل على أيدي العرب ، انتقل الى الأعتقاد ان كل حل لأزمة لبنان لا يمكن ان يتحقق خارج الأطار العربي أو ضد الدول العربية المؤثرة . وقد أدرك أدراكا تاما موقع لبنان في محيطه ، والى

أي مدى يستطيع ان يذهب في الصراع الدامي الذي يعصف بالمنطقة . ولم تستهوه أبدا دعوات « السلام العبري » ولم تؤثر فيه ، فظل حيالها صامدا كالصخر . وكثيرا ما كان يردد بأنه لا يجوز لرئيس مسيحي ، أو أي رئيس عربي آخر ينتمي الى طائفة من الأقليات ، ان يوقع معاهدة منفردة مع أسرائيل . فالشرق لا يرحم من لا يعرف حده فيقف عنده .

يبقى التعايش الأسلامي — المسيحي ، وهو المحور الثالث لأستراتيجية سركيس . فهو لا يؤمن بالحلول المفروضة فرضاً في الداخل ، ولا بالحلول المستوردة اصطناعياً من الخارج . فحكم لبنان ، في أعتباره ، يقوم على تحقيق المصالحة بين المسيحيين والمسلمين في مناخ ديمقراطي بعيد عن كل هيمنة أو ديكتاتورية .

هنا بالذات تكمن مخاوفه الأساسية ، أي في أحتمال قيام نظام ديكتاتوري في لبنان . وقد تكون الديكتاتورية نتيجة أسلمة لبنان أو تقسيمه . فالأسلمة تؤدي الى قيام نظام استبدادي ، والتقسيم يقود الى قيام نظامين أستبداديين . والتنوع في نظره ، هو الحصانة الفضلى للديمقراطية . وهذا ما حمله على بذل الجهود لأحياء ميثاق ١٩٤٣ مع ما تقتضيه الحاجات ويستوجبه التقدم من تعديلات وأصلاحات أصبحت ملحة وماسة ، وفي طليعتها أقامة لا مركزية موسعة . وفي هذا المضمار يظهر وجه الياس سركيس الحقيقي : انه رجل أصيل التعلق بالحريات والديمقراطية .

من الصعب بمكان أصدار حكم على شخص قذفه القدر في أعصار يهدد بتدمير بلاده . لم يكن ثمة شيء سهل عليه : لا حياته الخاصة ، ولا خياراته السياسية ، ولا ولايته المطبوعة بطابع الصعوبات المستعصية . لقد صقل شخصية فذة حزينة لكنها جذابة . لم تدفعه العزلة الى اليأس ولا الى العنف . متشائم ، يتفحص خفايا المستقبل بقلق شديد . يخشى ان يكون اللبنانيون قد فقدوا روح التسامح ، ومزّية الأعتدال ، وأرادة التفاهم ، بعد سنوات الأقتتال الطويلة . يخاف ألا يعرف مواطنوه بعد اليوم ان يدافعوا عما يتميز به بلدهم من قيم أنسانية وحضارية ، وان تكون قلوبهم قد جفت وتيبست .

حنينه كبير الى الماضي الجميل ، وتعلقه أكبر بلبنان الذي عرفه وخدمه وأحبه ، لبنان الأنفتاح والسخاء . ينتابه شعور مظلم بأنه آخر رئيس جمهورية في بلد على طريق الزوال ، وبأنه يمثل وحده آخر رمز لسياسة مضى زمانها . أرهقه أفلات فرصة السلام من بين يديه ، فأذا بهذا الأرهاق جرح دام في جسده المريض . لقد أظهر قوة معنوية نادرة بمحافظته على الأمل بالمستقبل . رفض الأنانية السياسية ، وفضل عليها التضحية بنفسه حفاظاً على القيم الجوهرية والمصلحة الوطنية . وبنى سياسته على نحو جعل حتى فشلها يعود على لبنان ببعض المكاسب . قد يكون الوحيد الذي لن يتهيب حكم التاريخ في المستقبل .

الفهرس



ولد المؤلف في بيروت عام ١٩٤٤ ونال اجازة في الحقوق والعلوم السياسية من جامعة القديس يوسف واجازة في التاريخ من كلية الآداب العليا. عيّن عام ١٩٦٨ رئيسا لمصلحة الطلاب في حزب الكتائب اللبنانية وانتخب عام ١٩٧٠ عضواً في المكتب السياسي. مثّل حزبه في المفاوضات التي بدأت عام ١٩٧٣ مع سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية. عمل كأحد مستشاري الرئيس الياس سركيس منذ عام ١٩٧٦. وأصبح أحد أبرز معاوني بشير الجميل في عام ١٩٨٠.